

محمد بن ناصر العبّودي

داخل أسوار الصين

رحلة وحديث في شؤون المسلمين

الجزء الأول

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

الأعمال الجرافيكية
مطابع الغرزدق التجارية - الرياض

تلفون: ٤٨٢٤٨٦٥ - ٤٨٢٤٩٨٣

الإخراج الفني

علاء درديري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

والصلاة والسلام على سيدنا وحبينا محمد رسول الله الذي طبقت دعوته الخافقين حتى اهتدى بها قوم لم يعرفوا من قومه العرب أحداً، ولم يروا من بلاد العرب بلداً، فصاروا الأذنين قلوباً. وإن كانوا الأبعدين دياراً ودروياً - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله أهل الهدى، وأصحابه مصابيح الدجى الذين بلغوا رسالته، ونشروا دعوته باللسان والسنان، فعلا على الأديان في أكثر بلاد الحضارة التي عرفها الإنسان، في تلك الأزمان.

حتى وصلت دعوتهم ودعوة من اتبعهم بإحسان إلى بلاد الصين، بل ما وراء بلاد الصين من بلاد المغول ومن حاذاهم أو بعد عنهم من أهل سيبيريا، ومن كان غرباً عنهم من أهل بشكيريا، الذين تقرب بلادهم من بلاد القطب الشمالي بلاد الظلمات في الشتاء الشات.

أما بعد:

فإنني كنت سمعت والدي أكثر من مرة يقول لي وأنا طفل: يا ابني بلاد الله واسعة، الناس يقولون إن الصين ربع الدنيا، وسمعنا المثل يقول: (اللي ماشاف فاس ومكناس، ماشاف ناس). ثم يعلق على ذلك قائلاً: - هذا قولهم ونحن لم نر أحداً ذهب للصين، ولا رأينا ناساً راحوا لفاس ومكناس.

وكنت أستمع إلى هذا الحديث منه الذي يعلق فيه على هذين القولين الذين كانا من أغرب الغرائب بل من أعجب العجائب في ذلك الزمان الذي كان يتردد على أذهان العامة وأهل بلادنا فيه المثل العامي، (أبعد من مصر)، فمصر عندهم كان يضرب بها المثل في البعد.

ناهيك بما هو أبعد منها مما لا يعرفونه إلا بالسماع وقد ينكره بعضهم كما سمعت بأذني بعض الطاعنين في السن وهو يقول عند نشوب الحرب العالمية الثانية: الناس كثروا علينا يقولون: لندن وباريس وبرلين إنها ديار كبيرة وأنا ما أقدر أقول إن هذا الكلام صحيح لأننا ما رأينا أحداً جاء منها ولا شفنا أحداً شاف الذين جاؤا منها.

ولذلك كان لكلام والدي -رحمه الله- وقع عظيم في نفسي في ذلك الوقت، وبخاصة أن الصين ربع الدنيا يعني أنها تعادل من حيث السكان أو المساحة ربع الأرض.

ومع أن موضوع السكان صحيح وأن موضوع معادلتها لربع المساحة الأرضية غير صحيح فإن العامة في ذلك الوقت لم يكونوا يقيمون وزناً للأرض لأنهم لم يكونوا يحيطون بالأهمية العظيمة لها وإنما كانوا يعتبرون الإنسان هو المقياس في كل شيء.

ومضى بي الزمن فطلبت العلم وقرأت الكتب وكان فيها من تعظيم شأن الصين في سعة أرضها وحضارتها المتميزة ما حجب إلي زيارتها وحفزني إلى التطلع إلى رؤيتها.

و شاء الله سبحانه وهو اللطيف الخبير أن يكون عملي في مجال يطلب فيه مني أن أكون ملماً بأحوال المسلمين في أنحاء العالم كله إذ شغلت وظيفة

(الأمين العام للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة) وقد أنشئت لتعليم أبناء المسلمين من خارج المملكة العربية السعودية وذلك على هيئة تقديم منح دراسية للمسلمين في أنحاء العالم.

وكان لا بد لإدارة الجامعة أن تحصل على معلومات كافية عن أوضاع المسلمين الذين ستقدم إليهم المنح وكانت وظيفتي هي الوظيفة الثانية في الجامعة عدة سنين.

لذلك سافرت في أولى الجولات الواسعة إلى عدد من الأقطار الإفريقية وكانت أولى السفرات في عام ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

وقد أصدرت كتابي الأول في الرحلات - في إفريقية الخضراء - وتوالت بعده كتبي في الرحلات ثم تتالت أسفاري في أنحاء العالم ومنها الصين الوطنية التي هي جزيرة تايوان. وكنت في سفري إليها مدفوعاً بالشوق للسفر إلى الصين ورؤية ماتتميز به عن غيرها.

إلا أن جزيرة (تايوان) أو (فرموزا) كما سماها البرتغاليون لا تمثل البر الصيني العظيم وإنما تمثل طائفة صغيرة من أبناء شعبه.

حتى بدأت الصين الشعبية سياسة انفتاح نسبي على العالم الخارجي بعد أن تخلصت من نفوذ عصابة الأربعة الذين سيأتي الكلام عليهم وهم الذين كانوا ينفذون سياسة ما سمي بالثورة الثقافية التي كان من أهدافها القضاء على كل شئ قائم في سبيل تعميق الشيوعية في البلاد.

وكان من ذلك الانفتاح النسبي السماح بدخول بعض الكتب الدينية وتخفيف القبضة الشيوعية على المسلمين بحيث أعيدت إليهم بعض مساجدهم التي كانت قد صودرت منهم، وسمح لطائفة منهم بالحج باسم الجمعية الإسلامية الصينية، وسمح لهم بإجراء الاتصال مع المؤسسات الإسلامية في الخارج.

وكان لابد من مقابلة هذا الانفتاح الجديد بالتجاوب معه والعمل على الاتصال بالإخوة المسلمين في الصين ومساعدتهم في شئون دينهم.

ومن ذلك أن رحبت رابطة العالم الإسلامي بالحجاج الصينيين واستضافتهم في مكة المكرمة أثناء موسم الحج، وتباحث معهم في التعاون على ما فيه المصلحة الإسلامية العامة.

فكان أن طلبت الجمعية الإسلامية الصينية أن ترسل الرابطة وفداً إسلامياً إلى الصين الشعبية.

واختارت الرابطة أن أكون رئيس الوفد الأول المؤلف من سبعة أشخاص وذلك قبل أن تستشيرني لأنني كنت مسافراً وقتها في مهمة طويلة خارج المملكة. ولكنني وافقت من حيث المبدأ بعد أن أبلغت بذلك.

وعقدنا اجتماعاً تمهيدياً في الرابطة مع أعضاء الوفد والمسئولين في الرابطة لتنظيم خطة السير والعمل في الصين، وأبلغت الرابطة الجمعية الصينية بأسماء رئيس الوفد وأعضائه.

وكنت عائداً لتوي من رحلة طويلة في أمريكا الجنوبية يحتاج العمل الذي أقوم به إلى وجودي في مكنتي لإنجاز بعض الأعمال التي تكون قد تأخرت وأخشى ألا أستطيع تركها والسفر إلى الصين في ذلك الموعد بالذات.

وكنت أعمل آنذاك في وظيفة (الأمين العام للدعوة الإسلامية) وأمين الهيئة العليا وهي هيئة مؤلفة من خمسة وزراء يرأسهم صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز آل سعود النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران.

فرأت الهيئة أن العمل يقتضي وجودي في مكنتي في هذه الفترة وكتبت لرابطة العالم الإسلامي بعدم سفري للصين.

إلا أن الرابطة قد أخبرت الجمعية الصينية باسمي وحتى برقم جواز سفري
فعاودت الاستئذان فلم يتيسر ذلك وكان أن عينت الرابطة أحد أعضاء الوفد
رئيساً بدلاً مني وهو صاحب المعالي الشيخ / أحمد صلاح جمجوم وزير التجارة
السابق.

وسافر الوفد بالفعل في شهر رجب من عام ١٤٠١هـ ولم تتحقق أمنية قديمة
لي في زيارة الصين والتجول في أنحائها رغم تعييني على رأس هذا الوفد من
قبل الرابطة ومضى ما يقرب من السنين الثلاث على زيارة الوفد الأول للصين
الشيوعية.

وتوليت أثناء ذلك العمل في رابطة العالم الإسلامي أميناً عاماً مساعداً
وأميناً عاماً بالنيابة بعد وفاة أمينها العام الشيخ / محمد الحركان - رحمه الله
- في رمضان من عام ١٤٠٣هـ.

وكان وفد الجمعية الإسلامية في الصين الشعبية للحج في تلك السنة أكبر
وقد قدم منها للحج من قبل إذ بلغ عدد أعضائه ثمانية وعشرين حاجاً
فاستضافناهم في الرابطة طيلة موسم الحج جرياً على عادة متبعة وعقدنا معهم
اجتماعات تباحثنا خلالها في الشؤون الإسلامية العامة وفي شؤون المسلمين في
الصين الشعبية بصفة خاصة.

وقدموا إليّ دعوة رسمية لزيارة الصين الشعبية والاطلاع على أحوال
المسلمين فيها وأن أكون ومن يرافقونني ضيوفاً على الجمعية الإسلامية الصينية
مدة بقائنا فيها.

وقد وعدناهم بالنظر في الاستجابة لتلك الدعوة.

الأمية تتحقق:

وصح العزم على زيارة الصين وتألف الوفد الثاني لرابطة العالم الإسلامي من ستة أشخاص وكنت رئيسه.

وتقرر أن تكون هذه الرحلة للصين الشعبية طويلة نسبياً إذ ستستغرق شهراً ولكن الرحلات الطويلة إلى بلاد بعيدة أصبحت عملاً مألوفاً لي وبخاصة الرحلات إلى الأماكن القصية. وذلك بعد أن زرت القارات الست كلها وتجولت في أنحاءها إلى جانب الجزر الأخرى التي لا تعتبر داخلية في أية قارة منها. مثل جزر المحيط الهادي، وجزر البحر الزنجي الذي أصبح يعرف الآن بالمحيط الهندي وجزر البحر الكاريبي بين الأمريكتين الشمالية، والجنوبية.

إلا أنني وأنا أتأهب للسفر خارجاً من بيتي في الرياض إلى مطار الملك خالد الدولي ومعني ابناي المهندس ناصر والاقتصادي خالد كنت أعود بذاكرتي إلى عهد الطفولة فأتمنى أمية الطفل الصغير الذي يتمنى ما يعرف أنه لن يتحقق وهي أن يكون والدي حياً في هذه الساعة ليرى ابني وهما يودعانني إلى الصين في هذا المطار الدولي الفاخر في الرياض الذي يماثل بل يفوق أفخر المطارات في العالم الغني المتمدين، بل المتقدم في المدنية والحضارة، ويرانني وأنا أسافر إلى الصين.

وكنت أعجب أيضاً من تيسر الرحلة إلى الصين على رأس وفد رسمي بدعوة من مؤسسة إسلامية رسمية في تلك البلاد. لغرض التجول فيها على ضيافة السلطات الرسمية الصينية.

فلم يكن الخيال الجامح يصل بي إلى حد التصور لهذا الأمر من قبل، وإن كان لا يزال يرن في ذاكرتي قول والدي الذي مضى على سماعي له لأول مرة أكثر من خمسين سنة:

« إن الصين - يا ولدي - ربع الدنيا ولكننا لم نر من زارها ولا من رأى من زارها، فملك الله واسع، وخلقه كثير، لا يحصيه إلا هو سبحانه وتعالى ».

هذا الكتاب:

في الصين فعلت ما كنت أفعله في أكثر رحلاتي وهو كتابة مذكرات يومية تتضمن المشاهدات والأحاديث التي سمعتها في الصين، وفي بعض الأحيان تتضمن التعليقات أيضاً.

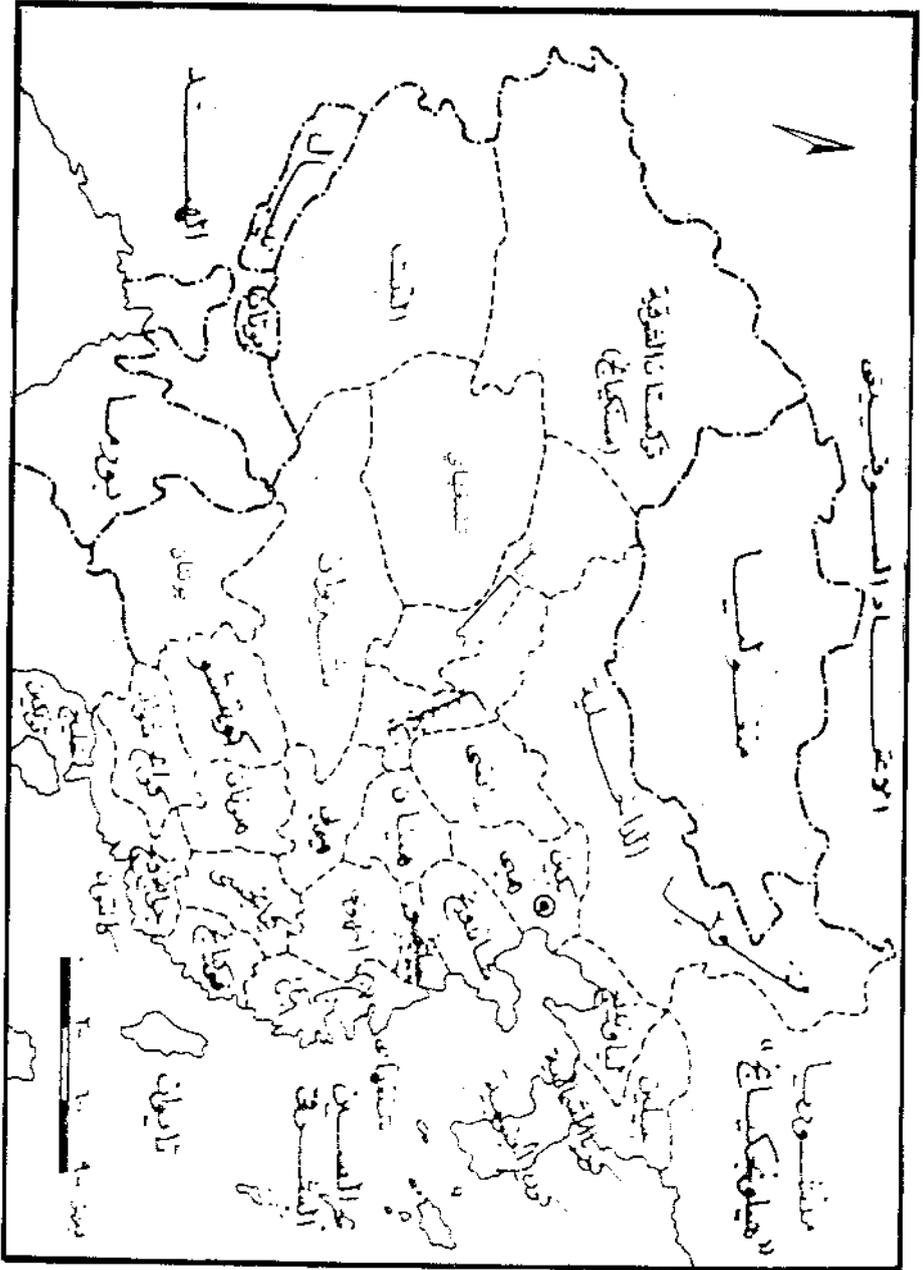
وقد اجتمعت هذه المذكرات حتى ألفت هذا الكتاب، الذي هو في الواقع قليل من كثير ينبغي أن يكتب عن الصين، وإنما هو على قدر ما سمح به الوقت والحال بالنسبة إلى رئيس وفد رسمي إلى دولة شيوعية تحيط ضيوفها في العادة بمراسيم ظاهرها التكريم والتنظيم وباطنها إرادة التسليم بأنه ليس من الضروري للضيف أن يكون عليمًا بكل ما يريد أن يكون عليمًا به من أحوال مضيفه.

ومع ذلك فإننا تلقينا من حسن الاستقبال وكرم الضيافة في الصين ما أوجب أن نكون له من الشاكرين الذاكرين وإذا كان فيه شيء من الإنتقاد لبعض مارأيناه في تلك البلاد، فإنه ليس إنتقاداً للشعب الصيني العريق، وإنما هو انتقاداً للإدارة المحلية الشيوعية مما هو مدون في هذا الكتاب. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي

أحوال الصين



خريطة الصين

اعتدت أن أكتب في مقدمة مؤلفاتي في الرحلات معلومات مختصرة عن أحوال البلاد التي أكتب عنها تتضمن معلومات عامة مما يهم القارئ معرفته كما تتضمن معلومات أكثر تفصيلاً عن أحوال المسلمين فيها، إضافة إلى ما أكتبه من مشاهدات وما أسجله من أحاديث عن أحوال المسلمين خلال الكلام في يوميات الرحلة.

ولذلك رأيت تقديم بعض المعلومات عن بلاد الصين العظيمة بهذه الأوراق التي لا تفي بعشر معشار ما ينبغي أن يكتب عنها مما يلزم أن يعرفه القارئ المستوعب لما تحسن معرفته عن بلاد الصين كلها.

ذلك بأنها بلاد متسعة النواحي، مترامية الأطراف لا يمكن لمثلي أن يراها كلها أو يلم بجميع أحوالها خلال سفرة واحدة.

على أنني أشعر بأن ما كتبتة - على قصره النسبي - هو أطول مما يريد القارئ غير الدارس أن يجده في كتاب رحلة يتوقع أن يجد فيه الكلام عن المشاهدات والاستنتاجات المتعلقة بتلك المشاهدات.

نظرة خاطفة إلى الأوضاع العامة عند زيارة وفد الرابطة.

إن جمهورية الصين الشعبية التي تعد أكبر دولة بشرية في العالم بعدد سكانها البالغ ألف مليون و٣٧ مليون نسمة وهي ثالث دولة في العالم من حيث المساحة إذ تبلغ مساحتها ٩,٦ مليون كيلو متر مربع، وليس أكبر منها في المساحة إلا الاتحاد السوفييتي وكندا تعيش فترة الانفتاح النسبي في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية منذ اجتماع الجمعية العامة الثالثة لمؤتمر الحزب الشيوعي الحادي عشر الذي عقد في ديسمبر عام ١٩٧٨م تحت قيادة دونغ شاوينغ الرجل الأول في القيادة الصينية الحالية وذلك لإزالة آثار المنهج السياسي المتطرف الذي اتبعه ماوتسي تونغ وعصابته الأربعة خلال ما سمي بالثورة الثقافية في الصين، وأدى إلى التخلف الحضاري والتدهور الاقتصادي اللذين يعيشهما الشعب الصيني، بالمقارنة إلى الشعوب المجاورة.

ورأت الحكومة الحالية معالجتها بتخفيف الضغط الاستبدادي وإجراء بعض التعديلات في السياسة العامة لإنقاذ الشعب من الانحطاط الاقتصادي والحضاري اللذين عاناها وذلك عن طريق نقل التكنولوجيا المتطورة عن الدول الغربية وجذب الاستثمار الأجنبي وتنشيط التجارة الخارجية وإحياء ثقة الشعب بالسلطة الحاكمة التي قاسى منها أنواعا شتى من العنف السياسي والتقشف المادي.

وقد قالوا في سياسة الانفتاح هذه بأنها ازدهار اقتصادي في الداخل وسياسة مفتوحة في الخارج ولم تكن بالطبع هذه التغييرات والانفراج السياسي يؤديان إلى إبعاد الحكم عن المنهج الشيوعي، بل هي وسيلة لمعالجة الأخطاء والانتكاسات الناجمة عن فشل النظام الشيوعي الماركسي المتزمت في تحقيق التقدم الحضاري والرفاهية للمجتمع الصيني.

وانطلاقاً من هذه السياسة الجديدة تحاول الحكومة الصينية ترك الاعتماد على أسلوب الانتاج الجماعي وتشجيع الانتاج الفردي بأسلوب صحيح إذ كلفت الجماعة أو الفرد أن يقدم كمية محدودة من الانتاج إلى الجهة الحكومية المختصة، أما بقية الإنتاج فيعود العائد منه مباشرة إلى المنتج.

فمثلاً منحت الحكومة لبعض الأفراد قطعاً من الأراضي الزراعية لا تزيد على فدان واحد وفرضت على المزارع تقديم ٣٠٪ من إنتاج الأرض إلى الحكومة وأجازت له أن يتصرف ببقية الإنتاج بالبيع إلى الحكومة أو للأفراد الآخرين.

كما سمحت لأصحاب بعض المهن والحرف اليدوية بمزاولة أعمالهم بشرط تقديم ٢٥٪ من الدخل ضريبة إلى الحكومة وكذلك البيع والشراء في السلع الاستهلاكية يوجد بنفس الطريقة على نطاق محدود.

أما الملكيات فلا تزال محدودة فالأراضي هي ملك الدولة تسحبها ممن لا يحسن استغلالها، وتمنحها إلى من يقوم بذلك. ولا يمكن للفرد أن يتصرف بها بالبيع أو الشراء أو التنازل عنها لأحد سواها.

والمساكن الشعبية المحدودة هي ملك للأفراد المقيمين فيها ولكن العمارات ذات الأدوار المتعددة تتبع الدولة التي تؤجرها للأفراد بحساب الغرفة للأسرة الواحدة بأجور زهيدة.

كما أن السيارات والشاحنات وغير ذلك من الآلات الميكانيكية هي ملك الدولة يستأجرها الفرد من الدولة لقضاء حاجته، أما المصانع بجميع أحجامها وأنواعها فهي ملك الدولة ويديرها الموظفون والعمال بالأجر الشهري، ولا يزيد راتب العامل العادي على خمسين يواناً في الشهر وراتب الموظف المتوسط هو مائة يوان وسلم الرواتب يبدأ من خمسين يواناً إلى ثلاثمائة يوان في الشهر واليوان يساوي ريالاً سعودياً.

والمعيشة اليومية بالنسبة إلى الراتب الشهري عالية جداً إذ أن قيمة (٥٠٠ غرام) من اللحم هو يوانان ولكن الحكومة تقدم لموظفيها سلعاً رخيصة محدودة بموجب بطاقات خاصة، كما أن أغلبية الموظفين يتناولون طعامهم في المطاعم الحكومية بموجب البطاقة والاشتراك الشهري المخفض والسلع الاستهلاكية المخفضة من متاجر الدولة بنفس البطاقة، ويستعمل عامة الصينيين الأوتوبيسات في تنقلاتهم، كما ينتقل ذوو الدخول المتوسطة على الدرجات الهوائية المعتادة ولا يزال الإنسان يجر بعض عربات النقل بنفسه بدلاً من الدواب في الأرياف أو الأحياء الشعبية حتى الآن.

وحيثما شاهدنا آثار السياسة الشيوعية الصينية قلنا فيما بيننا إننا نتمنى أن كل من كان يغتر بالشيوعية تتاح له فرصة زيارة الصين الشعبية ليرى ما صنعتها الشيوعية بهذه البلاد العريقة من افتقار وإذلال وإهدار للقدرات وتعطيل للمهارات ولم تحقق الشيوعية إلا ما جاء في المثل العربي القديم (منع الجميع، أرضى للجميع).

وتطبق الحكومة الشيوعية قانون الطفل الواحد لكل أسرة بصفة صارمة على الصينيين بكافة وسائل الضغوط الاقتصادية والمعنوية، ومكافأة الأسرة التي تلتزم بعدم الإنجاب ثانية بمنحها العلاوات والأجازات من يومين إلى ١٥ يوماً وتأمين الدراسة للطفل الوحيد وإعطائه الأولوية لدخول الجامعة أو المصنع مستقبلاً، علاوة على منحة يحصل عليها أبواه إلى أن يبلغ الرابعة عشرة من العمر ومقدارها خمسة يوان في الشهر أي ما يعادل أجره يومي عمل، لكن المصيبة الكبرى تحل بالأسرة الملتزمة بعدم الإنجاب إذا حملت الأم ورفضت الإجهاض فعليها أن تسدد مبلغ (منحة الطفل الوحيد) التي حصلت عليها طيلة السنوات السابقة للحمل الثاني الأمر الذي يتعذر على العمال والفلاحين الفقراء الذين لا يبقى لهم خيار آخر.

كما يحرم الطفل الثاني من جميع حقوق المواطنة في التعليم والعمل وغيرهما.

وهذه المأساة تتجلى في الريف خاصة، فالفلاح الذي يصر على الرغبة في إنجاب ابن قد يعمد إلى قتل مواليده من البنات إلى أن يولد له ابن ذكر وعملية الوأد تتم بالخنق عقب الولادة أو الإغراق في الأنهار، وهذا أمر سمعنا به وإن لم نره ولم نتحقق منه بأنفسنا.

ولم تطبق الحكومة الصينية قانون الطفل الواحد لكل أسرة على أفراد الأقليات القومية ومنهم المسلمون تطبيقاً عملياً إلا أنها تستخدم ضغوطاً معنوية ومادية عليهم في سبيل تحديد النسل وذلك بتحقيق الأسرة التي تنجب أطفالاً كثيرين علناً وتضيق فرص التعليم والعمل لأولادهم، وهذا من أسباب البطالة والجهل بين المسلمين لأنها عقوبة لهم لارتفاع نسبة الإنجاب بينهم.

والواقع أن فرص التعليم الجامعي والعمل الحكومي في المجتمع الصيني الحالي لأبناء الطبقة الحاكمة وزعماء الحزب الشيوعي والمقرين لهم بالدرجة الأولى.

الحرية الدينية والمسلمون:

الحرية الدينية أو بالأصح سياسة التسامح الديني التي تعتبر أحد أوجه سياسة الانفتاح الصيني الحديث، هي حرية نسبية مثل الحريات الفردية الأخرى فالفرد حر في أن يمارس شعائر دينه التي تقتصر على الناحية الفردية المعتادة مادامت هذه الممارسة لا تتعارض مع سياسة الدولة، مثل الصلاة في المساجد والجوامع التي أعيد افتتاحها للمسلمين منذ بضعة أعوام بعد سنوات طويلة من الإغلاق والتهجير، وتمكن المسلمون من ترميم وإصلاح بعض المساجد التي عبثت بها أيادي التخريب والتدمير خلال الثورة الثقافية.

كما أعادت بعثات الحج سيرتها الأولى منذ عام ١٩٧٩م، وعادت العلاقات والزيارات الإسلامية بين مسلمي الصين ممثلة في الجمعية الإسلامية الصينية ومختلف الهيئات الإسلامية على النطاق الرسمي، وظهرت المصاحف والكتب الإسلامية إلى التداول بعد أن كانت معدومة نتيجة مصادرتها من أيادي المسلمين وإتلافها بالحرق أثناء الثورة الثقافية.

وهذا التسامح الديني الحديث الذي تنتهجه الحكومة يستهدف غايات عدة منها:

١- الحرية الدينية تساعد على تجميع القوى الوطنية حول برنامج تطوير البلاد وتحقيق سياسة التحديث الأربعة وهي تحديث الصناعة وتحديث الزراعة وتحديث الجيش واستعمال التكنولوجيا الحديثة في سبيل الوصول بالصين إلى دولة حديثة قوية مع نهاية القرن العشرين كما يقولون.

٢- أن المد الإسلامي المتعاظم الآن في أنحاء كثيرة من العالم كان لابد أن يقابل من جانب أي دولة لها مصالح مع المسلمين بقدر متكافئ من الاهتمام وخاصة عندما يكون مسرح هذا المد الإسلامي هو مناطق البترول والطاقة، بالإضافة إلى أنها أسواق هامة للمنتجات الصينية، علاوة على أسواق العالم الإسلامي الذي يتزايد احتياجه إلى المنتجات لضالة التصنيع فيه.

٣- مقاومة المد السوفييتي الذي لا يزال يسلك مسلكاً عدائياً نحو الدين، فقد كان الغزو السوفييتي لأفغانستان في ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩م بمثابة نقطة تحول في السياسة الصينية عن سياسة الاتحاد السوفييتي في اتجاه مجاملة المسلمين لأجل أن تظهر أمام الجميع بأن السوفييت هم المعتدون على الإسلام والمسلمين، بينما يقف الصينيون في المربع المعاون والداعم للإسلام

والمسلمين وهذا يفسر دعوة الجمعية الإسلامية الصينية في مؤتمرها الرابع عام ١٩٨٠م، المسلمين إلى الجهاد ضد الغزو السوفييتي وتأييد نضال المجاهدين.

٤- حماية الأقليات الإسلامية في الصين الشعبية التي طالما هددت الحكم الشيوعي بالثورات وبخاصة مسلمي سينكيانغ (تركستان الشرقية) التي تمتد على الحدود المتاخمة مع الاتحاد السوفييتي من الدعاية الأجنبية، والتسلل الروسي إليها بمنحهم مزيداً من الحرية الدينية التي لا تتوفر لإخوانهم المجاورين في تركستان الغربية التي يحتلها الاتحاد السوفييتي وتكوين جبهة محلية ضد الاستفزازات الروسية وخاصة أن هذه المنطقة كانت ولا تزال محل نزاع بين الدولتين الكبيرتين.

٥- بالإضافة إلى عوامل المصلحة ومهاجمة السوفييت فإن هناك مناخاً يسوده الانفراج النسبي منذ عام ١٩٧٨م، أي منذ سحق عصاة الأربعة وتولي القيادة الجديدة زمام السلطة وهذا المناخ استفادت منه أطراف كثيرة، ومنها أصحاب الأديان بوجه عام، وهم الذين أصابهم الكثير من العنت والاضطهاد طوال سنوات الثورة الثقافية التي دامت أكثر من عشرة أعوام.

ويقول بعض المتفائلين بأن المجتمع الصيني الذي عانى من التعذيب والإرهاب على يدي غلاة المبادئ الشيوعية التي جلبت كثيراً من الدمار والحراب بدأ الآن يتطلع إلى الإيمان والدين بحثاً عن الغذاء الروحي الذي يبعث فيه الاطمئنان والراحة النفسية.

ومع أن دستور جمهورية الصين الشعبية في جميع مراحل تعديله وتنقيحه وحتى في عهد جنون الثورة الثقافية كان يؤكد على الحرية الدينية تماماً مثل دساتير بقية الدول الشيوعية الأخرى التي تسود صفحات دستورها بذلك إلا أن

الدستور الجديد الذي أقره مجلس الشعب الصيني في دورته الخامسة المنعقدة في الرابع من ديسمبر ١٩٨٢م، يحتوي على المواد الواضحة التالية:

المادة ٣٦:

مواطنو جمهورية الصين الشعبية يتمتعون بحرية الاعتقاد الديني ولا يحق لأية هيئة حكومية أو مؤسسة شعبية أو لأي فرد أن يضغط على المواطنين في سبيل الاعتقاد بدين أو الإنكار لأي دين. والحكومة تحمي النشاطات الدينية العادية، ولا يجوز لأي أحد أن يستخدم الدين في نشاطات تؤدي إلى إزعاج النظام العام أو الإضرار بصحة المواطنين أو التدخل في النشاط التعليمي الحكومي. والهيئات الدينية لا تخضع مطلقاً لاية سيطرة أو تدخل أجنبي.

المادة ٣٤:

تعمل الدولة على بناء الثقافة الروحية الاشتراكية من خلال نشر التعليم في المثاليات والاخلاق والتعليم العام والأدب والنظام، كما تعلم الحكومة الناس الوطنية والجماعية والعالمية والشيوعية والجدلية التاريخية والمادية، وتحارب الرأسمالية والإقطاعية وغيرها من الأفكار الضارة.

ومع أن هذه المادة الأخيرة تشير إلى إمكانية التعليم الديني بما تعكسه كلمة الروحية من معنى، وهي كلمة نادرة في المجتمع الماركسي، لكن هذه الإمكانية تتلشى مع الفقرة الموجودة في المادة (٣٦) التي تقول: «بعدم التدخل في النشاط التعليمي الحكومي» وهو تقييد لحرية المؤمنين في التبشير بدينهم أو الدعوة اليه على نطاق واسع، وسينظر إليها على أنها تحريض على أعمال التخريب ونشاط غير مشروع ضد الثورة تحت ستار الدين.

وفي الوقت الحاضر لا تميز السلطات الحكومية رسمياً تلقين الشباب القاصرين تعاليم الدين وتمنع في الأغلب ذهابهم إلى المساجد قبل سن ١٨ سنة

وما يتم رسمياً في معهد الدراسات الإسلامية في بكين أو إرسال لبعض الطلاب المسلمين إلى بعض الجامعات الإسلامية مثل الأزهر هو من أجل إعداد الكفايات البشرية اللازمة للأعمال الإدارية والدينية في المجتمعات الإسلامية مثل أئمة المساجد الذين يسمح بإقامة دورات تعليمية لهم، ولذا لا يزال التعليم الإسلامي وتحفيظ القرآن الكريم في تلك المجتمعات الإسلامية يتمان خفية وبعيداً عن أنظار السلطات الشيوعية ويحذر تام، كما أكدّه الحجاج القادمون من (سينكيانغ) التي كانت تسمى تركستان الشرقية في القديم، علاوة على أن تغاضي الحكومة عن بعض التصرفات الإسلامية الفردية لا يعنى شرعية التعليم الإسلامي وإجازته بل تحتفظ الدولة بحق المعاقبة نظاماً بدعوى إفساد عقول الشبيبة وتخريب التعليم الحكومي الشيوعي.

كما أن قانون الأحوال المدنية المعمول به في جميع أنحاء الصين لا يراعى في تطبيقه على المسلمين إطلاقاً الأحكام الإسلامية بل يمنع تدخل الدين في جميع العلاقات الاجتماعية والعائلية ومنها أحكام الإرث ومراسم الزواج التي تعطي الحق لأي فرد بالزواج من أي فتاة تعتنق أية ديانة بدون قيود.

ورغم سياسة الانفتاح وإشارة الدستور إلى الحرية الدينية لأفراد الشعب فإن الجهات التي تشرف على النشاط الديني لا تزال أجهزة حكومية، وهناك ثلاث إدارات رسمية تشرف على المسلمين ونشاطهم وتكيفهم حسب السياسة الحكومية للحزب الشيوعي الصيني:

أولاً: وزارة الأقليات القومية التي يرأسها السيد إبراهيم يانغ جي رين وهو من مسلمي قومية خوي من ولاية كانسو، وهو من أوائل المسلمين المنتمين إلى الحزب الشيوعي وقد تولى مناصب عسكرية وإدارية في ولايتي كانسو ونن تشا وفي ١١ سبتمبر ١٩٨٠م عين نائباً لرئيس الوزراء الصيني ورئيساً للجنة شؤون القوميات وفي التعديل الوزاري لعام

١٩٨٢م أصبح وزيراً لوزارة الأقليات القومية التي تشرف على جميع الأقليات العنصرية التي منها القوميات الإسلامية في الصين الشعبية من جميع النواحي.

ثانياً: مكتب الشؤون الدينية التابع لمجلس الوزراء يرأسه جن وي جي بدرجة وزير وهو ملحد كما يصرح بذلك، ويشرف هذا الجهاز على جميع النشاطات الدينية لكافة الأديان، ويعمل على فرض مرييات ومتطلبات الحزب الشيوعي على كافة الهيئات الدينية، ولا يتم تطبيق نشاط ديني بدون موافقة هذا المكتب الذي يعمل على توجيه الدين إلى ما لا يتنافى مع سياسة الحزب والحكومة.

ثالثاً: الجمعية الإسلامية الصينية التي تأسست عام ١٩٥٣م، وقد يوحي اسم الجمعية بأنها هيئة شعبية ولكنها في الواقع هيئة شبه حكومية تديرها شخصيات إسلامية من رجال الدولة المعتمدين، فمثلاً رئيسها الأعلى هو الشيخ برهان شهيدي نائب رئيس اللجنة الوطنية الخامسة للمؤتمر الصيني الشعبي السياسي الاستشاري الاستثماري التي يرأسها دينغ شاوينغ رجل الصين القوي منذ سبتمبر عام ١٩٧٨م، أما الرئيس المباشر فهو الشيخ محمد علي جانغ جي الذي يبلغ من العمر ٦٨ عاماً من مسلمي قومية خوي من ولاية خي به وعضو اللجنة الوطنية الخامسة للمؤتمر الصيني الشعبي السياسي.

وتعمل هذه الجمعية من خلال فروعها الموجودة في مناطق الأكثرية الإسلامية على برمجة النشاط الإسلامي وإعداد الكفايات الإسلامية المعتمدة لكافة الأعمال والوظائف الإسلامية وتنفيذ النشاطات الإسلامية من تنظيم بعثات الحج الرسمية والتعليمية وإرسال الوفود الرسمية، واستقبالها ونشر القرآن الكريم والكتب الإسلامية والحقيقة أن الجمعية الإسلامية الصينية هي الجهاز الوحيد الذي يحق له الإشراف على جميع الشؤون الإسلامية.

وقد طبعت الجمعية في السنوات الأخيرة:

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- ترجمة معاني القرآن الكريم لفضيلة الشيخ محمد مكين باللغة الصينية.
- ٣- ترجمة جواهر البخاري مع شرح القسطلاني باللغتين الصينية والتركتانية.
- ٤- تفسير الجلالين.
- ٥- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان.
- ٦- دعاء ختم القرآن.
- ٧- خطب الجمعة.
- ٨- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين.

كما افتتحت الجمعية معهد الدراسات الإسلامية في مقرها ببكين منذ سنتين ويدرس فيه حالياً ٧٨ طالباً في المرحلتين الأولى والثانية وبعثت عشرة طلاب من المسلمين إلى جامعة الأزهر في القاهرة ومثلهم إلى جامعة بغداد في العراق لإتمام الدراسات الإسلامية، وأقامت دورة تعليمية للأئمة والخطباء لمدة شهر في مدينة اورومسي عاصمة تركستان الشرقية في منتصف عام ١٩٨٣م كما نظمت بعثات الحج الصينية منذ عام ١٣٩٩هـ إلى الأراضي المقدسة، وكذلك أوفدت بعثات أخوية إلى بعض الدول الإسلامية مثل باكستان والعراق والجزائر والأردن والكويت، واستقبلت وفوداً إسلامية استطلاعية من مصر ورابطة العالم الإسلامي واليمن الشمالي وماليزيا وقامت الجمعية بترميم وإصلاح بعض المساجد والجوامع الأثرية والتاريخية.

ونظراً لاختفاء كثير من أئمة المساجد أثناء الثورة الثقافية التي أغلقت فيها المساجد وقتل بعض العلماء وأتلفت الكتب الإسلامية تعمل الجمعية الإسلامية الصينية المركزية في مقاطعات الأكثرية الإسلامية مثل سينكيانغ و (نن تشا) لإعداد الأئمة والخطباء للمساجد التي افتتحت وبنيت حديثاً في السنوات الخمس الماضية.

سكان الصين،

الصين أكثر بلاد العالم سكاناً وهذا مالا جدال فيه تثبته الإحصاءات التي شاركت فيها الأمم المتحدة فأثبت ذلك ما قيل قديماً من كون الصين ربع الدنيا الذي معناه أن الناس في الصين يمثلون ربع سكان العالم كله من حيث العدد أو كما قال أحدهم إن بين كل أربعة من سكان العالم واحداً من الصين.

فقد أثبت الإحصاء الأخير الذي لم يمض عليه إلا سنة وبعض السنة أن مجموع سكان الصين بلغ الف مليون وسبعة وثلاثين مليوناً من البشر.

ورغم تباعد أرجاء الصين واختلاف الجو فيها وكثرة عدد سكانها فإنهم يكادون يكون لهم طابع خاص مشترك بينهم، وإن اختلفت الفروق والتفاصيل بين سكان كل منطقة وأخرى حتى يصح التعبير عن أهل الصين بأنهم المحيط البشري الصيني كما صح مثله في الهند بأن أهل الهند يمثلون محيطاً بشرياً واحداً اتسم على مدى العصور بسمات ظاهرة واكتسب خصائص مظهرية وغذائية متقاربة فذلك الصين التي هي في الحقيقة تكاد تكون عالماً مستقلاً بذاته اكتسب على مدى العصور خصائص مظهرية متشابهة حتى إنه يخيل إليك إذا انتقلت من مدينة صينية إلى مدينة صينية أخرى ورأيت الوجوه في المدينتين أن سكان المدينة التي رحلت إليها هم أنفسهم سكان المدينة التي غادرتها.

واكتسب الصينيون على مدى العصور سمات ميزتهم عن غيرهم ومن ذلك لغتهم الواسعة المعقدة التي ليس لها حروف هجائية وإنما هي أصوات تختلف مدلولاتها باختلاف نغماتها ، وحتى كتابتها ليس فيها حروف الفباء كما في غيرها من اللغات وإنما هي رسوم وأشكال معقدة يدل كل واحد منها على شيء يفهم من السياق أو من اختلاف ضئيل جداً في شكله لا يفهمه إلا الصينيون أنفسهم.

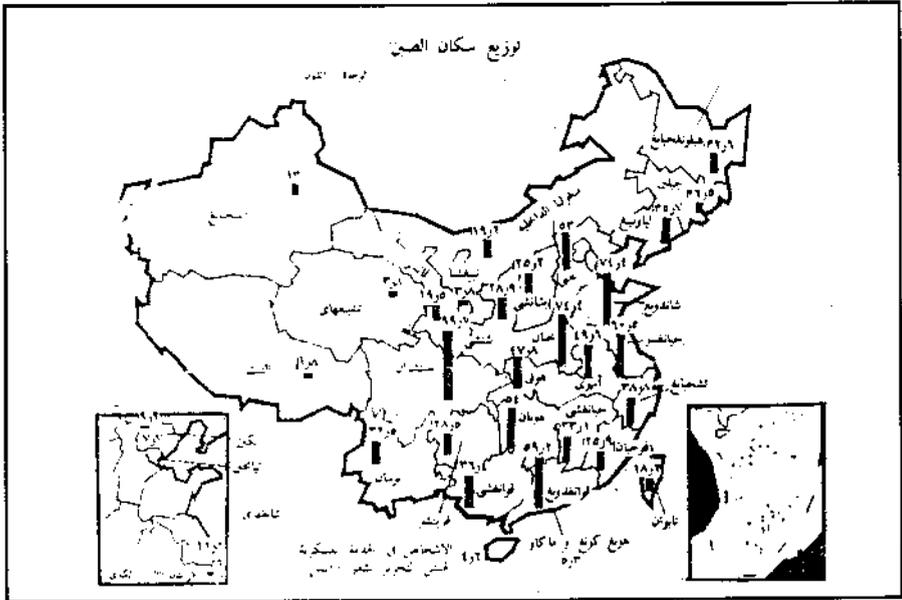
وحتى طعام أهل الصين قد صار معقداً متنوعاً كلغتهم لا يكاد يحسنه غيرهم وإن شمله - على تنوعه وكثرتة - طابع الطعام الصيني العام.

تعداد السكان في بر الصين،

يبلغ عدد السكان في الصين ١,٠٠٨,١٧٥,٢٨٨ نسمة والأرقام التالية تبينها الدراسات التمهيدية من المعطيات التي جمعت في هذا الإحصاء.

جنس السكان: عدد الذكور ٥١٩,٤٣٣,٣٦٩ نسمة، أي ٥١,٥٪ من المجموع وعدد الإناث: ٤٨٨,٧٤١,٩١٩ نسمة أي ٤٨,٥٪ من المجموع.

تعداد القوميات المختلفة: تعداد قومية الخان ٩٣٦,٧٠٣,٨٢٤ نسمة، أي ٩٣,٣٪ من مجموع سكان الصين وتعداد الأقليات القومية المختلفة ٦٧,٢٣٣,٢٥٤ نسمة، أي ٦,٧٪ من المجموع. ومنذ عام ١٩٦٤، ازداد تعداد قومية الخان ٢٨٥,٤٠٧,٤٥٦ نسمة، أي بنسبة ٤٣,٨٪، وتعداد الأقليات القومية ٢٧,٣٠٩,٥١٨ نسمة، أي بنسبة ٦٨,٤٪ وازداد عدد القوميات، من بين الـ ٥٥ أقلية قومية، التي يتجاوز تعدادها المليون من ١٠ في عام ١٩٦٤م إلى ١٥.



توزيع مكان الصين (عن مجلة بناء الصين)

توزيع السكان في المقاطعات والبلديات والمناطق الذاتية الحكم
والأشخاص في الخدمة العسكرية

مقاطعة جيلين	٢٢,٥٦٠,٠٥٣ نسمة
مقاطعة هيلونغجيانغ	٣٢,٦٦٥,٥٤٦ نسمة
بلدية شانغهاي	١١,٨٥٩,٧٤٨ نسمة (بما فيهم ٥,٥٣٨,٨٧٦ نسمة من سكان المحافظات العشر التابعة لها)
مقاطعة جيانغسو	٦٠,٥٢١,١١٤ نسمة
مقاطعة تشجيانغ	٣٨,٨٨٤,٦٠٣ نسمة
مقاطعة آنهوي	٤٩,٦٦٥,٧٢٤ نسمة
مقاطعة فوجيان	٢٥,٩٣١,١٠٦ نسمة (بما فيهم ٥٧,٨٤٧ نسمة من سكان جزر جينمن وماتسو وغيرها)

بلدية بكين	٩,٢٣٠,٦٨٧ نسمة (بما فيهم ٣,٦٣٢,٧١٥ من سكان المحافظات التسع التابعة لها)
بلدية تيانجين	٧,٧٦٤,١٤١ نسمة (بما فيهم ٢,٦٢١,٥٧٦ نسمة من سكان المحافظات الخمس التابعة لها)
مقاطعة خبي	٥٣,٠٠٥,٨٧٥ نسمة
مقاطعة شانشي	٢٥,٢٩١,٣٨٩ نسمة
منطقة منغوليا الداخلية الذاتية الحكم	١٩,٢٧٤,٢٧٩ نسمة
مقاطعة لياونينغ	٣٥,٧٢١,٦٩٣ نسمة

منطقة التبت الذاتية الحكم	١,٨٩٢,٣٩٣ نسمة
مقاطعة شنشي	٢٨,٩٠٤,٤٢٣ نسمة
مقاطعة قانصو	١٩,٥٦٩,٢٦١ نسمة
مقاطعة تشينغهاي	٣,٨٩٥,٧٠٦ نسمة
منطقة نينغشيا الذاتية الحكم لقومية خوي	٣,٨٩٥,٧٠٦ نسمة
منطقة شينجيانغ الوبغورية الذاتية الحكم	١٣,٠٨١,٦٨١ نسمة
مقاطعة تايوان	١٨,٢٧٠,٧٤٩ نسمة
هونغ كونغ وماكاو	٥,٣٧٨,٦٢٧ نسمة
الأشخاص في الخدمة العسكرية للجيش الصيني	٤,٢٣٨,٢١٠ نسمة

مقاطعة جيانغشي	٣٣,١٨٤,٨٢٧ نسمة
مقاطعة شاندونغ	٧٤,٤١٩,٠٥٤ نسمة
مقاطعة خنان	٧٤,٤٢٢,٧٣٩ نسمة
مقاطعة هوبي	٤٧,٨٠٤,١٥٠ نسمة
مقاطعة هونان	٥٤,٠٠٨,٨٥١ نسمة
مقاطعة قوانغدونغ	٥٩,٢٩٩,٢٢٠ نسمة (باستثناء تعداد سكان جزر دونغشا ونانشا)
منطقة قوانغشى الذاتية الحكم لقومية تشوانغ	٣٦,٤٢٠,٩٦٠ نسمة
مقاطعة سيتشوان	٩٩,٧١٣,٣١٠ نسمة
مقاطعة قويتشو	٢٨,٥٥٢,٩٩٧ نسمة
مقاطعة يوننان	٣٢,٥٥٣,٨١٧ نسمة

ويشير هذا الإحصاء إلى تقدم مشير ألا وهو أن نسبة زيادة سكان الاقليات القومية أعلى من سكان قومية الخان وذلك نتيجة لتطبيق سياسة تنظيم النسل المرنة في مناطق الأقليات القومية. وفي الصين الآن ١٥ أقلية قومية يتجاوز تعداد سكان كل منها المليون وكان عددها ١٠ ملايين في عام ١٩٦٤م فقط.

و يقول خبير صيني: «إن الحكومة وخبراء السكان قد بذلوا أقصى جهودهم في تنظيم النسل، وقد أدركوا بصورة واعية أن تعداد سكان بلادنا سيفوق بليوناً هذا العام، فألحوا في المطالبة بأن يبقى تعداد السكان الصيني أقل من ١,٢ بليون بنهاية القرن الحالي. وقد برهنت نتائج هذا الإحصاء على أن هذا الهدف يمكن الوصول إليه بناء على أن نسبة زيادة السكان في الصين قد انخفضت انخفاضاً كبيراً في السنوات العشر الأخيرة، رغم أن معدل نسبة زيادتها ٢,١٪ في الفترة ما بين عام ١٩٦٤م وعام ١٩٨٢م. وما زال يعتبر التحكم في زيادة السكان حلقة حاسمة في برنامج تحديث الصين.

إلى جانب ذلك، يقدم الإحصاء وضعا خطيراً للغاية، وهو أنه مع أن نسبة المثقفين من مجموع السكان قد ارتفعت ارتفاعاً كبيراً، مازال يوجد في الصين ٢٣٥ مليون أمي أو شبه أمي بين الذين تفوق أعمارهم الثانية عشرة.

وهذا أحد الأسباب التي جعلت الدولة تضع التعليم والعلوم في الأولوية في سير تحديث الصين.

ولم تطبق الحكومة الصينية قانون الطفل الواحد لكل أسرة على أفراد الأقليات القومية ومنهم المسلمون تطبيقاً عملياً إلا أنها تستخدم ضغوطاً معنوية ومادية عليهم في سبيل تحديد النسل.

وحتى بالنسبة إلى قومية (الخان)، أكبر القوميات الصينية قد ذكرت الصحف ووكالات الأنباء أخباراً مزعجة من سوء تطبيق نظام الطفل الواحد للأسرة الواحدة وذلك بعد أن ذكروا النتيجة السريعة لذلك القانون.

وأوضح شين جيوكسيانج المسئول بلجنة تنظيم الأسرة في مؤتمر صحفي عقده في بكين أن هناك أخطاء وانحرافات في تنفيذ توجيهات الحكومة. وأشار المسئول الصيني إلى وقوع حالات كثيرة نفذ فيها الإجهاض رغماً عن الأم. كما أشار إلى حالات أخرى أقدم فيها الوالدان على قتل أطفالهما الإناث لأنهما يريدان إنجاب ولد والقانون لا يصرح لهما بإنجاب أكثر من طفل.

وفي الوقت نفسه أوضح المسئول الصيني أن معدل نمو السكان سجل هبوطاً حاداً خلال عام ١٩٨٣م، فقد نزل إلى ١٨,٦٢ في الألف بعدما كان ٢٤,٢ في الألف خلال عام ١٩٨٢م.

وذكرت صحيفة صينية أن معدل المواليد في الصين يزيد على ثلاثة أمثال معدل الوفيات.

وذكرت صحيفة «تشينا ديلي» في عرض لإحصاءات قومية أن الصين التي يزيد تعدادها السكاني على مليار نسمة تستقبل يومياً في المتوسط ٥١,٠٠٠ مولود وتفقد ١٧,٠٠٠ شخص وتم فيها ٢٣,٠٠٠ حالة زواج و١,١٧٠ حالة طلاق.

وأضافت الصحيفة قولها إن الفرد يستهلك يومياً سلعةً قيمتها ٣٦ سنتاً أمريكياً وإن شخصاً من بين كل ٢٣ شخصاً يشتري صحيفة أو مجلة وإن أقل من واحد في كل مئة يرسل خطاباً.

دخول الإسلام إلى الصين:

لم يكن الدعاة إلى الإسلام يعتبرون الدعوة إلى الله عملاً مجرداً كالأعمال الدنيوية التي إذا لم تجد من يكتبها ويخلدها بأي نوع من أنواع التخليد ضاعت وتلاشت ولم يستطع القائمون عليها أن يستفيدوا من القيام بها شيئاً وإنما كانوا يعتبرون أن ذلك من الأعمال المقربة إلى الله (والله لا يضيع أجر من

أحسن عملاً). فالعمل الصالح الذي يأتي في قائمة الدعوة إلى الله محفوظ عند الله جزاؤه و لمن قام به أجر في الآخرة وثواب متصل بعد الموت لمن اهتدى على يده أحد من الناس حتى أجر من أهدوا على أيديهم له فيه نصيب من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

كما في الحديث الشريف: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم ينتفع به بعده، وولد صالح يدعو له).

ولذلك نجد أن معظم البلاد التي دخلها الإسلام عن طريق الدعوة الفردية وليس عن طريق الجهاد والقتال لا يعرف بالضبط تاريخ دخول الإسلام إليها إلا إذا اقترن ذلك بحادثة غير معتادة كإسلام ملك من ملوك البلاد تبعه على إسلامه كل شعبه أو أكثر أفراد شعبه كما حدث في إسلام أهل جزر مالديف الواقعة في المحيط الهندي حيث أسلم الملك وأسلم أهل الجزر معه وقد ذكرت ذلك في كتاب (رحلة إلى جزر مالديف: إحدى عجائب الدنيا).

وكإسلام ملك البلغار وقومه من الذين يسمون الآن (البشكير) وتقع بلادهم في أقصى الشمال من الوطن الإسلامي على نهر ايتل (الفولجا) مجاورة لبلاد الروس القديمة وهي الآن تابعة إدارياً لجمهورية روسيا الاتحادية التي عاصمتها موسكو.

ولئن أغفلت المصادر العربية تاريخ دخول الإسلام إلى الصين لما سبق فإن المصادر التاريخية والأدبية الصينية لم تفعل ذلك فذكرت ما زعمته أول اتصال بين المسلمين والصينيين وبالتالي أول تاريخ لدخول الإسلام إلى الصين وإن كان ذلك يحتاج إلى براهين من أهمها أن يذكر في المصادر الإسلامية التي يكاد يمكن القول بأنها حصرت الوفود التي ذكرتها بأنها انطلقت من عاصمة الإسلام الأولى المدينة المنورة.

فقد ذكر المؤرخون الصينيون أن أول سفارة إسلامية جاءت إلى الصين كانت في زمن الخليفة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وأنها كانت وصلت إلى مدينة تشانغان (مدينة شيان في مقاطعة شنشي حالياً) وكانت عاصمة أسرة تانغ إحدى الأسر الملكية التي حكمت الصين.

وذكروا أن وصول تلك السفارات الإسلامية كان في عام ٦٥١م.

ولكن الذي لا شك فيه أن الإسلام كان قد دخل إلى الصين في وقت مبكر من تاريخ ازدهار الدولة الإسلامية ذلك بأن العلاقات التجارية كانت قد ازدهرت ما بين الصين والموانئ العربية على الخليج العربي كميناء البصرة وميناء سيراف.

ولا شك في أن البحارة والتجار المسلمين قد وجد منهم من استقر في الصين استقراراً كاملاً أو لمدة تكفي للدعوة للإسلام.

ولم يكدهم يحل القرن الرابع الهجري حتى صار المسلمون أقلية معروفة في مدينة قونغتشو (كانتون) وما زال عدد المسلمين يتزايد فيها حتى بلغ في القرن الخامس الهجري مبلغاً جعلهم يحافظون على اللغة العربية حتى في الكتابة على قبورهم وقد حفظ لنا التاريخ شواهد كثيرة مكتوبة بالعربية على قبور المسلمين في تلك المدينة مدينة (كانتون) كما عرفت في اللغة الإنكليزية وسماها ابن بطوطة مدينة (صين كلان) أي مدينة الصين الكبيرة أو (صين الصين)، وقد ذكرت بعض تلك الشواهد في كتابي (جنوب الصين) عند الكلام على تلك المدينة.

كما قد تدفق إلى الصين كثير من العرب والفرس تجاراً حاملين معهم الدين الإسلامي عن طريق البر والبحر، واستوطن بعضهم حيث طاب لهم المقام وأخذوا في إقامة الجوامع الإسلامية، وأخذ بعض الصينيين يدخلون في دين الإسلام ومن ثم تطور الإسلام في الصين تدريجياً على مر الزمن.

وغالبا المسلمين الصينيين اليوم يسكنون في منطقة سينكيانغ الوبغورية الذاتية الحكم ومنطقة نن تشا الذاتية الحكم لقومية خوي ومقاطعات كانسو، تشينغهاي، خبي، خنان، شاندونغ، يوننان وغيرها، وينتمون إلى عشر قوميات هي: خوي، ويغور، قازاق، قرغز، تاجك، تتار، اوزبيك، دونغ شيانغ، سالا، باوآن.

ولقد بنيت جوامع ومساجد منذ قديم الزمان في المناطق التي استوطن فيها المسلمون وأشهرها: جامع عيد كاه بمدينة كاشغر بمنطقة سينكيانغ الوبغورية الذاتية الحكم، والجامع الكبير بمحافظة تونغشين في منطقة نن تشا الذاتية الحكم لقومية خوي؛ جامع هوا تشويه بمدينة شيآن عاصمة مقاطعة شنشى؛ جامع قوانغتا هوايشنغ (الشوق إلى النبي) بمدينة قوانغتشو؛ جامع العنقاء بمدينة هانغتشو؛ جامع تشيلين بمدينة تشيوانتشو؛ جامع الكركي بمدينة يانغتشو؛ جامع دونغسي بكين؛ جامع شياو تاو يوان (حديقة الخوخ) في شنغهاي؛ الجامع الجنوبي بمدينة شيانغ؛ جامع نانتشنغ في شارع العدل بمدينة كونمينغ، مقاطعة يوننان. وهناك جامع آخر في شارع البقر بكين قيد تاريخي قديم.

ولا شك في أن المصادر الإسلامية العربية تشير إلى غزو قتيبة بن مسلم الباهلي لمدينة كاشغر في تركستان الشرقية عام ٩٤ هجرية - ٧١٥ ميلادية كأول اتصال يتم بين العرب الفاتحين والصينيين الموجودين حينذاك فيها.

ومع ما تفيد هذه الآراء في دخول الإسلام مبكراً للصين فإن القضية لا تزال تحتاج إلى إجراء بحث علمي وثائقي يجمع ويحقق الروايات المختلفة من صينية وعربية وغيرها، وخاصة في الأمور التي يتمسك بها المسلمون الصينيون وتتعارض مع الوقائع الإسلامية الصحيحة. مثل ضريح سعد بن أبي وقاص في مدينة كانتون التي كانت تسمى سابقاً بخانغو في المصادر العربية. ويقول الصينيون عنه إنه أحد الثلاثة الذين بعثهم الرسول - صلى الله عليه وسلم -

إلى ملك الصين فمات الاثنان في الطريق، أما الثالث وهو سعد بن أبي وقاص فقد أقام في (كانتون) وبنى مسجد هوايشنغ ومعناه مسجد الاشتياق إلى النبي. وهذا غير صحيح.

ودخول الإسلام وانتشاره في الصين قد جاء عن طريقين اثنتين، لا يمكن التغافل عن إحدهما في دراسة الوجود الإسلامي هناك:

الأولى: الطريق البحرية حيث ازدهرت الملاحة التجارية بين المدن العربية والمدن الصينية الساحلية مثل خانغواي (كانتون) والزيتون أي جي وان جوالييتي وصل إليهما الإسلام مع التجار والملاحين المسلمين واستقر بهما أولاً ثم انتقل إلى داخل الصين مع تغلغل التجار المسلمين.

الثانية: الطريق البرية التي سلكها الإسلام إلى الصين من تركستان الشرقية عبر طريق الحرير. وكان انتشار الإسلام في الصين في عهد الإمبراطورية المغولية عظيماً.

حيث انتقلت أسر إسلامية من أواسط آسيا إلى داخل الصين وتولى بعض المسلمين حكم عدد من الولايات الصينية، بالإضافة إلى أن المناطق الغربية من الصين التي تقطنها أصلاً قبائل تركية ومغولية أسلمت بسبب المسلمين الأتراك وهذا سر تكتل الأغلبية الإسلامية في غرب الصين على حدود تركستان الشرقية.

يتمركز المسلمون بصفة خاصة في منطقة الحزام الإسلامي التي تقع في غرب الصين وتضم بالإضافة إلى سينكيانغ (تركستان الشرقية) مقاطعات كانسو ونن تشا وتشنغهاي وشنشي وسيشوان ويوننان ثم يأتي في جنوب الصين ولايات كوانغ دونغ وكوانغ شي وهونان وخوية وانخوي. والواقع أن كل ولاية صينية تضم عدداً من المسلمين الذين ينتمون عموماً إلى قومية خوي الواسعة الانتشار والقوميات العشر التي تعدها الحكومة قوميات إسلامية تقديراتها الرسمية عام ١٩٨٢م كالآتي:

١	الايغور	٧٢١٩٣٥٢	من الأتراك في سينكيانغ
٢	الخوي	٥٩٥٧١١٢	من الصينيين في كل أنحاء الصين
٣	القازاق	٩.٧٥٨٢	في تركستان الشرقية كانسو وجنغهاي
٤	دونغشيانغ	٢٧٩٣٩٧	من المغول في ولايتي كانسو ومنغوليا الداخلية
٥	القيرغيز	١١٣٩٩٩	في تركستان الشرقية
٦	السالار	٦٩١.٢	من الأتراك في ولايتي كانسو وجنغهاي
٧	التاجيك	٢٦٥.٢	في تركستان الشرقية
٨	الاوزبك	١٢٤٥٣	من الأتراك في سينكيانغ
٩	بـوآن	٩.٢٧	من المغول في ولاية كانسو
١٠	التتار	٤١٢٤	في تركستان الشرقية

وإذا كانت التقديرات الرسمية لحكومة الصين الشعبية عن المسلمين تشير إلى أن عددهم ١٤٢٩٣٦٥٠ نسمة في عام ١٩٨٢ حسب تعداد أفراد كل قومية مسلمة فإن التقديرات الأكيدة تشير إلى أن عدد المسلمين في الصين الشعبية يتراوح بين ما لا يقل عن خمسين مليون إلى سبعين مليون نسمة وذلك لأن التقديرات الإحصائية للمسلمين قبيل الحكم الشيوعي نوعان:

١- تقديرات المستشرقين الأوروبيين يشير متوسطها إلى أن عدد المسلمين كان عشرين مليون نسمة في أوائل القرن العشرين عندما كان عدد سكان الصين الإجمالي هو أربعمائة مليون نسمة. والآن وقد بلغ سكان الصين ألف مليون نسمة فلا بد أن يكون عدد المسلمين الصينيين خمسين مليون نسمة حالياً، قياساً على الزيادة الإجمالية مع أن نسبة الإنجاب عند المسلمين أكبر مما هي عند سواهم.

٢- تقدير حكومة الصين الوطنية أيام الكومنتانغ في عام ١٩٤٨م تشير

إلى أن عدد المسلمين هو ٤٢٤.٨١٠ نسمة وهو يطابق تقديرات بعض المستشرقين الغربيين والمسلمين الصينيين أنفسهم أيضاً كما تشير تصريحاتهم ومؤلفاتهم بأن عدد المسلمين الصينيين لا يقل عن خمسين مليون نسمة وقد كان عدد الصينيين الإجمالي حينذاك هو خمسمائة مليون نسمة فوصل عددهم في عام ١٩٨٢ إلى أكثر من الف مليون نسمة بزيادة مئوية قدرها ٥٠٪ وبهذه النسبة أيضاً يكون عدد المسلمين قد وصل إلى أكثر من ٧٠ مليون نسمة.

والواقع أن هناك حالياً تقديرات متباينة جداً تبدأ من الإحصاء الحكومي الرسمي وهو ١٤,٥ مليون نسمة إلى تقديرات المعاهد الغربية مثل مجلة نيوزويك الصادرة في ٢٦ نوفمبر ١٩٧٦م وأطلس العالم الصادر في عام ١٩٧٢ وكتاب حقائق العالم الصادر في ١٩٧٤م وأطلس الرسمية الجغرافية الصادر في عام ١٩٧٥م ومجلة تايمز العالمية الصادرة في ١٦ أبريل ١٩٧٩م بأن ١٢٪ من سكان الصين مسلمون وعلى هذا أشارت مجلة تايمز العالمية ١٦ أبريل ١٩٧٩م بأن عدد المسلمين هو ١١٥ مليون نسمة من جملة السكان البالغ عددهم ٩٦٠ مليون نسمة عند ذلك.

وعندما يجابه المسئولون الصينيون بذلك يقولون: بأن تلك التقديرات ليست واقعية، وأن الإحصاءات التي تجريها الحكومة لا تقوم على أساس ديني، وإنما تصنف على أساس قومياتهم التي ينتسبون إليها وهو أمر يتفق مع سياسة الدولة اللادينية. وأن التعداد القائم للمسلمين يضم أفراد القوميات الإسلامية العشر فقط وقد يكون هناك مسلمون من قوميات أخرى لم يشملهم التعداد الحكومي، كما أن هناك هجرات إسلامية صينية إلى جنوب شرق آسيا وأمريكا أدت إلى تقلص عدد المسلمين في الصين الشعبية.

والحقيقة أن إحصاء المسلمين في الصين الشاسعة الكثيرة السكان يزيد في صعوبته أن حكومة الصين الشعبية تطبق سياسة شيوعية، لا تعترف بالدين بل تعمل على تصغير شأنه وتقليل عدد معتنقيه، وهي سياسة واحدة في جميع الدول الشيوعية.

ومما يعقده أيضاً أن بعض المسلمين الصينيين بعد معاناتهم من مظالم الأباطرة المنشوريين دفعهم الخوف من البطش الشيوعي واستبداده إلى إخفاء حقيقة إسلامهم وخاصة أنهم يستعملون أسماء صينية في سجلات الحكومة. وهم الذين لهم أسماء رسمية للاستعمالات الحكومية وأسماء إسلامية يتداولونها فيما بينهم، ولا يمكن التفريق بين المسلم الصيني وغيره من أتباع الأديان الأخرى بالاسم الرسمي الصيني. وحتى الإحصاءات الرسمية لأفراد القوميات عادة لا تشكل الرقم الصحيح في الدول الشيوعية ودول العالم الثالث، لأن الحكومات تلجأ إلى التهوين من حجم الأقليات القومية فيها في العادة، لكي تمنع مطالبات الأقليات بحقوقها القومية ولكي تفوت على الدول الأجنبية التي تنتمي إليها تلك القوميات دعمها ومؤازرتها.

ورغم انتشار المسلمين في كل المقاطعات الصينية بدون استثناء كما تؤكد الحكومة الصينية وثبته في خرائطها فإنها أقامت لبعض التجمعات الإسلامية مناطق تتمتع بالحكم الذاتي، وهي:

١ إقليم نن شيا خوي المتمتع بالحكم الذاتي	في عام ١٩٥٨	في نن تشا
٢ مقاطعة لين تشا خوي المتمتع بالحكم الذاتي	في عام ١٩٥٦	في كانسو
٣ مقاطعة فوشيان خوي المتمتع بالحكم الذاتي	في عام ١٩٥٧	في لياونينغ
٤ مقاطعة هايش مغول تبت قازان المتمتع ، ،	في عام ١٩٥٤	في تشنغهاي
٥ منطقة زانغ جيا جوان خوي المتمتع ، ،	في عام ١٩٥٥	في كانسو
٦ منطقة وين نينغ لي خوي مياو المتمتع ، ،	في عام ١٩٥٤	في قو زو
٧ منطقة واشنغ خوي المتمتع بالحكم الذاتي	في عام ١٩٥٤	في جي به
٨ منطقة جوي خوي المتمتع بالحكم الذاتي	في عام ١٩٥٤	في جي به
٩ منطقة هو الونغ خوي المتمتع بالحكم الذاتي	في عام ١٩٥٤	في تشنغهاي
١٠ منطقة مين يوان خوي المتمتع بالحكم الذاتي	في عام ١٩٥٣	في تشنغهاي
١ منطقة وي شان لي خوي المتمتع بالحكم الذاتي	في عام ١٩٦٠	في يوننان
١ منطقة اكساي قازاق المتمتع بالحكم الذاتي	في عام ١٩٥٤	في كانسو
١ منطقة دونغ شيانغ المتمتع بالحكم الذاتي	في عام ١٩٥٠	في كانسو
٢ منطقة شون خواسالار المتمتع بالحكم الذاتي	في عام ١٩٥٤	في تشنغهاي

وبالإضافة إلى هذه المناطق الذاتية التي أقامتتها حكومة الصين الشعبية للمسلمين فإن هناك ولايات كثيرة تضم جماعات إسلامية كبيرة تعترف بها الحكومة وأهمها هي:

١- ولاية شانشي SHAANXI وفي عاصمتها شيآن XIAN فقط خمسون ألف مسلم حالياً حسب الإحصاء الحكومي ومن مدنها ذات الجماعات الإسلامية لونغ شيآن وشي شيآن.

٢- ولاية زيجوان SKHUAN التي في عاصمتها جنغ دو آلاف من المسلمين لهم أكبر مسجد في الولاية وهو مسجد خوانغ شنغ ومن مدنها التي يكثرون فيها المسلمون سونغ فان SONG PAN وجونغ جنغ CHONGJING وبان تينغ YANTING .

٣ - ولاية منغوليا الداخلية وفي عاصمتها خوخاخوت مايزيد على ثلاثين ألف مسلم لهم مسجدان.

٤- ولاية خنان HENAN وعاصمتها زونغ زو ZHENGZHOU وبهذه الولاية أكثر من ٣٣٤ مسجداً وفي مدينة كايغونغ وحدها ٣٠ ألف مسلم ومن مدنها التي يكثرون فيها المسلمون لويانغ شان.

٥- ولاية جيانغ سو JIANGSU وعاصمتها نانكين NANGJING وبها جالية إسلامية كبيرة كان لهم ٣٦ مسجداً قبيل الحكم الشيوعي ومن المدن التي يكثرون فيها المسلمون يانغ جو وجن جيانغ.

٦- ولاية غوانغ جو GUANGZHOU (كانتون سابقاً) والعاصمة كوانغ جو أول مدينة ساحلية صينية وصلها العرب وبها أقدم مسجد يسمى هوايشنغ.

٧- بكين العاصمة بلغ سكانها ٦٨٧.٩٢٣ في عام ١٩٨٢ بها ما يزيد على ١٦٠ ألف مسلم حسب رواية الجمعية الإسلامية الصينية ولهم خمسة مساجد.

٨- شنغهاي المدينة الصناعية بلغ عدد سكانها ١١,٨٥٩,٧٤٨ نسمة في عام ١٩٨٢م. كانت مقراً لكثير من الجمعيات والمدارس والمجلات الإسلامية وعشرة مساجد قبيل الحكم الشيوعي ولا تزال الجمعية الإسلامية الصينية تشرف على مسجدين.

٩- تيانجين TIANJIN ثالث مدينة كبيرة في الصين بلغ عدد سكانها ٧,٧٦٢,١٤٥ نسمة في عام ١٩٨٢ منهم بضعة آلاف من المسلمين كان لهم ١١ مسجداً.

ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الصينية:

صدرت مؤخراً في بكين الترجمة الصينية لمعاني القرآن الكريم التي أعدها الشيخ محمد مكين وقد بذل المترجم أكثر من عشر سنوات في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الصينية. وهو من الذين درسوا في مصر فقد أتم دراسته الجامعية في الأزهر وكان آخر أفراد أول بعثة وبهذه المناسبة يجدر بنا أن ننقل مقتطفات من بحث نشره أحد الصينيين المعنيين بالعلاقات الثقافية ما بين الصين والبلدان العربية حول الفترة التي وصل فيها القرآن الكريم إلى الصين. قال:

ورد في «كتاب تانغ القديم» والمراجع التاريخية في مكتبة سونغ الإمبراطورية أن أسرة تانغ التي حكمت الصين من عام ٦١٨م إلى عام ٩٠٧م وضعت نظاماً للتعامل مع البلدان الصديقة وتجسد ذلك النظام في إعداد سمكتين برونزيتين ذكر وأنثى، نقش عليهما اسم البلد الصديق، أحدهما في

بلاط تانغ والأخرى في البلد الصديق.. فمن وصل إلى بلاد أسرة تانغ كمبعوث رسمي عرض السمكة البرونزية دليلاً على شخصيته. وعندما وصل مبعوث خليفة المسلمين إلى الصين لم يكن لديه سمكة برونزية.. هذه الحادثة جعلت المؤرخين يؤكدون على أن عام ٦٥١م هو العام الذي وصل فيه أول مبعوث إسلامي إلى الصين. وتذكر كتب التاريخ أن المبعوثين العرب قد جاءوا ٣٧ مرة بين عامي ٦٥١ و٧٩٨م، أي بمعدل زيارة واحدة في كل أربع سنوات. تلك البعثة الإسلامية الأولى إلى الصين قد أقامت العلاقات الودية بين الصين والعرب، كما اطلع منها الإمبراطور تانغ على أحوال العرب وتقاليدهم وعاداتهم ودينهم الإسلامي الحنيف.

وقد سجل دو هوان الذي عاش في أواسط القرن الثامن مذكراته في كتاب تحت اسم «رحلة إلى بلد الكتاب»، وهذا الكتاب هو أول كتاب صيني جاء فيه ذكر القرآن الكريم.

مكث دو هوان ١٢ سنة في بلاد داشي (أطلق الصينيون القدماء لقب داشي على بلاد العرب) متجولاً في ربوعها ثم عاد بطريق البحر إلى الصين وتكلم في كتابه عن الدولة العباسية باقتضاب من حيث الديانة والتقاليد والعادات.

ذكر دو هوان في مذكراته عن بلاد داشي يقول: «لبلاد داشي اسم آخر هو أكولا واسم الوالي مؤمن» وأكولا هي الكوفة في اللغة السيرانية. وهنا يقول المؤلف: إنه أقام في بلاد داشي وكانت الكوفة عاصمة الدولة العباسية والخليفة يلقب باسم أمير المؤمنين. ومن المؤسف أنه لم يذكر من هو أمير المؤمنين وقتذاك.

وعند وصفه لعاصمة الخلافة يقول: «فيها قاعة تتسع لعشرات الآلاف من الناس، يؤمها الخليفة مرة واحدة في كل أسبوع لأداء الصلاة. وهناك يعتلي

منبراً يعظ الناس ويفقههم في الدين»، ومما قال: «إن الحياة الدنيا دار زوال والآخرة هي دار البقاء. وكل من أقرت جريمة الزنا أو عاث بالفساد أو انتهك الحرمات أو ارتكب المعاصي أو سبب الأضرار لغيره أو أهان الفقراء أو أساء إلى من ملكت أيمانه فهو من المجرمين، ومن قاتل وقتل في سبيل الله فهو من الشهداء ومأواه جنة الخلد.» قال المؤلف: كان الخليفة العباسي يخرج في كل يوم جمعة إلى المسجد ليؤم المصلين ويعظهم ثم عدد دو هوان ما قال الخليفة في خطبته من الأوامر والنواهي ووجوب الإحسان وإطعام الفقراء واتباع تعاليم القرآن والشريعة الإسلامية.

وذكر المؤلف في كتابه «أن الإسلام يدعو إلى عبادة الله لا الملوك ولا الشياطين، ويدعو إلى بر الوالدين واحترام أولى الأمر» و«على كل إنسان مهما كان فقيراً أو غنياً أن يؤدي فريضة الصلاة خمس مرات كل يوم.»

وبالإضافة إلى ذلك ذكر في مذكراته بعض المحرمات في الإسلام مثل: «تحريم الخمر والغناء» و«البساطة في الجنازة» و«تحريم لحوم الخنزير والكلاب والحمير والخيل ولحوم الميتة»..

وذكر دو هوان في مذكراته: أن الإسلام يتطور بسرعة ملبيا احتياجات المجتمع. وعن ذلك قال: «أسلم الناس من كل فج ودخلوا في دين الله أفواجاً كسيل عرم.»

هذا وقد عرف «رحلة إلى بلد الكتاب» الشعب الصيني جوهر القرآن والإسلام ولعب دوراً طيباً في نشر الإسلام في الصين.

الخطوط القرآنية

كثرت الجوامع والمساجد مع تطور وانتشار الإسلام واحتاجت إلى كميات كبيرة من المصاحف فأخذ الأئمة والعلماء ينسخون القرآن وكتباً إسلامية أخرى

وكذلك فعل المتعلمون، ينسخون ويتعلمون منها، وكان بعضهم يقطع المسافات البعيدة حاملين معهم زادهم ومتاعهم للعثور على العلماء ينهلون على أيديهم من مناهل القرآن وتعاليم الدين. وكان نسخ القرآن في الصين يجري في خطوط وأساليب متفاوتة. يقول ووجيان، في عهد أسرة يوان، مؤلف كتاب «رحلة إلى المسجد الطهور» في القرن الرابع عشر الميلادي: «انقسمت خطوط القرآن إلى ثلاثة أنواع: كتابات تشوان، كتابات بالأحرف الكبيرة، كتابات بالأحرف المتصلة».

والمخطوطات منها ما هو رائع الخطوط ومزخرف بماء الذهب أوالكتابات الملونة.

يوجد بعضها لدى العوائل المسلمة وأخرى في المتاحف والمساجد. مثلاً، توجد مخطوطة قرآنية في جامع دونغسي ببيكين، تمت كتابتها عام ١٣١٨م. وكانت الجمعية الإسلامية الصينية قد طبعت «خاتمة القرآن» وفق أصل لمخطوطة عمرها ٢٠٠ سنة.

وقد ظهر دو ون شيو (١٨٢٣ - ١٨٧٢م) في مقاطعة يوننان في أول أعوام تونغ تشي (١٨٦٢م) لأسرة تشينغ وترأس عمليات طبع القرآن الكريم من النحوت الخشبية مخرجاً أول نسخة من القرآن نحتاً على الخشب في الصين، وقد لعب دوراً معيناً في انتشار القرآن في الصين.

وقد رأينا تلك المخطوطات المحفورة بعد ذلك في مدينة كون منغ وذكرت ذلك في كتاب (العودة إلى الصين)

ترجمات غير كاملة،

اختار بعض الأئمة والعلماء أجزاء من القرآن الكريم لترجمة معانيها إلى اللغة الصينية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وأوائل القرن العشرين.

ويعد ذلك صاروا يترجمون معاني (جزء عم) الذي هو الجزء الأخير من المصحف الشريف أو يختارون بعض السور القرآنية تسهيلاً للقراء.

وفي تلك صاروا الفترة كان بعض العلماء يقومون بمحاولة للترجمة الكاملة لمعاني القرآن الكريم منهم:

السيد ما فو تشو، ضليع في اللغات الصينية والعربية والفارسية وأهم المترجمين في أوائل القرن التاسع عشر كما حج إلى بيت الله مرتين وكان يسعى وراء الاستزادة من العلم في مصر والشام وتركيا وغيرها وقد استغرقت جولاته عشر سنوات.

وأتم ما فو تشو ترجمة عشرين جزءاً من القرآن الكريم بالصينية وتعرضت للحرق ولم يبق منها سوى ٥ أجزاء وطبعت تحت عنوان «تفسيرات مباشرة للقرآن الكريم»، وهو أول ترجمة بالصينية لكنه ليس كاملاً.

ترجمة كاملة،

«كتاب الفرقان» باللغة الصينية هو أول طبعة مترجمة كاملة في وقت مبكر، صدر في بيبينغ (بكين، حالياً) عام ١٩٢٧ وأتم ترجمته لي تيه تشغ (غير مسلم) الضليع في اللغة اليابانية، وأنجز ترجمة معاني القرآن الكريم بالصينية وفقاً لطبعة المصحف اليابانية وكذلك راجعه على الترجمة الإنجليزية.

فاعتبر «كتاب الفرقان» أكمل ترجمة لمعاني القرآن منذ دخول الإسلام إلى الصين ولعب دوراً هاماً في دفع بعض الأئمة والعلماء باللغة العربية إلى مزاوله ترجمة القرآن. جي جيويه مي: نظم بعض العلماء والأئمة في ترجمة القرآن في شنغهاي في أوائل الثلاثينات فأتهم صدور طبعة «معاني القرآن باللغة الصينية» عام ١٩٣١. أنجز الإمام وانغ جينغ تشاي صدور «القرآن المترجم والمفسر» في بيبينغ (بكين حالياً) ثم انهمك في عمليات ترجمة معاني القرآن

سنين طوالة حتى أتم صدور الطبعة المترجمة مرة ثانية عام ١٩٤٦ تحت نفس العنوان: «القرآن المترجم والمفسر» في شنغهاي.. اعتبرت طبعته الأخيرة أفضل من الطبعة الصادرة عام ١٩٣٢م سواء في الترجمة أو التفاسير وأصبحت مرجعاً هاماً يرجع إليها المؤمنون في الصين قبل إخراج طبعة محمد مكين.

ليو جين بياو: أكمل طبع «معاني القرآن المترجم باللغة الصينية وبعض الشروح» عام ١٩٤٢ في بيبينغ ثم ظهرت طبعة «معاني القرآن» في بيبينغ عام ١٩٤٧ على يد الإمام يانغ تشونغ مينغ.

العلاقة الاقتصادية بين الصين والعرب قبل الإسلام: (١)

إن الأحوال العربية التي وردت في كتاب «سجل التاريخ» و«كتاب أسرة هان الأولى» تعتبر أقدم ما ذكر عن العرب في كتب التاريخ الصينية. ومن الأرجح أن تكون هذه المعلومات مأخوذة من الرائد المشهور الصيني تشانغ تشيان عندما بعث رسولاً إلى المناطق الغربية.

بعد الرائد تشانغ تشيان، أرسلت أسرة هان الأولى (٢٠٦ ق.م - ٢٥م) رسلها باستمرار إلى المناطق الغربية، ومن ضمنها بلاد العرب. وذكر «كتاب تاريخ هان الأولى سيرة تشانغ تشيان» أن أسرة هان الأولى أرسلت أكثر فأكثر رسلها إلى أشكانيين ومانتساي والروم وتياوتشي ودولة الهند. وهذه بداية الاتصالات الودية بين الصين والعرب حسب ما سجلته كتب التاريخ الصينية. وابتداءً من أسرتي هان الملكيتين (٢٠٦ ق.م - ٢٢٠م) إلى أسرة مينغ الملكية (١٣٦٨ - ١٦٤٤م) تطورت الاتصالات الصينية العربية باستمرار، فتوثقت العلاقة الاقتصادية كثيراً بين الصين والعرب.

(١) نقلاً عن مجلة «بناء الصين» بتصرف.

تنقسم خطوط المواصلات بين الصين والعرب في العصر القديم إلى خطين بري وبحري، فالخط البري هو «طريق الحرير» المشهور. أما الخط البحري فهو «طريق البخور» الشهير، (يسمى أيضاً «طريق الحرير البحري») وهما أي «طريق الحرير» و«طريق البخور» من شرايين المواصلات بين الشرق والغرب في العصر القديم، وكذلك هما ممران مهمان متكاملان للاتصالات بين الصين والعرب في قديم الزمان. فقد لعبا دوراً عظيماً عبر التاريخ.

(١) العلاقة الاقتصادية بين الصين والعرب قبل أسرة تانغ.

قبل أسرة تانغ (٦١٨-٩٠٧م)، لعب العرب دوراً وسيطاً نشيطاً في التجارة بين الصين والغرب. وانتقلت البضائع الصينية وخاصة الحرير إلى الغرب بكميات ضخمة، بعدما نجح الرائد تشانغ تشيان في اتصاله بالمناطق الغربية. وكان العرب يحبون حرير الصين حباً جماً. فقد اكتشف في سنة ٨٣ ميلادية حرير الصين الخام في أحد القبور التدمرية القديمة. وهو أي حرير الصين أول وأجمل هدية قدمها الشعب الصيني للعرب.

انتقل حرير الصين عبر آسيا الوسطى إلى المدائن (جنوب بغداد) أولاً، ثم انتقل قسم منه إلى إيطاليا وغيرها. وانتقل قسمه الآخر عبر تدمر إلى دمشق، حيث أصبح مادة خاماً لصناعة الغزل والنسيج في مدن صور وصيدا وغزة... كانت بين أنطاكية والمدائن بعض قبائل عربية. وكانت أكبرها على ما يعتقد قبيلة جذيمة. وفي أواخر القرن الثاني الميلادي أصبحت هذه القبيلة دولة مستقلة. وكان أبناء هذه القبيلة ينقلون حرير الصين وبضائعها الأخرى إلى أنطاكية فكانوا تجاراً وسطاء بين أشكانيين وروما. وظلت هذه الحالة حتى احتلال روما لجذيمة في سنة ٢١٦م.

وكان هناك كثير من القبائل العربية أيضاً بين دمشق والمدائن وأشهرها قبائل تدمر، وقد أسس التدمريون دولتهم قبل القرن الأول قبل الميلاد، في إحدى واحات الصحراء السورية، وكانت تعتبر مركزاً لمواصلات الجهات الأربع. وبالإضافة إلى ذلك كانت فيها ينابيع معدنية نقية، لذا أصبحت مكاناً مجتمعاً لتجار الأصقاع المختلفة.

وأصبحت أغنى مدن آسيا الغربية ذات الشهرة العالمية. وكان التدمريون أقوياء في الصحراء السورية وقاموا بدور التجار الوسطاء كذلك بين أشكانيين وروما. وبسبب أنهم نظموا بصورة رائعة نقل حرير الصين، وكفلوا سلامة وأمن القوافل التجارية، تحولت طريق التجارة ما بين روما والهند، من البحر الأحمر - مصر، إلى الخليج العربي - سوريا. وكانت تدمر تنازع روما على الزعامة حتى استولى عليها إمبراطور روما أورليانوس في عام ٢٧٢.

وأما في تجارة ما بين المحيط الهندي والبحر الأحمر فكان العرب والأحباش يحتلون مكان القيادة. وكانت البضائع الصينية تنقل أولاً إلى سيلان، ثم ينقلها التجار العرب والأحباش والفرس إلى الخليج العربي والبحر الأحمر. وكانت يودامون اليمينية (Eudaemon عدن المواني) وموزا (Muza مخا اليوم) من الموانئ الهامة في منطقة البحر الأحمر، وبعد وصول البضائع الصينية إلى اليمن، تنقل شمالاً عن الطريق الساحلي الغربي من الجزيرة العربية إلى مكة ثم إلى فلسطين وسوريا التي كانت تحت سيطرة روما، إما للاستهلاك المحلي أو لنقلها إلى مصر وغيرها مرة ثانية. وكان الحميريون اليمينيون يسيطرون على هذا الطريق التجاري الساحلي على طول غربي الجزيرة العربية في أول الأمر، ثم حل تجار قریش في مكة محلهم.

قبل أسرة تانغ، كان من المحتمل جداً أن يكون هناك اتصالات اقتصادية غير مباشرة بين الصين والعرب بالإضافة إلى العلاقات الاقتصادية غير المباشرة

التي ذكرناها. ورأى ج.ف هودسون أن السفن العربية ربما وصلت إلى الصين ومصر بعد القرن الأول الميلادي. وأشار وارمينغتون إلى أن الصينيين نقلوا القرفة إلى الخليج العربي. وقد ذكر امياماسلين ان البضائع الصينية كانت تباع في أسواق دورية في باتانية وغيرها على شاطئ نهر الفرات حوالي سنة ٣٦٠م. وبعض هذه البضائع ربما نقلتها السفن الصينية إلى هناك. وقد سجل المؤرخ العربي المسعودي أن السفن الصينية قد وصلت إلى مدينة الحيرة على شاطئ نهر الفرات في القرن الخامس وقامت بالتجارة مع العرب وورد في «كتاب سونغ - أخبار الاجانب» (تم تأليفه حوالي عام ٥٠٠م) «أن السفن كانت تتعاقب في الطريق البحري، والتجار والرسل كانوا يتوافدون بين الصين والروم (يعني سوريا ومصر اللتين كانتا تحت سيطرة روما الشرقية) وتانجو (الهند).» وإذا كانت السفن التجارية الصينية تستطيع الوصول إلى الروم فإنها من المحتمل جداً أن تصل إلى مدينة الحيرة على نهر الفرات.

(٢) العلاقة الاقتصادية بين الصين والعرب من أسرة تانغ إلى أسرة

مينغ:

دخلت العلاقة بين الصين والعرب عهداً جديداً في أسرة تانغ الملكية. فإن متاخمة إمبراطورية أسرة تانغ مع الإمبراطورية العربية متاخمة مباشرة قد نشطت الاتصالات بين الطرفين من جهة، ومن جهة أخرى، قدمت تسهيلات لتلك الاتصالات. عندما قرر الخليفة العباسي المنصور أن يبني عاصمته الجديدة في بغداد قال: «هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتيها فيها كل ما في البحر.» فعبرت كلمته أن العلاقة بين الصين والعرب في أسرة تانغ الملكية ودية ووثيقة.

في أسرة تانغ وحدها، ابتداءً من السنة الثانية ليونغهوي (سنة ٦٥١) حتى السنة العاشرة لجنويان (سنة ٧٩٨)، خلال ١٤٨ سنة، بعثت داشي (أي تازي،

يعني الإمبراطورية العربية) رسلها إلى الصين ٣٧ مرة، وهذا الاحصاء قد يكون ناقصاً، أما عدد الرسل الذين بعثتهم الصين إلى العرب فلم تذكره الكتب التاريخية، ونعتقد أن ذلك حدث أيضاً. ويمكننا أن نلاحظ من كثرة عدد الرسل العرب المبعوثين إلى الصين (أربع مرات في سنة واحدة) ومن غزارة الهدايا النفيسة التي وهبها إليهم الأباطرة الصينيون، أن بعض أولئك الرسل كانوا تجاراً يسعون وراء الأرباح الطائلة تحت ستار الاتصالات السياسية.

في أسرة تانغ كانت المواصلات البحرية سهلة متطورة، فوصل كثير من العرب إلى الصين. وقد سجل «كتاب سجل مقاطعة فوجيان» أن تلميذ محمد الثالث وتلميذه الرابع وصلاً إلى تشيوانتشو (مدينة الزيتون) للدعوة إلى الإسلام وعندما توفيا دفنا في جبل الروح. وفي عهد الإمبراطور تانغ سوتسونغ (سنة ٧٦٠) عندما طارد تيان شن قونغ ليوي تشان المتتمر، «مات آلاف من تجار داشي والتجار الفرس» في مدينة يانغتشو. وورد في «سلسلة التواريخ» رحلة التاجر سليمان: «ان مدينة قوانغتشو (ذكرت في رحلة ابن بطوطة باسم مدينة صين كلان أو مدينة صين الصين) مدينة تتجمع فيها البضائع العربية.» وذكر المسعودي أيضاً أن السفن من البصرة وسيراف وعمان وغيرها كانت تصل دائماً إلى مدينة قوانغتشو للتجارة.

وسجل أبو زيد الحسن أنه كان في مدينة قوانغتشو ١٢ ألفاً من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس. ومن هنا نلاحظ أنه كان في الموانئ الدولية الهامة الصينية، في عهد أسرة تانغ، مثل تشيوانتشو ويانغتشو وقوانغتشو كثير من العرب. وكان أغليبتهم من التجار، وأكثرهم يقيمون في قوانغتشو.

بعدما عاد التاجر العربي سليمان إلى بلاده ألف كاتب آخر كتاباً عن رحلته في سنة ٨٥١ حسب ما ذكره. وأضاف عليه أبو زيد الحسن ملاحظات وفقاً

لمشاهدات الآخرين في سنة ٩١٦م. وهذا هو الكتاب المشهور «سلسلة التواريخ» (رحلة التاجر سليمان السيرافي) وهو أول المؤلفات العربية التي تحدثت عن أحوال الصين حسب معرفتنا إلى اليوم.

في أسرة تانغ بدأ تعيين مراقبي السفن والأسواق (المحتسبين) تحت رئاسة الوزير المفوض في جنوب الصين، وكانت مهمتهم الإشراف على التجار الأجانب من العرب وغيرهم. «يخصص لهم حي خاص. وأمر التجار الأجانب أن يتاجروا في سوق معينة، وتجمع منهم ضريبة خفيفة تدفع إلى الحكومة» ونفذ بعض الموظفين المحليين سياسة جبي الضريبة الخفيفة التي وضعتها أسرة تانغ تنفيذاً جيداً، وبعضهم الآخر كان «يشترى النفائس بطريقة الابتزاز»، وعندئذ حدث ما ذكرته «سلسلة التواريخ» بأن الحكومة الصينية كانت تجبي ضريبة ٣٠٪ على بضائع التجار الأجانب المستوردة.

أثار ابتزاز هؤلاء الموظفين استياء التجار الأجانب. فنزل الأمر الإمبراطوري في السنة الثامنة من تانغ ون تسونغ (سنة ٨٣٤) قال فيه: «إنني قلق على عدم اطمئنان التجار الأجانب وثقل الضرائب ويجب ان أعنتني بهم وأعطف عليهم ويجب ان نرسل والياً مراقباً إلى قوانغدونغ وفوجيان ويانغتشو للعناية بالتجار الأجانب والاهتمام بهم ونعطيهم الحرية التامة في التجارة، ولا يسمح بجبي الضرائب الفادحة، ما عدا ضرائب حمولة السفن الراسية والبضائع المستوردة الخاصة والهدايا المقدمة إلى القصر.»

كانت حكومة تانغ الملكية تحترم العقيدة الدينية للتجار العرب وتقاليدهم وعاداتهم وسمحت ببناء مساجد في بعض المدن الصينية.

وفي قوانغتشو، «أرسل الإمبراطور الصيني إليها مسلماً، لكي يشرف على الشؤون القضائية للمسلمين الذين ذهبوا إلى هذه المدينة للتجارة (بإذن الإمبراطور الصيني).

ويؤمهم في أداء الصلاة ويلقي الخطبة والوعظ ويطلب من الله البركة
لسلطان الدولة الإسلامية في كل أعيادهم. وكان التجار العراقيون يخضعون له
دائمًا. »

في نفس الوقت الذي وصلت فيه السفن التجارية العربية إلى الصين، كانت
السفن التجارية الصينية تصل بعيداً إلى عمان وسيراف والبحرين والأبلة
والبصرة وبغداد وغيرها، وتقوم بالنشاطات التجارية مع التجار المحليين.
وكانت من ضمن البضائع المصدرة من الصين الحرير، الأطلس، الخزف، الورق،
المسك، عود الند، فرو السمور الأسود والسروج وغيرها. بل وصلت البضائع
الصينية أيضاً إلى عدن. وكانت في بغداد أسواق خاصة لبيع الحرير والخزف
الصيني وغيرها من البضائع الصينية.

كان العرب يحبون الخزف الصيني حباً عظيماً فسموه «الصيني» وكان
الخزف الصيني بضاعة رائجة في مناطق عربية مختلفة. وإن الخزف الصيني
القديم من مختلف العصور الذي يعرض في متحف بغداد وقصر العظم بدمشق
ومتحف مسقط، لهو برهان للصدقة الصينية العربية في العصر القديم. وقلد
العرب صنع الخزف الصيني منذ زمن مبكر جداً. وبعدما انتقل فن صناعة
الخزف الصيني إلى العرب في القرن الحادي عشر ازدهرت صناعة الخزف
العربية. ثم نقل العرب فن صناعة الخزف الصيني إلى البندقية في إيطاليا في
القرن الخامس عشر، ومن ثم بدأت أوروبا إنتاج الخزف.

في أسرة تانغ، كانت المواصلات البرية بين الصين والعرب نشيطة أيضاً.
وكانت الطريق من بلاد العرب عبر سمرقند إلى الصين سهلة المرور، إن تماثيل
جمال تانغ الملونة بثلاثة ألوان التي بعضها يمثل جمال آسيا الوسطى ذات
السنامين وبعضها الآخر يمثل الجمال العربية ذات السنام الواحد، جسدت

بأشكالها وأوضاعها المختلفة، بعضها ترغو رافعة رأسها، وبعضها الآخر منبטה على الأرض، والأخرى تحمل الحرير أو الجوقة الموسيقية، جسدت بصورة حية المناظر المزدهرة لـ«طريق الحرير» في أسرة تانغ.

إن أهم حدث عظيم المغزى في العلاقة الاقتصادية بين الصين والعرب هو انتقال فن صناعة الورق إلى العرب في عهد أسرة تانغ الملكية. وقبل ذلك كان العرب يستخدمون ورق البردي والرق الثقيل والصعب الاستعمال. وتحسنت هذه الحال بعد انتقال الورق الصيني إلى العرب. كانت أسرة تانغ وداشي الأسود (الدولة العباسية) تتنازعان على طشقند في آسيا الوسطى، وفي معركة تالاس في سنة ٧٥١ أسر العرب بعض الجنود الصينيين الماهرين في صناعة الورق. فنقل هؤلاء الجنود فن صناعة الورق إلى العرب، فأسس العرب بعد ذلك تبعاً مصانع الورق في سمرقند وبغداد ودمشق وتهامة (على الساحل الغربي من الجزيرة العربية) ومصر والمغرب وغيرها. ومن ثم نقل العرب فن صناعة الورق إلى أوروبا. إن انتقال فن صناعة الورق الصيني إلى العرب قد لعب دوراً عظيماً في تشكيل الحضارة العربية الإسلامية الباهرة وتطورها وفي نهضة الفن والأدب الأوروبية في العصور الوسطى.

وشهدت التجارة الصينية العربية الانحطاط حقة من الزمن في أواخر أسرة تانغ وعهد الأسر الخمس الملكية، وذلك بسبب الاضطراب السياسي داخل الصين وبسبب انتهاك وظلم بعض الحكام والموظفين للتجار الأجانب.

في أسرة سونغ الملكية (٩٦٠ - ١٢٧٩م)، ازداد يوماً فيوماً عدد التجار العرب الذين جاءوا إلى الصين، فتطورت العلاقة الصينية العربية تطوراً عظيماً. ابتداءً من السنة الثالثة لعهد تيان تسان في أسرة لياو الملكية (سنة ٩٢٤م) إلى عهد كايشي في أسرة سونغ (سنة ١٢٠٧م)، أرسلت داشي بصورة

رسمية رسلها إلى الصين ٣٩ مرة. وكان كثير منهم مبعوثاً من قبل الحكومات المحلية، مثل سلطنة السلاجقة والموصل وغيرها وبالمقارنة مع أسرة تانغ، كانت النسبة الكبرى من الرسل في واقع الأمر من أصحاب السفن والتجار، وكان ذلك له علاقة مع انحطاط وضعف الإمبراطورية العربية آنذاك، وتغير وضعهم كرسل في عهد أسرة سونغ، فكان ذلك سبباً وثيقاً لتطور التجارة الصينية العربية أكثر فأكثر في أسرة سونغ.

في أسرة سونغ، كانت السفن الصينية تصل دائماً مصب نهر الفرات (شط العرب) وعدن والصومال وغيرها للتجارة، وكانت البضائع الصينية التي نقلت إلى البلدان العربية هي الخزف، الحرير، الذهب، الفضة، العملة النحاسية، الحديد، السكاكين، السيوف، جلد القرش، المخمل والمنسوجات النباتية وغيرها. أما السفن العربية التي كانت تصل الصين، فكانت تقلع غالباً من عدن أو صحار في عمان، والبضائع التي كانت تحملها إلى الصين هي اللبان والعنبر واللؤلؤ وماء الورد والعقيق وقرن الكركدن والعاج والأواني الزجاجية وغيرها.

وكان اللبان والعنبر من الإنتاج العربي الخاص. وحسب احصاء التجارة الخارجية في السنة العاشرة من عهد شينينغ لسونغ شين تسونغ (سنة ١٠٧٧) كانت كمية اللبان المستورد في قوانغتشو وحدها بلغت أكثر من مائة وسبعين ألف كيلو غرام. وكان اللبان من البضائع الخاضعة للبيع الموحد في أسرة سونغ فكان تحت سيطرة الحكومة.

«ماعداء الشاي والملح والزاج، كان اللبان وحده مصدراً للريح العظيم.» وفي أسرة سونغ وكذلك في أسرة تانغ ويوان ومينغ استعملت أوساط الطب الصيني والصيدلية الصينية، الأدوية العربية، وظلت أسماء بعض الأدوية العربية مستعملة مثل المر والحلبة والإهليلج وغيرها. وعندما نقل الطب العربي

والصيدلة العربية إلى الصين، أغنت بصورة أكثر كنز الطب الصيني والصيدلة الصينية.

وتأسست في «المستشفى الإمبراطوري» «دائرة النعمة الواسعة» التي كانت تقوم بدراسة الأدوية العربية وصناعتها واستعمالها. وقد ذكر لي شي تشين عالم الطب الكبير من أسرة مينغ في مؤلفه «الخلاصة الوافية في الأدوية الشافية» كثيراً من الأدوية العربية.

الأديان في الصين:

الديانة البوذية أكبر الأديان في الصين منذ قديم الزمان، فقد ذكرت السجلات التاريخية أن دين بوذا انتشر شمال غربي الصين في القرن الثالث قبل الميلاد، وقد دخل إلى الصين من الهند موطنه الأصلي .

وفي بداية الأمر شاعت تعاليم ماهايانا البوذية في منطقة قومية الخان وهي تتلخص فيما يلي: «الانعتاق الذاتي» و«إنقاذ الجنس البشري».

و(التاوية) هي دين من أديان قومية (الخان) أكبر القوميات في الصين انتشرت في القرن الأول الميلادي، وهي تقوم في أول الأمر على عبادة الأرواح والطبيعة والآلهة.

ثم تحولت إلى مذهبين كبيرين بعد القرن الرابع عشر الميلادي بقليل أحدهما يؤكد على المحافظة على الطبيعة الأصلية أي أن يؤدي المراء الشعائر الدينية بجدية حتى يتحول إلى ناسك يزهد في الدنيا.

وثانيهما يؤكد على العودة إلى الوحدة الحقيقية، وأصحاب هذا المذهب يؤمنون بالأحجية (التاوية) السحرية، وكان الصينيون القدماء من (الخان) يعبدون الأصنام والآلهة الخاصة بهم لذا اختلط أتباع الديانتين: (التاوية)

والبوذية الصينية القديمة وصعب على الأجانب تمييز البوذيين من التاويين وتقول الإحصاءات إنه عندما قامت الثورة الشيوعية في الصين كان في كافة أنحاء الصين نصف مليون راهب وراهبة من البوذيين، وثمانية آلاف كاهن وكاهنة من التاويين.

ولا تزال المعابد البوذية والتاوية ماثلة في الصين، وقد أثرت في عادات الصينيين من (الخان) وثقافتهم.

أما الدين المسيحي. فقد سجلت المدونات الصينية القديمة أن الدين المسيحي نقل إلى الصين ثلاث مرات في التاريخ فنقل أول مرة في القرن الثامن الميلادي وقد سُمى بـ «دين النسطورية» آنذاك، فعاش في الصين ثلاثمائة سنة ثم اندثر على مر الزمن.

ثم عاد إلى الصين مرة ثانية عام ١٢٩٤ فواصله إلى خانبالي (بكين، حالياً) لأسرة يوان (١٢٧١ - ١٣٦٨) متيكورفينو المبشر الإيطالي من جماعة الفرنسيسكان ثم اندثر بعد حين من الدهر.

ثم أتى إلى الصين مرة ثالثة في أواخر القرن السادس عشر، فوصل به إلى بكين المبشران متى ريتشي ويوحنا آدم شال فون بل وهما مبشران من اليسوعيين الكاثوليك فأقاما كنيسة كاثوليكية في الصين. ولم تنتشر تعاليمها الدينية في الصين سوى مائة سنة. وقالت إحصائية الكنائس في أوائل التحرير عام ١٩٤٩: يبلغ عدد المسيحيين في الصين ثلاثة ملايين و٧٠٠ ألف نسمة على مذهب البروتستانتية.

الكنفوشيوية،

ولد كنفوشيوس عام ٥٥١ قبل الميلاد لأب من عائلة ارسقراطية لم تكن ميسورة الحال، وتوفى وابنه في الثالثة من عمره. واشتهرت أمه بالاستقامة وأنشأته نشأة فيها الحزم والشدة وظهرت لديه الميول إلى التعليم والعلم.. نهل من الشرائع والطقوس القديمة. ولما بلغ الثلاثين من عمره.. شهر بسعة معارفه واصبح له تلاميذ يعلمهم.

وقد شغل في شبابه عدة مناصب. كان يجري المحاسبات ويجمع الأعشار من أهراء أسرة ثرية، وفيما بعد أخذ يشرف على رعي القطعان في المراعي العامة.. ثم عمل موظفًا صغيراً. وقد أمضى ثلاثة أشهر وزيراً للعدل في دويلة لو-مقاطعة شاندونغ الحالية- وهو أعلى منصب شغله، وتركه بسبب الاضطرابات السياسية هناك.

قال كنفوشيوس:

إن الخير وهو جوهر التفكير الكنفوشي، قد أصبح المثال للسلوك في المجتمع الصيني.. ينبغي للمرء أن يحب والديه ويحترم الأكبر منه وأن يعطف على اشقائه وأن يكون كريماً ومتفاهماً مع كل إنسان.. وينبغي للمرء أن يتحلى بالقدرة على مقابلة الخطيئة بالفضيلة. كما أكد كنفوشيوس على الولاء والاحترام للسلف. ومن تعاليمه الشهيرة: لا تفعل للآخرين ما لا تحبه لنفسك.

وقد أدى تأكيد كنفوشيوس الشامل على الاستقرار والنظام إلى التأكيد على البنية الاجتماعية في ترتيب مسلسل على أنها المثال. وقد نادى بوجود ان يطيع الأبناء آباءهم والزوجات أزواجهن والرعية مليكها طاعة مطلقة.

وقد أصبح الكثير من اقواله حكماً واقوالاً مأثورة. ومما قال اذا تعلمت من غير أن تفكر فلن تفهم شيئاً. وإذا فكرت من غير أن تتعلم فقدت نفسك. وكان دائماً ما يحض على التعليم: إذا ما مشيت مع اثنين آخرين فلربما اتخذتهما معلمين لي. وكان يقول: عندما نرى أناساً من أهل الفضيلة وجب ان نفكر في مضاهاتهم. وعندما نرى أناساً ذوي طبيعة مناقضة وجب ان نتغلغل في أنفسنا ونتفحصها.

هذا وقد توفي كنفوشيوس عام ٤٧٩ قبل الميلاد.

التقسيم الإداري في الصين

تقع الصين في الجزء الشرقي من قارة آسيا، على الساحل الغربي من المحيط الهادي، ومساحتها حوالي ٩,٦ ملايين كيلو متر مربع، وسكانها ١.٣٧ مليون نسمة تقريباً وبها ٥٥ قومية علاوة على قومية الخان التي تشكل ٩٢٪ تقريباً من مجموع السكان في الصين.

والصين دولة اشتراكية والمجلس الوطني لنواب الشعب هو الهيئة العليا لسلطة الدولة ومجلس الدولة هو الجهاز التنفيذي للهيئة العليا لسلطة الدولة.

التقسيمات الادارية لجمهورية الصين الشعبية كما يلي:

٢٢ مقاطعة. و٥ مناطق ذاتية الحكم. و٣ بلديات خاضعة راساً للادارة المركزية. ٤- بكين عاصمة جمهورية الصين الشعبية.

ومن جهة الأحوال التضاريسية، نجدها مقسمة إلى ٦ أجزاء: شمال شرق الصين، شمال الصين، شرق الصين، جنوب الصين الأوسط، جنوب غرب الصين، شمال غرب الصين. في الشمال الشرقي: مقاطعة هيلونغجيانغ، مقاطعة جيلين، مقاطعة لياونينغ.

في شمال الصين: بكين، تيانجين، مقاطعة خبي، مقاطعة شانشي، منطقة منغوليا الداخلية الذاتية الحكم.

في شرق الصين: مقاطعة شاندونغ، مقاطعة آنهوي، مقاطعة جيانغسو، مقاطعة تشجيانغ، مقاطعة فوجيان، مقاطعة جيانغسي، شانغهاي اكبر المدن في الصين، مقاطعة تايوان امام مقاطعة فوجيان.

في جنوب الصين الأوسط: مقاطعة خنان، مقاطعة هوبي، مقاطعة هونان، مقاطعة قوانغدونغ. منطقة قوانغشي الذاتية الحكم لقومية تشوانغ. في مقاطعة قوانغدونغ جزر دونغشا وجزر شيشا وجزر نانشا الاستوائية في بحر الصين الجنوبي.

في جنوب غرب الصين: مقاطعة يوننان، مقاطعة قويتشو، مقاطعة سيتشوان، منطقة التبت الذاتية الحكم.

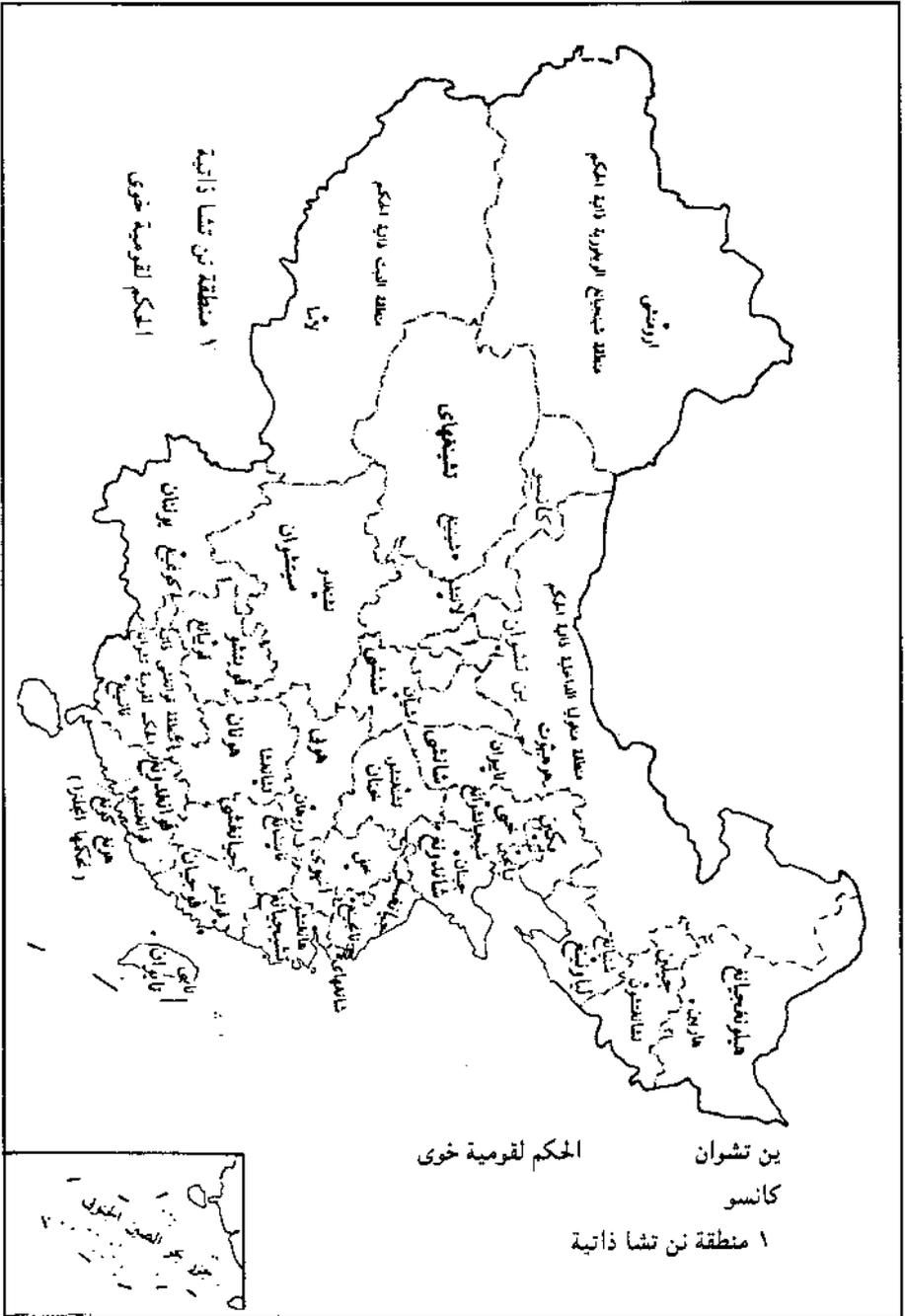
في شمال غرب الصين: مقاطعة شنشي، مقاطعة كانسو، مقاطعة تشينغهاي ومنطقة نين تشا الذاتية الحكم لقومية خوي، منطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم.

في هذه الوحدات الادارية، مقاطعة سيتشوان اكبر المقاطعات تعداداً بالسكان: ١٠٠ مليون نسمة، تشكل ١٠٪ من مجموع السكان في الصين تقريباً. منطقة نين تشا الذاتية الحكم لقومية خوي (اقل الوحدات سكاناً) ٣,٧٤ ملايين نسمة. ومنطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم أكبر المناطق مساحة في الصين.. أي ما يزيد على ١,٦ مليون متر مربع، تشكل سدس مساحة الصين، ولكنها تحوي ١٢ مليون نسمة ويزيد ١٠ أفراد لكل كيلو متر مربع تقريباً. وعلى العكس من ذلك نجد ٥٠٠ نسمة لكل كيلو متر مربع في مقاطعتي شانندونغ وتايوان. ومناخ شينجيانغ جاف، كمية المطر ٣٠ مليمتر في أغلب مناطقها. وفي مقاطعة قوانغدونغ الواقعة في المنطقة المدارية، معدل المطر اكثر من ٥٠٠ ميلمتر في السنة.

ان الصين دولة موحدة متعددة القوميات، ولذا تأسست فيها مناطق ذاتية الحكم بأسماء مشتقة من قومياتها. فمثلاً منطقة نين تشا الذاتية الحكم لقومية خوي. ومنطقة شينجيانغ الويغورية أي سينكيانغ الذاتية الحكم. ويعتق السكان في المنطقتين الدين الإسلامي.

ومنطقة التبت الذاتية الحكم. ومنطقة منغوليا الداخلية الذاتية الحكم، وأغلب السكان في المنطقتين يدينون بدين لاما. ومنطقة قوانغشي الذاتية الحكم لقومية تشوانغ. وبالإضافة إلى ذلك، تأسست ولايات ومحافظة ذاتية الحكم للاقليات القومية في بعض المقاطعات. مقاطعة يوننان على سبيل المثال: ليست منطقة ذاتية الحكم، ولكنها زاخرة بالاقليات القومية، فتأسست هنالك ٩ ولايات ذاتية الحكم و١٩ محافظة ذاتية الحكم للاقليات القومية. وتوجد ٢٩ ولاية مماثلة ذاتية الحكم للاقليات القومية، كما توجد ٧٥ محافظة أو لواء ذاتية الحكم للاقليات القومية في الصين.

بالإضافة إلى الوحدات الادارية من مستوى المقاطعة والمنطقة الذاتية الحكم والبلديات في الصين، توجد وحدات ادارية دون المقاطعة.. تأسست هذه الوحدات الادارية في المناطق الادارية الخاصة التابعة للمقاطعات - وتوجد وحدات إدارية من مستوى المدينة والمحافظة تحت إدارة المناطق.. انها وحدات ادارية رئيسية في الصين. وتوجد ٢٢٠ مدينة و٢١٣٧ محافظة (تشمل ألوية).



خريطة المقاطعات والبلديات الخاضعة رأساً للإدارة المركزية ومناطق الحكم الذاتي في الصين

العلوم الإسلامية في الصين:

استكمالاً للفائدة رأيت أن أثبت هنا مقالاً سلمه لي باليد الأستاذ الشيخ الحاج/ عبدالرحمن ناجون أستاذ اللغة العربية والتاريخ الإسلامي بجامعة اللغات الأجنبية ببيكين - الصين؛ بعنوان (العلوم الإسلامية في الصين) وهو من المتخرجين من الأزهر وقد اجتمعنا به في بكين كما سيأتي في اليوميات إن شاء الله تعالى. قال:

دخل الإسلام في الصين منذ أكثر من ١٣٠٠ سنة، بلغ عدد المسلمين حوالي خمسة عشر مليون نسمة ينتسبون إلى عشر قوميات. وقد قدموا مساهماتهم في بناء البلاد وتطوير أواصر الصداقة مع شعوب الدول العربية الإسلامية ومع كافة المسلمين في أنحاء العالم. شأنهم شأن أبناء القوميات الأخرى.

قال النبي محمد عليه الصلاة والسلام: «اطلبوا العلم ولو بالصين».

واتباعاً لهذا الحديث الشريف أوفد الخلفاء مندوبيهم الدبلوماسيين إلى الصين. وقد وصل الوفد الأول المبعوث من قبل الخليفة عثمان بن عفان إلى مدينة تشانغآن عاصمة الصين آنذاك في اليوم الثاني من صفر سنة ٣١هـ الموافق لـ ٢٥ آب (أغسطس) سنة ٦٥١م في عهد أسرة تانغ كما قوبل بالاستقبال من قبل إمبراطور الصين إيذاناً بتدشين جسر الصداقة بين الصين والعرب. ومنذ القرن السابع جاء المسلمون العرب إلى الصين للتجارة عن طريق البحر والبر حسب ما جاء في الروايات التاريخية. ويمتد طريق البحر من شبه جزيرة العرب إلى مدن قوانغتشو (كانتون) وتشيوانتشو (الزيتون) وهانغتشو ويانغتشو حتى تشانغآن عاصمة الصين عبر خليج منار وخليج بنغال ومضيق وبحر الصين الجنوبي بينما يمتد طريق البر من فارس وأفغانستان إلى تشانغآن عبر مقاطعة شينجيانج.

وبفضل استيطان بعض هؤلاء المسلمين القادمين في الصين، واعتناق بعض الصينيين للإسلام فقد أنتشر الإسلام في الصين بالتدريج، خلال أكثر من ألف وثلاثمائة سنة. وقد قدم المسلمون الصينيون مساهماتهم في مختلف المجالات. دعونا نتكلم أولاً عن منجزاتهم العلمية وحماستهم في استقصاء المعارف.

قام المسلمون الصينيون بدراسة العلوم التي يتخصص بها المسلمون العرب وإدخالها إلى الصين وخاصة علم الطب والرياضيات والفلك، أما الأدوية والوصفات والمعلومات الطبية الأخرى التي نقلوها إلى الصين فقد ذكرت في صفحات كثيرة من كتاب «أصناف العقاقير الصينية» الذي طبع في القرن الثاني عشر، وكتاب «الموسوعة الطبية الصينية» الذي طبع في القرن السادس عشر. وكان المسلمون الصينيون يقومون برصد أحوال الجو بمساعدة علم الفلك العربي والفارسي. وفي القرن الثالث عشر أنشئت إدارة إسلامية خاصة بمراقبة الأرصاد الجوية ووضع التقويم الصيني. وفي سنة ١٢٦٧ اخترع الفلكي المسلم جمال الدين «المنواة المتعددة الحلقات» و «المنواة الموجهة» و «الكرة السماوية» و «الكرة الأرضية» ... إلخ.

وكان التقويم الهجري مرجعاً لوضع التقويم الصيني على مدار أربعمئة سنة ابتداء من أواسط القرن الثالث عشر. وفي عام ١٣٨٢ تكلفت جهود أحد مشايخ المسلمين بالنجاح في ترجمة الكتب العربية الخاصة بالتقويم والجغرافيا والفلك مما كسب الإطراء من قبل بلاط الإمبراطور، وحيث أن الرياضيات هي أساس علم الفلك فقد انتقلت الكتب الرياضية العربية هي الأخرى إلى الصين في الوقت بالذات. وقد أثبتت ذلك السجلات التاريخية في عهد أسرة يوان. ومن جراء ذلك انبثقت أعداد كبيرة من الأكفاء في علم الفلك والرياضيات من بين المسلمين الصينيين في عهد أسرتي يوان ومينغ.

وقد عرف المسلمون الصينيون بمهارتهم الفائقة في البناء المعماري.

ففي الأيام الأولى من قدومهم إلى الصين بنوا مساجد في تشانغآن وقوانغتشو وتشيوانتشو وهانغتشو تيسيراً لأداء شعائرهم الدينية، من ذلك أن مسجد هانغتشو الذي بناه علاء الدين في القرن الرابع عشر كان قد نال ثناء الرحالة العربي ابن بطوطة وقت زيارته للصين.

وقد رمم هذا المسجد مرات عديدة فهو لا يزال باقياً حتى وقتنا الحاضر. وقد تكلف اختيار علاء الدين البناء المرموق بمهمة تخطيط بناء القصور للإسرة الملكية سنة ١٢٦٦م مما أرسى أساساً لبناء قصر الإمبراطور الحالي ببكين.

كان تعلم المسلمين الصينيين للفكر الإسلامي يجري عن طريق التلقين الشفوي. وقد بدئ، في أواخر القرن السادس عشر، بالتعليم الديني في مساجد مقاطعة شنشي. ومن هنا صار في كل مسجد عدة طلاب يتعلمون من إمامه القرآن الكريم والحديث والفقه والتوحيد وكذلك اللغة العربية والفارسية.

لقد ظل التعليم الإسلامي الصيني ينهج هذا النظام التعليمي الاستثنائي. ومع ذلك فقد توصل إلى إعداد الآلاف المؤلفة من أئمة المساجد الذين لا يستغنى عنهم للمسلمين الصينيين، مما جعل الدين الإسلامي باقياً في الصين على مدى أكثر من ألف سنة. إن ذلك لمن الإسهامات التاريخية التي قدمها التعليم الديني داخل المساجد في نشر الدين الإسلامي في الصين، وما عدا هذا فقد تمخض ذلك عن إعداد مجموعات من فحول العلماء الإسلاميين الذين مكنهم تفانيهم في دراسة الشريعة الإسلامية من تأليف الكثرة الغامرة من الكتب الإسلامية القيمة باللغتين العربية والصينية. وأشهرهم الشيخ «وانغ داي يوي» (حوالي ١٥٦٠ - ١٦٦٠م) صاحب كتاب «توضيح الدين الحنيف»، والشيخ «ماتشو» (١٦٤٠ - ١٧١١م) صاحب كتاب «إرشاد الإسلام»،

والشيخ «ليوتشه» (١٦٦٠ - ١٧٢٠م) صاحب كتب «أحكام الإسلام» و «حقائق الإسلام» و «سيرة خاتم الأنبياء»، والشيخ «مافوتشو» صاحب كتاب «صفوة أصول الإسلام الأربعة»... إلخ ولم تكن هذه المؤلفات الدينية تتناقلها أيدي الجموع الغفيرة من المسلمين جيلاً بعد جيل فحسب بل فتحت لغير المسلمين نافذة على تعاليم الإسلام هي الآخري.

وصفوة القول أن التعليم الديني داخل المساجد الصينية قد لعب دوراً لا يستهان به في نشر وتنمية الإسلام في الصين.

وبعد أن وضعت حرب الأفيون عام ١٨٤٠ أوزارها تضاءل شأن الصين حتى أصبحت بلداً شبه إقطاعي وشبه مستعمر. ومن أجل إنقاذ البلاد من الانهيار، هب أبناء الشعب الصيني في النهوض بحركة الإصلاح العارمة.

وفي ظل ذلك انتاب أصحاب الهمة من المسلمين الصينيين شعور عميق بأن التعليم الديني الإسلامي التقليدي في الصين بقي عاجزاً عن مواكبة مقتضى العصر بحيث تملكتهم الرغبة الشديدة في إصلاح التعليم الديني الصيني. ففي عام ١٩٠٧ لجأ الطلاب المبعوثون من المسلمين الصينيين إلى اليابان، أول ما لجأوا، إلى تأسيس منظمة ما يسمى بـ «جمعية التعليم الإسلامي للطلاب المسلمين الصينيين الموجودين في طوكيو» كما أصدروا أول عدد من مجلة «توعية المسلمين» - وهي أكبر مجلة من نوعها في الصين - وقد أبدوا في هذا العدد آراءهم المسائرة لمقتضى العصر حيال تجديد وتطوير التعليم الإسلامي الصيني خاصة وأن ثورة ١٩١١ التي قادها الدكتور «صن بات صن» من اجل الاطاحة بأخر اقطاعية في الصين، وان حركة «٤ مايو» ١٩١٩ الوطنية ذات الشهرة العالمية لمعارضة الإمبريالية والإقطاع، قد زادت من تهيج حماسة المسلمين الصينيين الوطنية وإشعال غيرتهم لرفع شأن البلاد. وبتأثير من هذا الوضع ودفعه أدخلوا بعض التجديدات على التعليم الإسلامي الصيني.

وفي وقت أبكر من ذلك، كان الامام الشهير «ما ليان يوان» (١٨٤١ - ١٨٩٥م) من مواليد مقاطعة يوننان، تلميذ الشيخ «مافوتشو» قد نادى قبل غيره بالتعليم باللغتين الصينية والعربية معاً. وقد ألف وترجم كثيراً من الكتب الإسلامية باللغتين المذكورتين أعلاه، وقام بتحرير الآيات القرآنية المقرونة بالترجمات الصينية بجانب انجازه مشروعاً ضخماً: طباعة أول مصحف من القرآن الكريم نقش على الخشب، بفضل دعم السيد «دوون شيو» زعيم انتفاضة المسلمين الصينيين وقتئذ، وقد بلغ عدد من تتلمذ عليه أكثر من ألف شخص بمن فيهم كثير من العلماء النابغين في أنحاء بلاد الصين.

العلاقة بين الصين والعرب في القرون الوسطى:

لقد اتسعت التجارة بين الصين وبلاد العرب منذ القرن السادس الميلادي وزاد اتساعها منذ القرن السابع حتى القرن الرابع عشر الميلادي، وقد سلكت التجارة الصينية العربية طريقين رئيسيين في القرون الوسطى:

أحدهما كان طريقاً برياً من بغداد إلى تشانغان عبر إيران وسط آسيا حيث طريق الحرير المعروف، وذلك كما كان في عهد أسرة خان الملكية.

أما الطريق الآخر فكان يبدأ كذلك من بغداد ويمر الخليج العربي (الفارسي) والمحيط الهندي ثم يجتاز شبه جزيرة الملايو وينتهي في كانتون وكثيراً ما كانت تُرى في مدينة بغداد عاصمة العباسيين السفن والبضائع الصينية وعلى الأخص الحرير والخزف الصيني والورق والمسك حيث تباع في سوق خاصة للبضائع الصينية وفي تشانغان كان التجار العرب والفرس يعرضون بضائعهم في «السوق العربية».

واقوى الأدلة التي تدل على نفوذ الصين البحري بالخليج العربي (الفارسي) في القرن التاسع من الميلاد وجود فلوس الصين بسيراف، ولقد ذكر ابو زيد

الحسن أن هذه الفلوس مصنوعة من نحاس وإخلاق من غيره ومعجونة به وفي وسط الفلوس ثقب واسع يدخل الخيط فيه وقيمة كل الفلوس مثقال من ذهب وينظم الخيط فيها الفلوس فإذا ابتاع أحد ضياعاً أو بغلاً فما فوقه دفع من هذه الفلوس على قدر الثمن وهي موجودة في سيراف وعليها نقش لكتابتهم.

وكانت السفن العربية في عهد أسرة تانغ الملكية ترسو بشكل رسمي في كانتون وخلال عهد أسرة سونغ الجنوبية الملكية (١١٢٧-١٢٧٩م) كانت معظم التجارة البحرية تذهب إلى هانتشو في مقاطعة تشكيانغ، أما خلال عهد أسرة يوان الملكية (١٢٨٠ - ١٣٦٨م) فكانت تذهب إلى تشوانشو في مقاطعة فوكيان وكان هذا الميناء مزدهراً حتى إن الرحالة العربي المشهور ابن بطوطة الذي زاره في القرن الرابع دعاه «المركز التجاري للعالم» ومن أبرز ما كان يجلبه التجار العرب للصين الياقوت والجواهر واللآلي والاحجار الكريمة والعطور والعقاقير.

لقد استقر كثير من التجار العرب في الموانئ على طول ساحل الصين الشرقي. وكان بعضهم يأتي في فترات مختلفة من مراكزهم التجارية في مختلف الجزر ومحلات تجارية في الصين نفسها وكانوا قد كسبوا ثروة طائلة في الصين.

العلاقة الدبلوماسية بينهما في القرون الوسطى:

كانت العلاقة الدبلوماسية بينهما في القرون الوسطى (السفارات) قد بدأت في زمن الخلفاء الراشدين ففي عام ٦٥١م قام أول اتصال دبلوماسي بين الصين والامبراطورية العربية وكان عبارة عن بعثة أرسلها الخليفة عثمان بن عفان للامبراطور «كاتسنگ» من أسرة تانغ الملكية. ويتضمن تاريخ الأسرة الحاكمة الصينية في ذلك العهد فصلاً يعرف بـ «سجل تاشيه» (كتاب تاريخ العرب) يصف جغرافية ومنتجات العالم العربي.

ومن تاريخ «تانغ» نعرف ان سبع عشرة سفارة إلى عاصمة الصين في زمن الأمويين.

ويقيم الدولة العباسية في سنة ٧٤٩م بدأت العلاقة الدبلوماسية بين خلفاء بغداد وابطرة الصين، وأهم السفارات التي وقعت في هذا العهد ما كان مبعوثاً من قبل أبي العباس مؤسس الدولة العباسية وابي جعفر المنصور مؤسس مدينة بغداد وهارون الرشيد بطل قصص «الف ليلة وليلة» وكان العباسيون في تاريخ الصين معروفين باسم «خبي تاشي» اي العرب ذوي الملابس السود تميزوا عن الامويين الذين عرفوا باسم «بيي تاشي» اي العرب ذوي الملابس البيض وقد سجل تاريخ الصين زهاء ٣٧ بعثة عربية خلال اسرة تانغ الملكية (٦١٨-٩٠٧م) وقد ذكر أبو زيد الحسن في كتابه ان رفيقه ابن وهب قد قدم إلى عاصمة الصين آنذاك تشانغان (حالياً سيآن) وانه قد حظى بمقابلة الامبراطور شي توسنغ (في القرن التاسع) حيث لقي منه الإكرام واغدق عليه الكثير من الهدايا كما منحه امتيازاً خاصاً بالعودة إلى كانتون ممتطياً حصان البريد.

وكانت السفارات العربية إلى الصين في اسرة «تسونغ» اكبر مما كان في اسرة تانغ. فقد ورد في المؤلفات التاريخية الصينية زهاء ٤٩ بعثة عربية خلال عهد اسرة تسونغ (٩٦٧-١١٦٨م) فكانت ارسلت بعثة واحدة لكل اربع سنوات تقريباً.

ومعظم هذه السفارات كانت في قصد تحسين التجارة بين الصين والعرب فكانت أغلبها جاءت من قبل تحرير التجار العرب انفسهم أو من اصحاب السفن التجارية العربية أو من حكام أو امراء الولايات التابعة للدولة العربية. ويظهر ان اكثرها قد اختارت طريق البحر.

تأثير علوم العرب في الصين:

ومنذ القرن السابع جاء المسلمون العرب إلى الصين للتجارة عن طريق البحر والبر حسب ماجاء في الروايات التاريخية، وبفضل استيطان بعض هؤلاء المسلمين القادمين في الصين واعتناق الصينيين للإسلام فقد انتشر الإسلام خلال أكثر من ألف وأربعمائة سنة وقد قدم المسلمون الصينيون مساهماتهم في مختلف المجالات. دعونا نتحدث أولاً عن منجزاتهم العلمية وحماستهم في استقصاء المعارف.

قام المسلمون الصينيون بدراسة العلوم التي يتخصص بها المسلمون العرب وإدخالها إلى الصين وخاصة علم الطب والرياضيات والفلك. أما الأدوية والوصفات والمعلومات الطبية الأخرى التي نقلوها إلى الصين فقد ذكرت في صفحات كثيرة من كتاب «اصناف العقاقير الصينية» الذي طبع في القرن السادس عشر. كان المسلمون الصينيون يقومون برصد احوال الجو بمساعدة علم الفلك العربي الفارسي وفي القرن الثالث عشر أنشئت ادارة خاصة بمراقبة الارصاد الجوية ووضع التقويم الصيني، وكان التقويم الهجري مرجعاً لوضع التقويم الصيني على مدار اربعمائة سنة ابتداء من اواسط القرن الثالث عشر. وفي عام ١٣٨٢ حاز احد المسلمين نجاحاً باهراً في ترجمة الكتب العربية الخاصة بالتقويم والجغرافية والفلك مما كسب المكافأة من قبل بلاط الامبراطور وحيث أن الرياضيات هي اساس علم الفلك فقد انتظمت الرياضية العربية هي الأخرى إلى الصين في الوقت نفسه. وقد اثبتت ذلك السجلات التاريخية في عهد اسرة يوان المغولية. ومن جراء ذلك انبثقت اعداد كبيرة من الاكفاء في علم الفلك والرياضيات من بين المسلمين الصينيين في عهد اسرتي يوان ومينغ.

وقد تعلم الصينيون من الفلكيين العرب على الكثير من النجوم الاسماء التي تدعى لها حتى الآن. وفسروا الافكار العلمية الأولى للنظام الشمسي وقد

اهدى جمال الدين في عام ١٦٦٧م إلى كوبلاي خان في بكين سبع ادوات
فلكية تدعى لها بالعربية حتى الآن. وهي:

- ١- ذات حلق.
- ٢- ذات سموت.
- ٣- لجمة معوج.
- ٤- لجمة مستوي.
- ٥- كرة سماء.
- ٦- كرة أرض.
- ٧- استولات.

كما اهدى إليه جمال الدين نوعاً جديداً من الزيج عرف بـ «الزيج الدائم»
واستخدم الزيج العربي جنباً إلى جنب مع الزيج الصيني خلال أسرة مينغ الملكية
(١٣٦٨-١٦٤٤م).

تأثير الثقافة الصينية في العالم العربي:

صناعة الورق:

لقد اظهر العرب في الأزمنة القديمة اعجابهم بالثقافة الصينية وتقديرهم لها ،
ففي القرن الثامن وصل فن صناعة الورق إلى بلاد الخلافة وانشئ في مدينة
بغداد المصنع الأول للورق عام ٧٩٤م كما دخلت الطباعة هناك في نفس الفترة،
ثم انتقلت صناعة الورق إلى دمشق ثم إلى القاهرة والاسكندرية، ثم إلى صقلية
ثم إلى اسبانيا وأوروبا، وبانتشار صناعة الورق في أوروبا تطورت العلوم
والثقافات في أوروبا، والفضل في ذلك يرجع إلى العمال الصينيين، وإلى
العرب، وهذا ما يعترف به العالم ويتفق عليه علماء الشرق والغرب على
السواء.

صناعة الخزف:

وقد أظهر العرب اعجاباً كبيراً بالخزف الصيني الذي يسمونه «صينيا» نسبة إلى الصين.

أقبل العمال في الشرق العربي على تقليد التحف الصينية اصابوا في بعض الأحيان نجاحاً يتفاوت مداه ولا ريب في ان بدء هذا التقليد يرجع إلى فجر الإسلام.

بدأ العرب في صنع الخزف على الطريق الصيني في القرن التاسع، فقد ظهرت هناك اكتشافات جديدة في «سامرا» عاصمة الخلافة العباسية في التاسع من الميلاد تؤكد وجود علاقات صناعية بين الصين وبين بلاد العرب لان من حفرات سامرا بعض اوان عريية صنعت على شكل اوان صينية وعدد كبير من خزف الصين التي وردت إلى سامرا إما بواسطة التجار، وإما بواسطة السفراء الذين كانوا موفدين إلى الصين.

وأخذ المصريون يقلدون في صناعة الفخار والخزف- صناعة الصين لعهد سونغ وعهد يون، خصوصاً الأواني التي صنعت في ولاية جيكيانغ، فان هذه الأواني كانت تنتقل كمتاجر من الشرق الاقصى إلى الأدنى في ايدي التجار العرب وقد اكتشفت أواني الخزف الصيني في مصر، فقد تبين أن الخزف الصيني وصل إلى وادي النيل لأول مرة في القرن العاشر - عهد الطولونيين (٨٦٨ - ٩٠٤م) ثم بدأ المصريون يقلدون خزف سونغ الصيني في عهد الفاطمية (٩٦٩ - ١١٧٠م) ولكن لم تتسع دائرته إلا في عصر المماليك (١٢٥٠-١٥١٧م).

وفي القرن الثالث عشر في أسرة يون الملكية ، قدم كثير من العرب إلى الصين واستقرّوا فيها. وقد تلقى عدد غير قليل منهم التعليم الصيني

واجتازوا الامتحان الرسمي للخدمة العامة، وأصبحوا موظفين، ومنهم بوشاوتشغ قد عين ونظّم ديواناً من الشعر بالاسلوب الكلاسيكي. وأما أخوه بوشاوكنغ فكان مساعداً لرئيس وزراء كويلاي خان (١٢١٥-١٢٩٤).

الرحال العرب إلى الصين

ومن المسلمين الذين زاروا الصين رحالة عربي اسمه سليمان، وقد كتب كتاباً وصف فيه سياحته في الهند والصين - كتبه سنة ٨٥١م. ومعه ذيل كتبه نحو سنة ٩١٦م مؤلف اسمه ابوزيد الحسن. وفي هذه الرحلة بيانات عن علاقة المسلمين بالصين في القرنين التاسع والعاشر من الميلاد منها مدينة تشوانشيو، وقد كانت مجتمع التجار - وكان سليمان التاجر أول من ذكر من العرب لباس الحرير وصناعة الحرير. ثم حذا حذوه علماء آخرون فلذا نجد في الاسفار العربية كثرة الحديث عن تجارة الحرير والديباج وصناعتها. فلا غرو ان هؤلاء التجار قد حملوا إلى بلادهم بعض القطع النادرة من الديباج والحرير فحاكوا صناعته رسماً ونسجا بعد ان تعلموا تربية دود القز واستخراج خيوط الحرير من بطونها.

ومما ذكره ابو زيد ان السفن الصينية القادمة من سيراف كانت اذا وصلت جدة اقامت بها ونقل ما فيها من الأمتعة التي تحمل إلى مصر في مراكب خاصة كانت تسمى مراكب القلزم لأن مراكب السيرافيين كانت لا تستطيع الملاحة في شمالي البحر الأحمر. كما أن الرحالة العربي ابن بطوطة زار عدة مدن ساحلية بالصين في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي. قد زار مدينة تشوانشوا واعتبرها المركز التجاري للعالم. وتحدث عن حسن لقاء المسلمين فيها وذكر ان في كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناها ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وهم معظّمون محترمون وقد ذكر الفخار الصيني «اما الفخار الصيني فلا يصنع منها الا بمدينة الزيتون يحمل إلى الهند وسائر الاقاليم حتى يصل إلى بلادنا بالمغرب، وهو ابداع أنواع الفخار وأهل

الصين أعظم الامم إحكاماً بالصناعات واشدهم اتقاناً فيها وذلك مشهور من حالهم قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه. واما التصوير فلا يجاريهم احد في إحكامه من الروم ولا من سواهم... ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت سوق النقاشين ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابي ونحن على زىّ العراقيين، فلما عدت من القصر عشياً مررت بالسوق المذكورة فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد (ورق) قد الصقوها بالحائط فجعل كل واحد منا ينظر إلى صورة صاحبه فلا تخطئ شيئاً من صورته وذكروني ان السلطان امرهم بذلك وانهم اتوا إلى القصر ونحن به فجعلوا ينظرون الينا ويصورون صورنا، ونحن لم نشعر بذلك، وكانت عادة لهم في تصوير كل من يمرّ بهم وتنتهي حالهم في ذلك أن الغريب اذا فعل ما يوجب فراراً منهم بعثوا صورته إلى البلاد ويحثوا عنه فحينما وجد شبه تلك الصورة قبض عليه».

الرحالة الصيني تشينغ هو:

وجدير بالذكر أن البحار (تشنغ هو) المشهور في العالم هو من مسلمي مقاطعة يوننان من قومية خوي، وقد سافر جدّه وابواه إلى مكّة لاداء فريضة الحج وفي سنة ١٤٠٥ أمرته حكومة اسرة منغ بالابحار على رأس اسطول ضخم يتألف من ٦٢ سفينة ويبلغ طول كل سفينة حوالي ١٥٠ متراً، وعرضها حوالي ٦٠ متراً، ومن ٢٧٨٠٠ بحار. وفي فترة ٢٨ سنة من ١٤٠٥ - ١٤٣٣ سبق لتشينغ هو ان قام بسبع رحلات زار خلالها ٣٥ من الأقطار الأفروآسيوية. انه أول من وصل إلى جنوب خط الاستواء على سواحل افريقيا الشرقية. وقد سبق تشينغ هو البحار كولومبس بقرن ونيف، علماً بأن اسطوله يفوق الاسطول الغربي حوالي ٢٠ مرة من حيث عدد سفنه ويعتبر ذلك فذا في تاريخ الابحار.

وقد وصل تشينغ إلى كثير من اقطار ومناطق المسلمين مثل ماليزيا واندونيسيا وشبه قارة الهند والبنغال وباكستان وإيران ومالديف وظفار وعدن

الخ. وقد وصل إلى مكّة في رحلته السابعة لاداء فريضة الحج، وكان لرحلات تشينغ هو اثرها في تعزيز روابط الصداقة بين الشعب الصيني والشعوب الإسلامية في آسيا وافريقيا، وفي دفع تبادلات الثقافة والاقتصاد وتطوير المواصلات بين الصين والدول الأخرى. أما «ماخوان» و «في سين» و «قونغ تشن» الذين كانوا يرافقون تشينغ هو في رحلاته فقد كتبوا كل على حدة كتاب «مشاهدات في العالم» وكتاب «مشاهدات متفرقة» وكتاب «مذكرة في الدول الأجنبية» وتعتبر هذه المؤلفات من أهم الوثائق لبحث العلاقات الودية بين الصين ودول آسيا وافريقية في ذلك العهد.

انتهى ما كتبه الشيخ عبد الرحمن ناجون.

اليوميات الصينية

يوم الأربعاء، ١٠ رجب ١٤٠٤هـ - ١١ أبريل ١٩٨٤

من الرياض إلى كراتشي:

غادرت طائرة الخطوط السعودية مطار الرياض الدولي في الساعة الثانية والنصف قبل فجر هذا اليوم متجهة إلى كراتشي في باكستان وأعلنت المضيئة أن السفر إلى كراتشي سيستغرق ساعتين ونصفاً.

وكان المرور بمدينة كراتشي ضرورياً من أجل الحصول على سمات الدخول من القنصلية الصينية الشعبية حيث أبلغتنا الجمعية الإسلامية أن الحكومة الصينية أمرت سفارتها في باكستان بمنحنا سمات الدخول إلى الصين الشعبية.

وقد وصلنا إلى كراتشي في الساعة صباحاً وكان الفجر قد طلع علينا في الطائرة وقد أفتثرغر الشرق عن الشمس بعد وقت قصير من ابتداء طلوع الفجر لأن طائرنا كانت متجهة جهة الشرق والنور متجه جهة الغرب فكان أن التقيا بسرعة.

ووجدنا في مطار كراتشي الأخ الشيخ أفضل شيما وهو قاض متقاعد ويعمل الآن مديراً لمكتب رابطة العالم الإسلامي في باكستان كما يعمل مديراً لمكتب التنسيق الإسلامي لآسيا والمحيط الهادي الذي أنشأته الرابطة ومقره باكستان والشيخ نور أحمد مدير إدارة الدعوة والإرشاد في مؤتمر العالم الإسلامي الذي مقره كراتشي، وجلسنا فيما يسمى بصالون الشرف بينما كان يسعى في تخليص أمتعتنا التي كانت فيها صناديق من الورق المقوى تحتوي على هدايا للأخوة المسلمين وغيرهم من الوجهاء الذين يفترض ان نلتقي بهم هناك وتشتمل تلك الهدايا على ساعات وأشرطة عليها القرآن الكريم بأصوات مقرئين مشهورين وأجهزة تسجيل لتجعل في بعض المساجد حتى يسمع القرآن في المسجد ومع ذلك تمر المدينة المنورة.

أما الكتب والمصاحف فقد تم شحنها إلى الصين لتصل قبلنا بأيام معدودة وهي كثيرة بلغت أجرة شحنها مائة وستة وعشرين ألف ريال سعودي.

وهذا إلى جانب مبالغ نقدية من الدولارات نحملها من صندوق المجلس الأعلى العالمي للمساجد مع النظر في أمر مساعدات مالية جديدة للمشروعات الإسلامية بناء على ماتم أمره بشأن المساعدات السابقة.

الخميس ١١/٧/١٤٠٤هـ / ١٢ أبريل ١٩٨٤م.

لقد انتهى ما أردناه من القنصلية الصينية في كراتشي من الحصول على سمات الدخول إلى الصين وكذلك من تأكيد الحجز لدى شركة الطيران الفرنسية (إير فرانس) دون أية صعوبة إلا صعوبة واحدة بالنسبة إلي وهي ضياع اليوم الخميس دون عمل يذكر ما عدا مقابلة بعض العلماء والمفكرين الباكستانيين الذين كنت أعرفهم من قبل وزاروني في الفندق عندما علموا بوصولي ومنهم الدكتور انعام الله خان الأمين العام لمؤتمر العالم الإسلامي. والشيخ جمال ميا عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي والشيخ ظفر الإنصاري.

ولم أغادر الفندق لأن مدينة كراتشي معروفة عندي وليس فيها ما يستحق أن يجدد به العهد ولم أر فيها شيئاً يحسن أن ينوه به إلا التحسن في مرافقها العامة من الشوارع والحدائق ومظاهر الرخاء الاقتصادي أو وفرة النقود عند أهلها التي تتمثل بكثرة سيارات الركوب الجديدة، ووفرة السلع في متاجرها مما لا تجد مثيله ولا قريباً منه في أكثر المدن الهندية التي كانت شقيقة لكراتشي قبل تقسيم الهند وإنشاء دولة باكستان.

يوم الجمعة ١٢/٧/١٤٠٤هـ / ١٣/٤/١٩٨٤م

من كراتشي إلى بكين:

غادرنا مطار كراتشي في الساعة الثانية والنصف قبل الفجر مع طائرة الخطوط الجوية الفرنسية (ايرفرانس) وهي من طراز بوينج ٧٤٧ النفاث العملاق المسمى جامبو الذي الف الناس ركوبه الآن في الرحلات الطويلة وكان قبل ذلك قليل العدد غير شائع.

وكانت الدرجة الأولى أشبه ما تكون بغرفة ضيافة أو (مقهاة) في بيت عربي أصيل، إذ لم يكن يسمع فيها إلا اللغة العربية من أصوات مختلفة فقد كنا فيها نحن الوفد السعودي إلى الصين وعددنا سبعة ووفد عماني صعد الطائرة معنا من كراتشي وعدد أفرادهم ثمانية ولولا أنه يوجد اثنان من الأجانب أظنهما من الفرنسيين لصارت الدرجة الأولى كلها قطعة عربية طائرة حتى المضيف أصابته عدوى التعريب فلما حان وقت صلاة الفجر أخذنا نسأله عن جهة المغرب لنعلم منها جهة الكعبة فكان لسانه انطلق بالعربية يقول (قبله، قبله، قبله)، سوف أسأل الطيار وأخبركم ثم عاد وهو يشير إلى مؤخرة الطائرة قائلاً هنا (القبلة).

ولم تكن اللغة العربية هي المظهر الوحيد في هذه الطائرة التي تسافر من بلاد السند (كراتشي) إلى بلاد الهند (دهلي) أو على الأصح في لغتنا العربية (دهلي) كما كان أسلافنا العرب يسمونها.

بل كان الزي أيضاً عربياً خالصاً فنحن نرتدي الملابس العربية الكاملة لأننا في زيارة رسمية والأخوة العمانيون هم وفد تجاري رسمي أيضاً لذلك يلبسون الملابس العمانية الأصيلة وفي الدرجة الأولى أيضاً أخ جزائري مسافر إلى بكين وقد ركب هذه الطائرة من باريس. وفي الساعة الرابعة تماماً حطت الطائرة في مطار دهلي ويوافق هذا الرابعة والنصف بتوقيت دهلي.

وكانت صلاة الفجر في الطائرة أشبه بالمظاهرة إذ تجنب المضيفون والموظفون الدخول عند الصلاة وكنا عددًا لا بأس به حتى الأخ الجزائري قال: إنه كان ينوي تأخير الصلاة إلى بكين ولكنه تشجع عندما رأنا وقام يصلي ويتعبد تقبل الله منا ومنه.

ثم قامت الطائرة إلى بكين في الخامسة فجرًا بتوقيت كراتشي بعد أن لبثت في مطار دلهي ساعة قاصدة جهة الشرق الذي أشرق بنور الصباح الوضاء أو كأنها كانت تبحث فيه عن مصدر هذا النور المنبثق.

وما أسرع أن ارتفعت في الجو وعلت بل تعالت على متن السحاب فأسرعت الشمس تشرق وهي تبتسم في هذا اليوم البهيج على الأقل بالنسبة إليّ لأنه كان من أمنياتي العظيمة أن أزور الصين التي كانت تفرن في كتبنا العربية القديمة بالهند فكان اسلافنا كثيرًا ما يقولون بلاد الهند والصين مثلاً بلاد الحكمة القديمة.

وها نحن الآن نسافر من بلاد الهند بل وبلاد السند إلى بلاد الصين وفي طائرة مريحة وسط حشد من الإخوة العرب.

وتخيلت أن الشمس تبتسم لأمنياتي التي كانت صبيانية في أول أمرها، لأنه لم يكن أحد مثلي يصل خياله في صباه إلى أن يذهب إلى الصين مدعوا من سلطة رسمية فيها بل في الحقيقة - من حكومتها وأن يبقى مع وفد يرأسه ضيفًا مكرمًا على أهلها. وأن يتجول في أنحاءها فيكون محل الإكرام والاحترام في أي مكان حله من أرجائها.

ونعمت بهذا الخيال الذي ربما كان مبعثه هذا الارتياح العظيم فوق السحب وفوق أرض الهند والخيالات التي تراود الذهن عما سوف نشاهده في الصين والشمس قد تبخرت صفرة الخجل التي كانت تصبغ محياها فأصبح ناصعًا كأنما

أرادت أن تغسل الخيال عن ذهني كما غسلت هذه الصفرة عن وجهها لذلك بادرت بنات الخيال تتطاير وبدأت الحقيقة وهي تقع في ذهني عن حالتنا نحن المسلمين الحاضرة وكيف كانت لنا (دهلي) هذه التي طرنا منها الآن فأصبحت بأيدي أعداء المسلمين المتعصبين من الهندوكيين الذين أخذوا في كثير من الأحيان يذيقون إخواننا في الهند ألوان العذاب وإن لم يكن العذاب فإنها المهانة بعد العزة، وذلك عذاب وأي عذاب.

وبأننا نتجه الآن إلى الصين ليس اتجاه الفاتحين، إلا أن يكون ذلك فيما نرجو ونؤمل بالحجة والتبيين وإلّا الأمر لله رب العالمين.

إغفاءة الطائرة:

أسرع المضيفون الفرنسيون بتقديم طعام خفيف ثم أسرعوا بإخلاء الموائد وإطفاء الأنوار وراح القوم في إغفاءة لذيدة لأنهم كلهم ممن كانوا قد شغلوا بالسهر استعداداً للسفر طيلة البارحة.

وبعد أربع ساعات من الصمت لم تكن تسمع فيه إلا الأزيز الرتيب لمحركات الطائرة التي تشبه صوت الرجا الحجرية الذي يجلب النوم برتابته واستمراره أكثر مما يجذب الانتباه.

أعلن المكبر بصوت لطيف أيضاً يصبح بالخير ومعه الغداء الذي أسموه فطوراً إذ كانت الشمس قد تعالت قبل أربع ساعات.

وجاءوا به جيداً خالياً من الإثم لأننا سألناهم عن لحم الخنزير! فقالوا إننا نعرف ركبنا ولذلك لم نطبخ في مطبخ الدرجة الأولى أي شيء فيه خنزير.

وفي الساعة الحادية عشرة بتوقيت كراتشي وتساوي الثانية عشرة ظهراً بتوقيت بكين كانت الطائرة تتدنى إلى الأرض في جو غير صاف.

وبدت أرض الصين هنا من الطائرة في النظرة الأولى التي تظل منقوشة في الغالب في خاطر الغرب القادم أرضاً غير بهيجة كان أهم ما فيها منظر نهر يتلوى قد خلت ضفافه من الخضرة.

ولما كنا في أرض الصين ذات المئات من الملايين فإنه ليس من المعقول أن يكون سبب عدم الخضرة هو عدم الزراعة كما يكون في بلاد قوم آخرين، وإنما تخيلت ما تحققت منه بعد ذلك وهو أن أرض بكين وما حولها من شمال الصين أرض باردة لذا تكون هامة في هذا الفصل الذي هو فصل ربيع ولكنه ربيع البلاد الذي لا يكون بينه وبين الشتاء فرق إلا طول النهار وقصر الليل الذي لا يكون عليه الأمر في الشتاء.

وبدت طرق في أطراف المدينة تسير عليها سيارات قليلة لا ينتظر أن تكون كذلك في شوارع مدينة يسكنها أكثر من عشرة ملايين إنسان وهي عاصمة دولة يسكنها أكثر من الف مليون.

والطابع العام على المنظر هو عدم البهجة فليست هناك خضرة طبيعية نظرة ولا تزيين يبعث على السرور. حتى المزارع أكثرها لا ترى فيه إلا آثار الزراعة دون أن ترى خضرة ظاهرة إلا أن الغالب على المزارع وحدة المنظر وقد تبين لنا بعد ذلك أنها لم تكن استثناء في بكين بل الغالب على الأشياء فيها التشابه والوحدة في المظهر سواء في تساوي الناس في مظاهر الحاجة وفي مستوى الغذاء أو حتى في تقاسيم الوجوه الذي هو طابع الملامح الصينية .

حتى الحشائش التي بقرب المطار والأشجار المنتصبة على الطرق كلها هامد كالح المنظر وذلك كله بسبب البرد الذي لم ينفذ عنها غبار الشتاء أو بسبب جفاف الجو في هذا الفصل من السنة.

في مطار بكين،

هبطت الطائرة في مطار واسع المدارج تدلُّ أبنيته من البعد على عدم السخاء في الإنفاق لاسيما عندما يفكر المرء في أنه يهبط في مطار أكبر دولة في العالم من حيث عدد السكان.

والقموا الطائرة باب دهليز متحرك وإن كانت الدهاليز في المطار غير كثيرة فهي في جانب واحد منه أي ليست دائرة به كما هو الحال في مطار شارل ديغول مثلاً في باريس أو مطار الملك خالد الدولي في الرياض.

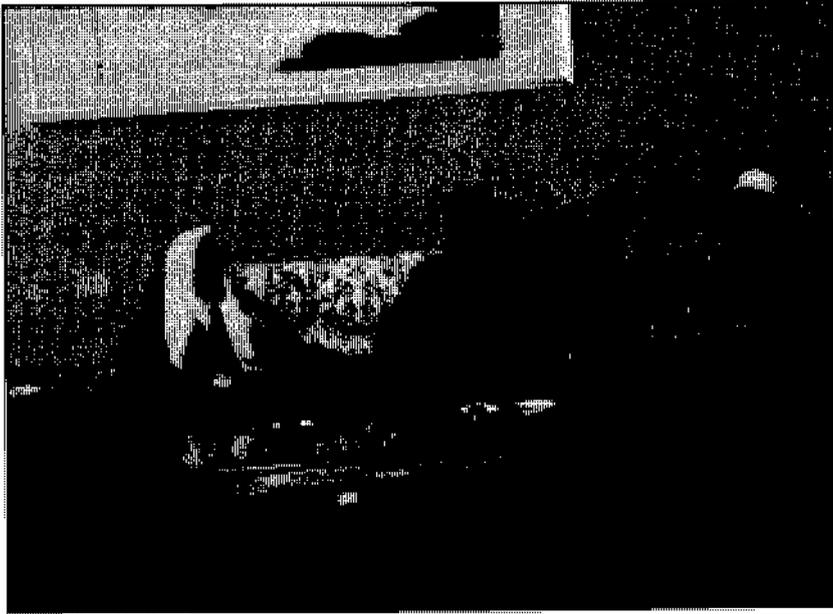
وكان الوقت الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً بتوقيت كراتشي الذي يساوي الثانية إلا الربع بتوقيت بكين فتوقيت بكين متقدم على توقيت المملكة العربية السعودية بخمس ساعات.

وعندما وقفت الطائرة أسرع بعض الركاب إلى النهوض والتهيؤ للخروج ولكن المضيفة الفرنسية قالت ينبغي أن تنتظروا في مقاعدكم لأنه لا يسمح لأحد أن ينزل قبل أن تأتي الشرطة إلى الطائرة وجاء شرطيان فدخلوا إلى الدرجة السياحية وبعد ذلك بفترة جاء آخرا ن ولا ندرى ماذا يصنعون.

وكنت في هذه الأثناء أتأمل ما تقع عليه عيني من نافذة الطائرة التي كانت تلقاء ساحة الوقوف وما بقربها فأرى مظلة على ما يشبه الغرفة ربما كانت للحراس وقد تكسر سقفها وبقي متقطعاً لم يصلح ولم يجد من يزيله.

وذكرت لمناسبة البطأ قبل النزول من الطائرة نيوزيلندا وأستراليا حيث يبقى الركاب في الطائرة في المعتاد فترة قبل أن يؤذن لهم بالنزول إلا أن القوم هناك كانوا يقضون ذلك الوقت في رش داخل الطائرة بمبيدات الحشرات لأن بلادهم منعزلة عن بقية اليابسة بمياه عميقة عريضة من مياه المحيطات فيخشون انتقال الحشرات إليها أما هؤلاء الصينيون فلم أرهم فعلوا شيئاً من ذلك.

ثم أذن لنا بالنزول ووجدنا في الاستقبال عند باب الطائرة بعض الإخوة من أعضاء الجمعية الإسلامية الصينية البارزين منهم (إلياس شن شياشي) نائب رئيس الجمعية الإسلامية المركزية ومن موظفي الجمعية الاستاذ لقمان ما شان لي، نائب مدير العلاقات الخارجية بالجمعية الإسلامية الصينية والأخ مالك أمين والسيد محمد صدقي ثم اجتمع الوفد في قاعة كبار الزوار المسماة بصالون الشرف في المطار بكبار موظفي الجمعية الإسلامية المركزية وهم:



في مطار بكين من اليمين الشيخ الياس شن شياشي نائب رئيس الجمعية الإسلامية الصينية المركزية. الشيخ صالح أن شي وي نائب رئيس الجمعية الإسلامية الصينية المركزية

- (١) الشيخ الياس شن شياشي النائب الأول لرئيس الجمعية.
- (٢) الشيخ صالح أن شي وي نائب رئيس الجمعية الإسلامية الصينية وإمام جامع بكين.
- (٣) الشيخ داود شن كون إمام جامع نيوجيه في بكين.
- (٤) الشيخ عيسى محمود كو جنغتاي مدير العلاقات الخارجية بالجمعية.

(٥) السيد سليمان خاي دونغ سكرتير الجمعية الإسلامية.

(٦) الشيخ يحيى لي يو.

(٧) الشيخ عبد الرحيم ماسو تينغ أحد المؤلفين الصينيين بالعربية.

في مدينة بكين:

وجدناهم قد صفوا أربع سيارات في مقدمتها سيارة رسمية سوداء طويلة فخمة لأنها ذات ثلاث مراتب قالوا إنها مخصصة لركوبك والمرافق الخاص لك والثلاث الباقية لبقية أعضاء الوفد والمرافقين وركب فيها معي المرافق الملازم ومترجم الوفد الاستاذ (لقمان ما شان لي) الذي تبين بعد ذلك أنه مهم لنا لمعرفة الجيدة بالعربية كما ركب معنا الأخ الشيخ صالح آن شي وي وسار الموكب من المطار وأنا مندهش من هذا الشيء الذي كنت ظننته بعيد التحقيق وأراه يتحقق الآن وهو زيارة الصين وإن كنت أعلم من تجاربي السابقة أن الزيارات الرسمية لا تعطي صورة واضحة دقيقة عن أحوال البلاد لأن الزائر لا يستطيع أن يرى إلا ما يريد مضيّفوه له أن يراه إلا إذا كان رجلاً لا يراعي جانب المجاملة وهو يتمتع أيضاً بقوة ملاحظة خارقة عن العادة.

ورأينا الطريق تحف به الأشجار الهامدة التي تبدو كالأعواد لأنها لم تصحو بعد من برد الشتاء وظلامه رغم أننا الآن في فصل الربيع ولم يقتصر منظر الجفاف على الشجر بل إن المزروعات أو الأماكن التي فيها زراعة أكثرها جاف وبعضها قد جلل بأردية من اللدائن تحملها أعواد تحتها من أجل وقايتها من البرد وحتى بقرات قليلة رأيناها هنا بدت عجفا كأنما كانت تعاني من نقص في علفها.

أما الجو فإنه كجو الشتاء في الرياض لا يشكو المرء فيه من البرد إذا لبس لباساً مناسباً، وإن لم يكن بالغ الثقل.

وأما حالة الطريق فإنه ضيق قليل النعومة وبخاصة بالنسبة إلى الطرق في بلادنا التي تضاهي أرقى الطرق في العالم ولله الحمد.

وبلغ من ضيق الطريق انه وهو للذاهب والآيب على حد سواء اذا وقفت سيارة فيه وتقابلت سيارتان أخريان لم يتسع للسيارات الثلاث الا بصعوبة.

وعندما رأيت هذا الجزء القريب من المطار يبدو عليه مظهر الريف سألتهم عن المسافة ما بين المطار والمدينة؟ فقالوا إنها أربعون كيلو متراً.

ومن مظاهر ريفية هذا الجزء من المدينة أننا قابلنا عربة تجرها البغال محملة بالسماذ الحيواني وبغلاها يميذان ويتمايلان كأنما يتحديان بعريتهما وحملها بل وسائقها أو قائدها - سمه ما شئت لأنه راكب في مقدمة العربة - العصر الحديث الذي جاء بالجرارات الزراعية وسيارات الشحن الصغيرة التي تستعمل في أغراض الفلاحة الصغيرة ولا يصل الأمر فيها إلى أن يحمل فيها السماذ الحيواني بل لذلك سيارات مخصوصة وعمال مدربون كما هو عليه الأمر في بلادنا والبلاد المتقدمة.

وقد سببت هذه العربة البغلية إن صح التعبير مشكلة في المرور إذ قابلتنا في الاتجاه المضاد سيارة شحن كبيرة تبين فيما بعد أنها أكثر أنواع السيارات شيوعاً في الصين الشعبية فلم نستطع أن نمر إلا بعد أن تجاوزتنا لأنها عندما حاذت تلك العربة لم يعد الطريق يتسع لمرور سيارتنا معها.

ولكن من حسن الحظ أو سوءه أن عدد السيارات في هذا الشارع قليل وكذلك المشاة وإنما هناك جماعة من راكبي الدراجات الهوائية وراكباتها والمراد بها الدراجات المعتادة التي ليست فيها محركات.

ومررنا في الحقول على أشجار يابسة كالحلة المنظر فقال الشيخ لقمان: إنها أشجار التفاح ولكنها عارية من الأوراق لأن مدينة بكين تقع في منطقة شمالية لا تورق الأشجار فيها بعد الشتاء إلا في وقت متأخر.

وقال الأخ (لقمان ما شان لي) بلسان القوم: إنه بالنظر إلى قرب زيارة الرئيس ريغان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إلى الصين فإن جميع الفنادق القريبة من وسط المدينة محجوزة ولذلك حجزنا لكم في فندق بعيد عن وسط المدينة.

فقلت لهم: الأمر ما رأيتم أما نحن فإننا نفضل الفندق الواقع وسط المدينة حتى نرى من وسطها في الدخول والخروج ما لائراه إذا كنا في فندق بعيد.

واستمر الموكب وسط منطقة يمكن أن تكون ريفية لوجود بعض أحواض الزراعة المحدودة إلا أنها ليست بالحقول المتسعة وكل ما تقع عليه العين خال من البهجة إلا ملابس الجنود فإنها خضر بهيجة المنظر وكنائزهم وهم في شغل عنا إما يسيرون مع مدربيهم أو راكبين الدراجات الهوائية.

وخيل إلي أن ضواحي مدينة بكين التي وصلناها تشبه بعض الشبه ضواحي مدينة دمشق البعيدة من المدينة أو المتصلة بالريف في الشتاء من ناحية لون التربة وهمود الأشجار لولا أن العناية بالزراعة في ضواحي دمشق أحسن من هذه وربما كان هذا لسبب اختلاف الجو بين المدينتين.

ومررنا بمكان فيه عمال مجتمعون على حفر عميق قال أحد المرافقين إنهم يعملون في قطار الإنفاق أو المترو تحت الأرض كما يسميه عوام الكتاب.

ولاحظت أن هناك طائفة من النساء بين العمال في هذا العمل الشاق بأيديهن المساحي وقد تلمن حتى لا يدخل الغبار في أنوفهن وأفواههن.

وامتد السير فمررنا بسوق على أحد الأرصفة قالوا إنه من اسواق الخضار الحرة وانه يستطيع فيه الفلاحون أن يبيعوا إنتاجهم من دون تسعيرة بخلاف المزارع الجماعية وهي الكبيرة فإن أسعارها محددة وأثمان ما يباع فيها تذهب إلى الحكومة.

وقالوا: إنه قد سمح بوجود هذه الأسواق بعد سقوط عصاة الأربعة وتولى السلطة الحالية الأمر بعدهم.

ورحت أتأمل هذه الأسواق والسيارات تسير سيراً وتبدأ فأجدها قليلة حقيرة وتذكرت أن الملكية الذاتية محددة وبخاصة في أرض الفلاحة فماذا يستطيع الفلاح الواحد أن ينتجه؟ ولكن على أية حال هذه بادرة طيبة، ودلالة على فشل المزارع الجماعية الحكومية وفيها فائدة للمستهلك الذي يسره في بعض الأحيان أن يجد ما يشتريه ولو كان غالياً وللفلاح الذي يرتفق بما يحصله من ثمن ما ينتجه ولو كان قليلاً.

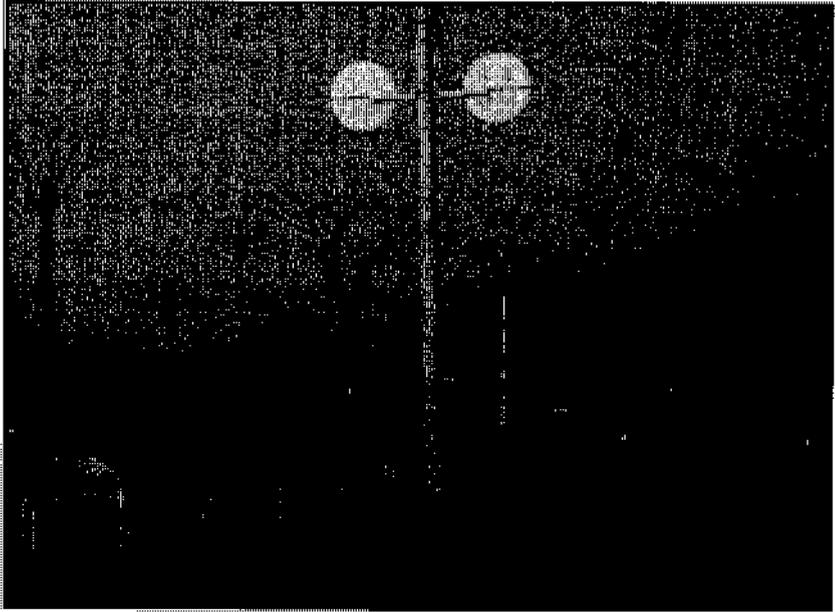
ثم وصلنا إلى ضاحية أقرب من قلب المدينة فوجدنا فيها طرقاً لا بأس بها وعمارات حكومية كبيرة شاهقة قالوا إنها مؤلفة من شقق سكنية وإن الحكومة تؤجرها على بعض الناس بأجور مناسبة وهي البديلة عن الأبنية السكنية الكبيرة التي يقيمها الأفراد والشركات في بلادنا والبلاد غير الشيوعية الأخرى لغرض الربح إذ لا مجال لطلب الربح في مثل هذه الأشياء هنا إضافة إلى أنه لا يوجد لدى الأفراد والشركات المحدودة أموال يمكن أن تبنى بها هذه الأبنية الكبيرة أما السيارات فإنها سيارات من سيارات النقل زيتونية اللون أو سيارات من سيارات الجيب ظننتها كلها للجيش في بادئ الأمر فأخبروني أنها سيارات حكومية ولكنها ليست تابعة للجيش.

وهذا إلى جانب حافلات النقل العام التي هي موجودة لإيكاد يخطئها النظر ولكنها ليست بالقدر الذي يتخيله المرء لتلبية حاجات مدينة ضخمة مثل بكين يزيد عدد سكانها على عشرة ملايين نسمة.

ولا توجد أي سيارات صغيرة للركوب خاصة إلا ما كان من سيارات الهيئات السياسية أو السفارات الأجنبية أو سيارات حكومية مخصصة لكبار القوم أو لضيوف الدولة وهي أيضاً قليلة لا يكاد المرء يرى منها شيئاً كثيراً في

الشوارع وإنما يرى المرء أعداداً كبيرة من الدراجات قد امتطأها القوم من مختلف الأعمار فيهم الكبير السن أو القدر والصغير والمرأة والرجل على حد سواء.

وقد وصلنا إلى شارع واسع رغم قلة السيارات وفي شارع آخر أضيق رأينا مطعماً كتب عليه بالعربية (المطعم الإسلامي).



أحد شوارع بكين

ولاحظت عندما تقف الإشارة أن وجوه القوم لا تبدو عليها التغذية الكاملة ولا على هندامهم مظهر الكفاية. فضلاً عن اليسار، ولكنني لاحظت أن القوم يغلب عليهم جميعاً الهدوء وعدم العجلة في السير يستوي في ذلك منهم راكبو الدراجات مع سائقي السيارات.

ومررنا ببيوت قديمة قد هدمت وبعضها لا يزال قائماً ولكنه خال وعمارات سكنية كبيرة متعددة الطوابق تقام على أنقاضها. وفي هذه البيوت القديمة لاحظت أن البناء بالطين موجود فيها مع الآجر.

ورأيت أمامنا عربة من عربات الركشا القليلة هنا وهي الدراجات النارية التي أقيمت فوقها عربة ذات رجل أمامية ورجلين خلفيتين لها صحن يستعمل للركوب في البلاد المتخلفة وقد ركبت في صحنها امرأة قد غطت وجهها فاستوضحت من مرافقي سبب تغطية المرأة وجهها أي مسلمة تتقرب بذلك؟ أم ما هو أمرها؟ فأجابوا وهم يبتسمون وربما كانوا في داخل قلوبهم يستهزئون بهذا السؤال الذي يدل على سذاجة قائله: إنه ليس بحجاب وأيضاً ليست مسلمة ولكنها تغطي وجهها عن غبار الطريق.

وعرفت بعد ذلك أن الأمر جد في موضوع غبار الطريق فأكثر الشوارع في الضواحي ليست لها أرضية مبلطة، وتنظيف الشوارع ليس على ما يرام، والجو جاف في هذا الفصل لذلك يكون الغبار موجوداً وأحياناً يكون كثيراً في هذا الطرف وبخاصة إذا ما تضايق الطريق بسيارة فلجأت إلى السير على جانبه فإنها تثير سحباً من الغبار الذي يضايق المارة.

وذلك بسبب عدم الأرصفة وبالتالي عدم تنظيفها من الغبار إذا صارت ترابية واستمر السير الوئيد للسيارات الذي يجلب النوم أكثر مما يجلب الانتباه في وقت كنت فيه أحوج ما أكون إلى الانتباه وأشد رغبة فيه وذلك لكوني أصل إلى مدينة بكين بل إلى دولة الصين لأول مرة كما أكون كذلك في كل مدينة أصلها لأول مرة.

واجتزنا ثلاثة أنهار أو فروع من أنهار ولا يزال منظر المدينة أو مامرنا به منها غير بهيج بل إن الأمر لم يقتصر على المنظر وحده، وإنما شعرت برائحة غير مريحة في أنفي وبخاصة عند مرورنا بأحواض من الزراعة تشبه ما يوجد في الأرياف عادة و خيل إلي أن ذلك من أثر وجود السماد الحيواني.

في فندق العطر:

رغم عدم وجود الرائحة المريحة فضلاً عن المعطرة في الطريق ما بين المطار إلى الفندق الذي نزلنا به فإنهم ذكروا له اسماً ذا معنى في العربية مريح هو (شيانغ شانغ) وقالوا معناه (جبل العطر) وفسروا ذلك بأنه واقع في لحف جبل ينمو فيه في فصل الخريف نبات طيب الرائحة يسمى بهذا الاسم فسمي الفندق على اسمه تعريفاً وتيمناً.

وقد استغرقت المسافة من المطار إلى فندق جبل العطر ساعتين ونصفاً وهو أيضاً بعيد من قلب المدينة ولكن السفر إليه من المطار ليس قاصداً بل هو يمر بضواحي المدينة ثم يخرج من تلك الضواحي.

وأخبرونا أنه فندق حكومي أنشأته الحكومة بعد سقوط عصاية الأربعة في عام ١٩٧٨م مباشرة، وكانوا يقولون لنا ذلك بفخر واعتزاز مع أن الفندق معتاد المظهر والمخبر يصح أن يعادل فنادق الدرجة الأولى غير الفاخرة أو فنادق الدرجة الثانية الفاخرة في بلادنا وبلاد العالم الحر.

وأنزلوني في غرفة جيدة ذات قاعة في مقدمتها للجلوس (صالون).

من موجودات الغرفة اللافتة للنظر رويان ثقيلان و حلتان للحمام سميكتان ونعال من القماش اللين المدعم بالنقش أو الخوص من أسفله لاستعمالها في داخل الغرفة، وهما خفيفان لطيفان.

ووضعوا على مائدة في الفندق زمزمية مليئة بالماء الحار إلى جانبها أكواب من الصيني أي الخزف المصنوع في الصين، ذات أغطية من الخزف الأبيض الجميل الثقيل مثلها، وقد ذكرتني بما كان موجوداً في بيتنا قبل أربعين سنة وانقطع وجوده الآن من علب صينية خزفية فاخرة ثقيلة الحمل جميلة المنظر الظاهر أنها مستوردة من الصين لكنها كانت ترد إلى بلادنا على مراحل من الهند مثلاً أو البحرين، أو غيرها قبل أن تصل إلينا.

وفي حمام الغرفة مشط كبير وعلبة فيها دهن «كريم» مثبت للشعر وكيف يستعمل الانسان مشطاً لا يضمن أن غيره استعمله من قبله أو حتى إذا كان لا يبال بذلك فإن المفهوم أن المسافر يحضر ما يحتاج إليه بكثرة كالمشط مثلاً.

وما عدا ذلك من أمر الفندق أو على الأدق الغرفة فإنه معتاد لا جديد فيه وكنت أتوقع أن أجد فيه ما يكون أصيلاً في صينيته أو طابعه.

من ذلك أنهم وضعوا فيه ثلاثة صغيرة فيها زجاجات من الأشربة الخفيفة كلها محلية معتادة مثل الكوكاكولا والميرندا ونوع من شراب الليمون الغازي وزجاجة فيها (بيرة) محلية.

وكذلك أحضروا من باب التكريم طبقاً فيه تفاح صيني وهو موجود بكثرة في شمال الصين بصفة خاصة ولكنه أقل جودة من تفاح لبنان أو فرنسا أو التفاح الأمريكي، فهو يشبه التفاح الموجود في ولاية كشمير في شمال الهند ويتميز بعدم تماسك اجزائه الداخلية ويلينها ليناً غير معتاد. إلا أن لونه أحمر جميل.

وقال لي الأخ (لقمان ما شان لي) إن أمامكم راحة لمدة ساعة واحدة يحين بعدها موعد العشاء في السادسة وكنا في الخامسة.

أول عشاء صيني:

الطعام الصيني مشهور في العالم فكل المدن العالمية فيها مطاعم صينية لها روادها وعشاق طعامها ونحن المسلمين كذلك ولكن بشرط أن تكون نظيفة مما يكون في المطابخ الصينية من حرام اللحم ومنه لحم الخنزير الذي يشتهر الصينيون بأكله بل ربما يكونون من أكثر شعوب العالم أكلاً للحم الخنزير عرفنا ذلك عنهم في البلاد التي يقطنها منهم أغلبية مثل تايوان وسنغافورة وهونج كونج أو أقلية فعالة مثل تايلند وماليزيا.

ولذلك لابد للمسلم الذي يريد أن يتذوق الطعام الصيني الحلال أن يأكل في مطعم صينيين مسلمين كما اعتدت على ذلك في تلك البلاد وفي البلدان الإسلامية.

وكذلك كان العشاء الصيني في هذه الأمسية ولا أقول في هذه الليلة فالشمس ما تزال حية وسنتهي من تناول العشاء قبل أن تغيب.

ولكن هذه عادة هذه البلاد أن تكون الحرية مقيدة حتى في وجبات الأكل أو إذا شئت التحسين قلت إنه النظام الصارم فطعام الإفطار في السادسة والغداء في الثانية عشرة والعشاء في السادسة وبعد ذلك لا يجد الأكل أكلاً في المطاعم الرسمية أو التابعة لهيئات رسمية وإذا وجد ذلك الأكل في المطاعم الصغيرة فإنه ربما لا يجد العفو عن تأخره عن العمل إذا كان العمل يعقب الأكل.

ورغم كون هذا الفندق صينياً أصيلاً إن صح أن للفنادق أنساباً أو أحساباً وليس الأمر كذلك فإنه فيه مطعمين أحدهما أوروبي أسفل في الطابق الأرضي وثنائهما : صيني أعلى في الطابق الثاني الذي نسكن فيه والفندق ثلاثة طوابق. وذلك لأن بعض نزلاء الفندق لا يستسيغون أن يجدوا أنفسهم مضطرين لتناول الطعام الصيني وحده.

اختاروا مائدة واسعة لنا نحن أعضاء الوفد وعددنا سبعة وحضر معنا الشيخ/ صالح أن شي وي والأستاذ/ لقمان ما شان لي وعبدالله مالك.

وهو على حد قولهم من قومية الإيغور الذين يراد بهم في اصطلاح الصينيين الأتراك الذي يسميهم الكتاب من بني قومنا (التركستانيين) فينسبونهم إلى بلادهم المنسوبة إليهم مع أن بلادهم في هذا اللفظ (تركستان) منسوبة إليهم كأفغانستان وهندستان وقازاقستان... إلخ.

كما تسميهم العامة في بلادنا البخارية مع أنهم يعيدون عن بخارى ولكنهم من جنس القوم الذين يسكنون بخارى في العنصر وأصل اللغة كما يجمع بين الفريقين الدين الإسلامي الحنيف والتاريخ المشترك.

بدأت المائدة بتقديم المقبلات أو المشهيات من دون أن نعرف الأطباق الرئيسية من غيرها ومن المقبلات فول سوداني ليس له من السودانية إلا النسبة في الاسم والا فهو صيني كثير الدسم بشكل ظاهر بالنسبة إلى الفول السوداني الذي نستورده من السودان. ثم طبق من الخضرة المطبوخة أو إن شئت قلت من الأعشاب التي لا نعرفها نحن و أمثالنا وتصعب حتى ترجمة اسمها لأنها أعشاب محلية ثم لحم الأرنب قد قدوده أي جعلوها قديداً متغير الطعم ثم قدوده بمعنى جعلوه شرائح دقيقة كالأسلاك الغليظة ولم آكله لأنني لم أثق بذبحهم له لكونه قديم الذبح رغم كونهم كتبوا على المائدة التي عندنا جملة صينية وهي (شن سن) ومعناها: إسلامي أو إسلام وقالوا إن معنى الكلمة في اللغة الصينية النقاء الخالص وإنما انصرفت بعد ذلك إلى معنى إسلام بمعنى أنه دين خالص من الوثنية فذكرت قوله تعالى: (الا لله الدين الخالص) وقد كتبوا عبارة (تشن سن) هذه تنبيهاً للخدم بعدم إحضار لحم الخنزير ونحن فيها. ومن المقبلات أيضاً طبق القرنبيط وبعد الفراغ من هذه المقبلات التي هي مقدرة تقديراً بحيث لا تزيد على الحاجة وبعضها لم يبق منه شيء جاءت الأطباق الأخرى تترى واحداً بعد الآخر منها الأرز الصيني الساذج الذي لم يخالطه إلا الماء الذي طبخ به حتى الملح لا يدخله فضلاً عن البهارات أو الأدم. ولذلك لم يستسغه بعض الرفقة الذين لم تسبق لهم تجربته. أما أنا فإنني أرغب فيه لكون المرء لا يستطيع الإكثار منه كما نفعل في الأرز العربي الذي نصنعه في بيوتنا ونتائق في صنعه بحيث يكون فيه من البهارات والدسوم ما يساوي في هضمه هضم الأرز نفسه أو أكثر من ذلك.

ومنها الخبز الصيني التقليدي وهو عجين عجيب أبيض اللون على هيئة كرات غير متقنة التكوير وتكاد تجزم إذا رأيتَه بأنه عجين لم تسمه النار، وصحن من لحم البط. وآخر من السمك وقليل من الأريان وهذا هو أسمه العربي القديم الذي ذكره به الجاحظ وقومنا ينطقون به (الرويان) ولا تكاد العامة تعرفه في أكثر البلدان إلا باسمه المصري (جمبري) وهو صغار السمك أو هو جراد السمك إن صح التعبير.

وهذا الأريان أحضره مع قليل من العدس مطبوخاً بطريقة خاصة ثم خضرات أخرى مطبوخة من أهمها الخس الذي وضع معه الفطر وكل ذلك بطريقة خاصة غير مألوفة في الطبخ في بلادنا. وكان القوم المرافقون يأكلون بالأعواد الملس يضعونها بين الأصابع بطريقة خاصة ثم تفعل لهم في التقاط أصغر القطع ما تفعله الشوكة لنا التي لا تلتقط إلا بالوخز أو الشك.

برنامج الزيارة:

بعد إنقضاء العشاء عرض علينا المسئولون في الجمعية الخيرية الإسلامية البرنامج الذي أعدوه لزيارة وفدنا وسيستغرق خمسة وعشرين يوماً في الصين ويتضمن زيارة ثلاث مدن قالوا إنها تفتح لزيارة وفد أجنبي لأول مرة وكانت قبل ذلك مغلقة في وجوه الأجانب ومنها المدينة التاريخية (كاشغر) في إقليم سينكيانج ومدينة (لانججو) عاصمة إقليم كانسو ومدينة (خوتشو) في إقليم للمسلمين واقع في مقاطعة كانسو ومدن أخرى إلى جانب زيارة عاصمة إقليم سنكيانج (أرومسي) وبعض المدن الرئيسية في الصين مثل شنغهاي و(كانتون).

وقد اعتذروا عن زيارة بعض المدن التي كان الوفد قد طلب زيارتها من قبل بحجة أن تلك المدن لم تعد لاستقبال الزوار الأجانب من قبل.

وقد رحبنا بهذا البرنامج إلا أنه زادت مدته عما كنا قدرنا لها من قبل وكنا قدرنا أننا في مدة خمسة وعشرين يوماً نستطيع أن ننتهي من زيارة جميع البلدان التي نريد زيارتها في هذه المهمة لاسيما أننا سوف نزور بعد زيارة الصين الشعبية عدة بلدان هي: هونج كونج وسنغافورة وماليزيا. ولكن لا نحب أن نرفض زيارة مدن إسلامية أو مدن فيها نشاط للمسلمين لمجرد الرغبة في اختصار الوقت لذلك وافقنا شاكرين على برنامج الزيارة.

وعندما انصرف الإخوة المسلمون الصينيون استأنفنا جلسة مذاكرة وتشاور بين أعضاء الوفد في هذا البرنامج وكيفية توزيع الهدايا والأشياء التي نحملها للمسلمين مثل الشرائط المسجل عليها القرآن الكريم وجهاز التسجيل الخاص بها وكذلك المبالغ المالية الفورية التي نحملها لتوزيعها على المساجد المحتاجة للترميم والإصلاح.

وقبل النوم كنت أمام التلفاز الصيني أتفرج برؤيته وهو يبث على ثلاث قنوات اثنتان صينيتان والثالثة تذيع برنامجاً أوروبياً وربما كانت مذاعة على الفيديو من الفندق نفسه.

وللفنون الصينية من غناء وتمثيل بل ورياضة بهلوانية طابع خاص ونكهة مميزة ليس هذا موضوع بحثها.

يوم السبت ١٣/٧/١٤٠٤هـ - ١٤/٤/١٩٨٤م.

صباح بكين

عندما أزحت ستارة النافذة وهي في الجهة الشرقية من الغرفة كان يكفي لكي تكون الإطلالة منها شائعة لي مجرد أنها تطل على أرض صينية بل على ضاحية من ضواحي عاصمة الصين ذات المئات من الملايين و يبلغ عدد سكان بكين ١٠ ملايين نسمة منهم سبعة ملايين ونصف يسكنون في داخل المدينة

ومليونان ونصف في الأرياف المتصلة بها وذات التاريخ العريق الذي فيه ما يزين وما يشين.

وكان في ذهني مما يزين منه ما ذكره الرحالة العظيم ابن بطوطة من مقام المسلمين بل مقامات المسلمين التي كانت لهم في مدن الصين ومع ذلك فإن تلك الذكريات التاريخية العربية لم تكن هي وحدها التي تشوق المرء إلى رؤية كل ما يستطيع رؤيته من أرض الصين أو ما يعرفه عن بلاد الصين.

رأيت الفندق واقعاً في لحف جبل (شيانغ شانغ) التي معناها: جبل العطر وإن لم أشم عطراً بل ولا ريحاً طيبة وإنما شاهدت ما في حديقة الفندق من أشجار وأعشاب يابسة هامة كأنها تنتظر النشور على أيدي رسل الربيع مع أننا في فصل الربيع ربيع أهل هذه البلاد كما أخبرونا به من قبل إلا أنهم أضافوا أن الشتاء هذا العام قد طال أكثر مما كانوا يعرفون حتى جزموا بأن تغييراً مهماً قد حدث في الجو في بلادهم بحيث صار فصل الشتاء أطول في الأجزاء الباردة من شمالها وصار الجو أقل حراً في الأجزاء الحارة من جنوبها ومع ذلك فإن الأشجار الصينية في أعالي هذه الجبال لا تخلو من النضارة إذ تبدو فيها بعض الخضرة.



حديقة فندق جبل العطر

ولقد تعبوا في تنسيق حديقته وإن لم يبالغوا في ذلك وأهم ما حرصوا على أن تبدو عليه هذا المنظر الطبيعي فهناك نبع طبيعي قادم من أعلى الجبل جعلوه يصب في بركة قد نصبوا فيها وما حولها أشجاراً منتصبه لتبدو كأنها المنظر الطبيعي الذي لا صنعة فيه وكان ذلك يبدو هادئاً كسائر المنطقة. لأن السيارات قليلة بل هي نادرة في هذه المنطقة وحتى في الشارع لم أرها مزمجرة صاحبة لأن أعدادها قليلة وإنما عامة مراكب الشعب الدراجات الهوائية المعتادة التي لا تحدث صوتاً وبعضهم حاله كحال الذي ذكره المتنبئ:

من الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولقد لاحظت شيئاً هنا لا أدري أهو مقصود أم جاء مصادفة وهو غلبة اللون
الرمادي على الأشياء فستائر الفندق ذات لون رمادي و (روب) الحمام وروب
الغرفة كلاهما رمادي اللون، وعندما وقعت عيني على الأشجار والتربة في
الخارج رأيت ذلك كله رمادي اللون وحتى صخور الجبل الذي أطل عليه الآن هي
رمادية أو تقرب من ذلك.

وحتى الجو اليوم قد أصبح رمادياً فقد أصبحنا على جو قاتم من ضباب
أو سحب خفيف ستر شمس، ولم يصل إلى حد الإظلام.

وتناولنا طعام الإفطار في المطعم الذي يسمونه أوروبا في الفندق ويستحق
ذلك لأن طعام الإفطار كله أوروبي الطابع ليس فيه من الصين شيء بخلاف
طعام العشاء.

وكان الاستقبال من عاملات المطعم ذوات القسمات الباردة إن صح التعبير
فهن لا يبتسمن في وجه النزيل كما اعتدنا ذلك من عاملات الفنادق في أوروبا
خاصة وفي أنحاء العالم بصفة عامة عندما ينزل النزيل من غرفته ويلتقي بأهل
الفندق لأول مرة في ذلك اليوم.

وليس ذلك منهن فحسب وإنما يخيل إليك أنهن يؤدين عملهن بشكل آلي فلا تأفف ولا ترحيب وحتى الكلام إذا استفسرت منهن عن شيء في الطعام أو أبديت لك رغبة فيه.

وكل ما يجدن عليك به من كلام - وقد تكرر هذا منهن بعد ذلك - هو السؤال التقليدي: تي؟ أور كوفي؟ أي: شاي أم قهوة؟

هذا مع أن أشكالهن لا بأس بها في الصينيات ولكنهن لسن من جميلاتهن كما هو عليه الحال في المطاعم التي يديرها الصينيون أبناء عمومتهم في هونج كونج أو تايوان أي فرموزا أو سنغافورة. وحتى لباسهن لا يدل على أنهن يبالين بأنوثتهن ولا على أن الناس هنا ينظرون إليهن من ذلك المنظار فهو لباس موحد مع النساء في خارج العمل وإن اختلفت ألوانه وهو سروال أسود طويل سابغ كسراويل الرجال ليس ضيقاً ولا أنيقاً وقميص أبيض ذو كمين طويلين.

وليس على الوجوه مساحيق ولا أثر من آثار الزينة المجلوبة، مثلهن في ذلك مثل سائر نساء الصين. فالمساحيق لا تجوز والصين الشعبية في شغل عنها بتحصيل القوت لملايينها الألف.

وحتى الرجال قد شغلتهم الحياة الشاقة الرتيبة عن التطلع إلى مساحيق النساء لو تجرأن ووضعنها وأي رد فعل ينتظر من رجل يكاد لا يجد ما يكفيه من راتب لمسكنه وسكن أسرته، وحاجاته الفردية فهو لا يستطيع أن يوفر شيئاً ينفقه على امرأة أجنبية عنه تتزين له، وتتقرب بذلك لديه.

وعندما أُلقت العاملة بما أتت به من طعام الإفطار على المائدة كان من ذلك علب من عصير البرتقال مكتوب عليه بالعربية وتبين أنه مما أعد للتصدير إلى البلاد العربية وكتب عليه ذلك وقد أتوا بها هنا ليشربها هؤلاء الأجانب الذين

لا تحكمهم قوانين التقشف الموجودة في هذه البلاد لأنهم سوف يصدرون من بلاد الصين بعد حين كما تصدر هذه العلب التي يشتهيها أهل الصين ولكنهم يؤثرون بها قوماً آخرين يدفعون بدلاً منها بنقد ثمين.

وكان الإفطار أوروبياً تقليدياً كما قلت من البيض والمربى والزبدة والشاي والحليب والخبز الإفرنجي.

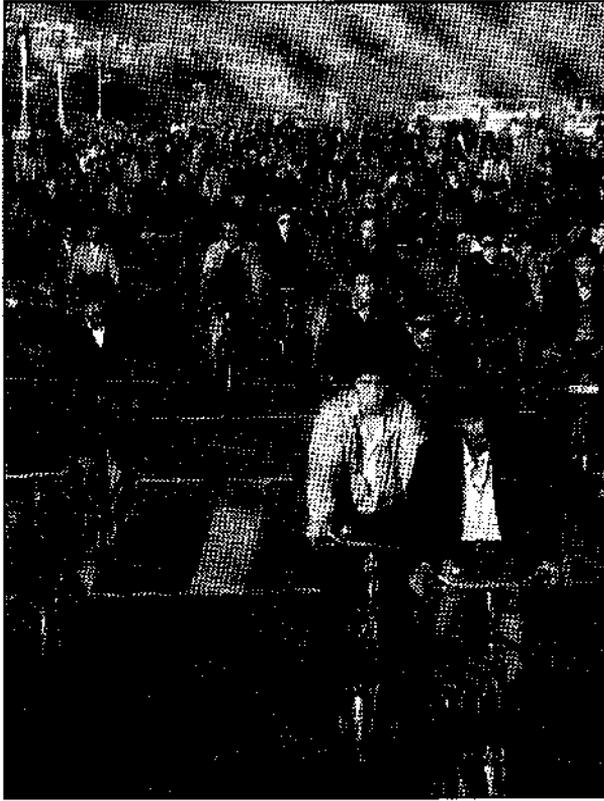
إلى الجمعية الإسلامية :

أصبح ثلاثة من أعضاء الوفد مرضى هذا الصباح أحدهم أنا ولكنني تحاملت على نفسي وتناولت بعض الأدوية ومرضهم على هيئة إسهال قال بعضهم: إنه من طعام الطائرة الفرنسية أمس وقال آخرون: ربما كان من العشاء الصيني الليلة البارحة ولكن قال غيرهم: إن بقية الأعضاء لم يصابوا فرما كان ذلك للبرد الشديد بالنسبة إلى حر المملكة ومدينة كراتشي بعدها.

ولذلك تخلف عن الذهاب معنا إلى الجمعية الإسلامية بل عن الجولة كلها هذا اليوم اثنان من أعضاء الوفد.

سار الموكب في الساعة والنصف تتقدمه السيارة السوداء الرسمية وفيها الأخ لقمان لإجاده العربية فاخرقنا الضاحية التي فيها فندقنا ورأينا في طريقنا تلميذات المدارس وتلاميذها بلباس متحد التفصيل مختلف الألوان خلاف ما كنا سمعنا به من قبل من اتحاد الملابس في الصين في كل شيء ولاحظت أن التلاميذ تبدو على أجسامهم علامة الشبع وإن لم تكن تبدو عليهم علامات الصحة الجيدة فليس فيهم نحيل ولكن الإشراق في وجوههم قليل، مما قد يلاحظ منه أنهم لا يشكون من نقص التغذية ولكن من سوء التغذية بمعنى النقص في بعض الأغذية اللازمة للجسم.

وأكثر ما يلفت النظر هنا كثرة الدراجات التي يركبها الناس من كبار وصغار وذكور وإناث على حد سواء كثرة لافتة للنظر لأنها هي الوسيلة الوحيدة لركوب الشخص بسبب انعدام سيارات الركوب الصغيرة لدى عامة الشعب.



الدراجات في شوارع بكين

كما يلاحظ المرء كثرة محطات الحافلات (الأوتوبيسات) التي هي كثيرة ومع ذلك تكون مزدحمة ازدحاماً شديداً في وقت الذروة في الحركة كأنصراف الموظفين أو وقت التحاقهم بأعمالهم.

والشوارع هنا في أطراف المدينة ضيقة وأشجارها هامة لم تستيقظ أوراقها بعد نوم الشتاء الطويل. والتجميل في هذه الشوارع معدوم أو يكاد يكون معدوماً. ولذلك لا يرى المرء أي بهجة فيها وبخاصة إذا تأمل أفواج الناس من

راكبي الدراجات وكأنهم عليها الآلات فوق الآلات فالمرء منهم لا تراه ينظر إلى غير طريقه وتكاد تحس بأنه فقد المبالاة بما حوله، ومن حوله. ما عدا أن تمضي به دراجته التي يسوقها مثل غيره بهدوء تام لا يسابق الآخرين ولا تلاحظ شخصاً يحاول أن يسبق غيره.

قصر الصيف:

مررنا بسور طويل لافت للنظر فقال الأخ (لقمان ما شان لي): إنه لحديقة كبيرة كانت تابعة لقصر ملكي اسمه (قصر الصيف) لأن الملك كان يقضي فيه فصل الصيف أو على التعبير الحديث الإمبراطور لأن ملك بكين كان يعتبر إمبراطوراً على ملوك آخرين أو حكام من كبار حكام الولايات الصينية الكبيرة.

والسبب في تسميته بهذا الاسم وتخصيصه لإقامة الإمبراطور في فصل الصيف أن جو بكين رغم برده في الشتاء فإنه يكون في العادة حاراً في الصيف وإن لم يكن شديد الحرارة.

ثم مررنا بترعة كبيرة في عرض نهر بردى أعدت للدفاع عن المدينة القديمة مأخوذة من نهر اسمه (يونغ تين) بمعنى الاستقرار الدائم. وكان اسم المكان في السابق (وو دين) أي الاضطراب فغيره الإمبراطور (تشن لونغ) قبل ثلاثمائة سنة إلى اسم (يونغ تين) بمعنى الاستقرار الدائم.

ثم مررنا بالنهر نفسه (يونغ) مع شوارع ضيقة في هذا الجزء من ضواحي المدينة بحيث تقف السيارة أو تتمهل إذ قابلتها سيارة أخرى.

وأكثر البيوت القديمة فيها سيئة المظهر تبدو عليها قلة العناية وعدم القدرة على الترميم ما عدا (العمارات) الكبيرة التي تقيمها الحكومة وتؤجرها على العمال والموظفين ونحوهم.

وتكاد تجزم إذا رأيت شوارعهم هذه في ضواحي المدينة. وأطرافها أن القوم ليست لديهم رغبة في إصلاح المدينة أو هم عاجزون عن ذلك وإلا لما تركوها هكذا مهملة خالية من العناية.

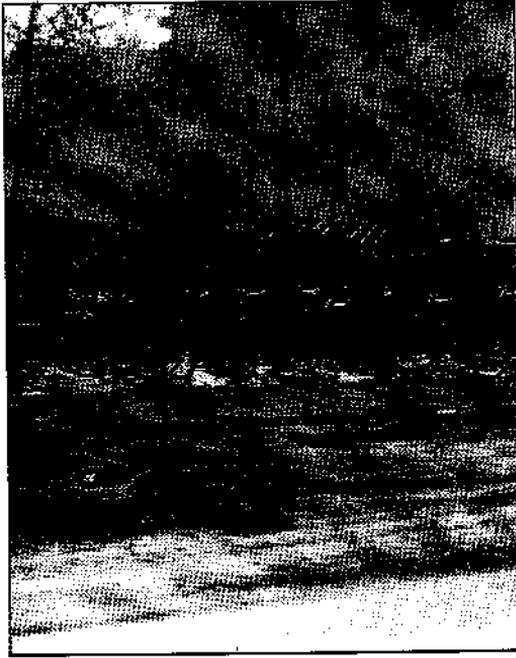
المزرعة الجماعية:

لا يمكن أن نقل هنا صورة للمزارع الجماعية لأننا لم نرها بعد ولا أريد أن أكتب شيئاً لم أشاهده غير أنني مررت ببقعة صغيرة مزروعة في هذه الضواحي لو ملكها فلاح من بني قومنا بمفرده لاعتبرها قليلة ضيقة بالنسبة إليه ورأينا فيها جماعة من الرجال والنساء أكثرهم من المسنين أقدر عددهم في حدود العشرة. وأخبرونا أنها مزرعة جماعية للخضار بمعنى أن جماعة من القوم يشتركون في زراعتها ولم أر معهم أية وسائل حديثة من وسائل الزراعة. وإنما هي الأدوات القديمة كالرفش والمساحي الطويلة الأيدي أو النصاب كما نسميها في لغتنا العامية وهي كلمة فصيحة أصيلة.

وفيها جزء غطوه باللدائن حماية له من البرد لأن البرد يقتله إذا لم يحم منه.

ولللخضار أهمية كبيرة في الصين أكثر من غيره من أنحاء العالم لأن أهل الصين يأكلون الخضروات والأعشاب والبقول أكثر من غيرهم ولا تمكنهم حالتهم الاقتصادية من استيراد ذلك من خارج البلاد الصينية.

وفي القسم القريب من قلب المدينة وصلنا إلى شوارع واسعة تسير فيها السيارات والدراجات بهدوء إلا أن أعدادها غير كثيرة وأكثر السيارات التي تسير في هذه الشوارع من قلب المدينة هي سيارات النقل الكبيرة ذات اللون الزيتوني التي تحسبها سيارات عسكرية وهي ليست كذلك ثم الحافلات التي هي موجودة بكثرة وإن لم تكن بالقدر الذي ينتظر أن تكون عليه في مدينة يزيد عدد سكانها على عشرة ملايين نسمة ولا يملكون سيارات خاصة.



شارع عليه عمارة فخمة وسائقو الدراجات فيه

وفي هذا القسم الواسع الشوارع وربما صح القول إنه قسم حديث من المدينة مع أن المراد بحدائته ما قبل الحكم الشيوعي توجد إشارات مرور معتادة على حين أن الموجود في غيره في الغالب رجال من المرور يسكرون السيارات بإرشادات من أيديهم في مفارق الطرق غير الواسعة، ورجال الشرطة كرجال الجيش يرتدون ملابس جيدة المظهر حسنة اللون.

في حي إسلامي:

دخل الموكب شارعاً ليس واسعاً اسمه (نيوجيه) أي: شارع البقر والسبب في ذلك أن المسلمين في القديم كانوا يحبون الأبقار للبن واللحم بخلاف الصينيين الذين يأكلون الخنازير ويربونها في بيوتهم.

وفي هذا الشارع شاهدت مطعماً كتب عليه بالعربية (مطعم إسلامي) ومسجداً لم نقف عنده لأن لنا عودة إليه وإنما قصدنا الآن زيارة مقر الجمعية الإسلامية المركزية في بكين الذي يقع في هذا الحي الإسلامي الذي يسكنه الآن مع المسلمين غيرهم وكان حياً يكاد يكون خالصاً للمسلمين في الماضي.

ولفت نظرنا هنا كثرة وجود الطواقبي على رؤوس السكان واعتماد (الطاقية) على الرأس شعار المسلمين في بلدان كثيرة.

مقر الجمعية الإسلامية:

بعد أن أمضينا ساعة من المشي منذ أن انطلقنا من فندقنا في (جبل العطر) وصلنا مقر الجمعية الإسلامية فوجدنا في الاستقبال فيه الأخ محمد علي جانغ جي رئيس الجمعية وعددًا كبيراً من زعماء المسلمين وكبرائهم العاملين في الجمعية.

وفي قاعة متوسطة للاجتماعات أبدى رئيس الجمعية الإسلامية محمد علي جانغ جي اعتذاره عن عدم تمكنه من استقبال وفدنا في المطار بسبب مرضه وقد كان المرض واضحاً عليه، وقال مرافقونا: إنه يشكو من ضمور في شرايين الدماغ وأنه يتناول أدوية مع أنه ليس كبير السن إذ هو في السابعة والستين.

وهذه سن عندهم ليست كبيرة لأننا وجدنا بين المستقبلين عدداً من الذين بلغوا التسعين من العمر وتلك عادة من عادات أهل الصين التي استمرت حتى في هذا العهد الشيوعي وهي التمسك بأهل الأسنان أي المسنين والاستفادة من خبرتهم وعدم إحالتهم للتقاعد. إلا إذا كانوا من عامة الناس الذين لا يستفاد من خبراتهم فإنهم يحالون إلى التقاعد إلا أنهم كثيراً ما يكلفون القيام بأعمال تتناسب مع طاقاتهم، ولا يظنون عاطلين.

اللقاء الرسمي الأول:

عندما وصل الوفد إلى مقر الجمعية الإسلامية الصينية وكان في استقباله عند المدخل الشيخ الياس شن شياشي والشيخ صالح آن شي وي نائب رئيس الجمعية الإسلامية الصينية وغيرهما من الموظفين فيها. ثم دخل الجميع قاعة الاجتماعات في الدور الأرضي حيث اجتمع فيها مع المذكورين الأخوة المسلمون: الشيخ محمد علي جانغ جي رئيس الجمعية الإسلامية الصينية. الشيخ عبدالرحيم ماسوتينغ مدير معهد الدراسات الإسلامية الفخري. الشيخ يحيى ليو عضو المجلس الوطني. الشيخ ابراهيم ماجو شن نائب رئيس قسم البحوث الإسلامية في الجمعية. الشيخ داود شي كون إمام مسجد نيوجيه. الأستاذ سليمان خاني دونغ سكرتير الجمعية. الأستاذ عيسى محمود كو جنغ تاي مدير قسم العلاقات الخارجية بالجمعية. وبعد الترحيب بالوفد شرح الشيخ إلياس أحوال المسلمين في الصين الشعبية إبان الثورة الثقافية و عصابة الأربعة. فقال:

هذه الثورة الثقافية كانت على الثقافة والمعرفة على حد سواء. سواء كانت

الثقافة إسلامية أو غير إسلامية وقد أكلت الأخضر واليابس وسلط الطلبة على الحكام والمعلمين دون اعتراض أحد عليهم إذ يلقي المعارض جزاءه فوراً، وهو الإعدام بالشنق أو رمياً بالرصاص أمام الجماهير. وأصبح تلاميذ المدارس هم الحكام بدون معارض. بأى مستوى كان. وكان الطالب المجرم هو الناجح وغيره ساقط ومجرم في نظرهم فإن الطلاب الذين عاشروا الفترة المذكورة معظمهم أُمي أو شبه أُمي. بالرغم من شهادات النجاح التي عندهم وهذا حسب اعترافهم بأنفسهم. سواء في تركستان أو في الصين.

واستمرت الثورة عشر سنين. من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٧م حتى موت تونغ. وإنه مات في هذه السنة وهذه الفترة تعد من أسوأ الفترات التي مرت على الإنسانية في تاريخ الإنسان الصيني - لم ير مثلها قبلها ولن يرى بعدها - إن شاء الله. وفي اثناء الثورة المذكورة كان الطالب يتجول في الشوارع وفي يده صفيحة أو صحن ومقراض وكبريت.

وإذا رأى إنساناً ملتحياً أو امرأة ذات شعر طويل وحجاب. قص اللحية والشعر واحرق الحجاب علناً في الشوارع أمام الجماهير واهانهم وربطوا اعناقهم بالحبال وجرجروهم كالنعاج. وأصبح الحكام ألعوبة في أيدي السفهاء من الطلبة. وقد تعلق الصفيحة أو الصحن على عنقه ثم يطبلها قائلاً مكرها (أنا الذي فعلت كذا واخذت مال كذا) من أنواع الأقوال الملتصقة بالزور والبهتان. ثم يلقي في غيابات السجن. ولم يبق احد الا قد ذاق العذاب على ايدي الماوية الماركسية لعنهم الله.

وان معظم الحكام الحاليين من الذين ذاقوا العذاب على أيدي هؤلاء لذلك بدأوا في تغيير السياسية الماوية الماركسية بعد الثورة الثقافية اي بعد موت (ماوتسي تونغ) عام ١٩٧٧م بدأ التغيير رويداً رويداً.

وفتحت المساجد كلها ما عدا القليل بسبب ضياع أرضية المسجد من الهدم

أو قد بنى على أرضها شيء آخر مثل المصالح الحكومية.

وبدأ المسلمون يحفظون أولادهم القرآن الكريم في المساجد ويعلمونهم العلوم الدينية. ورجع كبار السن إلى زعيم القديم الإسلامي. وانكسر الستار الحديدي المضروب عليهم وفتحت الأبواب إلى الداخل والخارج وبدأ الاتصال بين المسلمين.

وقد ألقى رئيس الجمعية الإسلامية كلمة ترحيب قصيرة رددت عليها بكلمة مبسوسة بينت فيها الغرض من قدومنا إلى الصين الشعبية وأنه النظر في التعاون مع المسلمين فيها على ما فيه البر والتقوى عملاً بقوله تعالى: (وتعاونوا على البر والتقوى). من دون أن يكون في ذلك سعي لمصلحة مادية من سياسية أو اقتصادية.

ثم قلت، إننا مستعدون للنظر فيما تطرحه الجمعية الإسلامية من مشروعات إسلامية تطلب مساعدة رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة على تحقيقها.

وأخبرتهم فيما أخبرتهم به أن رابطة العالم الإسلامي التي أوفدتنا إلى هذه البلاد هي منظمة إسلامية عالمية شعبية وليست دائرة حكومية سعودية ولا غير سعودية، وإنما تساعد المملكة العربية السعودية كما تساعد غيرها من الهيئات الإسلامية في العالم.

ثم تكلم الياس شن شياشي نائب رئيس الجمعية فقال إن حالة المسلمين في الصين الشعبية منذ قيام جمهورية الصين الشعبية معتادة حتى قامت الثورة الثقافية التي دبرتها عصابة الأربعة ولكن منذ أن زال عهد العصابة المذكورة أخذت الأمور تعود إلى مجاريها فأخذت المساجد تعاد وبعضها يصلح وبعضها يفتح للصلاة من جديد وما زال الأمر في تحسن والحمد لله حتى الآن.

وعصابة الأربعة التي ذكرها الحاج الياس هم الذين كانت الثورة الثقافية في

- عهدهم الذي دام عشر سنين من عام ١٩٦٦م - إلى عام ١٩٧٦م.
- ١ - جنياي تشين: زوجة الرئيس ماو عضو المكتب السياسي للجنة الحزب الشيوعي المركزية.
 - ٢ - وانغ هون ون: نائب رئيس لجنة الحزب الشيوعي المركزية.
 - ٣ - تشانغ شون جياو: عضو المكتب السياسي للجنة الحزب الشيوعي المركزية ونائب رئيس مجلس الدولة.
 - ٤ - ناو ون يوان: عضو المكتب السياسي للجنة الحزب الشيوعي المركزية ونائب رئيس مجلس الدولة.



الوزير محمد علي جانغ جي رئيس الجمعية الإسلامية يقدم الهدية للمؤلف

وفي نهاية هذه الجلسة التي قدموا فيها الشاي الصيني الشبيه بالأخضر الخالي من السكر، ومعه بعض البسكويت والتفاح والحلوى قدم رئيس الجمعية الإسلامية هدايا لوفدنا تتألف من تحف فخارية جميلة مكتوب عليها آيات قرآنية وأدعية أخرى بالعربية وخصني بمزيد من ذلك فقدمت له هدية رمزية فيها من تمر المدينة المنورة، وعباءة عربية وساعة يدوية كما قدمت لعدد من كبار

أعضاء الجمعية الإسلامية الصينية المحاضرين هدايا أخرى.

ثم ودعنا رئيس الجمعية والمسنين من أعضائها إلى حين لأن لنا عودة إلى هذه القاعة التي تقع في الطابق الأرضي بعد الجولة في بناء مقر الجمعية الذي يشتمل أيضاً على المعهد الإسلامي وعلى مصلى ومكتبة ومعرض للكتب.

فكان الدخول أول الأمر إلى قاعة المعرض وتشتمل على مخطوطات بالعربية من أبرزها مصاحف محفوظة قديمة كلها ليس فيها ترجمة ولا شرح باللغة الصينية، وأكثرها خطوط معتادة ليست بالغة القدم، وفيها كتب إسلامية باللغة الصينية، ولكنها ليست كثيرة على اعتبار ان المعرض مخصص للكتب ذات القيمة التاريخية. وربما تكون الكتب الصينية القديمة أو يكون الموجود لديهم منها ليس كذلك.



المؤلف يسلم الهدايا للحاج الياس شن شياشي
نائب رئيس الجمعية الإسلامية في مقر الجمعية

ثم مسجد الجمعية وهو ذو محراب واسع عليه حلية بطراز أخضر كل الكتابات فيه باللغة العربية.

وقد أنشئ هذا المسجد عند إنشاء مبنى الجمعية الإسلامية الصينية هذا كله في عام ١٩٥٨م. والمبنى كله يخص الجمعية الإسلامية في الوقت الحاضر كما قالوا لنا.

المعهد الإسلامي:

للاطلاع على هذا المعهد أهمية خاصة فيكاد يكون المعهد الإسلامي الوحيد الموجود في الصين كلها على هذه الهيئة الرسمية. مع أن المسلمين في الصين موجودون في أكثر الأقاليم وبعضها تقطنه أكثريات إسلامية مثل إقليم سينكيانج وبعضها تسكنه أقلية إسلامية ولكنها أقلية ذات نسبة عالية مثل إقليم (نن تشا) الذي يبلغ المسلمون فيه حوالي ٣٥٪ إضافة إلى مجموعات إسلامية أخرى في أقاليم متعددة ولا توجد معاهد إسلامية في تلك البلاد مما سبب الخوف بل الرهبة عند المسلمين المخلصين من انقطاع المعرفة الإسلامية لدى المسلمين عند إنقراض الجيل القديم من أئمة المساجد ومشايخ الدين الذين تخرجوا في مساجد الصين وملت المساجد منهم ومن أمثالهم أو كادت تخلو في الوقت الحاضر.

واسمه (المعهد الإسلامي) وقد يسمونه (معهد العلوم الإسلامية).

دخلنا أول الأمر الفصل الأول وفيه ١٧ طالباً فوجدناهم قد كتبوا على السبورة الحروف الهجائية العربية وما يقابلها من الأصوات بالصينية ولا أقول الحروف الصينية لأن اللغة الصينية ليس فيها حروف هجائية مشابهة للحروف في اللغة العربية ونحوها من اللغات التي تستعمل الحروف الهجائية وإنما الكتابة الصينية مؤلفة من أشكال متعددة كل معنى له شكل خاص في الكتابة لا بد من أن يتعلمه من يريد إتقان الكتابة باللغة الصينية.

وليس هذا موضع الحديث عن اللغة الصينية فقد يأتي الكلام عليها في موضع آخر.

وسألت الطلاب عما إذا كانوا يجدون صعوبة في تعلم اللغة العربية لكونهم مبتدئين فأجابوا إنهم لا يجدون صعوبة في ذلك ولقد شفَعوا ذلك بأن تحدثوا بجمل قصيرة بالعربية بحيث أحسنا بأن مستواهم جيد.

ثم انتقلنا إلى الفصل الثاني ومعه مدرسه اسم (كمال الدين يانغ) فداعتهم قائلاً: أرجو أن تكملوا تعليمكم بعد الانتهاء من هذا المعهد في المدينة المنورة فضجوا كلهم بالتأمين واطهروا شوقهم وتشوقهم إلى ذلك.

ثم مررنا بمكتبة المعهد وكلها كتب عربية جيدة قالوا: إن عماد هذه المكتبة هدية قدمها الملك فؤاد ملك مصر إلى الجمعية الإسلامية إبان حكمه، ذلك أن البلد العربي الإسلامي الرئيسي الذي كان يستقبل الطلاب من الأقليات الإسلامية البعيدة ويعلمهم كان القطر المصري.

ثم انتقلنا إلى قاعة للمطالعة تركبها قبة قالوا: إنها إحدى قباب خمس موجودة في المبنى وفي هذه القاعة كتب عربية وصينية وقد أبرزوا الكتب العربية على اعتبار أن طلاب المعهد الإسلامي يستفيدون منها كما أخبرونا.

مكتب التبادل الثقافي:

قالوا سنذهب الآن إلى مكتب التبادل الثقافي فلم نفهم ذلك أول الأمر حتى قالوا: إن المراد منه تبادل الكتب الإسلامية، وقد أخذت معي نسخاً قليلة من مؤلفاتي من أجل مبادلتها بما يكون لديهم من كتب مدنية أخذاً من مفهوم كلمة التبادل، ولكنهم صححوا هذه الفكرة بأن قالوا: إن هذا المكتب يبيع الآن الكتب الإسلامية التي تطبعها الجمعية الإسلامية الصينية، ولكنهم كانوا قد أسموه مكتب التبادل الثقافي على اعتبار ما كان لأن بيع الكتب الدينية التي كان

بييعها ممنوع إبان حكم عصاة الأربعة الذي شجع الفوضى بما أسماه الثورة الثقافية فلما هزمت عصاة الأربعة وسجن أعضاؤها وحصل التراخي بعد التشديد الشيوعي الذي منه تحريم بيع الكتب الدينية صارت هذه الكتب تباع بيعاً على الجمهور ولكن بقى الاسم على ما هو عليه.

وهذه الكتب التي تباع كلها كتب صينية ومعاجم عربية صينية. وقد أهدونا مجموعة منها. وكانت الزيارة كلها تسجل بالصور وبالكتابة الصحفية حيث كانت هناك مصورة صينية قالوا: إنها تتعامل مع الجمعية الإسلامية وهناك امرأة أخرى تسجل ما يدور من الحديث قالوا: إنها من صحيفة بكين.

ومع ذلك كان المسجل يذيع تلاوة من القرآن الكريم ربما لمناسبة زيارة الوفد وكان بعض الطلبة يطلون ويتابعون تحركات الوفد بقلانسهم أي طواقمهم البيض فكان المشهد أشبه ما يكون بالمظاهرة الإسلامية هنا في الحي الإسلامي من بكين القديمة.

وإن كان الأمر يبدو مرتباً من قبل لأن زيارة مقر الجمعية الإسلامية كان من أهم فقرات البرنامج المقررة قبل ذلك.

وفي أثناء زيارة الوفد تقدمت الصحفية الصينية التي نالها من هدايا الوفد علبة صغيرة من قمر المدينة المنورة بطلب الإدلاء بتصريح لصحيفتها بناء على طلب منها وتأييد من المسؤولين في الجمعية الإسلامية فتضمن التصريح الإشادة بالعلاقات الصينية العربية قبل الإسلام وبعده وأوردت الأثر القائل «اطلبوا العلم ولو في الصين» وقلت: هذا يستدل منه على ما في نفوس العرب من منزلة عالية رفيعة للصين في ذلك الوقت رغم بعدها عنهم لأنه لو لم يكن الأمر كذلك لما ضرب المثل بطلب العلم في الصين مع البعد الشديد عن بلادهم في ذلك الزمان.

وقلت لهم: إن المواطنين الصينيين كانوا على مدى العصور يعيشون إلى جانب مواطنيهم من أبناء المسلمين بمودة وانسجام وصدقة ونحن نعتبر ذلك مدعاة لصدقة الصينيين للعرب لأن أصدقاء إخواننا المسلمين هم أصدقاؤنا. وقلت لها: إن الهدف من زيارة وفد الرابطة هذا إلى الصين هو هدف إسلامي ثقافي قصد منه العمل على تمتين العلاقات الثقافية الإسلامية بين رابطة العالم الإسلامي والجمعية الإسلامية الصينية عملاً بما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى: (وتعاونوا على البر والتقوى) وتعاون الرابطة مع الهيئات والمؤسسات الإسلامية في العالم ليس موجهاً ضد الهيئات والمؤسسات الثقافية لغير المسلمين ممن لا يسعون إلى الإضرار بالمسلمين.



صورة تذكارية عند باب الجمعية الإسلامية مع وفد الرابطة

مطعم القوميات،

قال إخواننا في الجمعية الإسلامية إن غداءكم اليوم سيكون في (مطعم القوميات) ولم نكن لنفهم ذلك بسرعة فالقوميات عندنا شيء آخر غير القوميات في الصين.

والمراد بالقومية في هذا المطعم أنه توجد فيه أطعمة القوميات المختلفة في الصين من الصينيين الكفار الذين لهم الأكثرية العددية ويعبر عنهم بقومية «خان» إلى المسلمين الذين لا يأكلون ذبيحة الكفار في الصين لأن كفار الصين ممن لا تحل ذبائحهم للمسلمين.

ودخلنا إليه في قصر معتاد ولكن تظهر عليه الفخامة وقال أحد الإخوة: إن هذا كان يسمى قصر الثقافة.

وفي الطابق الثاني الذي يصعد إليه من درج هناك وجدنا قاعة كبيرة قد كتب على بابها باللغة العربية (المطعم الإسلامي) وفي قاعة داخلية أخرى أصغر منفصلة عن الكبرى وجدنا مائدة كبيرة مستديرة قد نصبوها، قادتنا إليها فتاة صينية أصيلة أهم ما يشهد لها بذلك ضيق العينين، وانتفاخ الحاجبين وارتفاع الوجنتين ولكنها كسائر الفتيات العاملات هنا قلما ترى في وجهها انفراج الشفتين عن ابتسامة أو ما يقرب من الابتسامة بل كل همها أن تؤدي عملها وذلك ما نطلبه نحن وأمثالنا منها ولكننا نحكي هنا ما رأيناه أوالحظناه.

فبادرت بأن وضعت على المائدة المقبلات التي منها الحامض والحار وإن يكن ذلك دون مبالغة فيه، وفيها ما تنكره ولا تعرفه.

وفيها ما تعرف أصله ولكنك تنكر فصله في هذه البلاد مثل طبق جاءوا به قالوا: إنه لحم الضأن وقد قطعوه قطعاً صغيرة رقيقة حتى أصبح كالأوراق الخفيفة ومثل شربة البيض وما قولك في شربة أي حساء حار تسبح فيه قطع من رقائق البيض أيضاً، كما جاءوا بالسّمك وبالذجاج في مقادير قليلة لأنها ليست وحدها وإنما أصناف الطعام كثيرة ولكنهم صنعوها صنعة فيها التكلّف والغرابة بحيث تجزم أنهم أنفقوا في إعدادها من الجهد والوقت أضعاف ما

ننقله على ذلك ومن أغرب ما فيه أن قدموا مع المقبلات شيئاً قاسياً قالوا: إنه من قصب (البامبو) والبامبو كما نعرفه هو نبات بل أخشاب كالخيزران إلا أنه أغلظ سوقاً وأكثر استقامة ويستعمل في بلاد كثيرة مثل بنغلادش وبورما وتايلند في بناء البيوت يشقون أغصانه الكبيرة شقاً ويلصقون بعضها ببعض برباط من أعواد أخرى أصغر منها وهكذا إلا أنه لا يعمر إلا في حدود عشرين سنة هناك كما أخبرنا أهل البلاد.

أما في هذه البلاد الصينية فقد استعملوا نوعاً من البامبوفي هذه المقبلات وأخبرونا أنهم يعملون منه أيضاً خضرات يطبخونها في طعامهم حسب ما اعتادوا عليه في نظامهم الغذائي من الإكثار من الخضرات والإقلال من الدهون والسكريات. وقد انصرفنا مسرعين إذ القوم كانوا ينتظرون فراغنا لأننا تأخرنا قليلاً.

جامع نيو جيه :

أي (جامع شارع البقر) كما هو معنى اسمه بالعربية سار إليه الموكب عَصراً ومررنا بمعبد بوذي على تلة قالوا: إنه معبد السن أي سن بوذا وأنه قد مضى عليه ثلاثة آلاف سنة.

ولقد تذكرت بهذه المناسبة أنني رأيتهم في المعابد البوذية يحرصون على إنشائها في أماكن عالية جداً مثل معبد قديم في ضواحي مدينة «كتمندو» عاصمة نيبال الذي قالوا: إن درجاته تبلغ ألف درجة ومثله معبد بوذي في الجبل الذي يطل على مدينة شنغماي في شمال تايلند وأما ما يتعلق بالسن فإن معبد السن موجود أيضاً في مدينة (كندي) في الهضبة الوسطى من جزيرة سيلان ولا يزال البوذيون يتقربون إليه ويعظمونه.

ووصلنا إلى شارع البقر الذي وصفته من قبل عند المرور عليه في الطريق إلى مقر الجمعية الإسلامية ووجدنا جماعة من المسلمين واقفين عند مدخل الطريق إلى المسجد لأن المسجد تحف به ملاحق تابعة له مثل برج كان يستعمل لرؤية الهلال في رمضان وفي شوال في القديم عندما كانت الأبنية القديمة منه متظامنة ويستعملونه الآن لذبح الدجاج ونحره أي لتذكيته إسلامية وبيعه على المسلمين.

كما تجمهر مع المسلمين طائفة من سكان الحي من غير المسلمين عندما ضعف شأن المسلمين وأصبح الحي غير خالص لهم.

وكان على رأس الواقفين المستقبلين الشيخ داود كون إمام جامع نيوجيه وكان يرتدي الملابس الصينية التقليدية التي يلبسها طلبة العلم ومن أهم ما فيها العمامة وقد أرسل لها ذؤابة خفيفة وجبة غليظة جداً قد لبسها فوق ثيابه كما كان معه من المستقبلين جماعة من طلبة العلم و محبي الدين.

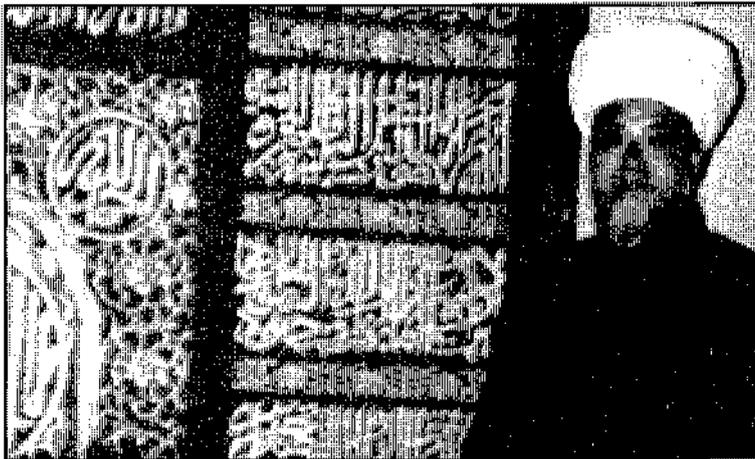


جامع نيوجيه منظر خارجي

وقد طلبوا منا الجلوس في قاعة للجلوس من الأبنية الملحقة بالمسجد وجاءوا بالشاي الصيني الأخضر الخفيف الخالي من السكر الذي لولا نكهة الشاي فيه لما ظننت أنه شاي لأنه ليس مرراً الشاي الأحمر المعتاد قبل أن يوضع فيه السكر ومعه نقل وفاكهة ومن بينها فاكهة مجففة قالوا إنها التمر الصيني وذكروا اسمها بما لا أعرفه وقلت لهم: إنه ما دام يوجد التمر العربي والتمر الهندي فإنه لمن المعقول أن يكون هناك التمر الصيني. وهذه الفاكهة حلوة ولها نواة ولكنها بعيدة عن تمرنا الذي منحه الله لأهل صحرائنا فاكهة وغذاء.

وبعد ذلك تحولنا في المسجد الذي ذكرنا أن الحكومة الصينية الحاضرة ساعدتهم على ترميمه على اعتبار أنه من الآثار القديمة وكانت عصاة الأربعة والذين أغووهم وضللوهم من الشبان قد حاولوا الاعتداء عليه وأغلقوه.

وهو جدير بالإصلاح لأنه قديم التاريخ عجيب الصنعة فهو من الخشب ولكن داخله مزوق بنقوش عربية ومحاط بأفاريز كتب عليها آيات قرآنية كريمة بعضها بخط نسخي جميل وطائفة منها بخط كوفي وقالوا إنها تضمنت سبعاً وعشرين سورة منها سورة الرحمن كاملة.



الشيخ داود كون شي إمام جامع نيوجيه واقف بجانب الآيات القرآنية الكريمة المكتوبة على حائط الجامع

أما أصباغة الفاقعة المختلفة الألوان ومن أهمها اللون الذهبي والأحمر فإنني لا أظن أنها تقل عن أصباغ القصور الملكية في الصين وأكثرها محتفظ برونقه وبعضها قد جدد طلاؤه وقد ألقى الشيخ داود كلمة ترحيب بالعربية تضمنت شيئاً من الحديث عن هذا المسجد العريق.

وقد أخبرونا أنه بنى في عام ٩٩٦م وأنه قد خرب في عهد عصاة الأربعة خلال الثورة الثقافية ثم أعيد ترميمه في عام ١٩٧٩م وأن حكومة الصين قدمت مبالغ من المال لترميمه على اعتبار أنه من الأبنية الأثرية الصينية المهمة. وهو بالفعل مبني على الطراز الصيني التقليدي وقد استعملوا ٢,٥ كيلو من الذهب لطلاء الآيات القرآنية الذهبية فيه، وأنه يوجد في شرقي حديقته أي في الجهة المعاكسة للقبلة لأن قبلة أهل الصين إلى مغرب الشمس قبران لعالمين كانا مشهورين أحدهما في القرن السابع الهجري.



الحاج داود كون شي إمام جامع نيوجيه يتحدث مع المؤلف في الجامع

وقد تفقدنا القبرين فوجدت تاريخهما مكتوباً بكتابة واضحة بخط قرأناه بسهولة وأحدهما للشيخ محمد بن أحمد برهان الدين القزويني الذي توفي في عام ٦٧٩هـ كما هو مكتوب على قبره والآخر كتب عليه تاريخ وفاته في يوم الأحد ... من عام ٦٨٢هـ وهو لعقاد الدين من بخارى كما كتب عليه.

وهذا يدل على قدم الإسلام في الصين وعلى أن هذا الحي الذي فيه المسجد كان حياً إسلامياً عريقاً وربما كان أحد أحياء المسلمين في الصين التي ذكرها ابن بطوطة في رحلته .

ويحفل فناء المسجد بأشياء أثرية صينية قديمة من ذلك قبة مبنية على الطراز الصيني الخالص الذي بني عليه المسجد وتحتها بعض المجسمات الفنية الصينية.

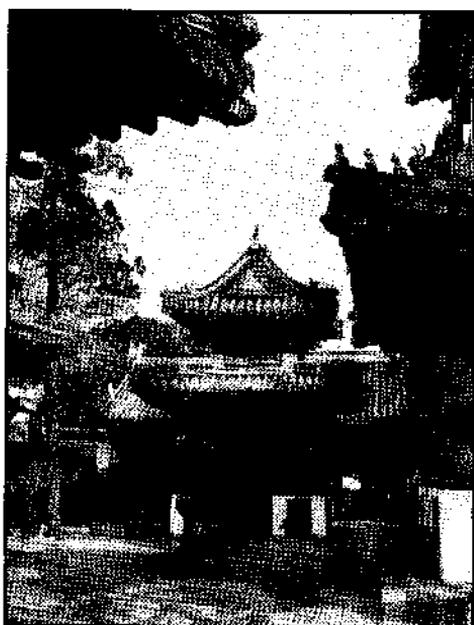
وأما منارة المسجد فإنها مبنية على هيئة برج صيني غير عال منفصلة عن المسجد وبجانبيها برج صيني آخر ذكروا أنه بني من أجل أن يتطلع إليه من يترأى الهلال عند الحاجة إلى معرفة ذلك في شهر رمضان وخروجه ، ونحو ذلك من المناسبات.



برج مراقبة الهلال في جامع نوجيه في بكين

عرف مسجد شارع البقر «نيوجيه» بأنه أقدم وأفخم المساجد الإسلامية في بكين، وكانت بوابته مغلقة خلال الفترة بين عامي ١٩٦٦-١٩٧٦ وليس ذلك الا بسبب الفوضى والضوضاء التي أشاعها لين بياو وعصابة الأربعة. فلما هل عام ١٩٧٩ استعيد واستغرق الإصلاح والترميم أكثر من سنة واحدة.

أما شارع البقر نفسه فكان أقدم منطقة سكن فيها عدد من المسلمين البيكينيين. بنى المسجد في شارع البقر عام ٩٦٦ الميلادي الموافق لعام تشي داو الثاني من الأعوام التي جلس فيها الإمبراطور تاي تسونغ لأسرة سونغ الشمالية على عرش الحكم ثم اضيفت إليه بنايات في عهد اسر يوان، مينغ، تشينغ، وبعد ذلك مدت إليه يد الترميم والتصلح أكثر من مرة.



مئذنة جامع نيوجيه

وقد شيد المسجد على غرار القصور الامبراطورية الصينية وهو يضم ثلاث بوابات وصحنين مربعين، وعلق فوق مدخله لوح خشبي منقوش عليه كتابات صينية: « طريق مؤد إلى الجنة»، وفيه برج لرؤية الهلال علوه حوالي تسعة أمتار، عندما يدخل المرء يجد صحناً ضيق الحجم، تنمو فيه أشجار الصنوبر والسرو والأزهار الزاهية ثم يخترق بوابة ماثلة للأولى ويجد صحنًا شاسعاً يضم المسجد الذي يسع الف مصل والجواسق والقاعات وتتوسطه مئذنة وترتفع في شماليه وجنوبه قاعات واسعة لتعليم الدين ونشر تعاليم الإسلام وصف من القاعات بمقابلة المسجد عدده سبع غرف واسعة تخصص لإقامة الحفلات والمآدب.

وقال أحد المرافقين الصينيين لنا إن المسجد تم بناؤه في عهد أسرة سونغ الشمالية، لذا يعتبر أقدم من بكين العاصمة الكبرى لاسرة يوان بمائتين وسبعين سنة.

ومن حسن الحظ أن الرسوم والنحوت لم تمتد إليها يد التخريب. والمساحة الكلية للمسجد ٥٧٠٠ متر مربع والمساحة للمصلى ٦٠٠ متر مربع تقريباً.

الدروب الموصلة إلى الجنة:

في جنوب شرقي المسجد صحن ضيق اسماه المسلمون المقيمون في الشارع الجنة وهي عبارة عن قبرين دفن فيهما مسلمان عربيان، اتيا إلى الصين في قديم الزمان بغية نشر تعاليم الإسلام ثم توفياً في بكين فدفنا بجوار المسجد.

وقال أحد الرواة: إن مسلماً اسمه قوام الدين هو أول من اتى من العرب إلى بكين قبل عام ٩٦٠ الميلادي، تم بناء المسجد في شارع البقر على يد ابنه الثاني نصر الدين، فكان لقوام الدين ثلاثة اولاد هم: صدر الدين، نصر الدين، الأصغر سعد الدين، فلما بلغ نصر الدين وسعد الدين أشدهما رفضا مناصب

عالية تخدم الإمبراطور، عاقدين العزم على نشر الإسلام فطلبوا من الإمبراطور أن يخصص من الأرض لكل واحد منها مساحة كي يبني فيها مسجداً وأن يتولى أحفادهما الوظائف المسئولة عن إدارة شئون المسجد، فقبل الإمبراطور وسمح لسعد الدين أن يقيم المسجد في الضاحية الشرقية من بكين ونصر الدين أن يقيم مسجد شارع البقر، حالياً، في الضاحية الجنوبية.

وبني المسجد على ضفة نهر الصفصاف في منطقة جميلة كان يجري فيها قرب المسجد بل من تحته نهر وتنتب اشجار الصفصاف المورقة على ضفتيه وبقى المسجد على حالته الجيدة هذه.

المرسوم الامبراطوري:

تواترت على ألسنة الناس رواية عن مسجد شارع البقر منذ قديم الزمان تقول: اصدر الامبراطور كانغ شي الامبراطور الرابع لأسرة تشينغ، عام ١٦٩٤م وهي الأسرة الملكية الأخيرة التي حكمت الصين، مرسوماً بعثه إلى المسجد يقول فيه: «عندما أقيمت المناسك التقليدية التي يواظب عليها ابناء خان وخوي وجدت انها تنبع من التعاليم الدينية... يتولى الوزراء والموظفون من ابناء خان مناصب رسمية مختلفة ويأخذون شهرياً الرواتب ليعبدوني في مواعيد محددة، ولكن ابناء خوي (المسلمون) يصلون لله خمس مرات كل يوم، بغية الخشوع لله دون ان يأخذوا شيئاً فارى ان ابناء خوي الافضل. اوجه الآن اوامري إلى المقاطعات فاعلموا ان من كان منكم موظفاً أو مواطناً على حد سواء يصف ابناء خوي باثارة الفوضى والتمرد على الإمبراطور، متذرعاً بالخصومة بين هذا وبين ذلك فاقتله ايها المسئول عن دائرة تطبيق القانون قبل إرسال التقارير إلي، فليواظب ابناء خوي على الإسلام ولا يعملوا خلافاً للأوامر والنواهي ولا ينسوا فضلي عليهم منطلقاً من محبة التعاليم الدينية، أشرف على خط المرسوم لعله مقبول لدى جميع الأهالي».

وقال أحد الرواة عن سبب اصدار الامبراطور كانغ شي مرسومه: كلما اسدل ستار الظلام كل ليلة من شهر رمضان من ذلك العام، ومضت المصاييح والمشاعل داخل المسجد وخارجه في شارع البقر وتدفق المسلمون إلى المسجد لصلاة التراويح، اثار الشك في نفس الجهلاء فعرض أحدهم تقريراً على الإمبراطور كانغ شي يلفق فيه اتهامات تقول: «يحتشد أبناء خوي كل ليلة ثم ينفضون عند شروق الشمس، وذلك بغية إثارة الضوضاء».

وفي الحال، دخل الإمبراطور كانغ شي شارع البقر مرتدياً الزي الإسلامي عدة ليال لمعرفة الحقائق، حتى عرف عبر الاستطلاع الشخصي أن الإسلام دين لأبناء خوي يعلمهم أن يسلكوا الطريق إلى الله ويواظبوا على التواضع والتقوى وطاعة الأوامر وتجنب النواهي، فاصدر مرسوماً كتب في المسجد وبعث إلى جميع أنحاء البلاد تعبيراً عن تأييد المسلمين الذين يعتنقون دين الإسلام حينذاك، فتشجع به المسلمون في بكين وفي أنحاء البلاد. وقد رصدت حكومة تشينغ مبالغ باهظة لترميم وتوسيع المساجد الأربعة المنتشرة في بكين بما فيها مسجد شارع البقر ومسجد دونغسي، حالياً.

حفلة الجمعية الإسلامية الصينية:

وقد يسمونها الجمعية الإسلامية المركزية لأنها ذات فروع في الأقاليم الصينية المختلفة التي يسمونها المقاطعات وفي داخل المقاطعات فروع للجمعية التي تكون فرعية للجمعية بكين وتكون موجودة في عاصمة الإقليم أو المقاطعة.

والحفلة على طعام العشاء دعوا إليها طائفة من وجهاء المسلمين وزعمائهم كما حضرها بعض الزعماء من غير المسلمين وإن كان العدد قليلاً وحضرها أيضاً ممثل للصحافة الصينية غير الإسلامية ومصور خاص.

كان من بين الحضور بل ربما أكبرهم منزلة بين أعيان المسلمين (برهان شهيدي) وهو نائب رئيس المؤتمر الوطني الاستشاري للشعب الصيني والرئيس الفخري للجمعية الإسلامية وهو شخصية مشهورة معروفة يعرف قدرها من العربية، وكان حاكماً سابقاً لمقاطعة تركستان الشرقية المسماة سينكيانج وأصله من تلك البلاد ويقال: إنه من التتر وتعلم في موسكو بعض تعليمه.

وقد رأيناه شيخاً وجيهاً ليس في وجهه شيء من الملامح الصينية، بل هو يبدو كالعربي الأبيض وذلك رغم كبر سنه الذي يبلغ تسعين سنة هكذا قالوا لنا وهكذا قال هو. وحواسه سليمة الا أنه يضع سماعة في إحدى أذنيه وإذا أراد النهوض احتاج إلى امرأة معه تساعد على ذلك، مثله في هذا الأمر رئيس الجمعية (محمد علي يونغ) الذي تساعد على النهوض امرأة رأيناها معه في هذه الحفلة ولم تكن موجودة في مقر الجمعية الإسلامية صباح هذا اليوم وذلك لمرضه لا لكبر سنه.

ويعرف (برهان شهيدي) شيئاً من العربية بل قيل إنه يعرف العربية غير أن كبر السن أفسده بعض ما كان يعرفه منها.

كما كان من بين الحضور كبار السن (إبراهيم معصوم تين) نائب رئيس الجمعية والرئيس الفخري للمعهد الإسلامي وعمره يزيد على تسعين سنة وهو في صحة جيدة تغنيه عن الحاجة إلى أية مساعدة.

ومن الحضور الذين يعتبرون شباباً بالنسبة إلى غيرهم الشيخ (عبدالرحمن ناجون) وهو يتكلم العربية بطلاقة .

وذلك لكونه درس في مصر وكان عضواً في البعثة الأولى التي سافرت من الصين للدراسة في مصر عام ١٩٣١م وعاش في مصر تسع سنوات حصل على شهادة (العالمية) ثم التخصص في التاريخ الإسلامي ويعمل الآن رئيساً لقسم اللغة العربية والتاريخ الإسلامي وأستاذاً للتاريخ الإسلامي في معهد اللغات

الأجنبية في بكين وهو عضو في المجلس الوطني الاستشاري الذي هو بمثابة مجلس الشيوخ وتفسير اسمه (ناجون) الناصر المخلص فنا تعني (ناصر) وجون مخلص.

وسنة الآن اثنتان وسبعون سنة ولكنه يبدو أصغر من ذلك بربع قرن. ومن العجب أنه إذا تكلم بالعربية ظننته مصرياً ليس من أجل اللهجة وحدها فهو يتكلم أكثر ما يتكلم بالفصحى ولكن من وجهه وطريقة تعبيره أيضاً.

وهو يعتبر شاباً بالنسبة إلى هؤلاء الشيوخ الكبار في السن الذين يعجب المرء من امتداد أعمارهم، ويعجب أكثر من ذلك من إبقاء القوم عليهم في العمل أو حتى إسناد بعض المناصب الفخرية أو الاستشارية إليهم.

ويشتهر المسلمون عند أهل الصين بأنهم يعمرون أكثر من غيرهم ولا سيما سكان الجبال في الشمال الذين توجد منهم طائفة تجاوزت المائة عام. وربما كان ذلك لاجتنابهم الخمر وأكل لحم الخنزير الذي هو دسم بطبعه حسبما يعرف عنه أهله لأن أهالي الصين الكفار مشهورون بكثرة أكل لحم الخنزير حتى بلغ استهلاكهم للخنزير في العام الماضي ثلاثمائة وأربعة وعشرين مليون رأس.

بعد أن وضعت المقبلات على المائدة الرئيسية التي جلس إليها تسعة أشخاص كلهم مسلمون إلا تاسعهم فهو مسئول في الحكومة الصينية. كما وضعت الأشربة التي هي مع الطعام كلها حلال.

أكل القوم من هذه المقبلات يلتقطون ذلك بالعصي الدقيقة حتى المسنون منهم والعجيب في الأمر أنه إذا كان ما أخذوه بالعصي لا يدفع في الفم كله مرة واحدة لكبره مثلاً فإنهم يقطعونه بأسنانهم يجرؤنه مرتين وهم ممسكون به بأطراف العصي الدقيقة أو الأعواد التي هي ملس بسلاسة ظاهرة ولا تسقط من أصابعهم.

وكان من أعيان الحاضرين في هذه الحفلة الشيخ برهان شهيدي نائب رئيس مجلس الشعب الوطني الصيني والرئيس الفخري للجمعية الإسلامية الصينية. الشيخ محمد علي جانغ جي رئيس الجمعية الإسلامية الصينية. الشيخ عبدالرحيم ماسون المدير الفخري لمعهد الدراسات الإسلامية. الأستاذ عبدالرحمن ناجون مدير معهد اللغات الأجنبية في بكين. الأستاذ عابد عاشور مدير إدارة المغتربين في مقاطعة سينكيانغ. الأستاذ خوجة عبدالله مدير القسم الإيغوري في دار نشر القوميات في بكين الأستاذ توكل صديق أستاذ التاريخ الصيني في المعهد المركزي للقوميات في بكين.

كما حضر مندوبو الصحافة والأجهزة الإعلامية لتغطية الحفلة وبعد أن اكتمل عقد القوم حول الموائد ألقى الشيخ الياس شن شيا شي كلمة مكتوبة بالصينية ترجمها الشيخ لقمان إلى العربية رحب فيها بوفد الرابطة الذي يزور الصين الشعبية للاطلاع على أحوال المسلمين وإجراء المباحثات مع الجمعية الإسلامية الصينية كما أشاد بالعلاقات الوثيقة بين الرابطة والجمعية والمساعدات التي تقدمها الرابطة لهيئات الحج الصينية سنوياً.



الحاج إلياس شن شيا شي يرحب بالوفد في حفلة الجمعية الإسلامية والمترجم واقف يساره بجانبه المؤلف فالاستاذ برهان شهيدي

وردت عليه بكلمة مرتجلة شكرته فيها على الترحيب بوفد الرابطة التي تمثل الشعوب الإسلامية لأنها منظمة شعبية عالمية تساعد المملعة العربية السعودية كما تساعد سائر المؤسسات والمنظمات الإسلامية في العالم وتقدم لها الدعم السياسي والمقر. ولذلك قبلنا الدعوة الكريمة الموجهة من الجمعية الإسلامية الصينية لزيارة الصين الشعبية والبحث في الأمور التي تهتم المسلمين وتقديم ما تستطيع الرابطة تقديمه للإخوة المسلمين في الصين مما يتعلق بالأمور الدينية وقلت له: إنني لا أسمى ما قدمته الرابطة للجمعية الإسلامية في الصين وللمسلمين من أموال مساعدات وإنما أسميه تعاوناً لأنه داخل باذن الله في قوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) وإذا سميتموه مساعدة من الرابطة فإننا نسميه أيضاً مساعدة منكم للرابطة على أداء واجبها فقبولكم لذلك يعتبر مساعدة.

ولهذا أرى أن نسمى ذلك تعاوناً بين الرابطة والجمعية الإسلامية الصينية.

وقلت له: إنه سرنا ما ذكرتموه من سماح الحكومة الصينية بإعادة افتتاح المساجد والتوسع في التعليم الإسلامي وتخصيص رواتب لأئمة بعض المساجد وطبع الكتب الإسلامية وذلك مما يشجعنا على طلب التطلع إلى المزيد من ذلك في المستقبل.

كما أنه مما يسرنا أننا سنبلغ به رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة ومن خلالها سوف نبلغ إخوانكم المسلمين في العالم الذين يتشوقون إلى معرفة أخبار إخوانهم المسلمين في هذه البلاد.

* وأخبرتكم بمهمتنا وأن منها النظر في ترميم المساجد المحتاجة والبحث في تيسير أمور الحج ورسم سياسة للتعاون على كيفية طبع المصاحف والكتب الإسلامية.



المؤلف يتحدث في حفلة الجمعية الإسلامية في بكين (على يمينه المترجم)

ثم قلت لهم بحضور مسئول الحكومة والصحافة: إن العمل على رفع شأن المسلمين في هذه البلاد من الناحية الثقافية ليس موجهاً بطبيعية الحال ضد ثقافة أخرى حديثة بل إن المسلمين يجب عليهم أن يتعاونوا مع إخوانهم في الوطن على ما فيه نفع الجميع لأن هذا هو مقتضى الأوامر الإسلامية في تعمير البلاد والسعي في تحصيل معاش الناس.

وعند ختام هاتين الكلمتين دعونا إلى تناول الطعام حيث بدأت خدمات صينيات بتقديم أطباق الطعام الغربية التي كانت للتطلع إلى معرفتها أهمية كبيرة أكثر من أهمية الأكل نفسه لأنك لا تستطيع أن تعرف أي نوع منها إلا بعد السؤال عنه بسبب طريقة طهيهِ وإعداده. ولم أعرف على كثرة تجوالي في العالم وتذوقي للأطعمة الصينية أي نوع من أنواع الطعام الذي قدموه قبل أن يخبروني عنه إلا الأرز الصيني الأبيض الساذج أي الخالي من كل شيء حتى الملح.

ويكفي أن تعلم أن من الأطباق التي قدمت طبقاً قالوا: إنه عصب البقرة وعهدنا بعصب البقرة مثل عصب البعير أن يستبعد من الطعام قبل الطهي أو بعده أو يترك دون أكل الا في أوقات الجذب. ولكنهم هنا قد طبخوه وجاءوا به رقائق كالورق قد أعد في مرق غير كثير حتى يكسبه الليونة والنعومة مع أنه تحت الأسنان هو العصب الذي نعرفه الا أن كونه رقائق كالورق يساعد على مضغه وبلعه وربما ساعد على هضمه.

وهناك طبق جاءوا به مع المقبلات وهو مؤلف من بياض البيض الذي أصبح ذالون شفاف كأنه الزجاج وأخبرونا أنهم ينقعونه في بعض المحاليل الكيماوية لمدة شهر أو شهرين فيكتسب هذا اللون ويكتسب طعمًا خاصًا مع العلم بأنه ليس مالحًا ولا حامضًا ولا حريفًا وإنما هو طعمه كطعم الغضاريف اللينة.

إلى جانب أنواع من السمك الطري الذي يقرب لحمه من لحم الحيوان. وكباب صيني يأتون به قطعاً صغيرة منظومة في قضبان دقيقة من الحديد أو المعدن ذات مقابض جميلة من الخشب فينتزع الأكل القطعة من القضيب بأسنانه ويأكلها أما أنا فقد خرطتها بالشوكة فوضعتها في الصحن كما كنا نفعل إلا أنهم ليس لديهم شوك ولا ملاعق كبيرة وإنما خصونا بالشوك لأننا لا نستطيع استعمال الأعواد مثلهم كما أنهم لا يعطونهم سكاكين اكتفاء بالأعواد أيضاً.

وأما الملاعق فإنها ملاعق صينية قصيرة من الخزف وهي جيدة .
وجاءوا أيضاً بالببط المشوي وبالذجاج المطبوخ بطريقة خاصة ويلحم الغنم في مقادير غير كبيرة.

وأما الخضرات والبقول فحدث عن غرابتها وتنوع طهيها ولا حرج. والحقيقة أن طعامهم ليس له علاقة بطعامنا البتة من حيث الإعداد ولا من حيث النوع ولقد شبهت تنوعه وتعقيده وانفرادهم به بالكتابة الصينية التي هي

معقدة مستقلة عن بقية أنواع الكتابة في العالم إلا ما تأثر بها كالكتابة اليابانية القديمة.

وكان خاتمة المائدة هي الحساء أي الشربة وذلك عكس ما اعتدنا عليه واعتاد عليه الأوربيون من تقديم الحساء في أول الطعام. فهم هنا يقدمونه في آخره، وقد علمت بعد ذلك أن الجمعية الإسلامية قد دفعت قيمة الوجبة للشخص الواحد في هذه المائدة خمسة وعشرين ينًا أي حوالي ٤٨ ريالاً على حين أنها للأجانب خمسون ينًا كما قيل لي.

يوم الأحد ١٤/٧/١٤٠٤هـ - ١٥/٤/١٩٨٤م إلى سور الصين العظيم؛

سور الصين العظيم يعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع. وهو بالنسبة إلى الصين وإلى العاصمة بكين بالذات مثل الأهرام بالنسبة إلى القاهرة والمصريين فمن يزور القاهرة ولا يزور الأهرام تعتبر زيارته ناقصة.

ولذلك وضعت الجمعية الإسلامية في برنامج الزيارة فقرة زيارة سور الصين وجعلت وقتها يوم الأحد حيث تكون الجهات الأخرى في عطلة وأما السور فإنه لا يحتاج إلى عمل.

كان معنا الأخ الأستاذ لقمان ما شان لي ويسميه الصينيون لو ما ومعناها الشيخ ما لأن لغتهم تستعمل المقاطع فلا يستسيغون أولاً يستطيعون أن يلفظوا بكلمة لقمان كلها وإنما يحولونها إلى مقاطع وهنا تكون مقطعين أحدهما لو وما ومعنى الأول بالصينية الشيخ اي الهرم، وكان الأستاذ لقمان هو مرافقتنا من أول الرحلة ومن المقرر أن يصحبنا فيها كلها لمعرفته بالعربية وسابق معاملته للعرب حيث عمل في القاهرة مدة خمس سنوات وزار عدداً من البلدان العربية.

ومعنا في زيارة سور الصين المصورة (وو) وهي امرأة صينية غير مسلمة متزوجة ولها بنتان وإذا كانتا مثلها فإنهما تعتبران من مستورات الحال وقال بعضهم ربما جاءت معنا من دون أن نطلب ذلك لغرض آخر غير التصوير ألا وهو التصوير بالكلمات أو تصوير ما يكون عليه انطباعتنا أو من قد يقابلنا سار الموكب في التاسعة إلا الربع من هذا الصباح ورأيتهم حملوا من مطعم الفندق غداءنا في علب من الورق المقوى.

ويبلغ بعد (سور الصين) عن مدينة بكين ثمانين كيلو متراً.

سار موكبنا من فندق (شينغ شانغ) أو جبل العطر فانحدر من مكان الفندق في سفح الجبل ماراً بمحطة للحافلات رأينا أفواجاً من الراجلين يكادون يسدون الطريق قادمين من محطة الحافلات في ساحة قريبة يسرون على أقدامهم حيث لاتصل الحافلات وليس معنى هذا أنها لا تستطيع الوصول، وإنما معناه انها تقف في تلك الساحة.

وذكرت أفواج الطلاب الذين قابلونا أمس يسرون على أقدامهم إضافة إلى سائر الناس الذين يركبون الدراجات وقابلونا اليوم إما للذهاب إلى منازل لأقربائهم أو ليقضوا عطلة اليوم الأحد في لحف هذا الجبل الخالي من العمارة.

وذلك لأن البيوت في المدن كلها بالأجرة بمعنى أنه لا يوجد شخص يمتلك بيتاً في وسط المدينة وإنما ذلك في الأرياف والقرى وفي أطراف المدن الا من كان لديه بيت صغير لا يكاد يكفيه ورثه عن والده أو كان لديه قبل الثورة الشيوعية وهو لا يتسع لأحد معه.

وأما الدارات (الفيلات) المعروفة في بلادنا والبلاد الأخرى التي أنعم الله عليها فإنها لا توجد هنا أصلاً الا أن تكون قديمة تحولت إلى إدارة حكومية أو شعبية شيوعية أو سكن فيها طائفة من الناس بمعنى أنها لا توجد مساكن خاصة للأفراد أو مع عائلاتهم على هيئة دارات.

وهذا شبيه بالسيارات الخاصة التي لا يملكها الصينيون وإن كانوا يقولون لك إنه يوجد أفراد من كبار الموظفين لديهم سيارات فتلك سيارات حكومية أعطيت لهم لمكانتهم وعددهم أيضاً قليل بل نادر وإنما السيارات الصغيرة هنا مملوكة للهيئات السياسية والعالمية وللهيئات الحكومية والحزبية.

في ريف بكين:

فندقنا كما قلت يقع في خارج مدينة (بكين) وإن كان موقعه في ضاحية من ضواحيها ولذلك لم نلبث طويلاً حتى وجدنا أنفسنا في الريف خارج المدينة.

وهو ريف كثيب المنظر في هذا الفصل من السنة بسبب الجفاف في الأرض من قلة المطر وبسبب موت أوراق الأشجار من البرد، و الفصل البهيج هنا هو فصل الخريف بعد سقوط الأمطار في الصيف، والحقول التي هي هنا غير واسعة فيما رأيناه من الطريق أكثرها مزروعة بالقمح الشتوي الذي يبذر في الشتاء فيقع عليه الثلج ولا ينبت من شدة البرد وإنما ينتظر قدوم فصل الربيع لينبت بعد ذلك وقد بدأ نباته الآن ولكنه لا يزال في أول النبات قصيراً غير شامل للأرض.

ورأينا بركة فيها مجموعة من البط يربونه تربية وهو مما يفضل الصينيون أكله في الصين و في المهاجر وما لاحظته في مطاعم الصين في تايلند وسنغافورة أنهم يعلقون على أبواب مطاعمهم بطة مسلوقة من دون ذبح، يفعلون ذلك من باب الدعاية للمطعم وهو منظر منفر للمسلم إذ يرى طيراً كبيراً معداً للأكل وهو غير مذبح كما رأيت أناساً من فقراء أهل كولومبيا في أمريكا الجنوبية يطبخون الخنزير كاملاً ثم يضعونه على منصة في المطعم ويقطعون للناس ما يفضلونه من مواضع لحمه في منظر يصد حتى مجرد التفكير فيه نفس المسلم عن الطعام وأخبرونا أن البط الواحد بأربعة دولارات وذلك يساوي أكثر من مرتب يومية للعامل في المتوسط.

وأرصفة هذه الطرق ليست مبلطة رغم كونها طرقاً مطروقة وبخاصة من الأجنب من السياح وغيرهم الذين يذهبون معها للتفرج برؤية سور الصين العظيم ولذلك إذا اضطرت سيارة لتجاوز السيارة التي بعدها وسارت فوق هذه الأرصفة أو قابلتها سيارة أخرى فخرجت بعض عجالاتها عن الأذفت فإنها تطير غباراً متصاعداً لا يليق أن يكون في عاصمة دولة عظمى من ناحية السكان والمساحة والعضوية الدائمة في مجلس الأمن الدولي وتكاد تكون هي أقل عواصم الدول الخمس شأنها وأدناها مستوى من حيث النظافة والعناية بالمظاهر.

وكثيراً ما تضطر السيارات إلى ملامسة جانب الطريق غير الأذفتي بسبب كثرة العربات التي تجرها الدواب وراكبي الدراجات.

ومعظم السيارات التي تسير هنا هي من سيارات الشحن الكبيرة أو من الحافلات. وأما سيارات الركوب الصغيرة المعتادة في البلدان الأخرى فغير موجودة إلا على ندرة وتكون مملوكة للدولة أو للهيئات السياسية والأجنبية كما سبق.

وأكثر ما يلاحظ المرء هنا في مزارع الريف القريبة من الطريق وهي غير واسعة كثرة المزارع المجللة باللدائن والحصر إبتغاء حماية الخضرات والبقول من البرد لأن الصينيين مشهورون بحبهم لأكل الخضرات والبقول بل والأعشاب والجوف في هذه المناطق الشمالية من بلادهم بارد في فصل الشتاء و الربيع فيضطرون إلى تدفئة المزارع مع نقص وسائل التقدم العلمي الشامل عندهم بمعنى أنه وإن كانت المعرفة العلمية موجودة لديهم فإن القدرة الاقتصادية على تعميم ذلك ونشره في البلاد غير موجودة بسبب الظروف الاقتصادية التي صاحبت الثورة الشيوعية وأعقبتها من تعطيل المواهب واستئثار الحكومة بكل شيء من التخطيط والتنفيذ مستخدمة في ذلك جماهير كثيراً ما تكون ساذجة

أو جاهلة وبقيادة ناس همهم أن يسير العمل وفق الثورة وإن لم يحقق النتائج المرهبة.

الفلاحون هم الأغنياء:

ومع أن الملكية الزراعية في الصين محدودة في نطاق ضيق جداً وأن بعض المنتجات الزراعية محددة الأسعار فإن الفلاحين هم المغبوطون من بين جميع طوائف الشعب وكثيراً ما سمعت الناس يقولون إن أغني طوائف الشعب الصيني في الوقت الحاضر هم الفلاحون فهم يسكنون بيوتهم الطينية التي كثيراً ما تكون مملوكة لهم مع الأرض لأنهم يبنونها من مواد تحت أيديهم وأرجلهم ويأكلون مما تخرجه الأرض من خضرات البقول فضلاً عن الحبوب ولا يحتاجون إلى التردد على أماكن بعيدة عن عملهم يومياً بدفع أجرة إلى الحافلات أو قضاء وقت طويل في ركوب الدراجات في الشوارع.

ووسائل الركوب التي يحتاجونها موجودة عندهم من الدواب من البغال والحمير، ورزقهم ليس محددًا لا أمل في الزيادة فيه مثل الموظفين الذين تزيد حاجاتهم ولا تزيد رواتبهم بقدر ذلك، بل إن رواتبهم تنقص عن طريق الغلاء الذي لم تنج الصين منه وإن كان ذلك بمقادير أقل من الأقطار الرأسمالية وذلك فيما يتعلق بالسلع التي تبيعها الحكومة وكثيراً ما تكون شحيحة أو غير جيدة.

(الوانيت) الذي أصبح حديث الصين:

وبهذه المناسبة لا مانع من ذكر حادثة طريفة حدثنا عنها أكثر من شخص في الصين الشعبية وأعاد بعضهم عنها الحديث للتدليل على غنى الفلاحين مع أنهم في مجموعهم من أفقر الفلاحين في العالم.

وذلك في قولهم: إن فلاحه استطاعت أن تشتري سيارة شحن صغيرة (وانيت) في الوقت الذي لا يستطيع فيه كبار الموظفين حتى التفكير في الأمل في شراء سيارة خاصة سواء أكانت سيارة ركوب أم سيارة شحن صغيرة.

فلا يوجد الآن في الصين أحد من كبار الموظفين فضلاً عن صغارهم يحلم بأنه سيملك سيارة في المستقبل في ظل هذا الحكم الاشتراكي حتى ولا التجار فضلاً عن طوائف الشعب الأخرى يأملون في ذلك كما تملك أكثر شعوب الأرض وكما يأمل الفقراء في أكثر أنحاء العالم فالسيارات الصغيرة مملوكة للدولة والدخول محدودة والبلاد في الوقت الحاضر تعتبر فقيرة والمصانع مشغولة بانتاج الآلات والأدوات الأخرى التي يحتاجها الشعب الكثير العدد في قوت يومه الضروري عن إنتاج أدوات الرفاهية كالسيارات الصغيرة أو حتى أدوات الإنتاج الأخرى بصفة كافية مثل الجرارات الزراعية ومكائن رفع المياه.

ولذلك لا بد للشعب الصيني العظيم أن يرضى بما كان حيث لم يستطع أن يحقق ما يريد أن يكون ربما كان ذلك عملاً بالحكمة القائلة: إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون.

أما ما يختص بسيارة الفلاحة التي ذكرت في القصة فإنني أنا الغريب البعيد عن الصين لا أكاد أصدقها بعد أن رأيت الشعب الصيني وعرفت إمكانات الأفراد المحدودة وإن كنت أسلم الآن بالقول إن الفلاحين هم أغنى طبقات الشعب لأن بعضهم راضٍ بالعيش على النمط القديم في المساكن والملابس وحتى في تعليم الأطفال بحيث لا يذهب أولادهم إلى المدارس المتوسطة فضلاً عن الثانوية لعدم وجود مدارس من هذا النوع في كثير من القرى والأرياف النائية، بل ربما في أكثر الأرياف فيرضى بأن يعمل ابنه معه في الحقل المحدود المساحة وذلك خير له من الناحية المالية من وظيفة عامل أو موظف صغير قد تؤهله لها الشهادة المدرسية.

وبعد ذلك من دون تفكير عميق تضطر إلى أن لا تجيب على السؤال الذي سيلح على خاطرك إذا سمعت بعض الشيوعيين المقربين من الحكومة يذكرون التقدمية والرجعية فتسأل: أين التقدمية في هذه السياسة الشيوعية؛ وأين الرجعية في النظم الرأسمالية؟

وناهيك برجعية الولايات المتحدة الأمريكية! لأن للإجابة عن هذا السؤال مجالاً غير هذا المجال.

والبيوت في هذا الريف الذي نراه من هذا الطريق الهام أكثرها مبني بالآجر الأحمر وذات سقوف مسنمة أي على هيئة سنام البعير وليست مسطحة السقوف.

والجو أبرد منه بالأمس وهو يشبه أيام آخر الشتاء في الرياض مع أننا في شهر أبريل الذي هو أول أوقات الحر في الرياض وإن كان معدوداً من فصل الربيع الذي يسميه العرب القدماء بالصيف وكنا نفعل ذلك قبل أن نستوحي مسميات الفصول من غيرنا وليس شهر أبريل بمعدود من فصل الصيف الذي كنا نسميه فصل القيظ وكان القدماء يسمونه كذلك.

وأسنمة السقوف ليست حادة بمعنى أنها على هيئة سقف الخيمة الطويلة المسترخية، وقد رأيت بعضهم يحمل على دراجته حاجاته الضرورية لأنها هي الوسيلة الوحيدة التي يملكونها حتى الفحم الحجري الذي يستعملونه في الإيقاد لوفرته في بلادهم رأيت أحدهم يحمله معه على الدراجة. وقد مررنا بعمال يوسعون هذا الطريق الذي هو طريق هام لأنه يذهب إلى سور الصين العظيم الذي يزوره الآلاف من الناس من داخل الصين وخارجها كما رأيتهم ينظفون الطريق بمكانس طويلة من القش ينحون بها ما يكون على الأزفلت من أوساخ أو نحوها إلى جانب الطريق وهم وقوف واكثر من رأيت من عمال الكنس من النساء.

ومن المناظر اللافتة للنظر طوائف من النساء قد خرجن للنزهة في هذا اليوم الأحد يوم العطلة الأسبوعية الوحيد على دراجاتهم وقد ربطت الواحدة منهم متاعها وما تحتاج إليه من غذاء على ظهر دراجتها وهي تجاهد في دفع الدراجة إلى الأمام وليست كما في البلاد (الرجعية) التي تستطيع فتاة مثل تلك المرأة المثقفة أن تركب سيارة صغيرة تحميها من الغبار المتطاير الذي هو كثير في هذه البلاد خلال هذا الفصل من السنة بسبب الجفاف وتحميها أيضاً من المطر المحتمل سقوطه وتكفيها التعب في دفع الدراجة برجليها.

ولكن (التقدمية) لا تقف عند حد وربما كان منها ما رأته اليوم من حملهم وقود السيارات أو الآلات - لا أدري ولكنه من المحروقات على أية حال - في أوعية (براميل كبيرة) على عربات تجرها البغال بدلاً من حملها بالسيارات كما يفعل البرجوازيون، وإن كان سير الدواب من البغال والحمير والثيران التي تجر العربات في الشوارع الجميدة يلوثها بروث هذه الدواب التي لا يوجد فيها حتى الطيور التي تلتقط ما يكون في أرواث هذه الدواب من حبوب فتتنظف الشارع منه لأن المرء هنا لا يرى أي نوع من أنواع الطيور الوحشية فأهل الصين من الكفار قد أخذوا من حيث لا يدرون بقول الأعرابي النجدي القديم الذي سئل عما يأكله الأعراب في الصحراء فقال: نأكل كل مادب ودرج إلا أم حبين فعلق سائله على ذلك بقوله: لتهنك السلامة يا أم حبين !

و(أم حبين): نوع من الحرياءات الصحراوية الصغيرة التي لا تكاد تسمن أبداً.

وعلى ذكر الوقود المحمول على العربات أقول: إن محطات بيع الوقود للسيارات نادرة الوجود في هذا الطريق بسبب قلة السيارات وقلة تجولها أيضاً. وأغلبها سيارات حكومية كبيرة من الحافلات وسيارات النقل الكبيرة وهي تتزود بما تحتاج إليه من الوقود من محطات حكومية خاصة.

ويحف بهذا الطريق على امتداده أشجار من أشجار الظل كبيرة مغروسة في القديم. وأكثرها عار عن الأوراق بسبب البرودة وإن كان بعضها قد بدا بإنبات الأوراق.

والقمح الشتوي كثير هنا إلا أن الحقول المتسعة نادرة وإنما هي أماكن مقسمة إلى قطع صغيرة أو أحواض ليست واسعة وربما كان السبب في ذلك طبيعة الأرض هنا.

والقمح الشتوي مهم عندهم لأنهم يبذرونه في الشتاء فيقع عليه الثلج فيخصب الأرض ويمدها بالرطوبة حتى إذا ذهب الشتاء وذاب الثلج في الربيع خرج القمح وقد تقوت جذوره فصارت تتلقى الرطوبة من أعماق ابعده في الأرض فلا يحتاج إلى عناء كبير في السقي وربما نزل عليه المطر فكفاه.

فهم هنا يفعلون به مثلما نفعل بالقمح البعلّي الذي يبذر إذا نزل المطر في أواخر الخريف فإن نزل عليه مطر في الشتاء وأوائل الربيع ازدهر وأتى أكله وإلا مات أو قل عائده. إلا أنهم هنا على ثقة من نزول الثلج في هذه المناطق الشمالية الباردة من الصين.

الأسواق الشخصية،

من مظاهر إفلاس الشيوعية في الصين العودة إلى نظام من الرأسمالية قديم قدم الإنسان أرادت الشيوعية أن تخالفه فلم تستطع وهو نظام الملكيات الصغيرة والجوائز الشخصية على العمل والإنتاج.

وذلك يتمثل في سماح الحكومة الصينية للمزارعين الصغار وللعاملين أعمالاً صغيرة أن يعملوا ذلك بأنفسهم من دون أن يكونوا أجراء جمع أجير للدولة وأن يبيعوا ما ينتج من ذلك على الآخرين ويكون العائد من ذلك لهم على أن يدفعوا للحكومة ضرائب محدودة إذا بلغ الدخل من هذه المبيعات حداً معيناً.

وذلك بعد أن شحت الخضرات التي تنتجها المزارع الجماعية والحكومية وقصر الإنتاج عن تلبية حاجات الشعب النامية وأصاب التراخي والفتور بل الكسل عمال الدولة وفلاحها.

وقد أثمرت هذه السياسة التي هي في عرف الشيوعيين المتعصبين منهم عودة إلى نوع من الرأسمالية ثمرات عظيمة إذ زاد الإنتاج وخف العبء عن كاهل الحكومة وزادت دخول كثير من المزارعين الصغار والعمال الذين يسمونهم شخصيين بمعنى أنهم يعملون لأنفسهم ونشأت طبقة صغيرة من التجار تتاجر بهذه الأشياء الصغيرة.

مما حمل الحكومة على التوسع في هذا الأمر فزاد عدد الحوانيت الصغيرة الشخصية وإن كانت قليلة وفقيرة بالبضائع جداً بالنسبة إلى سائر الحوانيت التي تملكها الحكومة وتمدها بالبضائع ويكون الباعة فيها جميعهم موظفين في الحكومة وهي بالتالي مسئولة عنها.

وقد رأينا على جانب الطريق سوقاً صغيرة كل ما فيها مؤلف من المنتجات الشخصية كما يسميها المترجمون لنا والفلاحون فيها يبيعون ما أنتجوه على الناس على طريقة العرض والطلب ويستفيدون من أثمان ذلك إلا أن أسعارها مرتفعة بالنسبة إلى ما قد يوجد منها في الحوانيت الحكومية التي لا يتوافر فيها كل ما يحتاج إليه الناس منها.

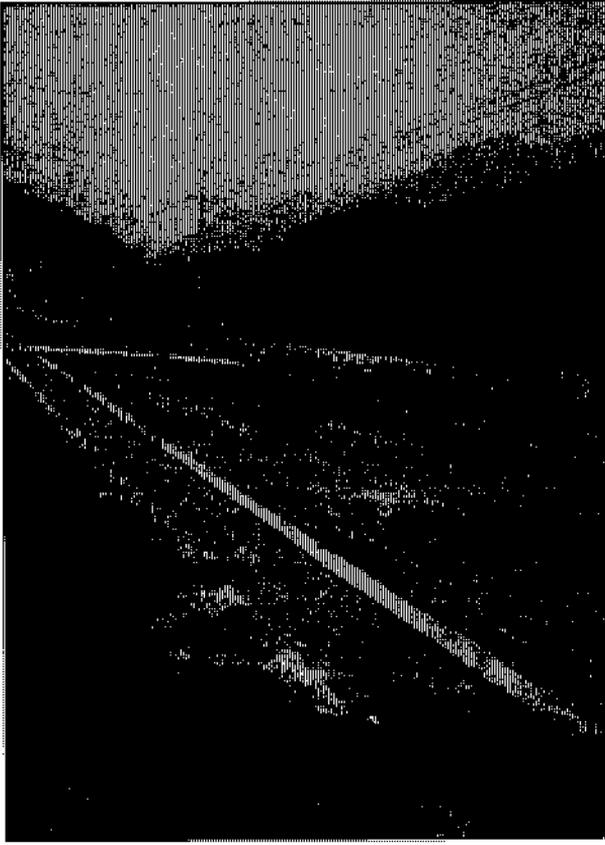
ورأينا أفواج الناس من راكبي الدراجات والمشاة يحضرون حضوراً إلى هذا السوق الصغير الذي لو جمع كل ما فيه لما ساوي ما في حانوت واحد من الحوانيت الكبيرة في بعض المدن الصغيرة في البلاد الرأسمالية.

على أن هذا السوق ليس إلا واحداً من عشرات الأسواق الشخصية التي قد تكون أحياناً كما شاهدناها فيما بعد مشتملة على مقادير قليلة من الخضار والبقول المعروضة للبيع ولكنها تريح المشتري القادر على الشراء من الذهاب إلى الحوانيت الحكومية أو الأسواق الكبيرة.

لا بيوت جديدة:

لقد كنت أبحث منذ أن وصلت وحتى الآن عن بيوت جديدة أراها تبني أو تشتري كما يكون في بلادنا والبلاد الأخرى غير الشيوعية حتى في البلدان الفقيرة. ولكنني لم أر حتى بيتاً واحداً منها هنا والمراد بذلك البيوت الفردية التي يسكنها المرء مع أسرته وإنما التعمير للمساكن هنا مقتصر على الأبنية الكبيرة المتعددة الطوابق التي تقيمها الحكومة لإسكان الموظفين والعمال وكثير من الناس في المدن هم من موظفي الحكومة وعمالها فتبني المساكن الكبيرة على هيئة شقق مختلفة الغرف وتؤجرها على الناس يسكنون فيها ولا يملكونها لأن المساكن الكبيرة كلها للدولة ويدفعون للدولة أجوراً شهرية رخيصة جداً بل تعتبر رمزية إذا قيست بأسعار المساكن في البلدان غير الشيوعية إلا أنها ليست كذلك بالنسبة لما يتقاضونه من أجور فالعامل الذي يأخذ خمسين أو ستين ينا في الشهر ولديه أسرة مؤلفة من زوجة وطفلين تكون أجرة مسكنه المؤلف من غرفتين في المعدل ستة ينات وهي تساوي عشر مرتبه ولكن تكاليف المعيشة الباقية غالية جداً.

مع العلم بأن الين يساوي ريالين إلا ربعاً بالصرف الرسمي الذي صرفنا به نقودنا.



في الطريق إلى سور الصين

وقد شاهدنا عشرات الأبنية الكبيرة المشار إليها وهي تقام في هذه المدينة إلا أنها بطبيعة الحال أقل مما يحتاجه سكان المدينة البالغ عددهم أكثر من عشرة ملايين.

ولقد رأيتهم هنا يهدمون المنازل القديمة المؤلفة من طابق واحد أو طابقين، وأغلبها من الطين وقيمون بدلاً منها أبنية أي عمارات سكنية كبيرة ذات طوابق متعددة كثيرة.

وحتى البيوت الفردية القديمة التي لاتزال قائمة وموجودة في ضواحي المدينة أو الأرياف التي كانت منفصلة عنها فلحقت بها عمارة المدينة وكذلك الموجودة منها في الأحياء الشعبية فإنك لا ترى أي أثر للترميم فيها. وأما التزيين فذلك أمر لا يوجد لأن القوم مشغولون بأهم من ذلك وقد أصبحوا كلهم من ذوي الدخل المحدودة، وحتى من يستطيع منهم أن يحصل على نقود بطريقة من الطرق غير مرتبه أودخله المعروف فإنه لا يستطيع أن يتظاهر بذلك لثلا يسئل عن هذا المال من أين اكتسبه ومن ثم يكون معرضاً للعقاب.

وقد قال لي بعض الإخوة المرافقين: إن كثيراً من سكان المدينة يودون السكن في الأرياف لكونها أوسع من سكن المدينة غير أن المشكلة هي في الانتقال إلى المدينة اذا كان المرء منهم مرتبطاً بعمل لأنهم لا يملكون سيارات خاصة وإنما الوسيلة لذلك هي الحافلات والدراجات.

بلدة تشافو:

مررنا ببلدة غير كبيرة اسمها (تشافو) كما أخبرونا وقالوا: معنى (تشافو) رمل النهر أو النهر الرملي وذلك أنها بجانب نهر صغير وهي مركز لعدة قرى هنا رأينا في شوارعها أناساً كثيراً لأن اليوم هو الأحد يوم العطلة الرسمية والسيارات التي تقف في ميدانها الرئيسي الواقع على الطريق هي سيارات شحن ولا أثر للسيارات الصغيرة فيها.

ولم نقف عندها وإنما وصلنا السير فمررنا بمزرعة جماعية صغيرة فيها عدد كبير من الناس ربما كانوا قد اشتركوا في العناية بها وينفقون نهار الأحد في ذلك.

وقد اتسع الطريق فأصبح ذا اتجاهين يتسع كل اتجاه لسيارتين اثنتين مع حاجز بين الاتجاهات جيد المظهر.

الأرقام العربية في الصين:

يطيب لكثير من الناس وبخاصة من الأوروبيين أن يسموا كتابة الأرقام التي يستعملونها بالأرقام العربية لأنها وصلت إليهم من العرب عن طريق الأندلس. ولا تزال مستعملة في المغرب العربي وإن كان قومنا في الشرق يسمونها بالأرقام الإفرنجية ويسمون ما نستعمله في كتابة الأرقام في الوقت الحاضر بالأرقام العربية مع أنها كانت تعرف عند قومنا إلى ما قبل وقت قصير بالهندي أو الأرقام الهندية وأياً كان الأمر فإننا لن نرفض شرف شيء انتفع به العالم كله وأصبح عند بعض الأمم منسوباً إلينا.

لذلك كتبنا هذا العنوان عندما رأيتهم في الصين لا يستعملون غير هذه الأرقام في الكتابة وأول ما تراه منها هنا في لوحات السيارات وعلى صفحات الكتب والمنشورات.

وهي واضحة وضوح الشمس لأن لوحات السيارات يراها كل شخص ولأن تلك الأرقام تكون بين الأشكال الصينية المعقدة في الكتابة التي يعجب المرء من كتابتها ثم من فهمها وبخاصة إذا تأملها فرآها مختلفة متباينة لأنها مبنية على أساس أشكال الكلمات وليس على أساس حروف محدودة العدد كالكتابة العربية مثلاً التي لا تزيد حروفها على ثمانية وعشرين حرفاً.

فأشكال الكتابة الحالية في الصين تبلغ أكثر من خمسة آلاف شكل وقع عليها الإتفاق بعد تمحيص الأشكال القديمة التي ذكروا أنها كانت تصل في العدد إلى خمسين ألف شكل.

والمراد بالشكل أن كل كلمة من الكلمات سواء أكانت تدل على شيء مادي كالجبل والرجل والحصان أو شيء معنوي كالحب والسياسة والتعليم لها رسم خاص يجب على المرء أن يتعلمه لكي يفهم كتابته، وبالتالي يستطيع أن يكتبه

الا أنهم حصروا هذه الأشكال في الزمن المتأخر بأعداد معينة تشتمل على مربعات معروفة وغيرها من الأشكال وبدل بعضها على مقاطع من الكلام مما هو موجود في لغتهم التي تتألف من مقاطع أغلبها مؤلف من حرفين أحدهما ساكن ولا تخلو كلمة من كلماتهم من حرف ساكن.

وأما الأرقام التي يستعملونها فإنها هي الأرقام العالمية التي أصبحنا نسميها في بلادنا العربية الشرقية بالأفرنجية وليس لدي الصينيين كتابة للأرقام مستعملة في لغتهم الحاضرة غيرها.

ثم مر الطريق على جسر فوق قناة كبيرة كالنهر الصغير وبيوت قديمة مبنية بالطين المطلي بالجنس وهو ما كنا نفعله في بيوتنا قبل التطور الأخير.

ثم ضاق الطريق فصارت الدواب التي تجر العربات مختلطة فيه مع السيارات الا أن العربات تلزم جانب الطريق وتدع وسطه للسيارات وجدير بالذكر هنا أن السير في الصين على اليمين مثلما هو عندنا وأكثر أقطار العالم.

قرية تابو،

مررنا بقرية قالوا: إن اسمها (تابو) معظم بيوتها من الطين رغم وجود مصانع للأجر فيها وربما كانت ترسل ما تنتجه منه إلى (بكين).

ومن أظهر المناظر فيها فتيات ينظفن الطريق عليهن ملابس نظيفة وعربات البغال التي تحمل الناس والأمتعة وحافلات غير أنيقة المنظر وأطفال صغار قد ألبسوهم ألبسة نظيفة جيدة والعناية بالأطفال ظاهرة تكاد تكون عامة فيما رأيناه. مع أننا لم نر إلا قلة من الأطفال بسبب انشغال أهاليهم عنهم بالعمل وادخالهم في دور الحضانة أو دور حفظ الأطفال.

ولا شك في أن العناية بالأطفال زادت وسوف تزداد بعد قرار الحكومة الصينية تحديد النسل وإقتصاره على طفل واحد وبخاصة لسكان المدن.

في منطقة السور:

وصلنا إلى منطقة جبلية كاملة تبدو مثل جبال الطائف في غير وقت اخضرار العشب. وقد صارت الأبنية فيها بالحجارة لسهولة الحصول عليها وهي أي الأبنية قليلة لأن المنطقة غير مسكونة إذ لاتصل إليها مياه النهر وليست خصبة فيما رأيناه من أمرها في هذا الفصل من السنة وصعد الطريق في الجبل وضاق ومر ببوابة ليس حولها أبنية قال الأخ لقمان: إن أحد ملوك الصين بناها تذكيراً لانتصاره في معركة حربية.

وفي هذا الجبل القاحل ظهرت بعض الأشجار بلون رمادي لأن الثلوج والجفاف قد تعاضدا على جعلها كذلك.

وفي هذه الطريق تجلت الطريقة الصينية في السير وهي الهدوء، وعدم السرعة وذلك أمر مألوف في السهول فكيف به في هذا الطريق الجبلي المتعرج.

ومن مظاهر ذلك أنهم عند المنعطفات رسموا بوق سيارة تنبيهها للسائق بأن يطلق العنان لبوق سيارته حتى ينبه السيارات القادمة التي تقابله.

وهذا أمر مزعج في أكثر الدول المتقدمة حيث يحرسون على عدم إطلاق الأبواق وكثيراً ما يكتبون على الطريق أن ذلك ممنوع فضلاً عن أن يحثوا عليه.

غير أن بعض الدول المتأخرة في مجال الطرق واستعمال العربات تحث على إطلاق الأبواق ولو كان في ذلك إزعاج للسائقين والركاب مثل أهل الهند الذين كتبوا على مؤخرة سيارات الشحن والحافلات عبارة (هورن بليز) بالإنكليزية

ومعناها: من فضلك نبهني أنك خلفي بإطلاق البوق. وقد عرفت السبب في هذا الذي حرصوا عليه في الهند وهو أن معظم السيارات ليست فيها مرابا يرى فيها السائق من خلفه من السيارات لذلك يشعر بأنه في حاجة إلى أن يسمع البوق ينبهه إلى وجودها. ومن الغرائب هنا أنني رأيت أناساً يعملون في تدعيم الطريق الذي يمر بمنطقة منخفضة على يمينه وهم ينقلون الحصى على عربات يدفعونها بأيديهم وملابسهم ليست ملابس العمال غير النظيفة مع أن نظافة الثياب هنا هي السائدة سواء أكانوا من العمال والفلاحين أو من الطوائف الأخرى على تفاوت بينهم في ذلك، واليوم هو يوم الأحد يوم العطلة للعمال ولكنني عرفت بعد ذلك أن كثيراً من المصانع والمؤسسات لا تعطل يوم الأحد وإنما تختار يوم عطلتها يوماً آخر من الأسبوع فمن الجائز أن يكون هؤلاء منهم على أنه من الجائز أيضاً أن يكونوا ممن يعملون بأجر مخفض هذا اليوم لاحتياج الطريق إليهم واحتياجهم للنقود.

وعندما رأيتهم يجاهدون في رفع العربة المليئة بالحصى وهي من العربات اليدوية التي ينقل بها العمال مواد البناء مثل الرمل والأسمنت المخلوط قلت في نفسي: لو كان هؤلاء في بلد متقدم في الإدارة من البلاد الرأسمالية لكان لديهم عوضاً عن ذلك آلات تقيهم عناء نقل الحصى وتوفر الوقت والجهد ثم توفر أيضاً عدد العمال إذ يكفي مع الآلة عامل أو عاملان.

على باب السور:

وصلنا سور الصين فوجدنا عند بابه جماهير غفيرة كلها ذات وجوه صينية ولكنها ليست كلها من أهل الصين فبعض الموجودين يظهر عليهم الغنى واليسار وتظهر آثار النعمة على وجوههم وهم من الصينيين الذين يعيشون في البلاد المجاورة مثل هونج كونج وسنغافورة وماليزيا، أو من الصينيين المغتربين في البلدان الأجنبية وهم كثير.



الجموع تصعد للسور

وبعض الزوار من الصينيين من خارج بكين الذين يغتنمون فرصة وجودهم في بكين فيزورون هذا السور لأن بلاد الصين متباعدة مترامية الأطراف، صعبة المواصلات مع عدم اليسار عند عامة السكان، وباب الدخول إلى السور هو من قضبان الحديد ويفضي إلى درج يصعد منه إلى السور.

وبالقرب من الباب لوحة بالصينية والإنكليزية كتبت عليها بعض المعلومات المختصرة عن السور وسوف يأتي في آخر هذا الفصل بيان بعض المعلومات عنه.

ومن المعلومات التي في اللوحة أنه بدئاً به منذ ثلاثة قرون قبل الميلاد وأن طوله عشرة آلاف كيلو متر وأنه يمر بسبع مقاطعات صينية وأن ارتفاعه عن الأرض سبعة أمتار وعرضه خمسة أمتار وسبعة أعشار المتر أي: سبعون سنتيمًا.

وإن فيه قلاعاً مبنية يفصل بين الواحدة والأخرى بضعة أمتار.

ودفع الأخ لقمان ما شان لي رسم الدخول أو هو الصعود إلى السور عُشرًا من الين أي عشرة سنتيمات لكل شخص.

فصعدنا مع درج مرصوف بحجارة سوداء متراسة وسط زحام من الصاعدين والهابطين. والمقصود من الصعود هو السير فوقه حيث تبين أنه بمثابة المر المتسع الذي يسير فيه المرء يحف به حاجزان على جوانب سطح السور أو ظهره على الأصح ارتفاع كل واحد منهما بقدر صدر الرجل.

وبالنظر إلى كون السور يصعد إلى ظهور الجبال وينزل معها إذا تطامنت فإنهم قد جعلوا فيه درجًا صعب المرتقى لأنه متواصل في أكثر الأحيان وجعلوا في بعض الأحيان الأخرى المكان المرتفع أملس لادرج فيه وإن كان صاعدًا.



الصعود الصعب للسور

والقصد من صعود المتفرجين هذا الدرج هو مشاهدة المنطقة من قلعة مشرفة في أعلى الجبل القريب من المدخل إلى جانب الاطلاع على طبيعة السور نفسه.



القلاع بعضها فوق بعض

ومن الملاحظات الطريفة أننا كلما أوغلنا في ارتفاع الجبل قلت أعداد الصاعدين بالنسبة إلى الذين دخلوا لأن بعضهم يعجز عن مواصلة هذا الصعود المرهق.

ومع ذلك فإن الممرات التي هي ظهر السور لا تزال مزدحمة بالناس من سائر الأعمار.

وبعد صعود أرهق قلوب كثير من الناس بطوله وأرهق أرجلهم وصلنا إلى مكان مرتفع من السور في قمة القمة من هذا الجبل القريب فصعدنا مع الصاعدين في درج واقف لا يتسع الا لشخص واحد لكي نعلو سطح قلعة من القلاع الموجودة في ظهر السور وهي تغلق الطريق على الماشي في ظهره بحيث يجب عليه لكي يواصل السير في السور أن ينفذ من خلالها.

وهذه طريقة جيدة للدفاع عن اختراق السور أو المضي في السير فيه.

وبعد ذلك القمة التي تشرف على المنطقة في منظر عجيب يشرف منه المرء على هذا الأثر القديم الخالد والسور يعلو الجبال ثم يهبط مع هبوط أسافلها ولكنه يواصل الارتفاع مع ارتفاع الهضاب الجبلية الأخرى حتى يعلو قممها وأحياناً قمم قممها يستقيم أحياناً ويتلوى أحياناً أخرى.

وقد أخذ المتفرجون الصاعدون يلتقطون الصور التذكارية وهم يلتقطون أنفاسهم يستوي في ذلك منهم الشباب والشيخوخة وفيهم النساء مثل الرجال.

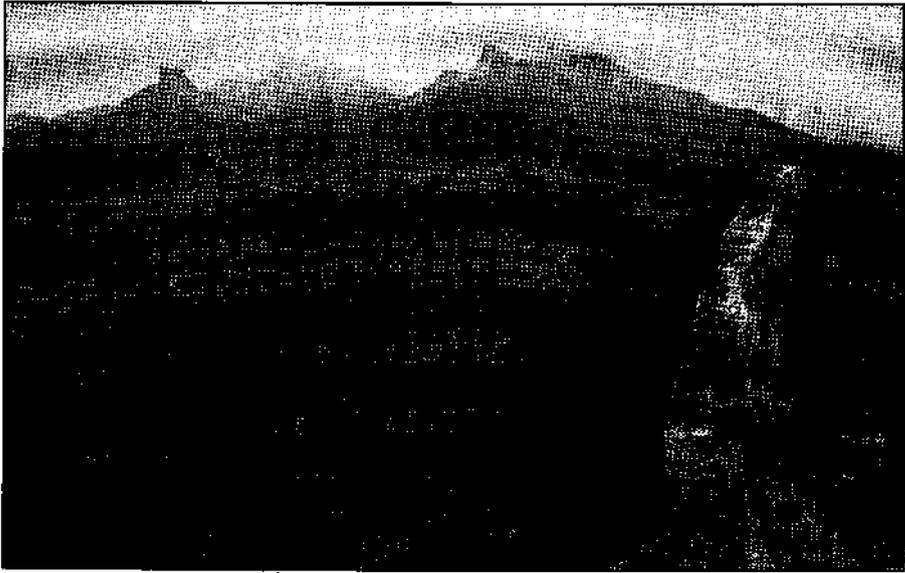


صورة التقطها المؤلف للقسم العالي من سور الصين العظيم تتوجه القلعة

وفي أعلى قمة عالية لم نكن نتخيل أننا نستطيع الوصول إليها بسهولة عندما نظرنا إليها من الأرض أردنا الاستمرار في السير فوق السور إلى قمة أعلى منها بعيدة من باب التحدي والاختبار والاستمتاع بهذا المنظر الغريب، وبخاصة إذا تذكر المرء أنه من صنع الأولين يوم أن كانت وسائل البناء محدودة

وجهود الناس في الهندسة لم تشهد التطور العظيم الأخير وكانت الآلات الرافعة غير معروفة حتى عد مجرد تشييده فضلاً عن طوله العظيم من عجائب الدنيا السبع التي عدها الأولون للآخرين وإن كان لا يخلو من الترميم الذي لا يقصد به التغيير أو التحسين.

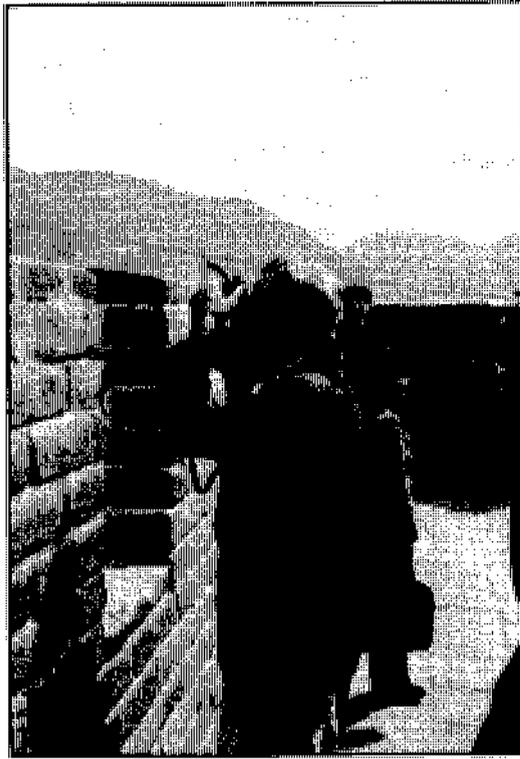
ولم نستطع أن نواصل السير لأن جزءاً متطامنا من السور قد أصابه التلف فسدوا الطريق إلى الاستمرار فيه حتى يصلحوا ذلك الخلل.



الجزء الذي أصابه التلف من السور ومنعنا من مواصلة السير فيه

وقد كانت هذه فرصة للاطلاع على طبيعة بناء السور لأنه في الأماكن الصالحة مطلي بطلاء من مادة تشبه الجبس لا ترى منه إلا ذلك ما عدا بعض الأجزاء المبنية بالحجارة المهذبة وقد رأيت جوانبه المكشوفة مبنية بالحجارة المهذبة ووسطه حجارة مرصوفة تحت طين وأما القلعة ونحوها فإن أكثرها من الآجر ومسقفة بالأخشاب وهي مدعمة الجوانب بالحجارة وعند المرور من قلعتين في الطريق حدث ازدحام شديد لأن الممر ضيق لا يتسع لأكثر من شخصين

والمروور غير منظم فيه ولم أجد أحداً من الشرطة ولا من المسؤولين عن تنظيم الناس فحدث ازدحام وتأخر في المرور لمن لا يحب أن يزاحم الناس. واختلط القادمون من آخر نقطة يمكن الوصول إليها في أعلى السور إلى الذاهبين إليها فاصطدمت جماعات من الناس بجماعات أخرى لكثرة الناس في هذا اليوم الذي هو يوم العطلة الأسبوعية وكان الزحام فيها شديداً جداً. وذلك كله على ظهر السور المحدود المرتفع.



بينما كان المؤلف يصور جزءاً من السور
التقط له الاستاذ ابراهيم الخزيم
هذه الصورة

ومع ذلك كانت المتعة والسرور بل والحبور هو الظاهر على وجوه الموجودين هنا من صينيين وهم الأغلب ومن أجانب لا تزيد نسبتهم على ما رأيناه من أمرهم على ٢٪.

وقد ألهاهم التمتع بالمنظر عن الشعور بالتعب وبخاصة عندما حان الانصراف من نهاية الارتفاع فكان لا بد من المرور بالأماكن الملساء المنحدرة من السور التي لا درج فيها والتي تنزلق عنها الأقدام ولا يكاد المرء يستطيع أن يمسك بجسده عن الانحدار والوقوع على وجهه لولا وجود قضبان من الحديد مثبتة بالحائطين يمسك بها النازل فتمنعه من الإسراع الذي لا يستطيع السيطرة عليه.

ولا يقلل من جمال المنظر هنا إلا الجذب الظاهر في المنطقة والقشف الموجود على وجوه الناس وعدم الخضرة فيما حول السور لنقص الأمطار التي هي قليلة النزول في العادة في هذا الفصل البارد من السنة بحيث لا يستحق أن يسمى هذا الفصل بفصل الربيع هنا وإنما ربيع بكين ومنطقتها هو الخريف حيث تكون الأمطار الصيفية قد سقطت. والجو دفيء فتزدهر الأعشاب وتخصب البلاد، وتخضر الجبال.

ومن أجل الدعاية للسور تلتقط الصور التي تنشر لهذا السور بغرض الدعاية في العالم وتبدو المنطقة فيها خضراء بهيجة.

ومن الملاحظ عند تجمع القوم من الصينيين في هذا المكان الذي ازدحم بهم أنهم مؤدبون مهذبون مع الآخرين فلا تكاد تجد أحداً يضايقك أو يؤذيك بفضول أو نحوه مما يدل على تهذيبهم في المعاملة وهو أمر عرفناه من هؤلاء الصينيين بعد ذلك.

وأعتقد أن الصين لو سلمت من الشيوعية التي تقيد الحريات وتقيد كثيراً من المواهب، وتسلط فئة قليلة من الناس على الجماهير الغفيرة لكان للصين شأن غير هذا الشأن ولكان لها في المجال الدولي مكانة عظيمة.

والقصد من الإشارة هنا أن نسجل ما لاحظناه عن القوم من التهذيب في المعاملة ومحافظتهم على شعور الآخرين حتى في رفع الأصوات أو التسابق تسابقاً مشيناً إلى الأولوية في الطريق.

كما أن النظافة في الهندام هي السائدة وإن كان ابتغاء الجمال في الثياب أمر لا تقوى عليه كثيرات من الصينيات الموجودات في هذه البلاد لقلة الدخول. وتشجيع الحكومة المستمر على التقشف والانصراف إلى العمل على تأمين العيش الضروري من القوت واللباس والمسكن بدلاً من التمتع بمباهج الحياة.



الاستاذ ابراهيم الخزيم عضو وفد الرابطة يتطلع
والمؤلف يقيد شيئاً في مذكرته قبل الصعود إلى سور الصين

حتى مظاهر الحب التي كثيراً ما تشاهد في مثل هذه الأماكن السياحية من مخاصرة الفتیان للفتيات أي الأخذ بالخواصر أو حتى من تبادل النظرات ذات المعنى الهام فهذا لا يوجد هنا وإنما ينظر الناس إلى الفتيات نظرهم إلى غيرهن أو هذا ما لاحظناه منهم هنا.

الاستراحة على الغداء:

بعد التعب الطويل في صعود السور و السير على ظهره انحدرتنا خارجين من البوابة التي تنتهي إليها درجاته الهابطة وقادنا مرافقونا إلى مطعم هناك ولكننا لم نطعم مما فيه شيئاً الا الشاي الصيني التقليدي الخالي من السكر وإنما كان غداؤنا محمولاً معنا في السيارة من بكين مغلفاً في علب من الورق المقوى يشتمل على البيض واللحم الناشف والتفاح الذي هو الفاكهة الوحيدة الموجودة بوفرة في هذه المناطق الباردة من الصين ومما تجدر ملاحظته أن بقايا هذه الأطعمة قد تقاسمتها المصورة (وو) مع أحد الذين كانوا معنا وعادا بها معهما إلى بكين.

فكانت استراحة مناسبة في هذا المطعم الذي لم يكن فيه كثير رواد لأن سكان الصين الشعبية قد جلبوا معهم أطعمتهم بسبب الغلاء النسبي في طعام المطعم وإنما هناك بعض الأجانب وقليل من الصينيين الذين يعيشون خارج الصين.

والمطعم نظيف المظهر الا أن هناك شيئاً آخر ليس كذلك عرفه أحد الرفقة عندما ذهب يبحث عن مرحاض فقادوه إلى واحد عام قذر مكان الجلوس فيه يفضي إلى هوة محفورة في الأرض وليس فيه ما يمنع الرائحة أن تتسرب مثل ما في المراحيض المعتادة في البيوت.

وبحثت في حانوت حكومي هناك عن بطاقات تذكارية فوجدت منها اثنتين
بعد الوقوف في طابور أمام فتاة من نافذة.



صورة تذكارية عند سور الصين

ولو كان هذا المطعم موجوداً في بلاد ذات رخاء اقتصادي لكان الأمر فيه
وفي مرافقه غير ذلك.

العودة إلى بكين؛

وبدأنا العودة إلى مدينة بكين في الواحدة والنصف ظهراً.

وتكررت عند العودة رؤية العربات التي تجرها البغال في أعداد تلفت النظر
وبعضها عليها أحمال من الحجارة يعجب الناظر إليها من استطاعتها جر تلك
الأحمال.

ومر قطار يقطع الطريق الأزفلي فوقفنا حتى تجاوز المكان وليس كثير
العربات كما قد توحى بذلك كثرة الصينيين في العدد.

وتقول الأسطورة إن الحرفيين قد وضعوا تخطيطهم في دقة وعناية قبل بدء العمل الفعلي، وأنه حين فرغ العمل من البناء لم يتبق سوى طوبة واحدة. وثمة طوبة واحدة ما زالت على أحد أبراج المراقبة، ويقال إنها هي التي كانت زائدة.

يبقى السور العظيم للحفاظ عليه كأثر تاريخي بارز في الوقت الحاضر، وهو من ضمن أهم المخطوط السياحية. وأهم قطاع منه محافظ عليه على خير وجه وغالباً ما يتردد عليه الزوار، هو قطاع «بادالينغ» الذي يبعد عن بكين ٨٥ كم شمالاً، ومتوسط من يزورونه يومياً ألف أو أكثر من الزوار إما بالسيارة وإما بالقطار.

ويبلغ ارتفاع السور عند «بادالينغ» ٨,٥ م وعرضه ٥,٧ م. ويمكن أن يسير عليه خمسة خيول أو عشرة رجال في صف واحد، وهناك متاريس، وكوى، وثقوب مراقبة، وفتحات يستخدمها الرماة من أعلى، إلى جانب المزاريب المجهزة بفتحات لتصريف مياه الأمطار من ممشى المتاريس.

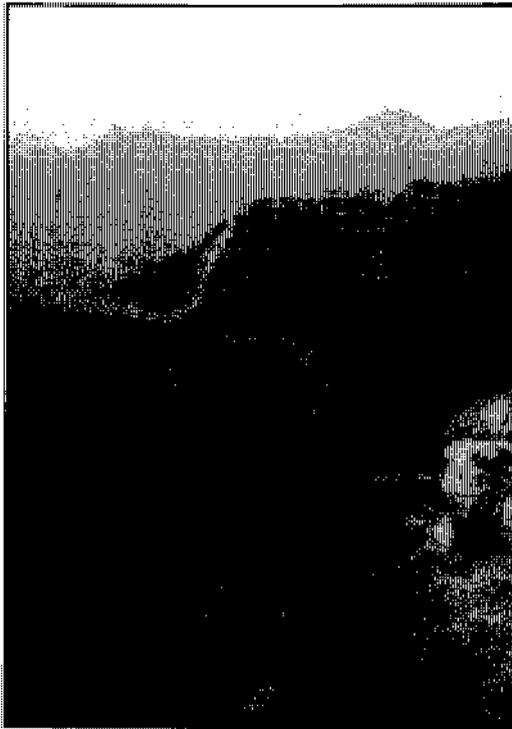


السياح يصعدون من مكان مرتفع إلى آخر في السور

وبين كل ١٠٠م برج مراقبة من طابقين وصممت الأدوار العليا من الأبراج لمراقبة تحركات الأعداء، بينما استخدمت الأدوار الأولى لتخزين الحبوب والعلف والعتاد العسكري والبارود، إضافة إلى إيواء جند الحامية.

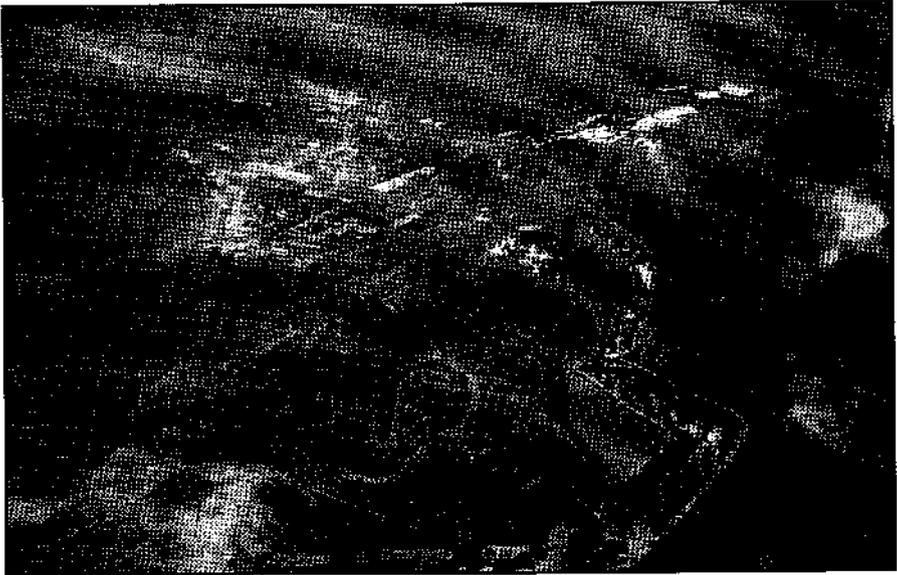
وينتصب أعلى برج مراقبة في «بادالينغ» على قمة جبل ولا يتم الوصول إليها الا بالصعود على المنحدر صعداً مثل «تسلق سلم إلى السماء». والاطلالة من القمة مهيبة ممتعة.

ويتبع السور كفاف الجبال التي تبرز وراء بعض إلى أن تتلاشى وتمتدج بالسديم النائي.



السور يصعد إلى رؤس الجبال (صورة التقطها المؤلف)

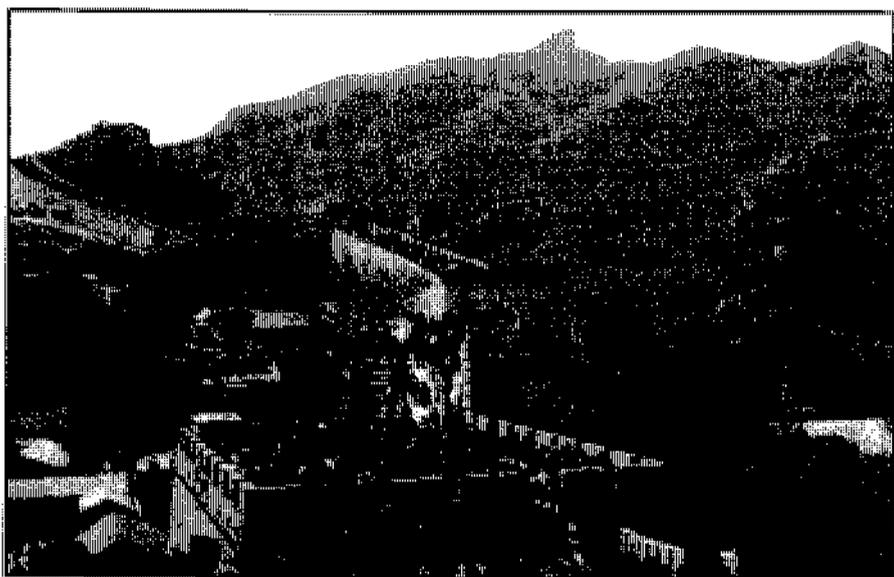
وكانت هناك شبكة للإشارة خدمت لتوصيل المعلومات العسكرية إلى العاصمة الملكية. وكانت تتألف من أبراج نارية للإنذار على السور نفسه، وعلى قمم الجبال على مرأى السور. وكان إذا ما وصلت قوات الأعداء تطايرت الإشارات الدخانية منذرة من الأبراج النارية في وضح النهار، وتشعل النيران بدلاً من الدخان ليلاً، وكان يمكن تبليغ الإشارات الطائرة إلى العاصمة من أماكن قاصية في بحر ساعات قليلة، وذلك قبل اختراع أي شيء شبيه بالاتصالات الحديثة.



سور الصين كما يبدو في الأماكن المنخفضة (تصوير المؤلف)

أن بناء سور بمثل هذا الطول والفخامة فوق قمم الجبال والشعاب والوديان، لعمل مذهل عجيب. وقد ظهرت مع السور حكايات مؤثرة كثيرة العدد تعكس البؤس الذي حاق بأبناء الشعب. ولربما كانت حكاية المرأة التي تدعى «منغ جيانغ نيو» هي الأشهر من بينها، وهذه الحكاية حكاية ما لا يحصى من النساء اللاتي سخر أزواجهن على يد الامبراطور تشين شي هوانغ في بناء

السور. كانت قد انطلقت منع جيانغ نيوي، بعد سنين طويلة لا تطاق من البعاد عن زوجها، تبحث عنه، ولكن أين يمكن أن يكون في سور طويل كمثل هذا؟ ووصلت بها قدمها في الآخر إلى مر شانهايقوان وعلمت بمفارقة زوجها للحياة، فأخذت في النواح والعيول فتصدع قسم من السور الذي كان يرقد تحته الجثمان، جثمان حبيبها، فتكسر قلبها وألقت بنفسها إلى اليم. وكانت هناك صخرة عليها نصب تذكاري بين الأمواج الهادرة ويعتقد أن تلك هي مقبرة منع جيانغ نيوي. وقد بنى الصينيون البوذيون معبداً تخليداً لذكراها لا يزال إلى اليوم في شانهايقوان.



صورة التقطها المؤلف للقلعة التي يدخل منها الطريق فوق السور ويخرج منها

جلسة المباحثات الرسمية:

في الساعة الرابعة والربع عقد الاجتماع الرسمي الموسع في فندق جبل العطر بين وفد الرابطة والجمعية الإسلامية الصينية التي مثلها الإخوة:

الشيخ إلياس شن شياشي نائب رئيس الجمعية الإسلامية الصينية المركزية
الشيخ صالح آن شي وي رئيس الجمعية الإسلامية لمدينة بكين ونائب رئيس
الجمعية المركزية.

الأستاذ عيسى محمود كو جنغ تاي مدير قسم العلاقات الخارجية بالجمعية
المركزية.

الأستاذ لقمان ماشان لي نائب مدير العلاقات الخارجية بالجمعية المركزية
والمترجم.

الأستاذ مالك أمين مدير قسم الاستقبال بالجمعية المركزية.

وقد تضمنت المباحثات التي دارت بين الطرفين الأمور الآتية:

أولاً، المنح الدراسية:

وفد الرابطة: تقدم الرابطة عشرين منحة دراسية لأبناء القوميات المسلمة في
الصين الشعبية منها عشر في الدراسات الإسلامية وعشر في
العلوم الأخرى المفيدة للمسلمين وتحمل الرابطة مصاريف سفر
الطلاب إلى أماكن الدراسة وإقامتهم وتكاليف دراستهم في
الجامعات الإسلامية في مصر وباكستان وغيرهما من الدول
الإسلامية.

ممثلو الجمعية: قد قبلت الجمعية الإسلامية الصينية هذا العرض شاكرة
ووعدت بأن تختار العدد من الطلاب المسلمين الذين يتمتعون
بالخلق الإسلامي والديانة والكفاية الدراسية والصحية ومن أبناء
جميع القوميات الإسلامية العشر وسترسل الجمعية أوراقهم
ووثائقهم مصدقة ومعتمدة من الجهات المختصة إلى الرابطة في
الأشهر القليلة القادمة.

ثانياً المشاريع الإسلامية،

- ممثلو الجمعية: سبق أن قدمت الرابطة عن طريق وفدها الأول في عام ١٤٠١ هـ دعماً مالياً قدره نصف مليون دولار أمريكي لنشاط الجمعية الإسلامية الصينية وقد صرفت الجمعية ذلك المبلغ بالعملة المحلية بمبلغ قدره ثمانمائة ألف (ين) أنفقت في الأوجه الآتية:
- ٢٥٠ ألف ين لبناء مقر للجمعية الإسلامية والمعهد الإسلامي في سينكيانغ
 - ٢٠٠ ألف ين لبناء مسجد خواجو في شيآن بمقاطعة شانشي
 - ٢٠٠ ألف ين لطبع المصحف الشريف وتفسير الجلالين واللؤلؤ والمرجان وغيرها من الكتب الإسلامية.
 - ١٠٠ ألف ين لمعاهد دينية لاقامة دورة تدريب للأئمة.

كما ذكرت الجمعية بأنها وزعت من تلك المساعدة على الطلاب المسلمين الذين يدرسون في مصر.

ثالثاً: إقامة دورة تدريب للأئمة والخطباء في الصين:

وفد الرابطة: تود الرابطة أن تقيم دورة تدريب للأئمة والخطباء في الصين الشعبية على غرار الدورات التي أقامتها في يوغسلافيا وفيجي وغيرهما من بلدان العالم وذلك بالتعاون مع الجمعية الإسلامية الصينية وتحمل الرابطة جميع التكاليف من أجرة مقر الدورة وتكاليف قدوم الطلاب من أنحاء الصين إلى الدورة وإقامتهم خلالها ومصاريف المحاضرين الذين يتم الاتفاق عليهم مع الجمعية من داخل الصين وخارجها.

ممثلو الجمعية: الجمعية تشكر الرابطة على اهتمامها بقضايا الإسلام والمسلمين في الصين وخاصة في موضوع تدريب الأئمة والخطباء وذكرت

بأن المسلمين الصينيين يعتمدون على أنفسهم في هذا الموضوع ذلك لأن في الصين حالياً أكثر من ٢٥ ألف داعية وإمام وهناك معاهد ومساجد تقوم بالتدريب المطلوب وهم يتخرجون منها والذي ينقص الجمعية هم المدرسون فقط.

وأبغاً: تخصيص مقعد في المجلس الأعلى العالمي للمساجد للصين:

وفد الرابطة: ترغب الرابطة بأن ترشح الجمعية اسم شخصية إسلامية علمية وقيادية لكي تعرضه على المجلس التأسيسي للمجلس الأعلى العالمي للمساجد الذي يتكون من ٢٤ عضواً في سبيل قبوله عضواً عن مسلمي الصين في هذا المجلس الذي يهتم بشئون المسلمين والعناية بالمساجد. والرابطة تتحمل مصاريف حضور المندوب لاجتماع المجلس من تذاكر سفره وإقامته علماً بأن هذا المجلس يعقد اجتماعه في غير زمن اجتماع المجلس التأسيسي للرابطة .

ممثلو الجمعية: هذا الموضوع لم تفكر فيه الجمعية من قبل وستفيدكم برأيها بعد دراسته.

خامساً: ترميم المساجد وإصلاحها:

وفد الرابطة: إن المساجد في الصين تعتبر مراكز هامة للنشاطات الدينية فاذا كانت الحكومة الصينية قد ساعدت الجمعية في الاهتمام بالمساجد الأثرية والكبيرة في بكين وشنغهاي وغيرها من مدن الصين الكبرى. فلا بد أن هناك مساجد في مناطق مختلفة تحتاج إلى دعم مادي إلى إصلاحها وترميمها فالوفد يرغب مشاهدة بعض تلك المساجد إذا أمكن ذلك أو أن تقدم الجمعية بياناً بأسماء تلك المساجد وعناوينها ومقدار ما تحتاج إليه من المال لإجراء الإصلاح والترميم لكي ينظر فيها وفد الرابطة.

ممثلو الجمعية: مع شكر الجمعية الإسلامية الصينية على هذا الاهتمام نقدم إلى الوفد بياناً بأسماء المساجد التي تحتاج للإصلاح والمساعدة مع بيان مقدارها كما أن باستطاعة الوفد أن يرى بعض المساجد في المناطق التي سيزورها.

سادساً: الكتب الإسلامية:

أ- القرآن الكريم:

وفد الرابطة: ترغب الرابطة في توفير كمية كبيرة من المصاحف لمسلمي الصين الشعبية وذلك بطبعها في الصين إذا كان ممكناً ورخيصاً أو بإرسالها بعد طبعها في هونغ كونغ أو في غيرها من البلاد المجاورة إذا كان الطبع هناك مناسباً وكل ذلك بإشراف الجمعية الإسلامية الصينية وتعاونها.

رد ممثلو الجمعية: ترى الجمعية أن يتم طبع المصاحف في الصين إذ أن إدخال الكتب الدينية بكميات كبيرة إلى الصين يواجه صعوبة بالغة ويمكن أن تبثت الجمعية في أمر طبعها بسعر أرخص في الصين ويمكن أن ترسل الرابطة مندوباً للإشراف على طبعها تحت إشراف الجمعية، ويخبر الوفد في الجلسة القادمة بسعر طبع المصحف هنا في الصين.

ب- الترجمة الصينية لعاني القرآن الكريم:

وفد الرابطة: لقد أعدت الرابطة الترجمة الصينية التي وضعها الشيخ محمد مكين وطبعتها الجمعية الإسلامية الصينية في بكين عام ١٩٨٠م وذلك بوضع النص القرآني على الصفحة اليمنى والترجمة الصينية على الصفحة اليسرى والرابطة تريد طبع هذا النموذج المعد من قبلها في الصين إذا كان ممكناً.

أجاب ممثلو الجمعية: لقد طبعت الجمعية أكثر من ٢٠٠ ألف نسخة من الترجمة الصينية لمعاني القرآن الكريم وتفكر الآن في إعادة طبعها ويمكن بالطبع طبع النسخة التي أعدتها الرابطة هنا في الصين.

ج - ترجمة تفسير القرآن الكريم:

وفد الرابطة: حيث أن ترجمة معاني القرآن الكريم تحتاج إلى شرح بعض الآيات القرآنية كي يفهمها عامة الناس فالرابطة ترى بأن تزداد على الترجمة تعليمات وشروح مختصرة لايضاح بعض المواضيع والمسائل التي تحتاج إلى شرح وبيان خلال الترجمة.

ممثلو الجمعية: تفكر الجمعية في إعادة الترجمة الصينية وذلك بترجمة تفسير القرآن الكريم بالصينية وستكون لجنة من العلماء من أجل ذلك وبعد الاتمام سوف تعرضها الجمعية على الرابطة لمراجعتها ودراستها.

د- الترجمة الأويغورية لمعاني القرآن الكريم:

وفد الرابطة: تود الرابطة دراسة إمكانية طبع الترجمة الأويغورية (التركستانية) لمعاني القرآن الكريم في سينكيانغ مع الجمعية الإسلامية الصينية المركزية في بكين أو مع الجمعية الإسلامية الفرعية لمقاطعة سينكيانغ.

أجاب ممثلو الجمعية: يمكن دراسة هذا الموضوع مع الجمعية الإسلامية لمقاطعة سينكيانغ عند زيارة الوفد لها وخاصة أن هناك ترجمة أويغورية معدة للطبع وضعها الشيخ محمد بن صالح.

هـ - الكتب الإسلامية المختلفة.

وفد الرابطة: ترغب الرابطة في إرسال الكتب الإسلامية والمراجع الهامة التي تعالج المسائل والقضايا الإسلامية إلى مسلمي الصين الشعبية في سبيل توعية المسلمين و تثقيفهم بأحكام دينهم الحنيف وبذلك تكون قد ساعدت الجمعية الإسلامية لأداء رسالتها.

رد ممثلو الجمعية: يمكن إرسال الكتب الإسلامية المختلفة إلى الجمعية الإسلامية الصينية المركزية وستقوم الجمعية باستلامها وتوزيعها على المسلمين باسم الرابطة.

سابعاً: المطبعة،

قال ممثلو الجمعية: الجمعية الإسلامية الصينية ترغب أن تحصل على مطبعة إسلامية لطبع القرآن الكريم والكتب الإسلامية الأخرى وستقدم الجمعية بياناً تفصيلياً بتكاليف المطبعة وأنواع المكاتب المطلوبة وغيرها من المعلومات اللازمة إلى الرابطة.

ثامناً: إرسال المدرسين،

وفد الرابطة: الرابطة على استعداد لإرسال عشرة مدرسين وتحمل مصاريف قدومهم ورواتبهم وبدل سكنهم ويمكن أن تعينهم الجمعية في المناطق التي تربدها ضمن الاحتياجات الضرورية في مجال التوعية الإسلامية.

رد ممثلو الجمعية: في الواقع تحتاج الجمعية إلى المدرسين الذين يدرسون اللغة العربية والعلوم الدينية ولكن في الوقت الحاضر لديها بعض المشاكل مثل السكن وعندما تتحسن الظروف الحالية فإن الجمعية ستطلب من الرابطة المدرسين اللازمين لها.

تاسعاً: المعاهد الإسلامية.

وفد الرابطة: إن الأعداد الهائلة من الأئمة والخطباء وطلاب العلم المسلمين في الصين يحتاجون إلى معهد لإعداد المعلمين في سبيل تخريج معلمين في اللغة العربية والعلوم الدينية. فإذا رأت الجمعية الإسلامية أن تخصص أحد المعاهد السبعة التي تريد إنشاءها لإقامة معهد لإعداد المعلمين فإن الرابطة سوف تنظر في مساعدة هذا الموضوع كما تنظر في مساعدة الجمعية على شراء مبنى لسكن الطلاب والمدرسين المسلمين

أجاب ممثلو الجمعية: بأن الجمعية الإسلامية تود هذا كما تود أن تساعد الرابطة في إنشاء المعاهد السبعة وستقدم الجمعية إلى الرابطة تفصيلات كاملة عن احتياجاتها الفعلية ومشاريعها في القريب القادم.

عاشراً: إيجاد مركز إسلامي في سينكيانغ (تركستان الشرقية).

وفد الرابطة: حيث أن سينكيانغ مقاطعة ذات أكرثية إسلامية فإن الرابطة ترى إقامة مركز إسلامي يضم معهداً و مسجداً ومستوصفاً ومكتبة وذلك بالتعاون مع الجمعية الإسلامية الصينية وأن تتولى الجمعية إدارته بعد الإنشاء.

ممثلو الجمعية: هذا الإقتراح يعتبر مفيداً للمسلمين ويمكن أن يبحثه الوفد مع الجمعية الإسلامية لمقاطعة سينكيانغ خلال زيارته هناك.

حادي عشر: الحج وتيسيره.

وفد الرابطة: إن حكومة المملكة العربية السعودية لها أنظمتها وقوانينها والرابطة منظمة إسلامية وليست دائرة حكومية رسمية ومع ذلك

ستعمل الرابطة بالتوسط لدى الحكومة السعودية في تسهيل منح تأشيرات الحج للمسلمين الذين يرغبون في اداء فريضة الحج إذا قدمت الجمعية الإسلامية الصينية بياناً بأسماء الحجاج الصينيين الذين يودون الحج من خارج البعثة الرسمية قبل موعد الحج بثلاثة أشهر وعلى مسئوليتها.

ممثلو الجمعية: إن الحجاج المسافرين لأداء فريضة الحج يلاقون بعض الصعوبات للحصول على تأشيرات الحج لعدم وجود تمثيل دبلوماسي بين الصين والمملكة العربية السعودية وإن الجمعية تود مساعدة الرابطة لهم للحصول على التأشيرات اللازمة بسهولة.

وأضاف ممثلو الجمعية: سترسل الجمعية الإسلامية الصينية في بكين بأسماء الذين يريدون الحج من مسلمي الصين إلى الرابطة في سبيل تسهيل منحهم تأشيرات الحج ويمكن أن يرسل نفس البيان من الجمعية أو الرابطة إلى السفارة الباكستانية بطلب منحهم تأشيرة مرور من باكستان إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج.

ثاني عشر: دعوة بعض زعماء المسلمين وعلمائهم لأداء فريضة الحج على حساب الرابطة:

وفد الرابطة: إن الرابطة تود أن تستضيف عدداً من زعماء وقادة المسلمين وعلمائهم لأداء فريضة الحج وذلك بتوجيه دعوة لهم مع تذاكر سفرهم ويكونون ضيوفاً على الرابطة خلال موسم الحج.

أجاب ممثلو الجمعية: ستقدم الجمعية أسماء بعض الزعماء المسلمين الذين لم يسبق الحج لهم ومن غير الذين سيكونون في بعثة الحج الرسمية إلى الرابطة لتختار منهم الرابطة من تدعوه لأداء فريضة الحج على حسابها.

وقد انتهى الاجتماع في منتصف الليل تقريباً على أن يعقد اجتماع ثان بعد عودة الوفد من زيارة سينكيانغ (تركستان الشرقية) لاستكمال المباحثات والاتفاق.

يوم الإثنين ١٥/٧/١٤٠٤هـ - ١٦/٤/١٩٨٤م.

أصبحنا على مطر وبرد وضباب خلاف الأيام الماضية وقد أخبرنا أهل بكين أنه ليس من المعتاد عندهم أن ينزل المطر في مثل هذا الفصل من السنة.
إلى قصر الشتاء.

وكأنما كان البرد قد اطلع على برنامجنا فعرف أنه يشتمل في هذا اليوم على زيارة (قصر الشتاء) وهو متحف كبير كان قصراً لأحد ملوك الصين الكبار ينزله في الشتاء وكأنما كانت التسمية كي تقابل الصيف الوارد في اسم (حديقة الصيف) وقد سمي المتحف الأمبراطوري.

واخترقنا شوارع بكين من وسط المدينة فألفينا الرئيسية منها واسعة سعة تفوق ما لديهم من السيارات في الوقت الحاضر فضلاً عن راكبي الدراجات الكثيرة وحتى المشاة في قلب المدينة إلا أن الشوارع تكاد تكون خالية منهم في هذا اليوم الماطر، وليس هناك سيارات خاصة كما سبق.

والذين يشاهدون في الشوارع عليهم المعاطف الشتوية والمظلات الواقية من المطر مع أن الفصل ربيع حسب ما هو معروف عندنا إلا أنه يصح أن يقال إن ربيعهم خريف و خريفهم ربيع.

ولكننا رأينا شيئاً ليس عليه غطاء في هذا الطريق ألا وهو لحم قد ذهب به صاحبه إلى إحدى محلات البيع وقد حملة على عربة يجرها بغل أو حمار - لا أدري - .

شارع السلام الدائم:

ثم وصلنا (شارع السلام الدائم) واسمه في لغتهم (تيان آن جيه) وجيه: شارع وهو واسع جيد يضاهاى الشوارع الجيدة في العواصم الكبيرة الأخرى وفي جانبه أماكن للمشاة والدراجات وفيه إشارات مرور كهربائية حديثة وتحف به الأبنية (العمارات) الضخمة البهيجة المنظر. ولكن المتاجر فيه قليلة وهي حكومية.

وهذا الشارع يمكن أن يقال فيه إن له منظر الشوارع الحديثة في المدن المزدهرة ولكن ليس له روحها فليس فيه متاجر فخمة ولا رواد لتلك المتاجر لأن القوة الشرائية عند عامة الشعب ضعيفة كما أنه ليس فيه سيارات ركوب كثيرة معتادة كما يكون في الشوارع المماثلة.

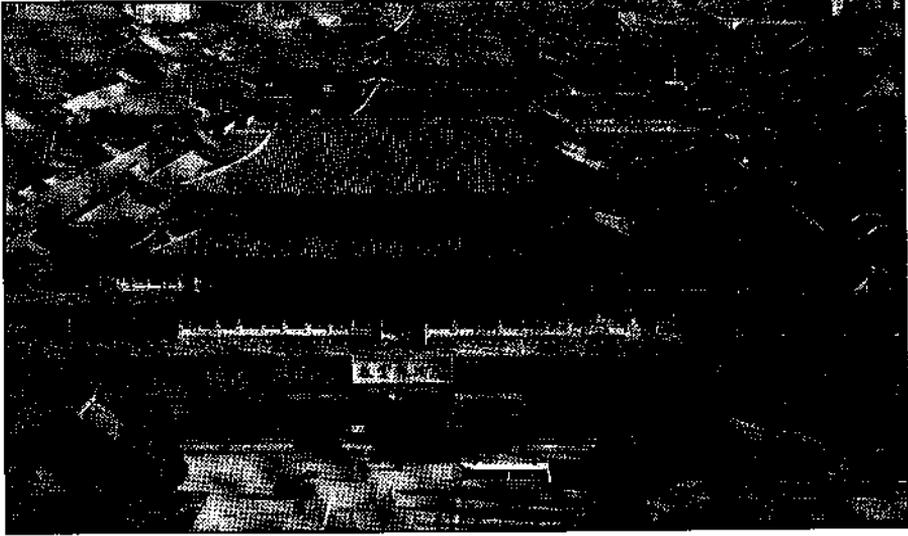
ويقع هذا الشارع في قلب المدينة ويعتبر من معالمها السياحية.

ثم عطفنا منه جهة اليسار إلى شارع واسع عليه مقر الحكومة المركزية وهو مقر مهم لأنه يتحكم بتصريف الأمور لأكبر مجموعة عديدة من البشر الا وهم الشعب الصيني الذي يزيد تعداده على الف مليون إنسان. وكان هذا المقر قصرًا لأحد ملوك الصين السابقين.

وعلى جهة اليمين قاعة كبيرة مشهورة هي «قاعة الشعب» التي يتضمن برنامجنا فقرتين لدخولها، ثم دخلنا إلى قلب المدينة القديمة وبعض بيوتها مثل أجزاء من قصور الملوك هنا مبنية بالطين المجصص.

وداخل المدينة غير بهيج المنظر لأنه بيوت قديمة أغلبها بالطين والآجر. وليس عليها أمارات الترميم فضلاً عن التجميل. ولكنه ممتع لكونه قديماً فحسب فيتخيل المرء إذا سار فيه أنه يسير في زمن قديم، ولهذا صار ذا قيمة أثرية ثمينة.

في قصر الشتاء:



القصر القديم في بكين

دخلنا القصر بعد دفع ١٠ سنتيمات ثمناً لتذكرة الشخص الواحد ويساوي ذلك أقل قليلاً من ربع الريال السعودي وذلك مع ممر عليه عقد صيني تقليدي وهو الذي يكون سقفه أشبه بنصف بطيخة مستطيلة قد أخذ ما في وسطه حتى بقي القشر فهو يشبه ما نسميه في بلادنا بالقبو لولا أن هذا ممر مفتوح يفضي إلى فناء مكشوف مبلط بحجارة.



مدخل القصر الامبراطوري في بكين والاستاذ ابراهيم الحزيم يتأمله

ثم سعدنا من ذلك الفناء المكشوف إلى شرفة ذات أعمدة خشبية ضخمة أو لنقل بالتعبير القديم: إنه رواق مرتفع عليه أبواب خشبية كبيرة جداً ولكنها أنيقة الصنعة، وسقف هذا الرواق من الأخشاب الكبيرة المزينة بنقوش وزخارف صينية أصيلة بحيث لا ترى من الخشب شيئاً. لأنه كله قد شمله النقش والتزويق، وأغلب ألوان الزخارف فيه هما الأخضر والذهبي.

وعلى مدخله لوحة بالصينية والإنكليزية تقول: إن هذا القصر بني في عام ١٤٢٠م واستغرق بناؤه أربع عشر سنة وأنه بني لأحد الملوك من أسرة مينغ. وإن مساحته تبلغ سبعمائة وعشرين ألف متر مربع وهذا بطبيعة الحال يشمل الأفنية المكشوفة.

كما قالت اللوحة: إنه يشتمل على تسعة آلاف غرفة، وأنه لم يكن يسمح بدخوله إلا لطبقات خاصة من الناس فهو بمثابة المدينة المحرمة على سائر أبناء الشعب.

ويحف به خندق مليء بالماء عمقه عشرة أمتار للدفاع عنه.

أبناء السماء وأبناء الأرض:

تجاوزنا الممر الذي ذكرته إلى فناء آخر مكشوف ينزل إليه من شرفة مكشوفة ذات درج حجري وقد رسموا في أحد أركان الشرفة المكشوفة تيناً متعدد الرؤوس في لوحة كبيرة كلها من حجر واحد قد رسم عليه التنين بطريقة النقش أو الحفر على الحجارة ولذلك بقيت هذه اللوحة كأنما فرغ منها راسمها بالأمس رغم تعرضها للتقلبات الجوية من الأمطار والرياح والثلج في الشتاء والشمس الحارة في الصيف.

والتين هو رمز الصين وأصله أن ملوكهم أو بعضهم كانوا يقولون: إنهم من أبناء السماء وإن التين هذا موجود في السماء.

ولذلك كان بعض الكتاب المعاصرين يعبرون عن هذا الأمر بقولهم في تصارع الصين والاتحاد السوفييتي على الحدود أو على بعض المسائل موضع الخلاف بينهما: إن التنين والدب يتصارعان رغم أن الدب حيوان حقيقي معروف والتنين هذا: خرافي.

وإن كان التنين عند بني قومنا العرب حقيقياً وهو الحية الكبيرة، وعلى حد تعبير بعض اللغويين هو نوع من الحيات من أعظمها وأكبر ما يكون منها.

فماذا كان يقول صن يات صن أبو الجمهورية الصينية الذي تبني إسقاط الملكية بل ماذا يقول ماوتسي تونغ أبو الشيوعية في الصين إذا نظر إلى هذا التمثال الذي يمثل فكرة كون الملوك ليسوا من أبناء الشعب وإنما من أبناء السماء، وقد بقيت هذه الفكرة ممثلة بهذه اللوحة الكبيرة التي خلدت حتى الآن على مر السنين؟ وماذا يفعل بمنات بل آلاف اللوحات الثمينة التي خلد فيها التنين رمزاً لتلك الفكرة؟

هل يقول: إن ذلك خرافة؟

إن الناس سيصدقونه في ذلك بلا شك لأنها خرافة بالفعل ولكنهم ربما يسألونه أو يسأله بعضهم فيقولون: أين ما جعلته رمزاً للصين أو لأبناء الأرض من أبناء الصين ليقاوم الزمن، ويظل خالداً على الدهر غير فكرة الشيوعية التي أخذ الشعب الصيني بقيادة حكومته الحاضرة يتخلى عن النهج المتشدد التي نهجته في تطبيقها ولا سيما في آخر حياتك عندما ألبت الشبان والأغرار على الصغار والكبار فأذاقوهم سوء العذاب، وعملوا على تحطيم ثقافة صينية ظلت باقية بل مذكورة مشهورة في التاريخ على مدى خمسة آلاف سنة هي العمر المعروف من عمر الحضارة الصينية القديمة.

وذلك بالهدم والهدم وحده دون أن تبني في هذا المجال إلا أفكاراً عن الثورة الثقافية لم تستطع أن تدوم حتى بضع سنوات؟.

ولنترك (ماو تسي تونغ) وما فعله وما فعل باسمه أو عن موافقته قبيل وفاته فذلك حديثه في الكتب السياسية والاجتماعية وقد تأتي لمحة عن أسباب وجود الشيوعية في الصين فيما بعد.

ولنواصل جولتنا في قصر الشتاء لأننا الآن لا نشعر الا بذلك فالمطر يهطل باستمرار والريح تهب ندية تحكي ربح الشتاء البدية في صحرائنا العربية بعد نزول مطر كثير ولندخل:

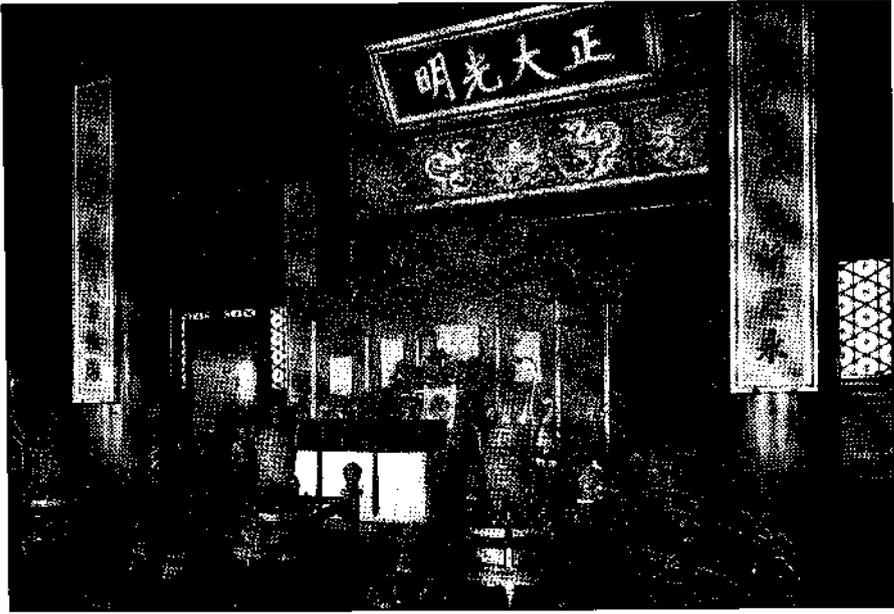
قاعة الاحتفالات الملكية:

وهي قاعة كبيرة لم يكن يدخلها إلا الوزراء، ومن في مرتبتهم ويستقبل فيها الملك وزراءه وكبار رجال دولته وتستعمل للاحتفال بالمناسبات الهامة.

وكلها مبنية بالخشب لأن ذلك كان طراز البناء القديم في الصين. ويقولون: إنهم اتخذوا البناء بالخشب لأنه يقاوم الزلازل التي تعتاد البلاد. على أن المرء الذي يشاهد ضخامة هذه الأبنية لا يستطيع أن يتصور أنها من الخشب لضخامتها واتساعها ولأنهم قد ظلوا كلها بألوان وأصباغ أخفت الأخشاب حتى صار من يراها يظن أنها من الحجارة أو من مواد أخرى غير معروفة.

ومن ذلك أن أعمدة هذه القاعة الواحدة من خشب الأشجار الضخمة المستقيمة التي لاعوج فيها ويظن من يراها أنها من حجارة ملساء لصلابتها وغلظها.

وفي هذه القاعة كرسي الملك أو الإمبراطور كما يسميه بعض عوام الكتاب. وهو ما يعبر عنه بالعرش عند كتابنا المحدثين. وليس بالفخامة التي يتصورها من يرى هذا المنظر فيفكر في الكيفية التي يكون عليها كرسي الملك أو تخت الملك كما كان يعبر عنه بعض كتابنا القداماء.



غرفة العرش في قصر الامبراطور في بكين

مكانة الحريق:

نظراً لكون الابنية الهامة في القصر من الخشب الثمين الذي قد استغرق نقشه وخرطه فضلاً عن تشذيبه وتهذيبه ثم تركيبه سنين طويلاً فإن الحرص عليه من أن يصيبه الحريق أمر في غاية الأهمية.

وقد عملوا لذلك شيئاً غريباً وهو أنهم وضعوا قدرًا نحاسية ضخمة جداً قالوا إنها تكون مليئة بالماء على الدوام وهي قريبة من قاعة العرش الا أنها ليست في واجهتها وإنما هي في ركن مكشوف يفضي إلى الرواق الذي يدخل منه إلى قاعة الاحتفالات.

وكأنما قاعة الاحتفالات قد استمرت حكرًا على طائفة من الناس لا يدخلها غيرهم وهم الفنيون والقائمون على صيانة هذا القصر العظيم فلا يسمح الآن لأحد من أفراد الشعب ولا من السياح بدخولها وإنما يقفون عند بابها الخارجي

ليطلوا منه على ما بداخلها وذلك خشية من أن يؤثر دخول الناس إليها على أثائها أو عليها نفسها وهي من الخشب على مر الأيام.

محمل الإمبراطور:

هكذا قال الدليل وهكذا نقلنا كلامه حينما دخلنا قاعة أخرى ذات لون أصفر تدعى البيزنطية قالوا إنها قاعة خاصة بالملك بحيث لا يجوز أن يدخلها الوزراء أو كبار الموظفين كالقاعة الأولى مثلاً.

وفي هذه القاعة عرضوا محملاً من الخشب له ثمانية أذرع أيضاً قالوا: إنه محمل الإمبراطور وهو الذي يحمل فيه فوق أكتاف الرجال إذا أراد التنقل لأنه لم تكن هناك سيارة في ذلك الزمان بطبيعة الحال وربما كان يضيق جلالته أن يركب على بهائم لأنها أولاً «بهائم» ولا ينبغي أن تحظى بمقامه «الإمبراطوري» ولأنها - ثانياً: قد تنسى أو تتناسى أن راكبها هو إمبراطور فتسير سيراً خشناً لا يرضاه هو ولا يرضاه له من حوله من الخدم والأتباع.

فكان الإمبراطور يتربع على هذا المحمل والرجال الثمانية يحملونه على اكتافهم عن طريق أذرع المحمل الثمانية وهم أطوع من الحيوان وأقرب إلى الأمان. لاسيما إذا كانت الغاية قريبة.

قاعة السفراء:

وهذه قاعة أصغر من قاعة الملك ولكنها عجيبة من ناحية البناء الخشبي فسقفها عالٍ بحيث يبلغ ارتفاعه ٢٩ متراً. أي ما يساوي ارتفاع بناء من سبعة طوابق وذلك كله من الخشب المدهون الصقيل الذي إذا رأيت لا تشك في أنه من مادة أخرى غير الخشب وهو أحمر الطلاء.

وأهم ما يعمل في هذه القاعة أن الملك كان يقيم فيها الولائم الخاصة باستقبال السفراء من الدول الأجنبية.

وقد عرضوا في هذه القاعة بعض المخلفات ذات القيمة الأثرية مثل الأسلحة والأواني النحاسية وهي غريبة الشكل وقيمة من الناحية الأثرية أكثر من كونها ذات منظر غريب متميز.

استعارة المظلات:

إشتد نزول المطر وصعب علينا التنقل بين أبهاء القصر بدون مظلة واقية وكان معظم السياح معهم المظلات لأن المطر كان قد بدأ منذ الليل إلا نحن. وسألنا عما إذا كانت توجد مظلات (شماسي) للبيع في حالة ما إذا وجد حانوت هنا لبيع الأشياء الخفيفة كما هي العادة في الهلدان المتقدمة في الإدارة. فانتدب الأخ المترجم لقمان.. والمصورة (وو) وكانت ترافقنا إلى الحصول على ذلك وكلما فتاتين موظفتين في المتحف كانتا تجلسان في مكان مظلل وأخذا مظلتيهما - عارية مؤداة - وصرنا نستعملها أحياناً بتناوب المرور من تحت المطر وأحياناً يستعملها البعض، وقلت إن هذا أمر لا بأس به بالنسبة إلينا فلنعط في نهاية الجولة صاحبتيهما بعض النقود.

ولكن بعد نهاية الجولة رفضتا أن تتسلما شيئاً، وسقنا الحديث عن هذه الحادثة التافهة لتدل على سهولة المعاملة عند هؤلاء الصينيين تجاه ضيوفهم من الأجانب.

الكنز الذهبي:

استمرت الجولة في غرف هذا المتحف وبين أبهائه التي هي نفسها تحف من التحف بالنسبة إلى الزائر الغريب من حيث شكل البناء وخرط الخشب ومقاومة الزمن وملاحظة الفن الصيني الأصيل في ذلك لأنه لم يتأثر آنذاك بأي من المؤثرات الحديثة بطبيعة الحال. فكان الدخول إلى قاعة جل ما فيها من الذهب الخالص مثل المباخر أي: أوعية حرق البخور وآلات موسيقية وأوان للأكل وكل

ذلك من الذهب حتى أعواد الأكل التي اعتاد الصينيون على تناول الطعام بها بديلة من الشوكة والملعقة عندنا قد جعلوا أطرافها التي تلي فم الأكل من الذهب الخالص أما بقية هذه الأعواد فإنها من معدن كريم أظنهم قالوا: إنه الزمرد.

حتى الإبريق الذي يوضع فيه الخمر أمام الملك هو من الذهب الخالص.

ثم أشياء من المعادن الكريمة كالمرجان ومن المرمر النفيس النادر عندهم مثل بعض الصحون والسلطانيات التي يراد بها هنا أقداح صغيرة يشرب فيها اللبن والحساء.

ومن ذلك أنواع أخرى من الذهب مثل آلات موسيقية أخرى وكلها قد رسموا عليها التنين الذي يوجد في السماء على حد زعمهم ومنه ذرية ملوكهم العظام كما كانوا يزعمون.

وكذلك كانت أختام الملك من ذهب وطبيعي أن يكون ما يلزم الأختام وهي بعض الأوراق التي يضع الملك خاتمه عليها من الذهب أيضاً وهي رقائق من الذهب أو مموهة بالذهب على هيئة صفحات من الأوراق التي يكتب فيها.

وقد رأينا بعض هذه مكتوباً فيها باللغة الصينية ولعلها لمعاهدات أو وصايا ملوك فلم نتبين ذلك. وهناك عصا ذهبية مرصعة بالجواهر النفيسة قالوا: إن الملك كان يمسكها بيده فيشعر بالقوة.

ولا شك في أن الشعور بالقوة المعنوية عند إمساكها ليس مقتصرأ على الملك فلو أمسك بها صعلوك لشعر بذلك إذا اعتقد أنها صارت ملكاً له.

وفي قاعة الحفلات الرسمية مخلفات وضعوها في غرفة صغيرة خاصة للعرض منها صفائح من الذهب قالوا: إنها بعدد أشهر السنة وإن لكل صفيحة منها صوت إذا قرعت صدر صوت مختلف عن أصوات الصفائح الأخرى يدل على شهر معين.

كما يوجد في هذه الغرفة شمعدانات أي أماكن ارتكاز الشموع من الذهب أيضاً وعدة من العصي الذهبية موضوعة في خزائن.

وقالوا إن مجموع الذهب الموجود في هذه الغرفة الصغيرة بلغ وزنه ستين كيلو غراماً.

وتعددت الخزائن الذهبية:

حتى أصبحت المعروضات الذهبية لا تكاد تلتفت النظر وذكرت بهذه المناسبة قصة الذي قمنى أن ينقلب كل ما تقع عليه يده إلى ذهب فأجيب إلى طلبه حتى انقلب ابنه بين يديه إلى قطعة خرساء من الذهب، وانقلب طعامه وشرايه إلى ذهب، فبقي في حالة بؤس لم يشهدها في حياته حتى قمنى أن يعود إلى ما كان عليه فقيراً دون ذهب.

الذهب في العبادة:

وجاء دور استعمال الذهب في عباداتهم فرأيناهم عرضوا أواني ذهب للأكل في المناسبات البوذية والبوذية كانت هي الدين السائد في الصين في ذلك الوقت.

كما صنعوا نماذج للمعابد البوذية وفق الهندسة الصينية وهي في هيئات متعددة بعضها محلى بالذهب والجواهر.

وتمثال لبوذا نبي البوذيين أوربهم من الذهب وقد وضعوه وسط معبد مصغر أو لنقل أنموذجاً لمعبد بوذي.

وفى الحرب :

أما لباس الملك صاحب القصر فإنه أيضاً عجيب ولكنه يتناسب مع ما ذكرناه في هذا القصر وذلك أنه مطرز بخيوط من الذهب ومحلّى بأنواع صغيرة نفيسة من الجواهر.

وقد عرضوا من لباس الملك حليتين إحداهما عسكرية يلبسها في المناسبات العسكرية وأخرى مدنية يلبسها الملك في الأحوال المعتادة.

وعلى ذكر الحديث عن اللباس العسكري نقول : إنهم عرضوا في ركن آخر من المتحف عدداً من السيوف والخناجر المغطاة بالذهب. وهذا أمر موجود عند غيرهم حتى الآن.

ولكن الشيء النادر الموجود هنا ليس من الذهب ولكنه من مادة نفيسة وبصنعة عجيبة الا وهو حصير صغير منسوج من العاج أي: سن الفيل قالوا إن تاريخ صناعته كان قبل ثلاثمائة وعشر سنوات وقد عرضوا فوقه سن فيل ليدل عليه.

ولك أن تسأل عن كيفية استطاعتهم نسج هذا الحصير من العاج مع أن العاج مادة صلبة والجواب إنها الدقة في العمل والصبر على ذلك والتفرغ له زمناً طويلاً وربما كانت هناك وسيلة أخرى لتليين العاج.

على أنهم عرضوه داخل أجهزة زجاجية لمسها لا يمكن بطبيعة الحال.

وفى الخرافة :

ومن الأشياء غير المفهومة هنا بالنسبة للزائر الأجنبي أشكال أشجار غريبة ومنازل أو لنقل أشياء متداخلة غير متناسقة قالوا إنها صنعت لتمثل خرافات وطنية صينية كانت شائعة عندهم في ذلك الزمان.

ومن ذلك شيء يشبه شكل الشجرة مرصع بالذهب والجواهر فيها أشخاص وهميون قالوا: إن بعضهم من الملائكة وبعضهم شخصيات خرافية صينية.

وقالوا: إن هذه الخرافة أو هذا الشكل لها مستوحى من قصص بوذية وشكل آخر يمثل العواصم السماوية بزعمهم وهي عوالم متعددة على قممها تمثال يشبه الملك قالوا: إنه فوق الجميع وإنه هو الذي يأمر من في تلك العوالم وبنهاهم.

وشكل للكرة الأرضية من الذهب ولم لا؟ والكرة الأرضية هي معدن الذهب؟

ومن الملاحظ أن بعض المعروضات ليست عليها كتابة بالإنكليزية توضح أمرها وإنما اقتصرنا في الكتابة عليها باللغة الصينية فكان لابد من معرفتها من الاستعانة بمترجم صيني وهو أمر لم يعجزنا نحن وإنما هو صعب على من يتفرج برؤية هذا المتحف بمفرده إذا كان لا يفهم الصينية.

ولاحظنا كثرة الأطفال في المتحف فأخبرونا أنهم من الطلاب وإن طلاب المدارس يسمح لهم بأن يدخلوا للمتحف دون رسم.

ذهب الصين وذهب الآخرين:

لقد رأيتهم هولوا من أمر هذه المعروضات الذهبية والمذهبة حتى المترجمون كانوا يشيرون إلى بعض القطع باستغراب وأحياناً بفخر وقد فغرت أفواههم، واتسعت أحداقهم، وعلت الدهشة وجوههم ولكنهم لو كانوا قد رأوا ما رأيت من المخلفات الذهبية والمذهبة التي تركها أناس أقدمون في أماكن أخرى من العالم لما كانوا كذلك.

فأول ما يتبادر إلى الذهن مما تركه الآخرون الموغلون في القدم إن صح التعبير هي الآثار الفرعونية في مصر. ناهيك بمخلفات (توت عنخ أمون) الذهبية التي منها حتى النعال الذهبية.

ثم ما رأيته في مدينة (بوغوتا) عاصمة كولومبيا في أمريكا الوسطى حيث أنشأوا متحفاً واحداً أسموه (متحف الذهب) لأن جميع ما فيه من المعروضات هي من الذهب المستخرج من مقابر الهنود الأمريكيين الذين يمكن أن يسموا هنود الأنديز إضافة إلى موطنهم في جبال الأنديز في أمريكا الجنوبية وذلك من باب التمييز ما بينهم وبين الهنود الحمر الذين كانوا يسكنون في أمريكا الشمالية وبين هنود الأمازون الذين كانوا ولا يزال بعضهم كذلك يسكنون في غابات الأمازون في البرازيل.

فلقد شاهدت في غرفة واحدة مقادير من الذهب الخالص تزيد بكثير على كل ما في هذا المتحف الصيني من الذهب. ولقد سميت تلك الغرفة (الكنز) وذكرت حديثها مع حديث ذلك المتحف وحديث الرحلة في أمريكا الوسطى في كتاب مطبوع بعنوان: (رحلات إلى أمريكا الوسطى).

وقد أوضحت نشرة بالصينية أمر هذا القصر الضخم وما يحويه بالتفصيل رأينا أن ننشرها هنا للفائدة:

يقع القصر الإمبراطوري الأسبق، المعروف لدى الأجانب باسم «المدينة المحرمة»، خلف برج بوابة (تيان آن من) مباشرة في وسط بكين. وقد أقام فيه أربعة وعشرون إمبراطوراً من اسرتي مينغ وتشينغ، من أواسط القرن الرابع عشر إلى القرن العشرين: والقصر مفتوح حالياً كمتحف يجذب آلافاً من الزوار يوميا بسبب معماره الفخم وما يجمع من نفائس ثقافية وأشياء فنية.

والمباني التي تضم حوالي تسعة آلاف غرفة تعود لأكثر من ٥٦٠ عاماً، وتشكل أضخم وأكمل مجمع باق من المعمار الصيني التقليدي. ومنطقة القصر، وهي على شكل مستطيل بمساحتها ٧٢٠ ألف متر مربع، تحيط بها الأسوار بعلو ١٠ أمتار وقناة مائية عرضها ٥٢ م.



في القصر في بكين

وعلى كل ركن من أركان السور الأربعة برج متعدد الطبقات وسطح مضع مغطى بالقرميد المزجج الأصفر.

ابتدأ بناء القصر في سنة ١٤٠٦ في أثناء عهد الإمبراطور يونغ له، الامبراطور الثالث لأسرة مينغ. كانت نانجينغ هي عاصمة اسرة مينغ الاصلية. وفي اوائل القرن الخامس عشر، اغتصب يونغ له الذي كان مرابطاً على رأس الحامية في بكين، اغتصب العرش من ابن أخيه، واتخذ من بكين عاصمة.

وفي سنة ١٤٠٦، أصدر الأوامر ببناء القصر الذي انكب على بنائه مئة ألف من الصناع ومليون عامل لمدة ١٤ عاماً، وانتهى العمل منه في سنة ١٤٢٠.

يتألف القصر الامبراطوري من القصر الخارجي حيث كان يعقد الأباطرة اللقاءات الرسمية، ومن القصر الداخلي الذي كان بمثابة حي سكني للعائلة الإمبراطورية، وتظهر هذه المجموعة المتناسقة الأجزاء من المباني افضل الخصائص للمعمار الصيني العريق الأسلوب الفخم المهييب، فالبناء عديم الصدوع والشقوق مع التنسيق الدقيق بين المباني مجتمعة ومتفرقة.

بوابة الهاجرة (وو من) هي المدخل الرئيسي للقصر الامبراطوري الأسبق. وبعد أن يعبر المرء هذه البوابة المقنطرة ، وارتفاعها ٨م وسمكها ٣٥م، المضاءة بالكهرباء، يجد نفسه في فناء رحب، ينساب فيه، من الغرب إلى الشرق، مجرى مائي قوسي الشكل، تقطعه خمسة جسور دارزيناتها من رخام ابيض، وعلى الطرف الاقصى من الفناء بوابة الوثام الاعظم (تاي خه من)، يحرسها اسدان نحاسيان يكادان ينطقان بالحياة. وفي داخل هذه البوابة، ثلاثة أروقة على محور واحد: رواق الوثام الاعظم (تاي خه ديان)، ورواق الوثام الأوسط (تشونغ خه ديان) ورواق الوثام الأسفل (باو خه ديان) وهذه الأروقة الثلاثة ترتفع سبعة امتار فوق الأرض على مصاطب من رخام ابيض ثلاثية الطبقات. وتتنظم بالحيز حول قاعدة الدرازينات الرخامية البيضاء ميازب منقوشة على شكل رؤوس التنانين، -جمع تنين- مشكلة في أيام المطر الغزير مشهداً خلافاً لآلاف من النافورات التنينية الرؤوس ينبجس منها الماء.

رواق الوثام الاعظم مستطيل الشكل ويمثل علو مبنى من تسعة طوابق ومساحته ٢٣٠٠ متر مربع. وهو أكبر صرح خشبي باق في الصين وغوذج رائع لامتزاز الالوان الباهرة التي تميزت بها العمارة الصينية. والتفاوت بينها يبدو خلافاً متناغماً - الأصفر الفاتح للسطح المقرمد المزجج بالمقابلة مع السماء الزرقاء، والعوارض المطلية طلاء متمقاً، والزخرفة الذهبية السلسلية الأشكال على الواح الأبواب الحمراء والأعمدة القرمزية على المصطبة البيضاء المتوهجة.

ويقوم العرش في وسط الرواق على منصة علوها متران، مزخرفة بنقوش مخرمة. وعلى جانبيه ستة أعمدة تلفها تنانين ذهبية. وفوقه سقف مزخرف برسوم تنانين مطعمة بالذهب تلهو بالآلئ. فمن المفهوم أن اطلق على هذا الرواق اسم «رواق العرش الذهبي». وهنا كانت تقام المراسيم الكبرى، مثل الاحتفال بارتقاء امبراطور جديد عرش الحكم، أو الاحتفال بعيد ميلاد

الإمبراطور، أو اعلان المراسيم الإمبراطورية، وفي مثل هذه المناسبات، كان يحف جانباً «الطريق الامبراطوري» المؤدي من (تيان آن من) إلى رواق الوثام الأعظم، بالشارات والاعلام والرايات الإمبراطورية. وكان الموظفون الرسميون من مدنيين وعسكريين يركعون صفاً فصفاً في الفناء الرحب الفسيح الذي يتسع لحوالي تسعين الف نسمة.

وعندما كان الإمبراطور يرتقي العرش، تدق الصنوج وتقرع الاجراس وتعزف الآلات الموسيقية في شرفة الرواق الخارجية، وينبعث أريج البخور من المباخر البرونزية على شكل الكراكي والسلحفاة والمراجل على المصطبة. والهدف من جو الابهة التي يضيفها المعمار المهيب والطقوس المهيبة أن يبقى رعايا «ابن السماء» كما يلقب الامبراطور في خشوع.

رواق الوثام الاوسط مربع الشكل واصغر مساحة. وكان يتعلم فيه الأباطرة مزاولة المراسيم. وإلى الخلف منه رواق الوثام الأسفل حيث كانت تقام المآدب والامتحانات الامبراطورية. وكان الامبراطور يولم لوزرائه وجنرالاته من الرتب السامية وكذلك نبلاء الاقليات القومية احتفالاً بـ«منجزات» الحكام الإقطاعيين، في رأس السنة القمرية من كل عام .

واما فيما يتعلق بالامتحانات الامبراطورية، فكان ينتقى المتقدمون من بين العلماء في عموم البلاد، حيث يدبجون المقالات اجابة على أسئلة الامبراطور التي معظمها يختص بالاساليب والوسائل الهادفة إلى تعزيز الحكم الامبراطوري. وإذا ما انشروحت صدور الحكام لاجابات المتقدمين خلعت عليهم درجات مختلفة من الاستاذية ومن ثم يبدأون حياتهم الرسمية.

وإلى الخلف من رواق الوثام الاوسط قطعة نادرة من النقوش البارزة تجذب أنظار الزوار، وهي عبارة عن بلاطة حجرية منقوش عليها رسوم السحاب والتنانين، موضوعة بين مجموعتين من الدرجات الرخامية، وطول البلاطة

الحجرية ١٦,٥٧م وعرضها ٣,٠٧م وسمكها ١,٧م، وتزن أكثر من ٢٠٠ طن. وكانت تقتلع مثل هذه الألواح الحجرية من الجبال على بعد عشرات الكيلومترات جنوب غربي بكين، وتجلب إلى موقع البناء للقصر في فصل الشتاء حين كانت تحفر الآبار على مسافة كل نصف كيلو متر على طول الطريق، ويسحب منها الماء ليصب على الطرق حتى يتجمد. وكانت تنقل الألواح الحجرية على قوارب مسطحة القاع وتجر على الجليد.

الاروقة الكبرى بالقصر الخارجي تتممها على الجانبين كثير من الأروقة الصغرى والابراج، وكلها في تنسيق متقن، مشكلة طائفة معمارية متميزة.

يصل المرء بعد عبور رواق الوثام إلى بوابة الصفاء السماوي المهيبة، وخلفها القصر الداخلي حيث عاش اباطرة مينغ وتشينغ واداروا نشاطاتهم الحكومية اليومية. وكانت مخادع الامبراطورات هنا أيضاً، اضافة إلى رواق الصفاء السماوي (تشيان تشينغ قونغ) ورواق الالتئام (جياو تاي ديان) ورواق السكنينة الارضية (كون نينغ قونغ)، وهي مصطفة في نظام مرتب على طول المحور الاوسط. وكان الرواق الأول والثالث لمعيشة الإمبراطور والامبراطورة بينما كان الرواق الثاني مستودعاً لخمسة وعشرين خاتماً يشميا معروضة حالياً حسب ترتيبها الاصلى.

ويحف بجانبى القصر الداخلي ١٢ فناء، ستة على كل جانب. ولا تزال الاروقة في هذه الافنية تعج بأثاث فاخر من اسرتي مينغ وتشينغ، منقوش نقشاً فريداً أو مطعم بحجارة كريمة. وفي خضم هذا الترف البهيج عاشت مئات من الحظايا الامبراطورية وآلاف من الخدم والحشم.

رواق التهذيب العقلي (يانغ شين ديان) في القصر الداخلي يستحق انتباهاً خاصاً. فهنا عقد اباطرة تشينغ بعد سنة ١٧٢٣ مقابلات خاصة، وتلوا المذكرات والتقارير وأصدروا الاوامر. وهنا عرش في الغرفة الوسطى، وعرشان

في المقصورة الشرقية، واحد وراء الآخر. وكان الامبراطور يجلس على العرش في الواجهة بادياً للعيان، بينما كانت الامبراطورة الأم تسي شي تجلس إلى الخلف وراء الستار. ذلك لأنه ليس من المفروض أن تظهر النساء جهاراً. في واقع الامر، حكمت تسي شي بيد من حديد من عام ١٨٦١ إلى الأيام الاخيرة من الملكية في الصين.

وقد اتخذت كل القرارات الهامة في هذا المكان، ومنها مراسيم امبراطورية حوّلت توقيع المعاهدات غير المتكافئة التي فرضتها الدول الاستعمارية على الصين، مما حول الصين إلى بلد شبه مستعمر.

وكانت الحراسة على القصر برمته مكثفة، ومع ذلك تمكن «المتوردون» و«القتلة» من اقتحامه. وكانت أشد عاصفة تعرض لها القصر على يد «المتوردين» الفلاحين بقيادة لي تسي تشنغ، وكانت عاقبتها الاطاحة بأسرة مينغ. ولا يزال رواق الروح العسكرية (وو ينغ ديان) حيث أسس لي تسي تشنغ أول الامر بلاطاً ملكياً.

ولم تعد «المدينة المحرمة» ممنوعة على عامة الشعب. فمتحف القصر الإمبراطوري القديم، كنز للآثار الثقافية حالياً، مع أنه ليس قليلاً ما ضاع من النفائس التي جمعتها الأسر الملكية خلال خمسمائة عام من حكمها بسبب النيران، واتون الحروب، والسرققات والتخريب المتعمد. وكان آخر إمبراطور صيني الا وهو بو يي بقى في القصر الداخلي بعد الاطاحة بأسرة تشينغ في سنة ١٩١١.

وما بقى من الأثریات الآن معروض في عدة قاعات. وعلاوة على المعرض العام، هناك معروضات اخرى كالرسوم، والبرونزيات، والبورسلين والخزفيات، والمجوهرات والاحجار الكريمة، والاعمال الفنية والحرفية.

وتعرض قاعة الرسوم قطعاً فنية تعود إلى اسرتي سونغ ومينغ واوائل اسرة تشينغ. والجدير بالذكر ان هنا رسماً طبيعياً كلاسيكياً تحت عنوان «نزهة ريعية» من عمل الفنان تشان تسي تيشان مر عليه اكثر من ١٤٠٠ عام. وثمة معروضات جذابة في هذه القاعة من اعمال مشاهير الخطاطين منذ القرن الثالث الميلادي.

ويحتفظ متحف القصر ببرونزيات لكثير من الاسر الملكية، واروع انواع البورسلين وكذلك ما لا يحصى من الحلبي الذهبية والفضية واليشبية والمجوهرات والاحجار الكريمة والادوات الملكية. ولم يعد القصر يفتقر إلى هذه الادوات منذ أن ولدت الورشة الفنية الحرفية الخاصة به حيث تجمع مشاهير الصناع من عموم انحاء الوطن. وعلاوة على ذلك، للقصر مطبعة ومكتبة خاصتان به.

ولقد رصدت الحكومة، منذ عام ١٩٤٩، مبالغ طائلة لترميم عمائر القصر الإمبراطوري السابق والحفاظ عليه. وعهد إلى الاختصاصيين بدراسة التصميم والمواد وتقنية البناء التي جرت في اثناء تشييده، وتلك التي استخدمت في كل اعمال الترميم ومنها النقوش والرسوم.

ان هذا القصر في الوقت الحالي فيه من الجاذبية ما يتمتع زواره الذين يقاربون العشرة آلاف شخص يومياً.

في بكين القديمة:

لم يكن الغرض من ذلك ان نزور الجزء القديم من مدينة بكين، وإن كنا نود ذلك غير أنه لم يوضع في البرنامج فمضيفونا يريدون أن نرى ما يرون أنه يهمننا أكثر من غيره وهذا صحيح ولكنهم أيضاً لا يريدون لنا أن نرى ما لا يحبون أن نراه وهذا من حقهم بطبيعة الحال أن يفعلوه، فهم المضيفون ونحن الضيوف و(الضيف في حكم المضيف) كما يقول المثل العامي.

غير أننا مررنا بجزء قديم من مدينة بكين في الطريق إلى مسجد قديم كان حبيساً بأيدي الشيوعيين المتعصبين من أنصار عصابة الأربعة، ومن الذين قاموا بالثورة الحاقدة التي أسموها الثورة الثقافية.

وقد غلط السائق أو الدليل الذي كان في السيارة الأولى التي تقود الموكب فكان غلظه من الغلط بالصواب إن صح التعبير على حد قول الشاعر.

ياعجباً من صالح كيف لا يغلط فينا مرة بالصواب

فدخل شارعاً ضيقاً عرف أنه لا يستطيع النفاذ منه فدار ودار معه الموكب. وكانت هذه فرصة لرؤية جزء من المدينة القديمة لا رؤية مرور عابر ولكن رؤية سالك متردد.



في الحي القديم من بكين

أكثر البيوت في هذا الجزء القديم من المدينة مبني بالطين الا أن اساساته من الآجر. وواجهاته مزينة بالجص وقد يكون مزيناً كله بطلاء جصي أو نحوه مثلما كنا نفعل نحن في السابق قبل الرخاء الاقتصادي الأخير في بلادنا.

وأكثر بيوته من طابق واحد، وهي مهملة فلا أثر للعناية فيها أبداً من تعهد بطلاتها أو الترميم أو حتى من الاهتمام بالشوارع بل إنك تكاد تقول إذا ما رأيت أنه لم يتغير عما كان عليه في القديم الا انه ازداد سوءاً بسبب مرور الزمن عليه لأن أهله الأولين كانوا يعتنون به على اعتبار انه شيء نفيس لا يملكون غيره ولا تنصرف عنايتهم إلا إليه.

أما الحكومة الاشتراكية الحاضرة فإنها قد أبقّت على البيوت الصغيرة فيه التي يملكها أهلها عليهم فيها إذا كان البيت لا يزيد على حاجة مالكة، ولكنها في مقابل ذلك أهملته وصرفت همها كله للأجزاء الجديدة أو التي يراها السائحون الأجانب أو للأبنية الضخمة التي تقيمها لموظفيها وعمالها من شقق ذات غرف تؤجر عليهم حسب دخولهم وحسب عدد أفراد أسرهم.

ولقد كنا نقول: حسناً فعلت لو أنها أبقّت على القديم ولكنها حسنت مظهره بإبقائه على ما كان عليه بأن قاومت فعل الزمن فيه وأعتنت بأزقته ومرافقه كما فعلت الحكومة المغربية في إبقائها على الجزء القديم من مدينة فاس على ما هو عليه حتى إنه لا تدخله السيارات، ولكنها حرصت على توفير المرافق اللازمة للحياة فيه طبقاً لما يحتاجه أهله، ولما يحفظه بحالته القديمة ذات الأهمية الأثرية التاريخية.

ولقد تخيلت حينما أمعنت سيارتنا فيه وهي لا تكاد تمر من شوارعه أننا نعيش في قرية من القرى لا في عاصمة دولة من الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي وأكثر دول العالم سكاناً ومن الدول التي دخلت نادي الذرة كما يقال.

ولقد حاولت أن أصور بعض أجزائه غير أن الحالة النفسية التي عليها مرافقونا وسائقو سيارتنا والمطر وما معه من نقص في الإضاءة بسبب إظلام السحاب منعني من ذلك.

وخشيت من أن يراني أحد أحاول التصوير لو تمكنت من ذلك فتكون جريرة ذلك ليست عليّ وإنما على الدليل المرافق الذي ضل الطريق.

مسجد خواتشي:

ويقع على شارع (خواتشي) ولذلك نسب إليه من حي جونغ دينغ جو وهو من أحياء بكين القديمة.

عندما وقفت السيارات في الشارع الذي يدخل منه إلى المسجد رأينا لوحة على المدخل من قبل الشارع فيها الآية الكريمة (ومن دخله كان آمناً).

ووجدنا طائفة قليلة العدد من الإخوة المسلمين كانوا في انتظارنا. ومن هذا المدخل سرنا في ممر تابع للمسجد بعضه مسقوف أفضى بنا إلى المسجد الذي يحيط بفنائه الخارجي من الجهات الثلاث الشرقية والجنوبية والشمالية أي غير جهة القبلة التي فيها المصلى الرئيسي غرف تفتح إلى الفناء المكشوف وهي متراصة شاملة للجهات الثلاث كلها كما هي العادة في أكثر المساجد القديمة في الصين القديمة كما شاهدناها بعد ذلك.

ويشغل هذه الغرف جماعة من القائمين على المسجد مثل الإمام الذي يسكن فيه والمؤذن وبعض الخدم ومنهم امرأة رأيناها قد لبست (طاقية) بيضاء وهي تنظف الفناء استعداداً لمجيء الضيوف. فهي بذلك تلبس كما يلبس سائر الرجال من المسلمين رأيناهم كلهم قد وضعوا على رؤوسهم الطواقي -القلائس- البيض، ولبس (الطاقية) أصبح شعاراً للمسلمين في كل أنحاء الصين على اختلاف في لونها ولكن اللون الأغلب فيها هو البياض.

كان على رأس المستقبلين الأخ إمام المسجد (شعيب ما خاو تشن) الذي قادنا إلى غرفة جلوس من الغرف المحيطة بالمسجد وأخذ يقص القصة المؤثرة لهذا البيت الكريم من بيوت الله.



مسلمون في جامع خواتشي ومنهم امرأة مسلمة
على رأسها الطاقية البيضاء

قال الإمام - ونفر من إخواننا المسلمين بني قومه يسمعون:

إن تاريخ بناء هذا المسجد يرجع إلى أكثر من خمسمائة سنة وقد ناله ما نال أكثر المساجد والمؤسسات من أضرار خلال الثورة الثقافية وبقي مغلقاً إلى ما بعد سقوط عصابة الأربعة ولكن إعادة افتتاحه تأخرت إلى ما قبل سنة بل أقل من سنة من الآن حيث فتح للمصلين في أواخر عام ١٩٨٣م.



المؤلف داخل مسجد خواتشي في بكين

ويحتاج إلى ترميم وإصلاح بعد غلقه ونزعه من أيدي المسلمين فترة طويلة نسبياً. وقال: إن عدد المصلين في الوقت الحاضر يبلغ الثلاثمائة في يوم الجمعة وفي الأوقات الأخرى يكون ما بين العشرين إلى ثلاثين. والمصلون في الفجر والظهر أكثر منهم في المغرب والعشاء.

وسألناه عن راتبه فقال: إنه يبلغ تسعين يناً وإنه يدفع إليه من جمعية إسلامية محلية لا تعترف بها الحكومة. كما أنه قد يتلقى هدايا من المسلمين لأنه يؤم في الصلاة، ويعلم الكبار بعد العصر.

وقال عن نفسه: إنه قد تعلم في المساجد في الصين، وذلك أنه مسن يبلغ سنه ما بين الستين إلى السبعين.

ثم قمنا بجولة لتفقد المسجد فرأينا بعضه مقاماً من خشب قوي قالوا: يقال له خشب الطاووس لأن الطاووس يقع عليه، وقال بعضهم -ولعل ذلك من باب النكتة- إنه لا يقع على هذا الخشب شيء من الطير غير الطاووس.

وهذا ليس بمهم وإنما المهم ماذكروه من أن هذا المسجد قد عمره الامبراطور (مونغ) للمسلمين لأن ملوك الصين كانوا كعامة الناس هنا يحترمون المسلمين.

جوارب ومقاعد:

ولفت نظرنا مما رأيناه في المسجد أشياء منها أننا رأينا كومة من جوارب الصوف السميك العالية مبطنة بالفرو موضوعة في المسجد فسألناهم عن الغرض من وجودها.

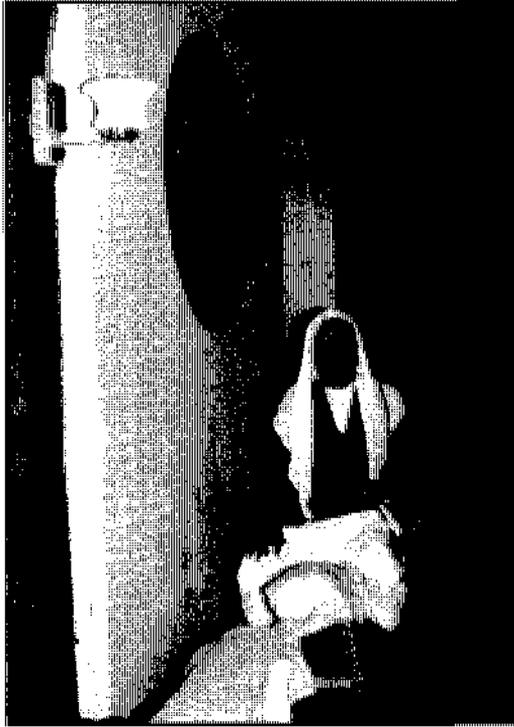
فأجابوا: أن الشتاء بارد عندهم، وبأن المسجد غير دفيء لذلك وضعوا هذه لحاجة المصلين إليها فيضعها من يدخل المسجد في قدميه حيث تمتد إلى ساقيه فتدفئه.

والثاني: كراس موضوعة في جانب من الصف في مؤخرة المسجد غريبة يقرب شكلها من ظهر الدابة التي تتركب، قالوا إنها: للعاجزين الذين لا يستطيعون السجود أو الجلوس براحة في الصف.

وهذان الأمران يوحيان بأن معظم المصلين من المسنين وهذا أمر صحيح بالنسبة لمن رأيناهم في المسجد عندما دخلناه، فأكثرهم من المسنين.

والأمر الثالث مما يلفت النظر فيه لا يختص بالمسنين أو الشبان وهو كتابة آيات كريمة كلها فيها ذكر الذين يحبهم الله قد كتبت على هيئة لوحات مستديرة. ومنها: (إن الله يحب التوابين) و(إن الله يحب المحسنين) و(إن الله يحب المتوكلين) و(والله يحب المتقين).

وفي المسجد قسم مفصول تصلي فيه النساء.



المؤلف على أحد المقاعد في جامع خواتشي وعلى الحائط لوحة
(إن الله يحب المتوكلين)

وسقف المسجد من الخشب تحمله خشبة ضخمة معترضة قالوا إنها من خشب الطاووس القوي، وفي السقف قبة صينية الطراز من الخشب أيضاً محاطة دون أعلاها بنوافذ من الزجاج حتى تسمح للنور بدخول المسجد لأنه ليست في حوائطه نوافذ.

احتجنا إلى الوضوء للصلاة فتوضأنا من مكان الوضوء عندهم فوجدناه جيد التنظيم فيه أباريق الوضوء من المعدن التنظيف.

إنهم قوم مجاهدون،

وعجبت من هؤلاء الأخوة الذين هم واقعون تحت طغيان حكم شيوعي ملحد أنكر عليهم حتى حرمة العبادة في المسجد في سنوات غير بعيدة وصادر منهم مسجدهم هذا ولم يأذن بإفتتاحه الا منذ أقل من سنة وهم في ضيق من المعيشة مثل غيرهم من أبناء الشعب بحيث أن دخولهم المالية محدودة مضيق عليهم في أرزاقهم وبعضهم قد صودرت أمواله في أول عهد الشيوعية حتى لم يبقوا منهم ذا يسار. ومع ذلك نجدهم يجمعون المال لراتب الإمام وفي إصلاح المسجد، بل ويسعون إلى جمع المال لإصلاح في المسجد أكثر.

ولقد تأثرت حين رأيتهم وضعوا في مدخل المسجد ورقة كبيرة مكتوبة بالصينية قال إخواننا المرافقون: إنها تبين التبرعات التي يتبرع بها المسلمون للمسجد كما وضعوا صندوقاً للتبرعات في المسجد لمن يريد أن يضع فيه مالا يود أن يذكر اسمه فيه.

وقد عزمنا على تخصيص مساعدة لهم من رابطة العالم الإسلامي سوف ترسل إليهم ضمن ماسيرسل من التبرعات إلى مساجد الصين وإلى المشروعات الإسلامية الأخرى هناك بإذن الله.

هذا وقد كان الحاضرون في المسجد حوالي الثمانية وامرأة واحدة قد وضعت على رأسها طاقيه بيضاء مثل الرجال الذين كانوا كلهم بدون استثناء عليهم (الطواقي) أي القلانس البيض.

ومن هذا المسجد الكريم توجهنا إلى تناول الغداء في (مطعم القوميات) الذي تغدينا فيه بالأمس وهو كسائر المطاعم ملك للحكومة التي هي وحدها ذات رأس المال وباقي الناس أجراء عندها أو فقراء سبواء كانوا من العاملين عندها أم لم يكونوا.

إلا أن هؤلاء أكثرهم غنى هم الفلاحون الأكثر فقراً من غيرهم في البلدان الرأسمالية لأنهم من ذوي الملكيات الزراعية الصغيرة جداً.

ولا توجد مطاعم لا تملكها الحكومة الا الصغيرة جداً التي يملكها أشخاص ولا تستوعب الا أعداداً قليلة من الناس. وتكون في أمكنة ضيقة.

ومما لاحظناه في الوجبات التي تناولناها عندهم حتى الآن أنها لا يقدم فيها في نهاية الطعام حلوى ولا فاكهة وهذا خلاف ما اعتاد عليه الناس في بلادنا وفي أكثر بلدان العالم من تقديم ذلك في آخر الوجبات.

وذكروا لنا عن تاريخ المسجد أنه قد بني قبل حوالي (٥٠٠) سنة أشرف على بنائه قائد من قواد الجيش الصيني الكبار اسمه (جانغ يوجون) وذلك خلال حكم أسرة (مينغ).

مع نائب رئيس المجلس الاستشاري:

اسمه (إبراهيم يانغ تشن رين) وهو مسلم أو لنقل بالمعنى الأصح والأدق: إن أهله من المسلمين فهو رجل دولة والدولة شيوعية ملحدة ولم يكن يتظاهر بالالتزام بالدين، والله أعلم بما يكنه ضميره من ذلك.

وهو رجل ذو مقام سياسي كبير إذ كان يشغل وظيفة نائب رئيس حكومة الصين الشعبية أي الحكومة المركزية. واليوم وظيفته النائب الأول لرئيس المجلس الاستشاري الشعبي الصيني وقيل لي: إن رئيس المجلس له خمسة وعشرون نائباً. هذا هو الأول قبلهم.

ويبلغ أعضاء المجلس المذكور ألفي عضو.

ذهبنا إليه في مكتبه في (قاعة الشعب) في قلب مدينة بكين الفاخر فاستقبلنا عند المدخل الداخلي وبعد السلام الذي كان مصوروا التلفزة يصورونه ذهبنا إلى قاعة متوسطة السعة ذات أثاث متوسط أيضاً. وبدا الرجل في

شكل مخالف للشكل الذي عليه أكثر الصينيين غير المسلمين ولا عجب في ذلك فهو من قومية (خوي) التي يراد بها في الصين من يكونون من المسلمين القدماء ويزعمون أنهم من نسل العرب أو الترك أو الفرس فهو بالفعل يشبه العرب أو الهنود البنجابيين، وقالوا: إنه أيضاً وزير لشئون الأقليات في الدولة.

فرحب ترحيباً متحفظاً في أول الأمر. ثم قال: نحن وأنتم من البلدان النامية ثم قال: لقد جئتم من بلاد بعيدة، وعلى قدومكم جاء المطر بعد جفاف طويل وفرحنا به جميعاً إلا أن المزارعين والفلاحين هم أكثر فرحاً به لأنه يفيد المزروعات. وقال: إنه من عاداتي أن أتعشى بقولاً وخضروات ولكنني الليلة سأتعشى بلحم الضأن فرحاً بقدومكم وبسببه.

وقد قال لي الأخوة المرافقون: إن العشاء بلحم الضأن يكون في المناسبات السعيدة عند المسلمين لأنهم يأكلونه في الأعياد والأفراح خاصة، فهو يريد أن يقول: إن مجيئكم من المناسبات السعيدة التي تجعل المرء كأنه في يوم العيد. ثم قال: إننا نرحب بتدعيم العلاقات ما بين الصين والبلدان العربية. وإننا نرجو أن تزداد توثقاً وقوة، وقال: يقول أديب صيني: إن اعظم الفرح هو فرح الصديق بصديقه القادم من بلاد بعيدة.



نائب رئيس المجلس الاستشاري (يانغ تشن رين) في مكتبه بقاعة الشعب على يمينه المؤلف فالاستاذ محمد شاه حبيب الله والى الخلف احدى الصحفيات والمترجم.

وقال: إن زيارتكم هذه أفرحتنا ولذا أتمنى أن تزورونا مرة ثانية ليزداد فرحنا.

ثم قال: إن العلاقات ما بين العرب والصين قديمة وإن مدن (زانتو) و(كانتون) تدل على ذلك، ونحن نسعى في إبرازها، حتى أنسابنا نحن ندرسها إذ ربما يكون البعض يرجع نسبه إلى العرب.

وقد رددت على كلامه بكلمة شكرته فيها على الترحيب بنا وقلت له: إن ذلك يذكرنا بالترحيب الذي كان يلقاه التجار والزوار من البلاد العربية إلى الصين في قديم الزمان. وهناك أشياء كثيرة تدل على العلاقات بين العرب والصين مثل تسمية الخزف بالصيني ولو كان مصنوعاً في أوروبا أو البلاد العربية ومثل الصحن الذي تقدم عليه الأطعمة نسميه (صينية) ولو كان مصنوعاً في بلادنا.

بل إنه روي في الحديث: (اطلبوا العلم ولو في الصين)، وهذا قد يشير إلى أن الصين كان من المعروف أن فيها علماء يرحل إليه.

وقلت له: إننا مثلكم نتمنى أن تزداد العلاقات توثقاً بين الشعب الصيني والعربي، وقلت: ونحن من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة وجننا لهدف إسلامي نبيل ألا وهو بحث التعاون ما بين الرابطة وبين المسلمين في بلاد الصين ونرجو أن يسهم ذلك في تقوية أواصر الصداقة بين الشعب الصيني والشعوب الإسلامية كلها التي يشترك ممثلون عنها في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة والمجالس الأخرى في الرابطة وقلت له: إنه فيما يتعلق بالبعد والقرب الذي ذكره عن الأديب الصيني فإنه يوجد عندنا قول أديب عربي في شعره:

ما البعد والقرب إلا ما كان بين القلوب



يانغ تشن رين النائب الأول لرئيس الوزراء
في حكومة الصين الشعبية يتسلم هدية من المؤلف في مكتبه بقاعة الشعب

وكان المترجم هو الأستاذ / لقمان ما شان لي الذي صار مترجماً ملازماً لنا
كما حضرته صحفية أو من الإذاعة لا أدري ولكنها كانت تكتب كل ما يقال،
وصورت المقابلة في التلفزة ثم بثت في مساء هذا اليوم ورأيناها في التلفاز.

وقدم أثناء المقابلة الشاي الصيني الذي يوضع في كوب سميك من
(الصيني) عليه غطاء ثقيل ثم يسكب عليه الماء الحار ويترك قليلاً ثم يشرب
ولا يزال الشاي في قاع الكوب لذلك يزيدون عليه من الماء الحار كلما نقص
الكوب من دون أن تزداد أوراق الشاي وذلك حتى يتركه الضيف وكأنه لم
ينقص من كثرة ما يصب عليه من الماء الحار.

وفي نهاية اللقاء كانت حفاوته بضيوفه أكثر إذ صحبنا إلى باب المصعد
وذلك بعد أن طلب منا أخذ صورة تذكارية فالتقط المصورون عدة صور.



النائب الأول لرئيس الوزراء بودع وفد الرابطة

في مخزن الصداقة.

كانت الفقرة التالية لزيارة نائب رئيس المجلس الاستشاري للشعب الصيني هي زيارة (مخزن الصداقة) وهو متجر حكومي خرجنا إليه من قاعة الشعب وكان المطر لا يزال يهطل وإن كان هطولُه يختلف قلة وكثرة إلا أنه كثير على وجه العموم.

فسار الموكب المؤلف من أربع سيارات غير بعيد من ذلك المكان حتى وقف عند متجر واسع كان القوم يشيدون به وبما يحويه من بضائع قالوا إنها جيدة ورخيصة.

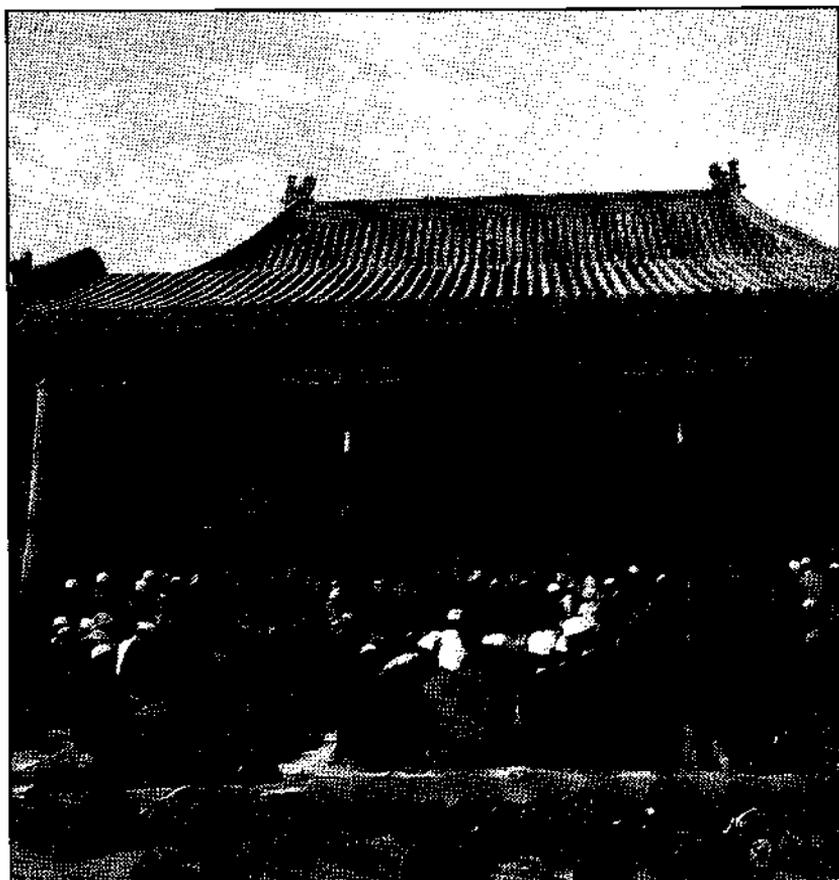
الصدقة بالعملة الصعبة:

ليس غريباً أن يكون لحكومة من الحكومات أو حتى هيئة من الهيئات مخزن أو مخازن لبيع البضائع بما تشاءه من عملة محلية أو عالمية، ولكن الغريب أن تشتترط على من يشتري من هذا المحل أن يدفع ما يشتريه منه بالعملة الصعبة التي أظهرها، بل أشهرها هو الدولار الأمريكي وأكثر المشتريات به، ثم تزعم تلك الحكومة أو الهيئة أنها فتحت ذلك المخزن لأجل الصداقة، وأنها تباع ما فيه بالدولارات من أجل الصداقة! فهي إذا تكون صداقة لمن يملكون دولارات فقط أما من لا يستطيعون أن يملكوا الدولارات فإنه لا صداقة لهم. بل لا بيع لهم.

ولذلك لا يشتري من هذا المتجر إلا الأجانب الذين يحملون عملة صعبة كما قلت. ولم نر فيه شيئاً يستحق أن يشتري إلا حريراً من الحرير الطبيعي اشتريت منه لأهل بيتي واشتري بعض الإخوة أدوية من أعشاب الصين المشهورة بتقوية الجسم.

في جامع بكين:

هكذا يسمونه وإذا أطلق هذا الاسم انصرف إليه لأنه هو الجامع الوحيد في بكين الذي لم يعلق إبان الثورة الثقافية، وتسلط من يسمون بعصابة الأربعة. ويقال: إنهم أبقوا عليه بتدخل من رئيس الوزراء السابق (شو ان لاي) وذلك من باب الدعاية أمام سفراء الدول الإسلامية الذين يعملون في الصين فكان بعضهم يصلي فيه الجمعة وكان سائرهم يصلون فيه صلاة العيد.



المسلمون الصينيون والاجانب أثناء صلاة العيد في جامع دونغ سي

واسمه مسجد (دونغ سي) بمعنى المسجد الشرقي وقد سمي بهذا الاسم لوقوعه على مقربة من أقواس تسمى (دونغ سي باياو) أي الأقواس الشرقية الأربعة.

ويقع في حي (دونغ سي) أي: الحي الشرقي من مدينة بكين القديمة.

استقبلنا في المسجد إمامه الشيخ صالح أن شي وي والشيخ هلال الدين صن قوانغ ان إمام آخر فيه أو مساعد الإمام.



الآيات القرآنية والزخرفة المحلية في جامع دونغ سي

وكان الجلوس أول الأمر في غرفة استقبال من الأبنية المحيطة بالمسجد ما عدا جهته الغربية التي هي تابعة له وفقاً للعادة الصينية في بناء المساجد. وحضر الجلسة عدد من طلبة العلم الذين لبسوا زياً خاصاً وهم من الشبان ويتراوح عددهم بين عشرة وخمسة عشر شخصاً.

وقد القى الشيخ صالح كلمة ترحيب وتعريف بالمسجد رددت عليه بكلمة مناسبة.



رئيس الوفد يقدم هدية إلى الحاج صالح آن شي وي امام جامع دونغ سي في بكين.
في قاعة الاجتماعات بالمسجد

وذلك بينما كانوا قد أحضروا الشاي الصيني والحلوى والفاكهة المجففة.

وقد أخبروني أن هذا المسجد هو الوحيد الذي بقي مفتوحاً في بكين إبان الثورة الثقافية. وقالوا: إنه يؤدي صلاة الجمعة فيه حوالي خمسمائة من الصينيين والأجانب.

ثم أدينا صلاة العصر معهم في المسجد وحضر حوالي أربعين شخصاً وربما كان اجتمعوا من أجلنا لأن الشيخ صالح. إمام المسجد قال: إن المصلين في الفجر والعشاء أكثر من المصلين في النهار الذين يكونون مرتبطين فيه بأعمالهم ويشق عليهم أن يأتوا من بعيد إلى المسجد.

وبعد الصلاة ألقىت فيهم كلمة بينت فيها سبب حضورنا إلى الصين، وأوضحت فضل الدين الإسلامي وحاجة الناس إليه، وبخاصة في هذا العصر الذي يدعو التقدم العلمي فيه إلى الإيمان.

ثم انتقلنا إلى التجول في المسجد الذي هو على الطراز التقليدي القديم المبني من الخشب السميك القوي، والمطلي بطلاء فاخر حتى تبدو أعمدته الخشبية وكأنها أعمدة من حجارة ملساء لولا الصباغ.

ثم أرونا غرفة فيها مخطوطات أكثرها بالعربية ومصاحف كريمة مخطوطة ولكن أغلبها من أوقات متأخرة ثم مكتبة صغيرة فيها كتب مطبوعة صينية وعربية ومنها كتاب (أسماء الله الحسنى) بالصينية والعربية.

وعرفنا منهم أن هذا المسجد بني عام ١٤٤٧م على يد قائد عسكري كبير من المسلمين اسمه (تشن يو) وأن هناك صندوقاً للتبرعات لإعمارهِ وإبقائه على حالته الزاهية من المظهر الصيني المعتنى به فأسقطنا في الصندوق خمسمائة دولار أمريكي تبرعاً من الوفد له.

حفلة شئون الأديان:

قبل حلول الساعة السادسة بقليل غادرنا جامع بكين إلى قاعة الشعب للقاء رئيس إدارة شئون الأديان وهي إدارة حكومية لها رئيس في مرتبة وزير ومررنا بشارع مهم اسمه (نان خون) وإن كان من الشوارع القديمة ولاحظنا أنه قد وقفت فيه سيارات صغيرة أكثر من الشوارع الأخرى وعرفنا بعد ذلك أن بعض هذه السيارات أوقفت في هذا الشارع الذي يمر به الضيوف في العادة ووصلنا إلى ميدان (تيان آن مون) أي: باب السلام السماوي لأنه في مكان باب للمدينة يسمى بهذا الاسم في القديم حيث كانت للمدينة ثمانية أبواب. منها باب السلام السماوي هذا، وباب السلام الأرضي. وفي هذا الميدان الواسع تقام الاستعراضات والاحتفالات، لأنه قلب المدينة.

استقبلنا رئيس الإدارة (رن، أو، رو) وهو برتبة وزير وغير مسلم وإدارته مهمتها العناية بالشئون الدينية عامة وليس بالدين الإسلامي، بصفة خاصة.

وكان الاستقبال في غرفة استقبال كبيرة غير التي استقبلنا فيها نائب رئيس المجلس الاستشاري للشعب الصيني ظهر اليوم، رغم أن القاعة هي القاعة نفسها، إلا أن غرفها في طوابق متعددة، ورئيس الشئون الدينية غير مسلم، وأهو بالتعبير الصيني الدارج من قومية (خان) وهذه تعني الصينيين غير المسلمين وهم الأكثرية من بين السكان كما هو معروف.

والرجل ضئيل الجسم. ربما خيل إليك إذا رأيت أنه معتل الصحة لنحافته أو أنه هندي من البنغال ولكنه حينما تكلم أبان عن تفكير عميق، فقد رحب بنا ترحيباً حاراً وذكر صداقة الصين للعرب.

ثم قال الرجل وهو يتحدث عن الدين في الصين: إن في الصين الآن اثنين وعشرين ألف مسجد، ونحن نهتم بالأديان، ونشجع المسلمين.

فرددت عليه بكلمة مناسبة كان أهم ما فيها أن المعاملة الحسنة التي يلقاها المسلمون هنا في الصين تعتبر في الحقيقة معاملة حسنة موجهة نحو المسلمين جميعاً وبخاصة نحونا نحن في رابطة العالم الإسلامي التي تمثل الشعوب الإسلامية وتتخذ من مكة المكرمة منطلق الدعوة الإسلامية مقرأ لها.

أمر له معناه:

سألته في معرض الحديث حول الأديان في الصين عن الدين الأول في الصين؟ فأجاب من موقع المسئولية المباشرة عن الأديان في البلاد أن الدين الأول في الصين هو الإسلام.

وكان قد قال قبل ذلك: إن عدد المسلمين في الصين هو خمسة عشر مليوناً، فقلت له: إننا نعرف أن سكان الصين بلغ عددهم ما يزيد على ألف مليون نسمة فماذا عن بقية العدد في السكان وبخاصة من كانوا منهم من البوذيين؟

فأجاب إنهم غير ملتزمين بالدين، ولذلك لا نعدهم من أرباب الأديان.

واتضح ما يقصده بقوله: إن الدين الإسلامي هو الدين الأول في الصين وهو أن الأكثرية من السكان لا دين لهم وحتى الذين كانوا يدينون بالبوذية وهم كثير في الماضي فانهم قد أصبحوا غير متدينين وبذلك صاروا لا دين لهم.

بعد هذه المقابلة التي أكثر المصورون من أخذ الصور لها انتقلنا إلى موائد العشاء وهي الصينية التقليدية وليس المراد بالصينية تلك التي يقدم فيها الطعام وإنما المراد بذلك أنها ذات طراز صيني.

وقد وجدناهم وضعوا عليها أنواع المقبلات أو المقدمات وهي مآكل قليلة المقدار، غريبة الأنواع.

ثم كانت صحون المائدة أغرب أيضاً من ذلك لحم الماعز البري. والسرطان الذي هو (أبو جلمبو) باللغة الدارجة المصرية أو (أبو قفص) كما يسميه أهالي جدة.

ونوع من السمك قد وضعوا عليه السكر حتى صار حلواً.

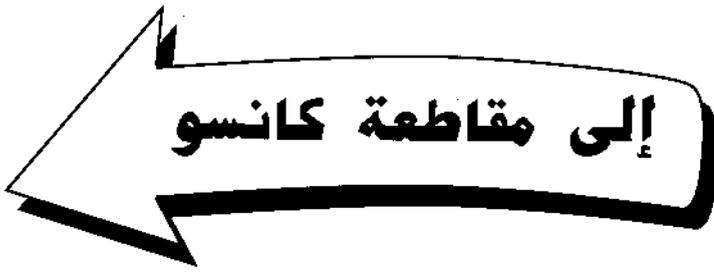
ثم أحضروا نوعاً قليلاً من الحلوى على هيئة حلوى مجمدة «آيس كريم».

وقد فرغنا من المائدة بعد الثامنة بقليل. وعندما عدنا نخترق ضواحي العاصمة في الطريق إلى الفندق وجدنا الشوارع تكاد تكون خالية في هذه الساعة المبكرة من الليل، وذلك أن الناس هنا ينامون مبكرين لأنهم ليس لديهم الوقت ولا الإمكانيات المادية للسهر. ولأن المكفيين الذين قد توجد أعداد منهم في البلاد الرأسمالية وهم في العادة المترددون على الملاهي لا يوجدون هنا بل على الشخص من الصينيين أن ينام مبكراً ليصحو مبكراً فيذهب إلى عمله لكي يحصل منه على القوت الضروري.

هذا وقد حضر الحفلة عدد من الإخوة العاملين في الجمعية الإسلامية وغيرهم من الرسميين الصينيين.

وقد زرنا مدينة أورو مسي عاصمة إقليم سينكيانغ أو شينجياك و هو (تركستان) الشرقية وتجوّلنا في ذلك الإقليم فكتبت في ذلك كتاباً مستقلاً عنوانه «في مهد الترك».

وبعد الانتهاء من زيارة هذا الإقليم عدنا إلى مواصلة الجولة في أنحاء الصين.



مقاطعة كانسو،

تقع مقاطعة كانسو في المجرى الأعلى للنهر الأصفر في شمال غرب الصين. وأرضها طويلة ضيقة تمتد أكثر من ألف كيلو متر في عرض ضيق مثل عاصمتها لآنجو تزيد مساحتها على ٤٥٠,٠٠٠ كم مربع وعدد سكانها ١٩,٨٨ مليون نسمة فيهم مليوناً مسلم ومنهم ١٦,٣١ مليون يعيشون في الريف وفيها ١٤ جمعية إسلامية فرعية و١٤ محلاً لبيع الكتب الإسلامية.

وتكثر في كانسو الهضاب الطينية المسماة هضاب اللوس ومعدل ارتفاعها ١٠٠٠ - ٣٠٠٠ م فوق سطح البحر. ويجرف النهر الأصفر وروافده القسم الشرقي من كانسو الذي يتكون من هضبة اللوس المتموجة، وبه إمكانات كبيرة لتنمية الطاقة الكهرومائية.

وهناك نهراً هيخه وشوله وغيرهما من انهار داخلية في ممر كانسو بين جبال تشيليان ولونغشو وخ لي.

ومع أن القسم الأعظم من الممر عبارة عن صحراء أو شبه صحراء والمناخ جاف، فإن هناك واحات يتصل بعضها ببعض، تستفيد من الثلوج الذائبة من جبال تشيليان لتنمية الزراعة والثروة الحيوانية. وقد كان ممر كانسو ممراً طبيعياً من قلب الصين إلى سينكيانغ (تركستان الشرقية) وآسيا الوسطى في قديم الزمان، ويخرقه اليوم خط سكة حديد لآنجو - سينكيانغ.

المناخ: مناخ كانسو موسمي معتدل مع خاصية الانتقالية الواضحة للمناخ القاري. ومعدل درجة الحرارة السنوي يتراوح من صفر سنوي إلى ١٥ درجة مع اختلاف كبير بين الشمال والجنوب، ومعدل التساقط السنوي للمطر ٣٠ - ٨٦٠ ملم ويتناقص من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي.

والزراعة في كانسو أغلبها في هضاب اللوس حيث يزرع القمح والذرة والدخن والقطن وبذور الكتان.

وتشتهر المنطقة حول لانجو بزراعة الشامام والفواكه ؛ والحيوانات الرئيسية فيها: الأغنام والابقار والخيول إلى جانب الخنازير التي يقبل كفار الصين على أكلها.

الصناعة: يوجد في كانسو ٦١ نوعاً من الخامات المعدنية أشهرها النيكل والنحاس والرصاص والزنك، وتعتبر جينتشانغ الواقعة في شمال محافظة يونغتشاغ بممر كانسو أكبر قاعدة بالصين في إنتاج النيكل. كما يوجد الحديد والكروم والذئبق في عدد من المناطق، ويوجد الفحم الحجري في أكثر من ٥٠ موقعاً. وقد بدأ التعدين منذ زمن في المناجم الرئيسية.

مدينة لانجو: حاضرة المقاطعة وتقع في وسط كانسو ويخترقها النهر الأصفر وسكانها مليوناً نسمة منهم (٢٠٠) ألف مسلم داخل المدينة و٦٠ ألف مسلم في أريافها وفي في مدينة لانجو ٤٨ مسجداً وقد كانت هذه المدينة ولا تزال مركزاً هاماً للمواصلات يربط داخل الصين بشمالها الغربي.

وهي مدينة صناعية تنهمك أساساً في صناعة تكرير النفط والكيماويات والآلات الميكانيكية والمعادن غير الحديدية والمنسوجات الصوفية.

**يوم السبت ٢٧/٧/١٤٠٤هـ - ٢٨/٤/١٩٨٤م
من أرومسي إلى لانجو؛**

خرجنا من دار الضيافة في ضاحية مدينة (أرومسي) عاصمة منطقة سينكيانغ التي كانت تسمى (تركستان الشرقية) ونحن لا نكاد نصدق أننا سننطلق بالفعل في سفرنا إلى مدينة لانجو عاصمة مقاطعة (كانسو) التي

تشتمل على ما يسمى بطريق الحرير القديم. وذلك أننا جربنا الخروج للمطار في محاولة للسفر مرتين لم ننجح في واحدة منهما بسبب العواصف أو عدم ملائمة الطقس وفي المرة الأخيرة كان السبب أن الطائرة التي كان من المقرر أن يسافر عليها لم تنزل في مطار أرومسي بسبب سوء حالة الجو.

ثم قيل لنا: إننا سنسافر بالقطار إلى هناك مع أن المسافة بين المدينتين تتجاوز ألفاً وثمانمائة كيلو متر والقطار بطيء يسير على الفحم.

مما حمل مضيفنا على العدول عن السفر به وانتظار الطائرة هذا اليوم.

وفي المطار وجدنا جمعاً من الإخوة المسلمين في التوديع على رأسهم (يعقوب دامالا) رئيس الجمعية الإسلامية في المنطقة إلا أن عددهم كان أقل من عدد المودعين في المرتين السابقتين اللتين خرجنا فيهما للمطار ثم لم يكتب لنا فيهما السفر.

وقضينا بعض الوقت في قاعة كبار الزوار في المطار التي هي قاعة مريحة نظيفة على خلاف القاعات العامة فيه، ومن أهم مزاياها وجود حمامات مناسبة فيها بخلاف الحمامات التي في قاعة المسافرين العامة فانها على غاية من الإهمال وعدم النظافة فأبوابها لا تغلق من الداخل وليس فيها ورق ولا ماء لغسيل الأيدي فضلاً عن أن يكون فيها مرآة.

وهذا من الأمور التي أثارت عجبنا في هذه البلاد الشيوعية. فقد كنت أظن من قبل أن الحكومة الشيوعية التي تدعي أنها تخدم عامة الشعب، تهتم بالمرافق العامة التي يحتاج إليها جمهور الناس أكثر مما تهتم بالأماكن التي تستعملها الصفوة من الموظفين وذوي النفوذ والتي يرتادها الزوار الأجانب ولكن ثبت العكس مع أنهم يدعون أنهم جاءوا لمنفعة سواد الشعب وهذا أمر عرفته في كثير من الأماكن في الصين، وفي غيرها من البلدان الشيوعية.

وعند الدخول إلى قاعة المغادرة تكرر التفتيش الدقيق على الركاب وإبراز جوازات السفر أو البطاقات الشخصية وكأنما هم يريدون السفر إلى دولة أخرى.

وحتى نحن أعضاء الوفد الرسمي الذي تستضيفه الحكومة الصينية قد تكرر التدقيق معنا في هذا الأمر ولم تنفع وساطة المرافقين حتى كان الموظفون المكلفون بالتفتيش يدققون في مطابقة الصور التي في الجوازات على وجوه حاملها أما تفتيش حقائب اليد فإنه يتم كهربائياً وبدويّاً ثم يعلقون في الحقيبة ورقة صغيرة مختومة تمر بعدد من الجنود الذين يتأكدون من وجود الختم عليها.

وعند الصعود إلى الطائرة كان هناك ثلاثة جنود يتأكدون من (هوية) المسافرين.

إلى لانجو،

صعدنا إلى الطائرة التي لم تكن نفاثة، كما قد توقعنا رغم بعد المسافة وإنما هي مروحية كبيرة ذات أربع محركات وقد ذكرني مرآها بعهد في بلادنا والبلدان العربية قديم كانت فيه أمثال هذه الطائرات المروحية هي الشائعة في الركوب ونسيت الآن ونسي عهدها حتى أصبح الجيل الجديد لا يعرفها.

ولكنها هنا في الصين موجودة ومستعملة بل إنها ربما كانت تتجدد لأنهم يصنعون الطائرات الصغيرة ذات المحركين المروحين في بلادهم ويستعملونها في المسافات غير الطويلة وهنا ولهذه المناسبة التافهة وردت على ذهني العبارة التي يطلقها بعض الشيوعيين واليساريين ويقولون عن أنفسهم والبلاد التي تأخذ بالنظام الاشتراكي أنهم تقدميون وعن أهل بلادنا المحافظة ومن يشابهونهم أنهم رجعيون؛ فجعلت أسأل نفسي عن التقدمية والرجعية في هذا الأمر ولماذا لا يكون العكس هو الصحيح؟

كادت هذه الطائرة تمتلئ بالركاب لأن السفر بالطائرة قد تعطل منذ ثلاثة أيام فجميع الركاب الذين كانوا ينتظرون السفر بالطائرة طيلة تلك الأيام قد تجمعوا الآن للسفر لأنه لا وسيلة أخرى للسفر بالطائرة إلى لانجو الا هذه بسبب قلة السفر بالطائرات أولاً ولأن السبب كما يقولون هو الطقس في (أورومسي).
وكل الركاب من الصينيين ما عدانا نحن.

أما المضيفات فإن عددهن كبير وهن من الفتيات اللاتي جرى اختيارهن بعناية وأما لباسهن فإنه كلباس المضيفات الأرضيات لأن الجميع ينتمي إلى شركة الطيران الصينية الشعبية ولباسهن ذو لون بهيج فهو أزرق مؤلف من قميص طويل الكمين وسروال واسع الا أنه دون سعة سراويل الباكستانيات ولم يراع فيه الإغراء أو المجاذبية كما تكون عليه السراويل عند الأوربيات.
ولا مساحيق أو أصباغ على وجوه هؤلاء المضيفات الصينيات.

وبعد أن أخذ الركاب مقاعدهم في الطائرة جعل الموظفون والمضيفات يعدونهم بالإشارة بأيديهم وعقد أصابعهم كما كان يفعل الناس في القديم، في عد المواشي والأمتعة وقد استغرق هذا بعض الوقت.

ليس في الطائرة درجة أولى ولكن فيها جزء خلفي منفصل مفضل أجلسونا فيه ومعروف أن الطائرات المروحية تكون مؤخرتها أفضل من مقدمتها بخلاف الطائرات النفاثة.

تحركت الطائرة الساعة العاشرة والدقيقة الثامنة والثلاثين وأعلنت المضيضة بالصينية ثم بإنكليزية ضعيفة أن المسافة ما بين مدينتي (أورومسي) التي تركناها ولانجو التي نقصدها هي ألف وسبعمائة وخمسة وعشرون كيلو متراً وأن مدة الطيران ستكون ساعتين ونصفاً، على ارتفاع ثمانية آلاف قدم.

وقد أعادت أصوات المحركات المروحية إلى ذهني ذكريات قديمة لعالم الطيران في بلادنا مضى عليها أكثر من ربع قرن وكدت استغرق فيها لولا أن حركة المضيفات اللاتي هن مثل سائر الركاب من الصينيين ذوي الشكل المميز والخطار الملح المفرح الذي جعلني أتذكر أننا مسافرون إلى مدينة (لانجو) عاصمة مقاطعة (كانسو) التي كان يمر بها طريق الحرير القديم العظيم لم تترك فرصة الاستمرار في ذلك التذكار إلا أنني ذكرت أنني رأيت الليلة البارحة مع غروب الشمس طائفة من المواطنين يقلعون الحجارة للبناء من أرض حجرية غير بعيدة من دار الضيافة التي كنا نسكنها في أرومسي وهم يضربون الحصا بالعتلة الضخمة كما كان الأولون عندنا يفعلون.

إلا أن الطائرة وهي مروحية ظلت فترة وهي تبدو كأنها مشدودة إلى الأرض لأنها لا ترتفع بسرعة كما تفعل الطائرات النفاثة. وحتى عندما تستوي في الجو فإنها لا تكون على ارتفاع شاهق.

وقد جاءوا بالضيافة في علب من الورق المقوى الخفيف (الكارتون) وهي محزومة بخيطة تأتي بها المضيفة بين يديها بعضها فوق بعض. وهذا أيضاً مما ذكرني بماضي بلادنا عندما كانت طائراتنا تقدم فيها الوجبات بهذه الطريقة التي استبدلت اليوم بالمائدة المفتوحة المرتبة في صحن وأطباق نظيفة.

وفي هذه العلبه بيضتان وقطعتان من الخبز غير الجيد وقطعة من البسكويت وكيس من حبات الفول السوداني الذي تنتجه الصين وقطعة من (الشوكولاته). وقد كتبوا على هذه العلبه بالإنكليزية (صندوق الغداء) ورسوموا فيها صورة خرافية كثيراً ما يستعملونها رمزاً للصين وهي صورة فتاة مجنحة أطرافها السفلى كأطراف التنين الذي هو رمز الصين القديمة.

ويقولون: إن من خرافات الصينيين أنها تصعد بالشعب إلى السماء، تفعل كما يفعل الملاك أو القديس.

وبعد الغداء وزعوا الشاي الصيني الخفيف الخالي من السكر وهو ليس بالشاي الأسود الذي نعرفه ولا هو بالأخضر وإن كان قريباً منه إلا أنه أخف منه.

ويكاد هذا الشاي يكون هو المشروب الوحيد الذي يقدم في الصين ولهم بشره ولع عجيب وأعجب من ذلك طريقة تقديمه وهي أنهم يضعون قليلاً من أوراق الشاي في كوب من الخزف أو الصيني ثم يصبون فوقه الماء الحار ويظنون يترشفونه وكل ما نقص ماؤه زادوه ماءً حاراً من دون أن يزيدوا في أوراق الشاي.

الا أنهم هنا في الطائرة عرضوا القهوة أيضاً وهي خفيفة جداً حتى تكاد تكون ماء حاراً مانثلاً إلى الحمرة فيه شيء من السكر على عكس الشاي الذي لا يقربه السكر أصلاً.

المضيفات يأكلن وسط الركاب:

في أثناء تناول الركاب غداءهم وكانت المضيفات قد أسرعن في تقديمه وهو لا يكلفهن وقتاً ولا جهداً لأنه مجرد توزيع علب مغلفة جلست المضيفات بعد ذلك في الطائرة في الممرات التي تفصل بين مؤخرتها المفضلة وبين القسم الرئيسي منها ومعهن كراسٍ صغيرة متنقلة كالتى تستعملها المرأة في المطبخ أو التي تستعمل في المقاهي الشعبية وجعلن يأكلن ويتحدثن وهن جالسات من دون أن يبالين بالركاب.

وهذا مثلما حدث في الطائرة النفاثة التي أقلتنا من بكين إلى أوروامسي حيث جلست المضيفات في مقاعد الدرجة الأولى معنا يأكلن ويتحدثن وكأنهن من الراكبات ولسن من المضيفات الموظفات.

وكان منظرهن مستغرباً هنا إذ رأيتهن يتحدثن بصوت عال ويتضحكن وكأنهن في جلسة خاصة في بيت إحداهن وبعضهن جلسن حتى بعد الانتهاء من الطعام وهن يأكلن الفول السوداني علي حين أن الركاب لا يزالون مشدودين إلى مقاعدهم وأمامهم علب الطعام وبعضهم قد يحتاج إلى المزيد من الشاي أو القهوة.

كان الجو صافياً وكان الجبل السماوي الذي يمتد خلال أراضي تركستان الشرقية أو (سينكيانغ) كما أصبح الصينيون يسمونها يبدو كالحائط الطويل الذي قد زين أعلاه بالحص الأبيض.

وجسه ثلوج عظيمة كان الشتاء قد حمل على ظهره منها أحماًلاً لا يخفف منها إلا حر الصيف حيث تتسرب من أعاليه على هيئة جداول وينابيع وأحياناً على هيئة أنهار صغيرة تروي أراضي تركستان المسلمة واسم الجبل تيان شان بمعنى الجبل السماوي.

ولم أكل طعام الطائرة فهو يبدو غير جيد، وربما كان قديم الصنع وقد تناولنا في دار الضيافة في صباح هذا اليوم إفطاراً شهياً جيداً كان نجمه اللامع العسل الطبيعي الذي لم تشبه شائبة في أصله ولا في طعام نحله.

ومنظر الأرض من الطائرة يبدو كمنظر الصحراء لولا هذه الجبال التي نشرت عليها أردية من الثلوج بيض.

ولقد زاد من شبه المنظر بالصحراء أن الشتاء رغم أنه قد انقضى عنها منذ مدة فإن فصل الربيع هنا يكون شاتياً ثالجاً مثل فصل الشتاء إلا ما كان في أواخره في شهر مايو (أيار).

ثم أخذت الجبال الثلجية تتعد وسميناها جبالاً ثلجية مع أنها جبال حجرية لكون الثلوج تركبها وخلفتها في المنظر تلال متطامنة ليس عليها ثلوج ولا

حتى عليها خضرة من اعشاب وحشية أو من زراعة بل إنها بدت لي من بعيد وكأنها الكثبان الرملية في الصحراء فهي جرداء من النبات دهماء اللون أو بنية كما يقول عوام الكتاب وهي مكومة تكوئياً بمعنى أنها ليست تلالاً جبلية منقادة كما تنقاد الحيطان الطويلة.

واحتاج أهدنا إلى دخول الحمام في الطائرة فرآه خالياً من الورق أو المناديل غير نظيف، وقبيل الإعلان عن الوصول وزعت المضيفات هدايا على جميع ركاب الطائرة التي ليس فيها درجة أولى بل جميع مقاعدها سياحية وهديتهم معاليق جمع معلاق للمفاتيح وهذه هي الهدية التي سبق أن أعطونا مثلها في رحلات الطائرات الأخرى وعليها شعار شركة الطيران الصينية.

وقد أداروا المسجل في الطائرة على غناء صيني أصيل.

والغناء الصيني الأصيل هو فن قائم بذاته لم تدخله الموسيقى الغربية ويتميز غناؤهم في أكثر الأحيان بما يتميز به الغناء العربي القديم الذي يمثله الغناء العراقي في الوقت الحاضر والذي يبدو عليه طابع الحزن والشكوى وتكثر فيه التأوهات.

والغناء الذي أكثر ما يقوم به النساء يبدو بأصوات رقيقة الطبقة أو يغلب عليها الترفيق كالغناء الهندي الذي يكون بأصوات دقيقة ولو كانت المغنية ذات جسم كبير.

إلا أنني لاحظت على الغناء الصيني في التلفاز أن المغنية تحرص على أن تعبر بعضلات وجهها ما تعجز عن التعبير عنه بصوتها ولاحظت أن المصورين يقربون منها مصوراتهم ويحرصون على تصوير كل خلجة من خلجات وجهها التي كثيراً ما تكون تعبيرات عن السرور مع أن صوتها يوحي بالحزن.

فوق مطار لانجو،

بدأت الطائفة بالنزول في جو صحراوي المظهر تماماً تسوده هضبات تبدو كالهضبات الجبلية الجرداء من النبات.

والمنطقة رغم وجود النهر الأصفر فيها فانها تكاد تكون ذا طابع صحراوي ظاهراً.

وقد زاد من الشعور بالمنظر الصحراوي وجود قنم صحراوي وهو ما يشبه الضباب أو الغبار الخفيف العالق في الجو والذي يكون موجوداً في جو الصحراء في وسط النهار في بعض الأحيان وهو هنا أحمر اللون ربما كان ذلك بسبب ميل لون الأرض ذاتها إلى الحمرة. وأخذت الطائفة تهبط وهي تهتز وتضطرب بسبب ذلك.

ولا أثر يرى للنبات أو الزراعة في مجموعة التلال التي تطير فوقها الطائفة الا في بعض الوديان الضيقة بينها.

وظهرت المنازل في الريف طينية كاملة أي لا يخالط طينها مخالط من مواد البناء الأخرى. وهي ذات لون غير بهيج.

في مطار لانجو،

حطت الطائفة في مطار لا بأس بسعته يقع في واد أرضه طينية مما أنزلته الأمطار من التلال الضخمة المحيطة به التي تبين أنها طينية وليست حجرية.

ويسيطر الجو الصحراوي الجاف على منظر المطار وإن كانت توجد حوله بعض الخضرة.

وكان هبوط الطائرة في الساعة الثانية إلا الربع ظهراً فوجدنا في استقبالنا
حشداً من الإخوة المسلمين في المقاطعة على رأسهم رئيس الجمعية الإسلامية في
مقاطعة كانسو الشيخ (نصر الله ماجونغ يونغ) وهم:

الشيخ نصرالله ماجونغ يونغ/

رئيس الجمعية الإسلامية لمقاطعة كانسو.

الشيخ سعيد ماروين/

نائب رئيس الجمعية الإسلامية لمقاطعة كانسو.

الشيخ محمد بشير ماه لن/

نائب رئيس الجمعية الإسلامية لمقاطعة كانسو وإمام

جامع خوين تاي

الشيخ محمد ادريس ماوين جنغ/

رئيس الجمعية الإسلامية لمدينة كانسو.

الشيخ محمد يونس يانغ شن/

نائب رئيس الجمعية الإسلامية لمدينة كانسو.

الأستاذ موسى ماوه شنغ/

نائب رئيس الإدارة الدينية لمقاطعة كانسو.

الاستاذ سليمان مافو/

نائب رئيس قسم الشؤون الإسلامية في الإدارة الدينية

لمقاطعة كانسو.

الشيخ محمد خالد مافو شنغ/

نائب رئيس الجمعية الإسلامية لمقاطعة كانسو.

إلى جانب بعض الموظفين الرسميين العاملين في الحكومة وفي مطار لانبجو خاصة. وأكثر المستقبلين يبدون من كبار السن وبعضهم كالشيوخ المتقاعدين عن العمل ولكن تبين أن الأمر ليس كذلك في أكثرهم فرغم كونهم من ذوي الأسنان العالية فهم لا يزالون يعملون ويواصلون أعمالهم كما يعمل الشبان على أن فيهم من هم في سن الكهولة أو متوسط العمر. وفي الصين خاصة يعتبر ابن الستين في هذه السن التي هي سن الكهولة أو منتصف العمر.

وهم في ملابس فضفاضة تقليدية وألوانهم تشبه ألوان أهل نجد فهم أقل بياضاً من أهل سينكيانج (تركستان الشرقية) وذلك لموقع بلادهم الصحراوي إلى الجنوب من سينكيانج إضافة إلى أنهم من عنصر غير العنصر التركي الذي يتألف منه سكان سينكيانج.

وبعد السلام الذي كان مصافحة ومعانقة انتقلنا إلى قاعة كبار الزوار في المطار فأدير الشاي الصيني المعتاد. وقدم رئيس الجمعية الصينية المستقبلين إلينا كما قدمت إليهم أعضاء وفدنا.

وكنت أثناء ذلك أتأمل ساحة المطار من النافذة للمقارنة ما بينها وبين (أورومسي) التي قدمنا منها فأجد ساحة المطار هذه مبلطة تبليطاً جيداً والأشجار التي ترى على قلتها خضر أو لنقل إنها أكثر خضرة من أشجار أورومسي التي لا تزال هامدة بسبب البرد.

ثم قدموا موكب سيارات مخصصة للوفد وأهمها السيارة السوداء المخصصة لرئيس الوفد (كاتب هذه السطور).

وقد ركب معي فيها رجل أمن بمثابة الحارس ورئيس الجمعية الإسلامية لمقاطعة كانسو الشيخ (ماجو نغ يونغ) واسمه الإسلامي نصرالله كما وزعوا بقية المستقبلين على الركوب مع بقية أعضاء الوفد، وفي الأمام سيارة عسكرية.

وأخبرونا أن المطار بعيد عن المدينة إذ يبلغ بعده عنها سبعين كيلو متراً.

سار الموكب مع طريق مزفلت زفلتة متوسطة تحف به أشجار قد أورقت بعد أن كان البرد جردها من أوراقها ولكنها لم تستكمل خضرتها كلها.

ومر الطريق بين التلال العجيبة التي كنت رأيته من الطائرة وأشكل علي أمرها ولم أعرف ما إذا كانت تلالاً جبلية أم طينية وقد ظهرت الآن على جليتها فإذا بها تلال طينية عظيمة عالية يعجب المرء بل يطول عجبه من كونها قد تماسكت ولم تنجرف مع الأمطار طيلة القرون.

والمنطقة ريفية جميع بيوتها وهي ليست كثيرة فيما قرب من المطار هي من الطين الذي هو من لون هذه التلال وهو أحمر غير قانٍ.

وأكثرها مبني بما نسميه في بلادنا بالعروق وهو البناء بغير اللبن. وإنما بالبناء بالطين رأساً على الجدران بحيث يبني البنائون ما يرتفع حوالي نصف متر تقريباً ممتداً مع امتداد الجدار ثم يتركونه يجف حتى إذا جف بعد يوم أو أيام وضعوا عليه مثله وهكذا حتى يتم الجدار.

وأكثر ما يستعمل هذا عندنا في حيطان المنازل والأسوار التي يراد لها أن تكون منيعة.

وقد لاحظت بعد أن أمعنت السيارات في الطريق أن التلال جرد وأنه لا خضرة الا خضرة ما كان مزروعاً، فسألت رئيس الجمعية الإسلامية عن ذلك؟ فقال: إن المطر هنا قليل. وإن هذه المزروعات يجلب إليها الماء من النهر الأصفر.

ورئيس الجمعية الإسلامية الشيخ (نصرالله) أو (ما جونغ يونغ) هوفي الثالثة والثمانين من عمره ويتمتع بعقلية نيرة إلا أنني لاحظت انه لا يفهم الحكمة من كثرة الأسئلة التي أطرحها عليه وهو معذور في ذلك من دون شك.

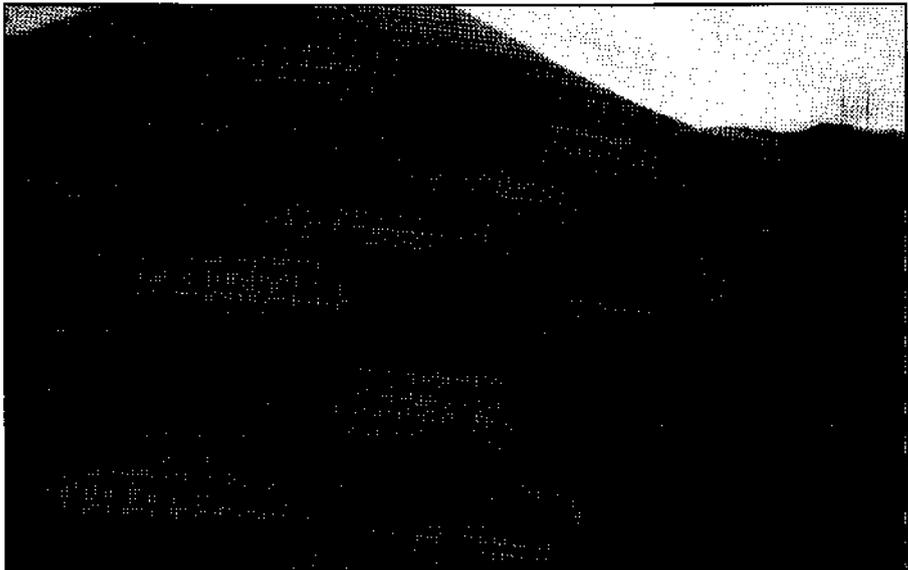
ومعظم الزراعة على الطريق هي أحواض صغيرة من القمح يسمونه الشتوي فهذا هو أو ان اخضراره كما تقدم.

وقد اتسع الوادي الذي يسير فيه الطريق فاتسعت مزارع القمح وقالوا إنهم يواجهون مشكلة في نقص المياه لأنهم يحصلون عليها من النهر الأصفر مع أننا لم نشاهد النهر هنا حتى الآن.

بيوت التلال:

رأينا في الطريق ما يشبه الغيران - جمع غار- ولكنها منحوتة في التلال الطينية المتماسكة التي تحف بالطريق فسألت عنها المرافقين فقالوا: إنها في الأصل أماكن أخذ منها الطين لوضعه على الأرض المزروعة بغية إخصابها وإن بعض الناس يستعملونها الآن بمثابة أماكن لحزن الأعلاف أو إيواء الماشية في الشتاء، وقد رأيت بعضها بمثابة الغرف.

وهذا أيضاً مما يشير العجب من تماسكها وبالتالي عدم خوفهم من انهيارها.



بيوت في التلال

والجو الآن معتدلٌ خالٍ من الشعور بالبرد وليس كجو أرومسي البارد حتى في هذا الفصل من السنة.

ومما شدني إلى ذكريات قديمة أن جميع بيوت الفلاحين والقرويين التي مررنا بها حتى الآن مبنية بالطين ويرى المرء بجانب كل مجموعة من البيوت حفرة في الأرض كنا نسميها (المطينة) أي المكان الذي يؤخذ منه الطين عندما كنا مثلهم نبني بيوتنا من الطين قبل أن نتجاوز ذلك إلى البناء بالبيوت الأسمنتية الحالية.

وكثيراً ما شاهدت هنا إلى جانب (المطينة) أو إلى جانب البيوت أكواماً من لبن الطين الذي جفف في الشمس وأعد للبناء.

وأما المنظر المألوف في قرى الصين وهو منظر رجال عدة يحرثون أرضاً صغيرة ومنظر فتيات يركبن الدراجات التي هي الوسيلة الآلية الوحيدة الشائعة للركوب في الصين فإن ذلك كثير.



شارع في حي شعبي في أطراف مدينة لانجو

وقد كثرت رؤية بيوت الطين التي تشبه بيوت الطين عندنا في القرى والأرياف لولا أن أسطحها هنا مائلة إلى جانب واحد وليست مسطحة السقوف كما هو عليه الحال عندنا ولا هي مسنمة كما هو عليه الحال في البلدان الاستوائية الممطرة.

فهي مائلة إلى جهة واحدة وذلك ليسهل انزلاق الثلج عنها في الشتاء لأن المنطقة تنزل عليها الثلوج في الشتاء بصفة منتظمة.

وما يزيد البيوت الطينية هنا شبهاً بالبيوت التي كانت موجودة عندنا أن واجهات بعضها مطلية بمادة بيضاء تشبه الجص الذي كنا نطلي به البيوت الطينية لتجميلها.

والمناظر هنا تشعرك بأنك في بلد محافظ على القديم رغمًا عنه بل هو متأخر عن اللحاق بركب الزمن رغم ما يدعيه أهل الشيوعية والمفتونون بها من أنهم التقدميون الذين يحاربون الرجعية والرجعيين.

ولا ترى فيها هنا إلا ما يشعرك بذلك حتى المصنع الذي رأيت دخانه هنا تبين أنه مصنع للأجر وهو الطين الذي يحرق ثم يبني به بديلاً من لبن الأسمنت.

ولكن المنظر بحق يستحق أن يرحل إليه ويرى لغرابته لاسيما مع استمرار هذه التلال الطينية العالية المتماسكة التي يخيل إليك أنها قد نثرت في الأرض نثراً من دون أن تتخذ شكلاً معيناً من الأشكال المعهودة.

والشيء البهيج هنا هو منظر أشجار الطريق التي كانت خضرتها تزيد كلما كانت بقرب الأماكن المزروعة. وإن كانت هذه الأشجار أقل كثافة هنا من الأشجار التي رأيناها في الطريق ما بين المطار وقلب مدينة بكين أو ما بين المطار وقلب مدينة أرومسي في سينكيانغ (تركستان الشرقية) ورأيت هنا ما

رأيت في ضواحي بكين من وجود عاملات في الطرق والزراعة وهن يرتدين ملابس نظيفة بعيدة عن ملابس العاملات غير النظيفة، وذلك مثلما أن العمال من الرجال تراهم في العمل في الطرق وفي المزارع وهم يرتدون ملابس نظيفة لا يكون مثلها على العمال أثناء العمل في العادة.

وبجانب الطريق أخايد عميقة سألت رئيس الجمعية الإسلامية عن أسبابها فقال: إن المطر إذا جاء قوياً كثيراً من هذه التلال المرتفعة فإنه يشق تربة الوادي الطينية المنحدرة ويحدث هذه الأخايد.

هذا وكلما قربنا من المدينة حسن المنظر قليلاً من حيث نظارة المزروعات بسبب كوننا نقرب من مجرى النهر ومن حيث جودة البيوت.

حتى وصلنا مصنعاً قالوا لي: إنه مصنع للألمنيوم.

وبهذه المناسبة أخبرونا أن مدينة (لانجو) التي نقصدها والتي هي عاصمة مقاطعة (كانسو) تعتبر مدينة صناعية.

في مدينة لانجو:

قربنا من الوصول إلى النهر الأصفر وذلك دلالة الوصول إلى مدينة لانجو لأن هذه المدينة ممتدة على هذا النهر امتداداً، وهكذا رأينا أول ضواحي المدينة.

وكنت أتطلع إلى سرعة الوصول إلى الفندق لكي أجد فرصة سريعة لرؤية المدينة غير أن القوم أخبرونا أن برنامج الزيارة يقتضي أن نزور أحد المساجد وأن نلتقي بعدد من الإخوة المسلمين قبل الوصول إلى الفندق.

فتجاوزنا النهر الأصفر مع جسر معتاد على ضفة النهر الغربية منه مصنع كبير للمواد الكيماوية تبين أنه جزء من المنطقة الصناعية في المدينة.

واخترقنا ضاحية فيها تسمى (لانغ خوي) فسرنا مع شارع يحفل براكبي الدراجات وتكثر فيه السيارات العسكرية وبعض سيارات الجيب التي تبدو كالسيارات العسكرية مع أنها ليست كذلك ولكنها أعدت للسير في المناطق الوعرة ذات الطرق غير المسفلتة التي هي كثيرة في الصين.

هذا وقد جعل سائق السيارة العسكرية التي تتقدم موكبنا يواصل إطلاق بوق سيارته حتى يشعر السيارات الأخرى بموكب الضيوف الرسمي فيفسحوا له الطريق.

مع أن الحقيقة أن الزحام في الشارع ليس شديداً والسيارات بطبيعتها ليست كثيرة في مدن الصين وبخاصة هذه المدن المتوسطة.

إلا أن سائقي السيارات لم يتعودوا على المرور بهدوء من الطريق بسبب عدم تعودهم على كثرة السيارات في الطرق ولأن السيارات الموجودة لديهم وأكثرها من صنع بلادهم ليست في مرونة الحركة في صنعها مثل السيارات الأمريكية واليابانية فيصعب على السائق أن يوقف سيارته أو ينحرف بها بسرعة فائقة لذلك تجده يحرص على إطلاق البوق أو التآني الشديد في السير .

هذا والمنازل في ضواحي المدينة بعضها مبني بالآجر إضافة إلى أكثر المنازل الخاصة المبنية بالطين.

غير أن عدداً قليلاً من الأبنية شيده بالأسمنت وواضح من هيئته أنه بناء حكومي أو تابع لإحدى المؤسسات الحكومية التي استولت على جميع الأبنية الكبيرة إبان الثورة الشيوعية ولم تترك للمواطنين إلا المنازل الصغيرة.

ورأينا عدداً من الأبنية (العمارات) الحكومية المتعددة الطوابق وكلها مبنية على طراز حديث وتقييمها الحكومة لتؤجرها شققاً على موظفيها وعمالها بأجور رخيصة.

ومررنا بميدان جيد لم أر فيه حافلات عامة رغم وجودها في أكثر مدن الصين لأنها هي السيارات العامة المتوفرة في الصين حيث لا يجد المرء سيارات الأجرة (التاكسي) في المدن الصينية التي رأيناها وإنما رأيت هنا بغالاً تجر عربات وعدداً من المشاة إلى جانب المنظر المعتاد وهو منظر راكبي الدراجات.

وقد رأيت وعاء كبيراً على إحدى عربات البغال وهو ما نسميه بالبرميل لا أدري ما فيه ثم قابلنا عدد من سيارات الحافلات العامة بعد ذلك.

وأيما التفت في هذه الضاحية رأيت مداخن المصانع ومداخن أخرى ذكروا لنا أنها مداخن المدافئ أو ما يصح أن يسمى بمداخن صرف الغازات الناشئة عن إحراق الفحم الحجري للتدفئة وللطبخ إذ يجعلون ذلك في مداخن عالية جداً حتى لا يلوث جو المدينة.

وقد ذكرني ما حدث للموكب هنا بالهند وسائقي السيارات فيها، وذلك أن شاحنة كانت تسير مصادفة أمام هذا الموكب الرسمي أبت أن تفسح الطريق أو أن تسرع سرعة السيارات الصغيرة التي معنا فأخذ سائق السيارة العسكرية التي تتقدم الموكب يلح بنفير سيارته عليها مدة خمس دقائق مما ضايقنا وكنت أود الا يسرع الموكب حتى تنبه سائق الشاحنة إلى ذلك وأزاح سيارته عن طريق الموكب وهو يسير.

هذا وكنا عندما اجتزنا فوق النهر الأصفر قادمين من جهة الشمال إلى الضفة الجنوبية من النهر حيث تقع ضاحية (لانغ خوي) ثم استمر سيرنا جنوباً شرقاً.

وقد أخذ الموكب الآن يسير شرقاً مع أبنية هامة أكثرها مبني بالآجر ثم وصلنا إلى حي شعبي فيه البيوت الطينية الجيدة القديمة. وفيها طوائف المشاة وراكبي الدراجات.

ولاحظت هنا كثرة عادة عند النساء وهي جعل الشعر ضفيرتين اثنتين خلف الرأس أكثر مما عليه الحال في بكين.

وهذه هي عادة صينية قديمة حيث لا يكون ذلك إلا على روعس الفتيات اللاتي يحرصن على إبقاء شعورهن طويلة.

ورأيت في هذا المحي بقرة تجر عربية عليها فلاح مع أمتعته وحماراً رديئاً صغير الحجم يجر عربية أيضاً، وهذا إلى جانب شيء لافت للنظر وهو أن هيئات راكبي الدراجات، بل وسائر الناس الذين رأيتهم هي هيئة جيدة فالملابس نظيفة والأجسام ليست هزيلة بل ولا نحيلة. مع أن ركوب الدراجات للبالغين في البلاد العربية وأمثالها توحى إلى المرء بأن الذين يركبونها لا يكونون بهذه المثابة لأنها لا يركبها إلا المحتاجون بل أحياناً لا يركبها إلا المعدمون.

ولكن الأمر هنا في الصين مختلف لأن الناس هنا يعتبرون من غير الموسرين أو على الأقل كثرتهم الكاثرة تعتبر كذلك.

شارع غرب المدينة:

طال السير في هذا الشارع حتى عجبت من ذلك وسألت عنه رئيس الجمعية الإسلامية والمرافقين فقالوا: إنه يسمى شارع غرب المدينة.

فقلت: كيف يكون كذلك ونحن الآن قد قطعنا فيه أكثر من عشرة كيلو مترات ولا نزال حسب تسمية الشارع في غرب المدينة؟

فقالوا إن هذا الشارع يمتد مع امتداد المدينة في هذا الوادي الضيق الذي يجري النهر الأصفر في الجهة الشمالية منه وهو الشارع الرئيسي في المدينة كلها ولذلك يمتد مسافة أربعين كيلو متراً لأن المدينة كلها ممتدة عليه.

فسألتهم عن سكان المدينة كلهم فقالوا: إنهم مع ضواحيها يبلغون مليونين.
أما الذين في المدينة الأصلية فقط فإنهم مليون.

واسم هذا الشارع بالصينية (شي دونغ سي دوغ) ويذكر بهذه المناسبة أن اللغة الصينية هي الشائعة وحدها في هذه المدينة بل في هذه المقاطعة (كانسو) كلها بخلاف مقاطعة سينكيانغ التي قدمنا منها فاللغة الشائعة هي التركية التي يسمونها (الإيغورية) نسبة إلى قبيلة (إيغور) إحدى قبائل الترك الأصلية المشهورة.

وتمتد على هذا الشارع في هذا الجزء الذي يقارب أن يصل إلى قلب المدينة الأبنية الحكومية الجيدة من أبنية الإدارات وغيرها بخلاف العمارات السكنية التي هي كلها حكومية بطبيعة الحال .

والعناية في الشارع ظاهرة فقد شجروه في أكثر المواضع وغرسوا الزهور في بعض الأماكن المتسعة المحيطة به.

وقد كثرت سيارات الشحن والحافلات العامة في قلب المدينة.

وقد دخلنا المدينة القديمة من دون أن نحيد عن هذا الشارع الطويل بل هو أفضى بنا إليها لأنه يشق المدينة كلها كما قدمت.

وسألتهم عن شق هذا الشارع أهو قديم أم حديث؟، فقالوا: إنه قبل التحرير. وهذا معناه أنه قبل أن تسود الشيوعية في الصين لأن عبارة التحرير معناها الشيوعية فهو إذا قد صار على ما هو عليه من الطول والامتداد قبل الحكم الشيوعي في البلاد.

وفي قلب المدينة كان هناك ميدان جيد تحف به من أكثر جهاته عمارات سكنية حكومية عامة. تحتها حوانيت كبيرة والحوانيت الكبيرة كلها حكومية

وإنما الخاص من الحوانيت يكون صغيراً في مساحته فقيراً في بضاعته ويكون قليلاً أيضاً في الأسواق الرئيسية.

حي بوابة المدينة.

من هذا الميدان اخترقنا النهر الاصفر ثانية ولكن من جهة الجنوب إلى الشمال على جسر حديدي قديم ولكنه في حالة جيدة من حيث الصيانة والعناية.

وسألتهم أين نحن ذاهبون؟، فقالوا: إلى «مسجد فوق الماء» وهذه عبارتهم بالعربية التي قالوا: إنها ترجمة حرفية للتسمية بالصينية.

وبدت الضفة الشمالية من النهر التي نحن مقبلون عليها مغلقة لأنها واقعة تماماً في لحف تلة جبلية ترتفع مباشرة من النهر وعليها حي قديم بل إن مظهر بيوته مظهر الموغلة في القدم حتى أزقتها كذلك وهي تتلوى وتنهض في غير استقامة صاعدة مع صعود ضفة النهر على الجبل واسمه حي (بوابة المدينة) وبالصينية (تشن تشن وانغ).

وهو حي يكاد يكون إسلامياً لأن المسلمين أكثرية بين سكانه كما أخبرونا، وكانوا كذلك منذ عهد قديم.

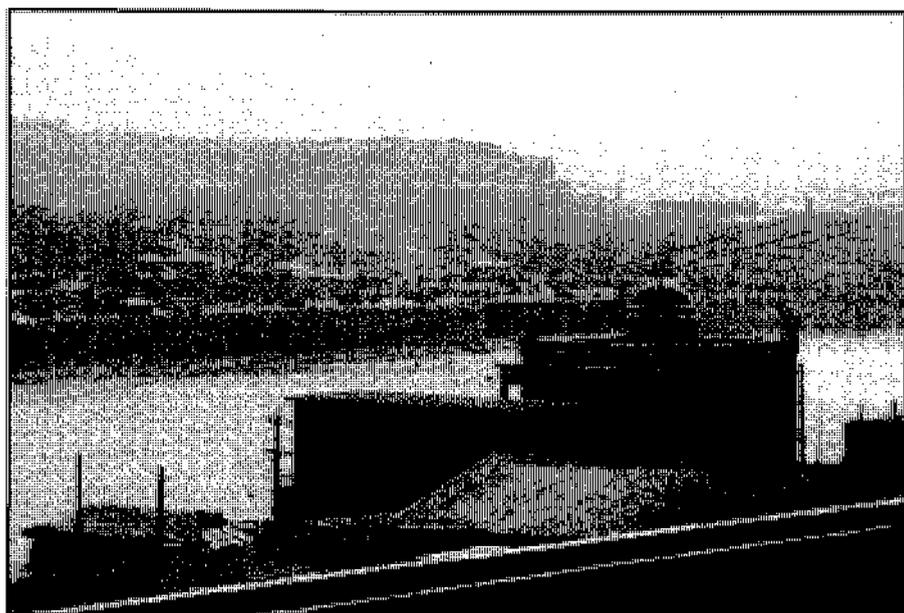
مسجد فوق الماء:

وقد دخلت السيارات مع شارع رئيسي غير واسع تجمهرت فيه طائفة من السكان انتظاراً لقدم الضيوف لأن رجال المرور كانوا قد وصلوا إلى المنطقة قبل وصولنا للمحافظة على الأمن وتسهيل مرور سياراتنا فيه.

وأقبلنا على مسجد بارز من بين الأبنية على شاطئ النهر المرتفع مباشرة فأشاروا إليه وقالوا: هذا هو (مسجد فوق الماء)، و(فوق الماء): ترجمة اسمه

خه تن سي. وكان فوق الماء مباشرة وليس هذا هو بالمهم لنا وإنما المهم أنه في مكان بارز يرى على البعد من مسافات بعيدة فيشهد بأن هذه المنطقة من مناطق المسلمين.

وصلنا المسجد فوجدنا حشداً بل حشوداً من إخواننا المسلمين فيه قد ضاق بهم شارعها والمنطقة المحيطة به وأكثرهم عليه شعار المسلمين وهو الطاقية فوق الرأس وشيوخهم وكبار السن فيهم عليهم الملابس القديمة وعلى رؤسهم العمائم البيض.



موقع مسجد فوق الماء (خه تن سي) في لانجيو

والتأثر ظاهر على وجوه الجميع من شبان وشباب غير أن الشيب قد اغرورقت أكثر أعينهم بالدموع وقد تراحم الجميع على موكب السيارات كل منهم يتمنى أن يملأ عينه برؤية إخوته المسلمين القادمين من بلاد الحرمين الشريفين ولكن رجال الأمن كانوا يحولون بين الناس وبيننا بحجة المحافظة على سلامتنا.

ولو ترك العنان لهؤلاء الإخوة كلهم للسلام لضاق الوقت عن ذلك فضلاً عن انقراط الأمن بلا شك لما هم عليه من عواطف جياشة.

ولقد انتظموا في صفين طويلين على جانبي الشارع خلف كل صف كتلة هائلة من البشر من ذكور وإناث وكبار وصغار.

وبعد الترحل من السيارات ومصافحة زعماء المسلمين أسرعوا بنا إلى الذهاب إلى المسجد بين جماهير أخرى كادت تغلق الطريق لكثرتها لولا أن رجال الأمن وزعماء المسلمين يمنعونهم من ذلك فدخلنا المسجد ولا يزال غاصاً بالمستقبلين الذين بدت طائفة منهم بلباس طلبة العلم وهو جبة سوداء تحتها سروال واسع وفوق الرأس عمامة وأخبرونا أنهم بالفعل من طلبة العلم هنا.

لم نقف في فناء المسجد المزدهم ولم نستطع مصافحة الإخوة كلهم لأن ذلك يعني وقتاً طويلاً قد يؤثر على سير البرنامج فصعدنا مع درج ضيق إلى قاعة متوسطة السعة في الطابق الثاني من بناء في مؤخرة المسجد أي في شماليه الشرقي والقبلة إلى الجنوب الغربي.



من الشرفة في مسجد فوق الماء (لانجور)

ووجدناهم قد أعدوا في القاعة موائد خشبية عليها المكسرات، والأشياء الخفيفة التي عرفنا بعد ذلك أن من عادة الصينيين وبخاصة أهل الشمال والشمال الغربي أن يقدموها للضيوف قبل الأضمة الأخرى إذا كانت الدعوة على غداء أو عشاء فتكون بمثابة المقدمات والمقبلات وقد يقدمونها لتكون كالأشياء التي تقدم عندنا في حفلات الشاي إذا لم تكن الدعوة على غداء أو عشاء.

ومع هذا المكسرات والمقدمات الحلوى والتفاح الذي يكاد يكون الفاكهة الوحيدة المتوفرة في المناطق الشمالية الباردة من الصين في هذا الفصل من السنة. وفي المكسرات الفول السوداني والزبيب ويزر البطيخ الأصفر (الحبوب) ويزر القرع إلى جانب الشيء اللازم الملازم لجميع الضيافات وهو الشاي الصيني الخفيف الساذج الخالي من السكر وغيره فهد عندهم مثل القهوة عندنا لا بد من تقديمها للقادم في أي وقت من أوقات الليل والنهار.

كانت العواطف الجياشة التي استقبلنا بها هؤلاء الإخوة مما لا يستطيع القلم أن يصفه. فكانوا لذلك يحاولون أن يتكلموا فتختنق الكلمات في حلقهم من فرط التأثر.

وعندما جلسنا في قاعة الاجتماع هذه حول موائد المكسرات والمقبلات التف حولنا زعماء المسلمين من علماء وكبراء وقالوا إنكم أول وفد إسلامي يصل إلى بلادنا وإننا مهما فعلنا فإننا لا نستطيع أن نعبر لكم التعبير الكامل عما تكنه قلوبنا وقلوب إخوانكم المسلمين لكم من محبة وإكرام لقد قالوا ذلك ولم يكونوا في الواقع بحاجة إلى أن يقولوه لأننا نشاهد ذلك واضحاً على قسماات الوجه وفي نظرات العيون وفي أمارات التأثر الظاهرة.

لم يرض إخواننا من زعماء المسلمين أن يشاركونا حتى الجلوس إلى الموائد وإنما جلسوا على مقاعد بجانبها فعزمنا على كبرائهم ومنهم رئيس الجمعية الإسلامية في مقاطعة كانسو الشيخ (نصر الله) والشيخ (محمد يونس يانغ شن) إمام مسجد فوق الماء هذا الذي نحن فيه أن يجلسوا معنا.

وحدثونا عن هذا المسجد العامر بأن بناءه الحالي كان في عام ١٩٤٦م، وكان الوقت ضيقاً قبل صلاة العصر لإستكمال البرنامج فتقرر أن تؤدى الصلاة ثم نعود إلى إتمام الاجتماع.

وما لفت النظر أنه عند إرادة الوضوء في الحمامات التابعة للمسجد تبين أنها فوق الماء بالفعل فهي ليس لها قاع وإنما يسقط ما يكون من المتوضئين أو غيرهم من فضلات على مياه النهر مباشرة التي هي بعيدة ربما تساوي في عمقها ارتفاع خمسة طوابق أو أكثر.

وقد تفرق أعضاء الوفد للوضوء لأننا كنا قد غادرنا دار الضيافة في أرومسي في وقت مبكر على محلات الوضوء فكان أن تحلق القوم جزاهم الله خيراً على أعضاء الوفد كل واحد منهم يريد أن يقدم مساعدة وأكثرهم يريدون أن يقتبسوا ما حسبه علماء أو هدياً إسلامياً من إخوانهم القادمين من بلاد الحرمين الشريفين فقد أحسنوا الظن بنا إحساناً لا نطمع في عشر معشاره عند أهلنا وبني قومنا.

الصلاة والوعظة:

أدت صلاة العصر في هذا المسجد جموع كبيرة لا يكون مثلها الا في يوم الجمعة أو أكثر من ذلك وقد غص المسجد بالمصلين ولا ندرى ماذا فعل الذين لم يتسع لهم. فقد كنا في المقدمة وبعد الصلاة القيت في هذه الجموع كلمة من مكبر للصوت حييتهم فيها باسم إخوانهم في المملكة العربية السعودية وباسم

رابطة العالم الإسلامي التي تضم في مجلسها التأسيسي ممثلين للمسلمين من كل أنحاء العالم.

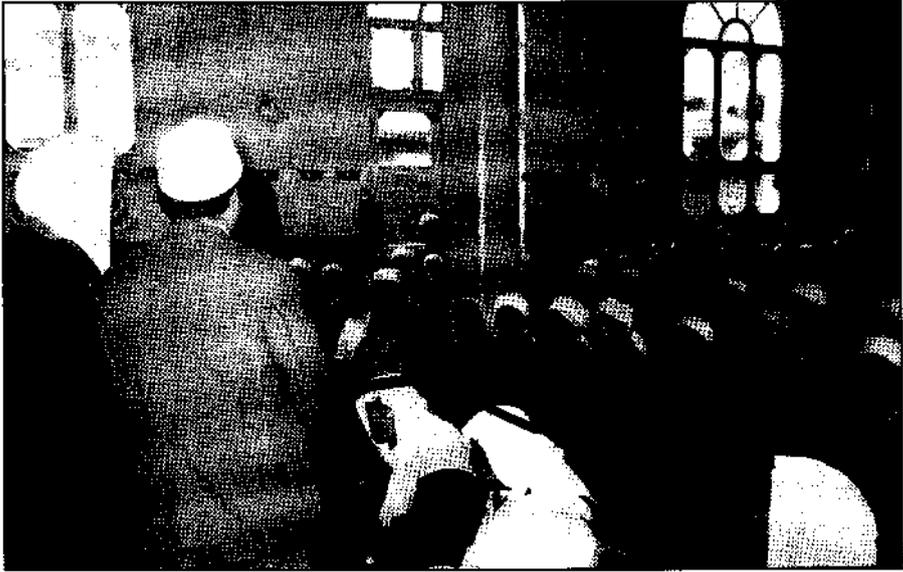
وقلت لهم: إننا جئنا هنا لا لغرض سياسي ولا لمطمع اقتصادي وإنما جئنا لغرض إسلامي نبيل ومن أهم ذلك أن نشعركم أيها الأخوة الكرام أن إخوانكم في الإسلام لم ينسوكم وإنما هنا أعلن عليكم جميعاً أن أهم ما نسعى إليه هو التعاون معكم على البر والتقوى وعلى إقامة المشروعات الإسلامية ونحن مستعدون لتقديم العون المالي في هذا الأمر ولا أقول المساعدة لئلا يفهم بعض الناس منها أنها كالمساعدة التي تقدمها أقطار أجنبية إلى أقطار أجنبية أخرى فهدفنا ليس هذا وإنما هو التعاون مع المسلمين على البر والتقوى فتحن إذا قدمنا دعماً مادياً لمشروع إسلامي هنا وليكن مسجداً على سبيل المثال فإن التعاون هنا حاصل من الطرفين نحن بتقديم الدعم المالي وأنتم بإكمال ذلك والقيام على المشروع فأنتم في الواقع قد ساعدتمونا على القيام بواجبنا تجاه إخواننا المسلمين وتجاه ديننا الإسلامي الحنيف.

ثم أخبرتهم بأننا قد بحثنا مع الجمعية الإسلامية المركزية في بكين ومع المسئولين في الجمعيات الفرعية في المقاطعات ذلك وإنما نستطيع أن نقدم الدعم المالي لتعمير المساجد ونقدم الكتب الإسلامية، ونطبع ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغة الصينية.

وكذلك طبع المصحف الشريف هنا في الصين كما أنه يمكننا أن نبحث معكم موضوع تيسير الحج إلى بيت الله الحرام سواء من حيث التأشيرات للدخول أو من حيث تسهيل استضافة الحجاج عندما يصلون إلى مكة المكرمة.

كما أننا أيضاً مستعدون لتقديم منح دراسية لأبناء المسلمين هنا متحملين كل المصاريف المترتبة على ذلك من تذاكر السفر ومصاريف الدراسة حتى

التخرج وقد ضمنت كلمتي توصيتهم بتعليم أولادهم تعليماً إسلامياً وقلت لهم إنكم مسئولون أمام الله سبحانه وتعالى عنهم فهم أمانة في أعناقكم.



الصفوف في مسجد فوق الماء (لانجور) تستمع إلى كلمة المؤلف

وكان الشيخ (لقمان ماشان لي) يترجم كلمتي للصينية التي زادتهم تأثراً على تأثر.

ثم غادرنا المسجد مشيعين بهالات بعدها هالات من هؤلاء الإخوة الكرام جزاهم الله خيراً حيث عدنا إلى قاعة الاستقبال في الطابق الثاني في مؤخرة المسجد حسبما رأوه وإذا بهم كانوا قد أعدوا لنا عشاء كبيراً ذبحوا فيه خروفا وذبح الخروف في الصين يساوي ذبح بعير عندنا لأن الشيوعية قد أفقرت الناس ثم إن الحكومة كانت في وقت من الأوقات لا تسمح لأحد بذبح الخراف إلا بإذنها لئلا يستغل ذلك بزعمهم في بيعه بغير السعر الذي حددته الحكومة.

ولما كانوا قد أخبرونا أن هناك حفلة عشاء رسمية بعد قليل فقد حاولنا الاعتذار غير أن إخوتنا المرافقين نصحوا بأن نطعم شيئاً قليلاً ففعلنا وجاءوا

بأنواع متنوعة من الأطعمة يعاقبونها وفيها لحم الضأن والدجاج والبقر
ويخضرات كثيرة مطبوخة فيها اعواد من الثوم مطبوخاً وأطباق من الخيار
المطبوخ بطريقة خاصة.

وكان الأخ الشيخ (محمد يونس) إمام مسجد فوق الماء يلقي كلمة بالعربية
أثناء الطعام تتضمن الترحيب بالوفد باسم جماعة المسجد والجمعية القائمة
عليه، فهو يعرف قدراً جيداً من العربية الفصحى ولكن أذنه لم تتعود سماع
الكلام من العرب لذلك يصعب عليه متابعة ما نقوله الا إذا كان بلغة فصيحة
واضحة وبطريقة متمهلة متأنية.

وعندما قلت لهم إننا إخوانكم ولانرى أنه من المناسب أن تتعبوا أنفسكم في
الاستعداد لنا أجابوا قائلين بتأثر: إننا ننتظركم منذ ثلاثة أيام، وقد ذبحنا عدة
خراف وأكلناها عندما تأخرتم.

وكان الانتظار صحيحاً بسبب العوامل الجوية كما سبق.



إخوان من وفد الرابطة مع امام مسجد فوق الماء

وكنت أتأمل هذا البيت من بيوت الله (مسجد فوق الماء) فأجده فوق النهر الأصفر مباشرة بالفعل ولكنه يبدو أعلى من ذلك بكثير لأن ضفة النهر مما يليه على حافة جبل مرتفع وهو نفسه طابقان والثالث جعلوا فيه المنارة فبدا شامخاً يرى من البعد بل يرى من مسافات شاسعة وأما الحي الذي تقطنه أغلبية إسلامية فإنه كذلك واقع على ضفة جبلية هي ضفة النهر الأصفر الشمالية.

وللنهر الأصفر هذا مكانة في نفوس الصينيين وأثر بارز في تاريخهم يكاد يعادل أثر النيل في ثقافة المصريين وتاريخهم وهو أحد نهري هامين كبيرين في الصين والآخر هو نهر (يانقتسي) وذلك رغم وجود عدد من الأنهار الأخرى في الصين وبخاصة في منطقة الجنوب.

إلا أن هذا الحي الإسلامي -إن صح التعبير- قد بقى محافظاً على ما كان عليه في القديم فلم تدخله المدنية الحديثة سواء في أبنيته أو في أزقته الضيقة التي لا تستطيع أن تسميها شوارع لأنها ضيقة متعرجة ولأنها في لحف الجبل تتلوى فيه وتتبعها البيوت صاعدة مع صعود الجبل.

وزاده مظهراً غير مناسب أن الوقود فيه كما في سائر المدن الصينية الشمالية هو بالفحم الحجري الذي هو متوفر بكثرة في أراضي الصين ولكنه يخلف فضلات سوداء لأنه لا يحترق كله فيؤثر في نظافة المنطقة إذا لم يتعهدها أولو الأمر فيها بالتنظيف وإبعاد تلك النفايات، وعند انصرافنا من المسجد كان التزاحم على أشده من الجماهير بل كان أكثر من التزاحم عند القدوم حتى اضطر رجال الأمن إلى إبعاد الناس بالقوة.

وقد حاولت أن أهدئ من خوفهم مما قد يحصل لأعضاء الوفد من هذا التزاحم فقلت إنهم إخوتنا يحبون أن يقتربوا منا لتحييتنا ونحن نحب ذلك مثلهم غير أنهم قالوا: إن المهم لديهم هو المحافظة على سلامتتنا.

في فندق الصداقة:

نزلنا في فندق يمكن أن يكون من فنادق الدرجة الأولى غير الفاخرة لو وفر له الأثاث الفاخر ولكنه بحالته الحاضرة يعتبر من فنادق الثانية الجيدة وهو أحسن فندق في هذه المدينة.

وعادة الحكومة أن تنزل فيه ضيوفها مثلنا كما أنه مسموح للسياح الأجانب أن ينزلوا فيه بأجر مناسب.

وأصله فيما أخبرونا كان بناء يملكه أحد الأغنياء الذين يسمونهم البرجوازيين فصادرت السلطات الشيوعية مثلما صادرت غيره من الممتلكات الزائدة عن الحاجة الفردية لسكن صاحبها واتخذته فندقاً أسمته (فندق الصداقة) لأن غالب نزلاته من ضيوف الحكومة الذين استضافتهم من أجل الصداقة معهم أو مع دولهم.

وقبل الدخول إلى غرفنا في الفندق اجتمعنا إلى عدد من كبار المسلمين وزعمائهم في المدينة وبخاصة من الإداريين السابقين ورجال الحكومة وجدناهم قد اجتمعوا في قاعة في الطابق الثالث من الفندق في انتظار الوفد. ومنهم رئيس حكومة مقاطعة كانسو كلها في السابق واسمه (إسماعيل وو ان بل) وهو الآن عضو في مجلس الشورى المركزي ونائب رئيس مجلس الشورى الشعبي في هذه المقاطعة (مقاطعة كانسو) وعمره الآن اثنان وثمانون سنة وقد جلس بجانب رئيس الجمعية الإسلامية لمقاطعة كانسو الذي يبلغ عمره ثلاثاً وثمانين سنة كما قدمت.

وقد جرى نقاش عميق معهما ومع بقية الحاضرين الذين هم من كبار المسلمين وبعض أئمة المساجد استغرق بعض الوقت.

وعندما ذهبنا إلى غرفنا كانت تتقدمنا مضيضة ظننتها من الفندق لأنها هي التي كانت تعد الغرف وتتأكد من استكمال ما ينبغي أن يوجد وتبين بعد ذلك أنها موظفة في حكومة المقاطعة ولقد لازمتنا طول وجودنا في مقاطعة كانسو ولكنها لم تتكلم بكلمة واحدة مع أحد من أعضاء وفدنا طيلة المدة بل كانت تتحاشى حتى الإجابة على سؤال أو كلمة صباح الخير أو مساء الخير مع اجتهداها التام في عملها والدأب الذي أظهرته في إنجازها.

وهي بهذا يمكن أن يضرب بها المثل للموظف التقليدي في الأنظمة الشيوعية ذلك الموظف الذي يعمل كما تعمل الآلة بدون أن يظهر لمن يراه أنه يحفل بأي شيء غير عمله الخاص حتى نفسه يظهر للناس أنه قد نسيها أو تناساها حتى ينساها.

ومثلما أن عمل هذه الموظفة غريب فإن مظهرها غريب على أعيننا وإن كنا رأينا له مماثلاً في رجال ونساء من أهل هذه المقاطعة. ويتميزون بالعيون الصغيرة والوجنات السائلة أي غير المرتفعة التي تميز وجوه أكثر الصينيين، وهو وجه فيه استتالة خلاف المؤلف الغالب على وجوه أهل الصين في استدارة الوجوه.

ومن الغريب أنها كانت تخرج من جيبها مفاتيح الغرف وتقول للمترجمين هذه غرفة فلان أو فلان ثم تفتحها وتنصرف من دون أن تلقي نظرة إلى أحد.

وانزلوني في غرفة مؤلفة من قسمين أحدهما قسم استقبال والآخر للنوم فيه سريران وفي قسم الاستقبال على المائدة وضعوا الشاي الأخضر في علب صغيرة ومعه الماء الحار في أواني حفظ الحرارة (الززميات) وقطع صغيرة من سكر النبات لا شك في أنهم خصوا بها أعضاء الوفد لأن الصينيين لم يتعودوا على وضع السكر في الشاي وفي الغرفة أيضاً تفاح من إنتاج المنطقة وهو تفاح كبير الحجم أحمر ويبدو في منظر التفاح اللبناني الأحمر وحجمه ولكن شتان ما

بينهما في الطعم فالصيني أقل جودة من اللبناني بكثير. أو هذا ما انطبع في ذوقي.

وفي الغرفة كثير مما يكون في غرف فنادق الدرجة الأولى رغم كون هذا الفندق ليس فندقاً من فنادق الدرجة الأولى مثل التلفاز وفرشاة الشعر وفرشاة أخرى لتنظيف الحذاء ومكتب كبير عليه مصباح خاص للقراءة وأقلام من الرصاص وفي الغرفة خزانتان خشبيتان قديمتان لحفظ الأشياء.

ولكن الغرفة نفسها تحتاج إلى ترميم في طلائها وتجديد لأثاثها وبعض صابير الماء في الحمام ليست منضبطة.

ومن أهم ما يميزها وجود أنابيب تدفئة المياه وهي لاتعمل الآن لحلول فصل الدفء وإنما وضعت فيها لأن الشتاء يكون قارس البرد في المقاطعة فهي شمالية وتكاد تكون صحراوية لولا وجود النهر الأصفر فيها ولذلك يكون الجو قارياً تختلف فيه درجات الحرارة ما بين الليل ووسط النهار.

مأدبة الجمعية الإسلامية:

أقامت الجمعية الإسلامية في كانسو مأدبة عشاء للوفد دعت إليها عدداً كبيراً من وجهاء المسلمين وكبرائهم إلى جانب بعض المسؤولين في الدولة من غير المسلمين ومنهم عبدالكريم ماني بي رئيس مجلس النواب لإقليم لن تشا والسيد حبيب مازولي عضو المجلس الاستشاري لمقاطعة كانسو وعمره الآن ثمان وسبعون سنة.

وذلك في مطعم متصل بالفندق ولكن تفصل بينه وبين الفندق مساحة من الحدائق وأشجار الفاكهة وشيء آخر لافت للنظر وهو أكوام من الفحم الحجري الذي يستعمل في الوقود وكان يستعمل في التدفئة أيضاً أثناء البرد.

وقد ألقى كلمة الداعي رئيس الجمعية الشيخ (نصرالله) الأخ (سعيد ماروك كين) وعمره أربع وسبعون سنة ويعتبر شاباً بالنسبة إلى كثير من المستقبلين وقد ألقاها بالنيابة عن رئيس الجمعية الذي كان حاضراً معنا ولكن شق عليه إلقاء الكلمة وهي بالصينية.

تضمنت بأن عدد المسلمين في مقاطعة كانسو يبلغ مليون ومائتين وخمسين ألف نسمة ومن ست قوميات إسلامية لهم ٢٥٠٠ مسجد في المقاطعة أما عدد المسلمين في مدينة لانجو فهو (٧٠) سبعون ألفاً لهم أكثر من ٥٠ مسجداً.

فأجبت على كلمة رئيس الجمعية الإسلامية بكلمة مرتجلة بدأتها بحمد الله تعالى وشكره الذي قدر هذا الاجتماع المبارك، ثم ذكرت أننا وصلنا هنا ونحن متأثرون بماضي هذه المنطقة في خدمة الإسلام والتمسك به فإذا بنا نرى ما يجعلنا نؤمن أن مستقبل الإسلام هنا سيكون مستقبل خير إن شاء الله، وقلت لهم: إذا كان طريق الحرير الذي تشتهر به هذه المقاطعة قد انقطع وأصبح تاريخاً يروى فإننا نرجو أن يعقبه طريق الهداية الإسلامية بحيث تنطلق الدعوة من هذه المنطقة مرة أخرى وإلى سائر أنحاء الصين.

كف الجمل وجناح السمكة:

عند أهل الصين عادة يحرصون عليها رأيتها جيدة مناسبة وهي أنهم في المآدب الرسمية يكتبون قائمة بأسماء أنواع الطعام التي ستقدم على المائدة للضيوف وذلك حتى يعلم المدعوون عدد تلك الأنواع وصنفها من أجل أن يختاروا ما يحبون الأكل منه أكثر من غيره.

ولكنهم يأتون بها مكتوبه بالصيني، فيترجمها لنا المترجم المرافق (لقمان ماشان لي) وفي هذه المرة أخذ الأخ لقمان يستعرض أنواع الأطعمة التي ستقدم

الليلة وعددها اثنا عشر صنفاً فذكر منها (كف الجمل) و (جناح السمكة) على حد تعبيره.

ولما كان الأمر يحتاج إلى إيضاح لأن الجمل ليس له كف والسمكة ليس لها جناح فقد طلبت منه أن يريني هذه الأنواع إذا جاءت.

ومن عاداتهم أن يطبخوا الأطعمة بطريقة عجيبة معقدة بحيث لا تكاد تعرف بعضها إلا إذا أخبرك مخبر عنه لأنهم يخلطونها أحياناً بأعشاب وخضرات أو يغمسونها في أنواع من المرق ويقطعونها قطعاً تبعد بها عن أصلها الذي تعرفه.

فلما جاء (كف الجمل) كما قال أخونا لقمان رأيتُه عجباً وهو (خف البعير) الذي نعرفه ونحن في بلادنا نرميه إلا ما كان فوقه فإن بعض بني قومنا من المحتاجين يطبخونه كما يطبخون باقي عصب قوائم البعير ثم يأكلونه.

وقد أتوا بالعصب اللين الذي يكون فوق خف البعير تحت كعبه وهو عصب فيه دسومة وقطعوه قطعاً صغيرة وطبخوه في مرق لذيذ فغدا بين العصب والشحم وهو إلى الأول أقرب إلا أنه لذيذ الطعم ينزلق من الحلق بدون إذن.

وقد أحضروه من باب الاشتهاء والاستطراف بتقديم أنواع من الطعام لا يوجد في المحلات العامة ولا يتيسر في بيوت الداعين.

والبعير الذي قدم ما فوق خفه هنا هو الموجود في بلاد الصين وبخاصة في هذه المقاطعة التي تضم جزءاً صحراوياً فيها رغم وجود النهر الأصفر أي مقاطعة (كانسو) وهو الجمل ذو السنامين الذي تشتهر به.

ولذلك كانت أهم المحطات في طريق الحرير القديم الذي كان ينقل على ظهور هذه الجمال ذات السنامين.

وأكلت (كف الجمل) وربما يكون (كف ناقة) على حد تعبيرهم فوجدته مستطرفاً شهياً ولو لم يكن فيه من الطرافة إلا كونه من بعير ذي سنامين لم نذق لحمه في بلادنا مع كوننا كنا أكلة لحوم الإبل إلى عهد قريب، وقد نوه الإخوة الحاضرون بأن الجمل ذا السنامين يأكله المسلمون هنا وذلك أمر له مغزاه إذ لا يكفي أن يقال إن الناس هنا يأكلونه لأن الأغلبية من الصينيين الكفار يأكلون أكثر الأحياء بل تكاد تقول: إنهم قد يأكلون عند الحاجة وإن لم تصل الضرورة كل شيء، وأما في الأحوال المعتادة فإنهم يأكلون أشياء مستنكرة مثل الخنازير والفئران والقرود وأنواع من الزواحف والحشرات.

ورفع خدام المائدة (كف الجمل) وليس ثقيلًا كما قد يوحي هذا اللفظ بل هم جاءوا به قطعاً صغيرة في صحن (صينية) ملس.

ثم رأوا اهتمامي بنوع من المقبلات أو الخضرات الكثيرة الأنواع عندهم وهو نبات يسمونه الشعري بفتح العين نسبة إلى الشعر لأن شكله على شكل شعر بني آدم ولكنني استطبت مذاقه فزادوني منه.

وقالوا إنه يوجد في جبال هذه المنطقة ويأكله الناس في الشتاء حيث يصعب عليهم الحصول على الخضروات التي تزرع لبرودة المنطقة إلا ما كان منها محمياً بخيام من اللدائن (البلاستيك) ثم جاءوا بـ (جناح السمكة) وهو في الحقيقة زعانف السمكة وهي سمكة لا كالسمك وإنما هي من وحوش الأسماك وهي القرش المفترس فرأيتهم قد قطعوا هذه الزعانف قطعاً صغيرة جداً وقد أخذوا ذلك من داخلها الخالي من الصدف وإن لم يكن لحمًا خالصًا فجاء أيضاً مما يؤكل لاستطرافه ولغرابته.

وقالوا: إنه يؤكل أيضاً لشيء آخر فهو معروف بأنه مقو يؤكل لما يؤكل له السرطان الذي تسميه العامة في مصر أبو جلمبو وبالإنكليزية (لوستر).

ولم أمعن فيه أكلاً كما فعلت بخف البعير وذلك أنني لم أستطع لأنهم جاءوا به غارقاً في مرق مليخ فيه لزوجة.

ولم تكن هذه الأشياء المستغربة هي كل ما يستحق الذكر من هذه المائدة المحافلة. بل كانت هناك أنواع أخرى مستطابة مثل أنواع الأربيان (الروبيان) المطبوخ بالمرق.

ومن المعتاد الذي تكرر في المآدب الرسمية الصينية التي دعينا إليها بعد ذلك أن خدم المائدة يعاودون ملء الأكواب التي قدموا فيها الأشربة الباردة مثل الكوكاكولا والميرندا وهما موجودان عندهم رغم أصلهما الأمريكي العريق وكذلك شراب غازي عندهم مثلهما مصنوع في الصين من أنواع من النبات فالخدم يملأون الأقداح وإن لم يطلب الأكل ذلك بحيث لا بد من أن يكون كوبه مليئاً بها دائماً حتى يفارق المائدة.

يفعلون ذلك كما يفعلون بأقداح الشاي الصيني الشبيه بالأخضر و يرون أنه من إكرام الضيف أن يكون قدحه مليئاً بالشاي حتى يترك المائدة أو مكان الاجتماع سواء أطلبه أم لم يطلبه وكلما نقص الكوب زادوه من عندهم.

ومن بين الأطباق المستطرفة أيضاً لحم رأس الغنم، وكل ذلك بمقادير محدودة لأن الأنواع كثيرة فلا بد من أن يكون الأكل من كل نوع منها قليلاً مناسباً لذلك.

ومن الغريب أنهم جاءوا بالخلوى في وسط الطعام فأهل الصين ليسوا بغيرهم من الذين يأكلون الخلوى قبل الطعام أو بعده وإنما يأكلونها في وسط الطعام وقد جاءوا بها هنا عشرة أنواع.

وهذا غريب من العادات ولكن الأغرب منه في هذا المجال أنهم جاءوا بنوع من خشب البامبو اللين مقطّعاً قطعاً صغيرة وقد طبخوه في المرق وهم يأكلونه وهو صلب تحت الأضراس إلا أنه مع المضغ يمكن أكله وازدراده.

وقد سبق أن شرحت تقديم البامبو للأكل وأنهم يستعملونه لما تستعمل له الخضرات المسماة بالخضار.

فقلت لهم: أنتم اخترعتم من المأكولات ما لا يقل غرابة عن الاختراعات في بعض الصناعات. وإنه لو كان اختراع الصينيين في الصناعة وإتقانها في مثل عملهم في الطعام لكان هذا كافياً لتكون لكم السيادة في الصناعة في العالم.

ومما يذكر أن الصينيين معروفون بالاهتمام بموضوع الأكل حتى على غير مائدة الطعام فهم في بعض المقاطعات إذا التقى الواحد فيهم بالآخر وأراد أن يسأله عن صحته أو عن حاله قال له: كيف أكلك؟! وكيف تأكل؟ بمعنى كيف حالك مثلما يقول بعض الناس: وش لونك؟ أي ما لونك؟ بمعنى كيف حالك؟ وأصل هذه الحالة من كون بعض البلاد تنتشر فيها الحمى التي تجعل اللون يبدو أصفر فالسؤال عن اللون هو السؤال عن الصحة التي هي السؤال عن الحال

وبعد الحلوى قدموا الفاكهة وكلها محلاة محفوظة وليس فيها ما هو طازج.

ثم العجب أنهم بعدها جاءوا بالمحشي الصيني الذي هو رفاق من الخبز اللين الأبيض يحشونه بلحم مفروم وغيره ثم جاءوا بخبزهم الصيني الأبيض الذي يجعلونه على هيئة الكرات غير المتساوية ولا أستسيغه لأنه يبدو كالعجين.

وفي آخر المائدة كان الأرز الأبيض الطازج في أوانٍ (صينية) صغيرة وقبل الختام كان السمك المحلى بالسكر.

وأما الختام فكان نوعين أحضروهما معاً أصداف بحرية بمقادير قليلة والثاني وهو الأخير هو الحساء أو الشربة التي يقدمونها في آخر المائدة خلاف ما نفعله من تقديم الشربة في أول الطعام.

حالة الأمن:

بعد انقضاء المأدبة ودعنا هؤلاء الأخوة الكرام شاكرين وصعدنا غرفنا في الفندق فوجدناها مفتوحة على مصراعيها مع أن أمتعتنا ونقودنا موجودة فيها فسألت الأخوة المرافقين فقالوا: إن الأمن مستتب هنا وإن النزول لا يخشى سارقاً ولا منتهباً وإن هذه حالة عامة في الصين ليست خاصة بضيوف الحكومة أو بهذه الفنادق التي هي حكومية معتنى بها من الحكومة.

وقالوا: إن السبب في ذلك أن الحكومة تشدد في عقاب السارقين كما أن مثل الشعب الصيني وأعرافه المتوارثة تمقت السرقة وهناك شيء ثالث مهم وهو أن الفقير هو المسيطر ولا توجد طبقات ثرية موسرة يسهل الحصول على ما يكفي من الغنم للمخاطرة بالسرقة منها فقلت في نفسي إن لله جنوداً من فقر..!

يوم الأحد ٢٨/٧/١٤٠٤هـ - ٢٩/٤/١٩٨٤م

شعرنا بالبرد الشديد هذا الصباح رغم كوننا في فصل الربيع وذلك أنهم لم يشعلوا المدافئ كما كان أهل دار الضيافة في مدينة أرومسي عاصمة مقاطعة سينكيانغ التي كانت تسمى تركستان الشرقية يفعلون وقد اكتفوا بالأغطية السميكة الموجودة على سرر النوم وهي لحاف يشبه المرتبة فهو ثخين جداً مؤلف من قماش بين طبقتيه قطن كثير وتحتة غطاء خفيف وفوقه بطانية صوفية.

وكان هذا الإحساس بالبرد فجر هذا اليوم عكس الإحساس بالدفء عصر أمس عندما قدمنا لهذه البلاد وذلك أنها ذات جو قاري كما تقدم.

كان موعد الإفطار في الساعة الثامنة صباحاً وهذا شيء لم نعهده عند أهل بكين وغيرها الذين كان موعد الإفطار عندهم في السادسة لا يقبل التغيير.

ولكن خادمت الفندق طرقت الأبواب قبل الثامنة وذلك ليغيرن الماء الحار الموجود في الزمزميات بماء غيره أكثر حرارة من أجل أن يصنع منه من أراد من الضيوف بنفسه شايًا قبل الإفطار لأنهم لا يقدمون الشاي مع الإفطار في العادة إلا إذا طلبه الضيف اعتماداً على وجود الشاي في غرفته.

جولة في مدينة لانجو:

كتبنا اسمها هكذا مع أن الجيم فيه ليست الجيم القرآنية الفصيحة وإنما هي معطشة بلفظ بين لفظ الجيم والشين والسين لا نظير له في لغتنا وهكذا أكثر الأعلام للبلدان والأناسي في الصين.

كانت (لانجو) تعرف باسم (تنك جن) التي معناها المدينة الذهبية وهذا أيضاً هو معنى لانجو أي المدينة الذهبية والذي يسمع كونها ذهبية وفي ذهنه أن الذهب هو رمز الغنى في القديم فيرى حالتها الحاضرة يتملكه العجب، فالشعب بها محدود الدخل رغم كون المدينة وما حولها غنية بمواردها الزراعية والمعدنية.

ويبلغ تعداد سكانها مع ضواحيها مليونين من الأشخاص فيهم مئتا ألف مسلم من قومية (خوي) وهم المسلمون الصينيون الأصلاء كما أن فيها سبعة آلاف مسلم من قومية الإيغور الذي هم من سينكيانغ التي كانت تسمى تركستان الشرقية ويرجعون إلى أصول تركية. وفي لانجو (٤٨) مسجداً وأما

المساجد التي لا تزال مغلقة بعد أن صادرها الشيوعيون في عهد عصاة الأربعة فإن رئيس الجمعية الإسلامية ذكر أنه لا يعرف عددها.

و(الانجو) مستطيلة الشكل يبلغ طولها شرقاً وغرباً (٤٠) كيلو متر ولكنها ضيقة العرض يبلغ متوسط عرضها كيلو مترين اثنين.

ويشقها النهر الأصفر بما يحمله من خصب يتمثل بالظمي الأصفر الذي يحمله إليها من الهضاب الطينية التي تكثر في هذه المقاطعة وقبلها من مقاطعة تشنغهاي التي ينبع منها.

واللغة فيها هي الصينية ولا لغة غيرها إلا أنها لهجة شمالية فيها فروق كبيرة عن اللغة الصينية المحكية في جنوب الصين.

حتى قال الشيخ نصرالله رئيس الجمعية الإسلامية هنا: إننا نفهم الصينية التي يتكلم بها أهل الشرق والشمال وأما أهل مدينة شنغهاي وأهل الجنوب فإننا لا نفهم لغتهم.

هذا مع أنهم يتكلمون الصينية ولكنها لهجات اختلفت في القدم ثم تباعدت حتى صعب على أهل الجهات المتباعدة أن يتفاهموا بها. ولذلك أخذت الحكومة المركزية تعتمد على لهجة بكين وقد يسميها بعضهم بالمندرين مع أن بينها وبين (المندرين) فرقا.

والجولة في المدينة مقصودها الأعظم هو الاطلاع على المساجد مع الاطلاع على بعض معالم المدينة.

زيارة المساجد:

قد تبدو زيارة المساجد بمعنى الانتقال من رؤية مسجد إلى آخر جزءاً من الأمور التي لا تستحق الذكر وقد يقول قائل: إنها لا تستحق مثل هذه

الزيارات أصلاً لأن المقصود من المساجد هو أداء العبادات في أوقاتها والوقت في مثل هذا الصباح ليس بوقت عبادة.

وقد يكون لهذا شيء من الوجاهة. ولكن الأمر مختلف جداً بالنسبة إلى حالتنا هذه فالبلاد بلاد شيوعية والحكومات الشيوعية في العادة تضيق على أهل المساجد إما بمصادرة المساجد أو بعدم السماح باستعمالها للعبادة أصلاً.

وذلك من واقع المذهب الشيوعي الذي يقوم على الإلحاد ولذلك لا بد من تفقد المساجد ومعرفة حالها في البلدان الشيوعية إضافة إلى أن المساجد في البلدان الشيوعية تكون هي الجهات الموجودة للمسلمين إذ لا مدارس إسلامية ولا كليات ولا مواطن أخرى لتعليم الدين الإسلامي وقد علمنا أن الحكومة الشيوعية الصينية المتعصبة التي كان يقودها زعيم الصين الشيوعية الهالك (ماوتسي تونغ) وساعده على ذلك عصاة الأربعة كانت في أوج طغيانها قد صادرت عدداً من المساجد وحولتها إلى مصانع أو مخازن وأغلقت عدداً آخر منها لترى رأيها فيه بعد ذلك.

ولكن الشيوعية الحمقاء التي أرادوها شديدة متشددة لم يصبر عليها الشعب الصيني لأنها أفقرت العباد ودمرت البلاد، وصادرت الحريات، وأتلفت التاريخ فكان أن أسقطت تلك الحكومة المتعصبة وجاء بهذه الحكومة الشيوعية الحاضرة التي زعمت لنفسها أنها شيوعية اشتراكية ولكنها ليست طاغية باغية تسلب الناس حرياتهم التي من أهمها لديهم حرية المعتقد وحرية أداء العبادة وفقاً لذلك المعتقد فسمحت للمسلمين ابتداءً من عام ١٩٧٩م بارتياح المساجد وأعدت إليهم كثيراً من المساجد التي صادرتها الحكومة السابقة بل إنها كانت ولا تزال تعيد إليهم بعض المساجد التي كانت قد حولت إلى مصانع أو مخازن.



المؤلف يتكلم في احد المساجد في لانجور وعلى يساره المترجم

والأعمق من ذلك أنها أسهمت بنصيب في إعمار المساجد التاريخية القديمة على اعتبار أنها جزء هام من تاريخ الصين الثقافي تجب العناية به في حركة لتصحيح مفهوم الحكومة الشيوعية السابقة التي تريد أن تمحو كل الماضي لتقييم انتفاضة ما تزعمه حضارة شيوعية صينية جديدة. وإن كانت لم تجلب للصين غير الرجوع عن الحضارة والنكوص إلى أعماق الشقاء الإنساني في العصور المظلمة.

لذلك كان من الضروري لنا أن نزور المساجد في الجهات التي نزورها في الصين وأن نطلع على حالتها الحاضرة من أجل معرفة الحالة التي عليها ومن أجل الإسهام في إعمار ما يحتاج منها إلى إعمار.

وبلتقي هدفنا مع هدف الجمعية الإسلامية الصينية التي هي في الواقع مدعومة من الحكومة الصينية الحاضرة وتريد أن تثبت لنا بالمشاهدة أنها قد أعادت كثيراً من المساجد وأنها سمحت للمسلمين بممارسة عباداتهم بحرية.



سار الموكب المؤلف من
خمس سيارات هذه المرة في
التاسعة من هذا الصباح
منطلقاً مع الشارع الطويل
في هذه المدينة من فندقنا
(فندق الصداقة) الذي يقع
على الشارع نفسه.

الباريق الوضوء
في أحد مساجد لانجو

المسجد الكبير:

وقف الموكب عند مسجد حديث البناء يطل على الشارع الرئيسي المسمى
(شي جن دونغ) من حي (لي خه) وهو بمنارته المميزة معلم إسلامي بل شاهد
عدل واضح على أن الإسلام حي قوي في هذه المدينة لأن المسجد كله حديث
أنشئ إنشاءً بعد سقوط عصاة الأربعة التي لم تكن تسمح مطلقاً بإنشاء
المساجد لأنها كانت تصادر المساجد القائمة، وتمنع إعمار مالم تصادره منها؛ إذ
كان بناءه في عام ١٩٨١م.

لم يقتصر المسجد على كونه معلماً إسلامياً عندما زرناه بل كانت الجماهير
المسلمة قد تجمهرت حوله في تظاهرة إسلامية كبيرة وكان أكثر المجتمعين من

الإخوة المسلمين يرتدون ملابسهم الصينية الوطنية التي اعتاد المسلمون على ارتدائها ومن أهمها غطاء الرأس ذو العمامة الخفيفة فضلاً عن (الطواقي) جمع طاقيه التي تعلق بعض الرعوس.



مسجد شى جن دونغ الواقع على الشارع العام المسمى جن دونغ في لانيجو

وكان يتقدم الجميع إلى السيارات عندما وقفت الشيخ (إبراهيم اون شيو) إمام المسجد، وقد أقبلت أفواج المسلمين لتسلم ولكن المرافقين منعوهم حرصاً على الوقت لأنهم لو صافحوا الوفد كله لاقتضى ذلك وقتاً طويلاً غير متوفر.

لذلك تركونا نمر وسط الجماهير الملتفة التي تثبت عيونها وأفئدتها في هؤلاء الأخوة القادمين من بلاد الحرمين الشريفين مهوى أفئدة المسلمين ومقصدهم في عباداتهم.

وجدنا جماعة المسجد قد أعدوا مائدة بها المكسرات المعتادة المؤلفة من بزر البطيخ والفواكه والبسكويت المصنوع في هذه البلدة والفواكه المجففة والشاي الصيني الأخضر.

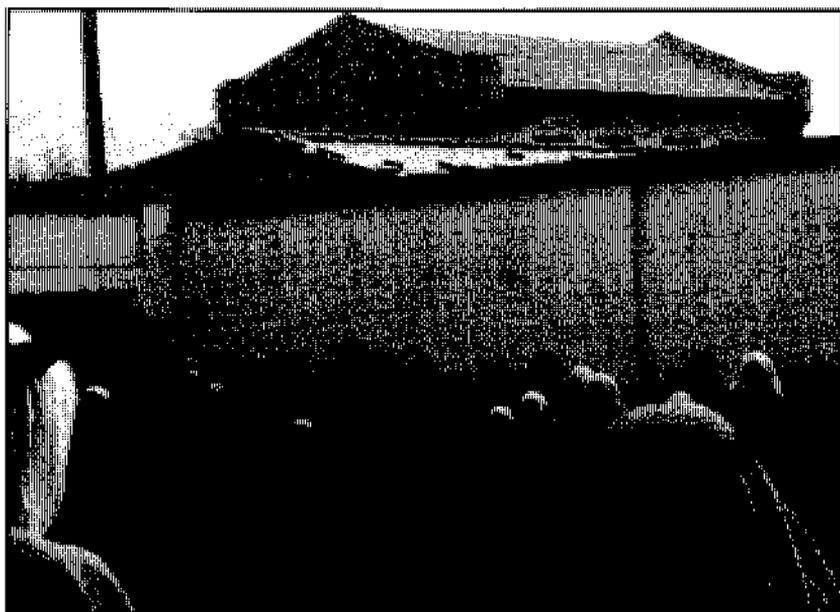
ولم يكن انتباهنا مشدوداً لهذه المائدة التي لا بد أنهم كانوا ألقوا لها كبير بال بسبب ضيق اليد عندهم وكون الدخول محدودة جزاهم الله خيراً وإنما اجتذب إنتباهنا نشيد كان يلقيه جماعة منهم عليهم لباس طلبة العلم، علمنا بعد ذلك أنهم من طلاب العلم الذين يتلقونه في هذا المسجد الجديد وكان من أظهر ما فيه كلة (مرحباً مرحباً) بالعربية يرددونها شجيرة طلية وأرادونا أن نجلس إلى مائدة المكسرات أو المقبلات فقلنا: إلى المسجد ندخله ونصلي في أحد أركانه ونصور ما نراه منه بالقلم وبآلة التصوير.

وكان مرافقنا إمام المسجد الشيخ إبراهيم وكبار جماعته وأخبرونا أن المسجد كله جديد وأنهم بنوه من تبرعات المسلمين قليلاً قليلاً لأنه لا يوجد أحد من ذوي اليسار في الصين في الوقت الحاضر وإنما كان تعاون المسلمين وضم القليل إلى القليل منهم كفيلاً بهذا الجامع الذي بنى بالاسمنت المسلح القوي على شارع رئيسي هام.

واخبرونا أنه يوجد عدد من طلبة العلم يبلغ سبعين تلميذاً بين كبير وصغير ولكن لا توجد مدرسة لهم وأنهم بحاجة إلى بناء مدرسة دينية يتعلم فيها أولاد المسلمين أمور دينهم وأنهم يحتاجون إلى من يساعدهم على دفع راتب الإمام والمدرس في المدرسة لأنهم يدفعون للإمام راتباً شهرياً يتراوح ما بين سبعين إلى ثمانين يناً حسب حالة المسلمين فإذا كان لديهم وفرة من النقود دفعوا له ثمانين يناً ويساوي ذلك مائة وأربعين ريالاً والا دفعوا له سبعين.

وقد عدنا إلى مائدة المكسرات والمقبلات التي وجدناهم قد نصبوا عليها مكبرات الصوت استعداداً للاستماع إلى كلمة من الوفد فألقيت فيهم كلمة مختصرة ضمنيتها إبلاغهم تحيات إخوانهم في المملكة العربية السعودية عامة وفي رابطة العالم الإسلامي خاصة ومن خلال الرابطة أبلغتهم تحيات إخوانهم المسلمين في العالم وقلت لهم: إن المسلمين ينظرون إلى ما تفعلون من بناء

المساجد والمحافظه على الإسلام بالإعجاب والإكبار ولكن من أهم ذلك أن تحافظوا على ناشئة المسلمين فتعلموهم أمور دينهم كما علمكم آباؤكم وأهلوكم الدين الإسلامي الحنيف ونشأوكم عليه من قبل.



التجمع النسوي الإسلامي في مسجد بي شوفانغ في لانجو

وكان الحشد كبيراً يكاد يقترب من الوفد غير أن رجال الأمن و المسئولين في الجمعية الإسلامية كانوا يمنعونهم من الاقتراب الا الزعماء الكبراء منهم.

وكان خلف حشود الرجال حشد لنساء من المسلمات المتسترات اللاتي جئن للمشاركة في استقبال هؤلاء الأخوة القادمين إليهم من مكة المكرمة وهن متسترات لم يبرز من أجسادهن إلا الوجه والكفان.

وقد ودعنا أهل هذا المسجد الكرام الذي أسموه (الجامع الكبير) لأنه كبير وإن لم يكن بالغاً في ذلك ولكن الأهمية له في كونه بعد الصحوة الإسلامية التي أعقبت الطغيان الشيوعي الملحد.

إلى مسجد آخر؛

ومن المسجد الجامع الكبير الجديد الذي يقع على شارع رئيسي عام انتقلنا إلى مشاهدة مسجد آخر جديد يسمى مسجد (تشوفا خانغ) على اسم الحي الذي يقع فيه.

فرأينا المسلمين قد استعدوا لاستقبال الوفد في صفين طويلين جداً بدأ من زقاق بعيد عن المسجد وانتهيا بالمسجد نفسه.

وكان مبدأ هذين الصفين من جمهور غفير من المسلمين في الشارع وانتهائهما بجمهور غفير أيضاً في المسجد وأغلبهم على رؤوسهم (الطواقي) البيض وبينهم عدد من الشبان الذين ارتدوا ملابس طلبة العلم في هذه البلاد.

ومن الملاحظ أن المسلمين هنا وبخاصة الشبان منهم يراهم المرء بوجوه مشرقة أكثر مما يراه علي وجوه بقية الصينيين الكفرة بكثير، ولا شك أن مرآهم ذلك يرجع إلى عدم شرب المسكرات إضافة إلى حلاوة الإيمان. وأشراق الوجوه المؤمنة بالبشر والطمأنينة.

وبعد أن ترجلنا في الزقاق لأن المسجد ليس على شارع هام سرنا وسط هؤلاء الإخوة المسلمين الذين اصطفوا لنا كما يصطف الجنود المطيعون للملك الحازم في القديم غير أن احتفائهم بنا هو لله وفي الله جزاهم الله خيراً.

فكان كل من نمر عليه منهم يبادرنا وهو واقف بقوله: (السلام عليكم) وكنا نبدأهم بالسلام غير أن الصف طويل والجميع يتطلع بحق إلى تحية من إخوتهم الضيوف المسلمين.

كان كبار المسلمين في الحي يتقدمون ومعهم المسئولون في الجمعية الإسلامية حتى وصلنا إلى فناء مكشوف في المسجد يعلوه من جهة المسجد مكان مرتفع

قد وضعوا عليه مائدة عليها مكبر وخلفها عدد من الكراسي في مواجهة جموع المسلمين الذين غصت بهم الساحة وخلفهم تجمهرت النساء في أعداد كبيرة.

وكان في مقدمة أهل المسجد الشيخ (عبدالله ماجنغ رنغ) إمام المسجد فأعجلتهم عن ابتداء البرنامج الخطابي بالسؤال عن هذا المسجد الذي أراه مبنياً بناء قوياً وبعضه عليه إلى علامات الجودة علامات عدم الاكتمال، فأخبروني أن المسجد قد أنشئ قبل أربع سنوات أي بعد انحسار عصابة الطغيان الشيوعي. وإن بناءه هو من تبرعات أهل الحي والمسلمين في المدينة وإنهم لم يتلقوا تبرعات من خارج البلاد مطلقاً لأنه ليس لهم صلات بالمسلمين في الخارج بسبب القيود التي تفرضها طبيعة النظام الشيوعي.

فأخبرهم أخوتنا المرافقون بأن البرنامج يضيق عما أعدوه من برنامج خطابي مطول فاكتفوا بكلمة وجهتها إليهم ترجمها إلى الصينية الأخ الأستاذ (لقمان ما شان لي).

ثم قمنا بالاطلاع على المسجد فألفيناه بني حديثاً بالأجر مسقفاً بالخشب على حين أن معظم بيوت الحي قديمة، مبنية بالطين وبعضها بالأجر مع الطين، ولا يكاد المرء يرى أبنية بالأسمنت المسلح في هذه المدينة بل في مدن الصين كلها التي رأيتها ما عدا الأبنية الكبيرة المتعددة الطوابق التي تقيمها الحكومة أو الجهات التابعة لها لإسكان موظفيها وعمالها.

وفي قاعة في الطابق الثاني من بناء في جهة الفناء من الجنوب كانوا قد نصبوا مائدة عليها الأشياء التي تقدم في الحفلات المعتادة غير مآدب الغداء أو العشاء وهي المكسرات والفواكهة المجففة التي سبق أن وصفت مثيلاتها ومعها الشاي الحار الصيني الخالي من السكر.

وكان الحديث لا يزال متصلاً عن هذا المسجد فقالوا: إن راتب الإمام يجمعونه من المسلمين وإنه ليس له راتب ثابت وإنما هو حسب المتيسر وهو يعرف حال المسلمين لذلك يعذرهم إذا لم يستطيعوا أن يجمعوا له ما يكفيه.

وقالوا: إن المسجد يحتاج إلى بوابة على مدخله الخارجي. وقالوا: إن المسجد بني من تبرعات المسلمين النقدية والعينية مثال ذلك أن يتبرع متبرع من المسلمين بكيس من الأسمت، وآخر يتبرع بلبنات من لبن الأجر وآخر بأخشاب للسقف.



موقع مسجد تشوفا خانغ في لانبجو

ثم ذكروا شيئاً مؤثراً وهو أن أكثر هذه التبرعات العينية للمسجد لا يذكر متبرعوها أسماءهم طلباً للأجر من الله وحده ولئلا يشوب عملهم شيء من الرياء إذا عرفهم الناس بالتبرع.

وقد أخبروني بأن أغلب سكان الحي هم من المسلمين وقال الإمام: إن عدد الذين يصلون الجمعة في المسجد حوالي خمسمائة وصل وفي أوقات الصلاة المعتادة يتراوح بين مائة ومائة وخمسين.

وقال الإمام: إن المسلمين يزدادون ومنذ وقت قريب أسلمت ثلاث أسر من كفار الصينيين يتألفون من ١٧ شخصاً.

وقد أيدته في قوله جماعة المسلمين الحاضرين وقالوا أيضاً: إن أولاد المسلمين أكثر من أولاد الكفار في العادة وقالوا: إننا لدينا طلاباً من طلاب العلم غير أنه لا يوجد لدينا معهد ديني وإننا نرجو أن نجد في مدينة (لانجوا) في المستقبل مثل هذا المعهد.

عندما فرغنا من ذلك مررنا بشرفة تطل على فناء المسجد المزدهم فأبصرنا كثرة المسلمين وكيف أن النساء قد شاركت في هذا التجمهر ولكن كن منفردات عن الرجال.

وخرجنا من المسجد وسط الجموع فوجدنا الشارع غاصاً بالناس من مسلمين وغيرهم وإن كان المسلمون هم الأكثر بدليل وجود الطواقي على رؤوسهم وبدليل أن أكثر النساء اللاتي كن يقفن بالشارع كن يسترن رؤسهن بما يشبه المناديل السود وذلك أمر لا تفعله الكافرات كما أن المسلمات قد أحضرن معهن أطفالهن.

وحتى أطفال المسلمين الصغار شاركوا في موكب التحية هكذا فكانوا يصفون صفوفًا منتظمة ويحيون.

ومن الأشياء اللافتة للنظر أزياء طلبة العلم المؤلفة من جباب - جمع جبة - سود شديدة السواد وطواق بيض ولا يسمونهم طلبة العلم وإنما يسمونهم (الخلفاء - جمع خليفة) أو النبلاء بمعنى المعلم.

وكانت جماعة من الشرطة ورجال الأمن يحفظون النظام ووجدناهم قد كانوا في هذا المكان قبل وصولنا وهم الآن عند الخروج ينظمون الناس ويبعدونهم عن السيارات.

المسجد الذي خربه الشيوعيون:

قصدنا مسجداً تاريخياً بل إن بعض المسلمين يشعر بأنه جزء مهم من تاريخ وجودهم هنا ويسمى (جامع شي كوان) على اسم الحي الذي يقع فيه.

وهو مسجد قديم يقولون إن تاريخ بنائه يعود إلى أكثر من ستمائة سنة.

وأخبرونا أن الشيوعيين هدموه أثناء ما يسمى بالثورة الثقافية التي امتدت من عام ١٩٦٦م حتى ١٩٧٦م.

ويريد المسلمون بناءه الآن بل إن بناءه أصبح مطلباً وطنياً لهذه المقاطعة يهتم به حتى غير المسلمين من المهتمين بالأمور الثقافية والتاريخية.

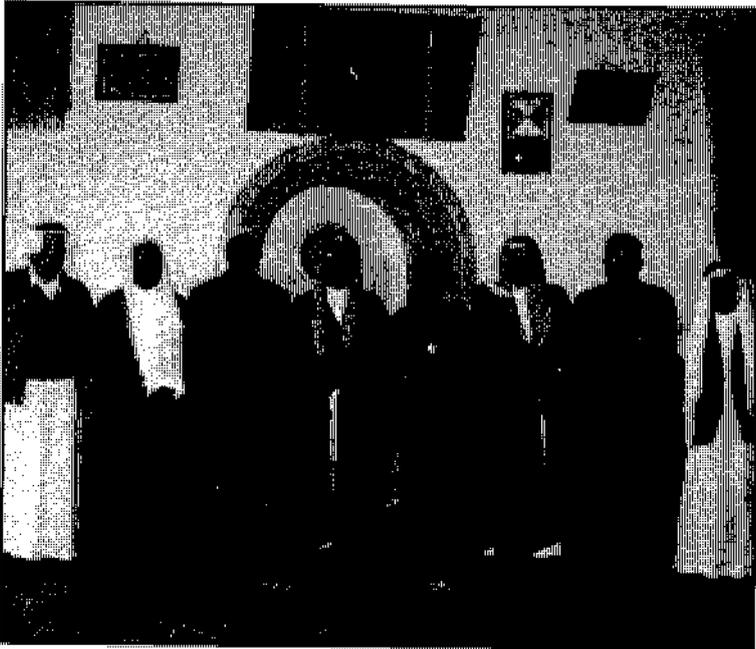


أرض المسجد الضخم الذي خربه الشيوعيون في لانجو

ولذلك أخبرنا إخواننا المسلمون أنه قد تجمع لديهم الآن لإصلاحه نصف مليون ين وهذا مبلغ كبير بالنسبة إلى الصين ولكن الأخوة المسلمين القائمين على أمره يقولون: إن إصلاحه وإعادةه إلى الكيفية التي كان عليها قبل التخريب الشيوعي يحتاج إلى مليون ونصف المليون من (الينات) أي ما يساوي مليونين وستمائة ألف ريال سعودي.

عندما وصلنا إلى المسجد رأينا فيه ما أحزننا إذ لم نر المسجد وإنما رأينا أنقاضه التي أجهز عليها إخواننا المسلمون تمهيداً لإعادة بنائه.

وهو كسائر المساجد القديمة في مدن الصين لا يعتبر مسجداً منفرداً رغم سعته وإنما تحيط به أبنية ومرافق ومساكن للعاملين فيه تكون تابعة للمسجد ويغلق عليها معه باب عام واحد.



في المصلى المؤقت في مسجد شي كوان
والشيخ محمد ادريس ماوي جتغ إمام المسجد على يمينه المؤلف

أجلسنا إخواننا في غرفة من الطين كانت قد بقيت من المرافق التابعة للمسجد في ركن من أرض المسجد الكبيرة وهذه الغرفة مطلية بالجص كما هي عليه الحال في أكثر بيوت الطين الصينية القديمة التي يطلونها بالجص للتجميل وليس للتقوية كما كنا نفعل في بيوتنا الطينية في القديم.

وبدأت جلسة مباحثات في تلك الغرفة عن كيفية تعمير المسجد ورأس الجانب الصيني في هذه الجلسة الأخ (محمد إدريس) رئيس الجمعية الإسلامية في مدينة (لانجو).

قال الأخ محمد إدريس: إن التبرعات التي حصلنا عليها لتعمير المسجد التي بلغت حتى الآن خمسمائة الف ين كلها من مدينة لانجو ولم تعطنا الجمعية الإسلامية المركزية أي شيء وكان ممثلو الجمعية معنا حاضرين.

وكان يتكلم وكل جسمه يختلج من فرط الحماس لتعمير المسجد وأخبرنا أن مساحة المسجد هي الفان وخمسمائة وتسعون متراً مربعاً منها سبعمائة متر مربع للمصلى والباقي بيت للامام ومحلات للوضوء. وقال: إننا نعتزم بناء المسجد وسيكون من أربع طبقات اثنتان منها للمصلى، وقال: إن عدد المصلين يوم الجمعة الآن يصل ما بين الف إلى الف وخمسمائة مصلٍ.

وكان هذا المسجد فيما بلغنا قبل هدمه أكبر مسجد في مدينة لانجو.

لقد سرتنا حالة إخواننا المسلمين وإقبالهم على عمارة المساجد في هذه المقاطعة التي يؤلفون فيها أقلية عددية، وذلك بقدر ما أحزنتنا حالة إخواننا المسلمين فيما يتعلق بتعمير المساجد في مدينة (أورومسي) عاصمة مقاطعة سينكيانغ (تركستان الشرقية) لأن المساجد فيها تحتاج إلى ترميم وبعضها يحتاج إلى تعميره كله لأن الشيوعيين كانوا قد خربوه ولكن المسلمين هناك رغم

كونهم يؤلفون أغلبية عددية فإن جهودهم في ذلك ضعيفة وحكومة المقاطعة الشعبية الاشتراكية رغم وجود شخص مسلم على رأسها هو إسماعيل أحمد فإنها لا تساعد المسلمين في أمور دينهم خشية من أن يفسد جاهها عند الصينيين الشيوعيين .

في مقر الجمعية الإسلامية:

انتقلنا إلى مقر الجمعية الإسلامية في مدينة لانجو وهو قديم أكثر ما فيه قدما قاعة الاجتماع التي هي كالفصل الدراسي فيها مقاعد من مقاعد الطلبة يجلس عليها الأعضاء بديلة من الكراسي المعتادة.

وحالة المكان سيئة من حيث المظهر والبناء وقد أخبرونا أن السبب في ذلك أن الشيوعيين كانوا قد أخذوه منهم إبان الثورة الثقافية ثم أعادته الحكومة الحاضرة إليهم منذ أشهر فقط قال لنا الشيخ خالد ما فوتن الأمين العام للجمعية الإسلامية في مدينة لانجو: إن الحكومة أعادته إليهم في عيد الأضحى الفائت والبناء من الأبنية الجيدة القديمة مبني بالأجر ومسقف بالخشب وفيه فناء أن خارجيان.

وقال الشيخ خالد: إن في مقاطعة كانسو الفين وخمسائة مسجد كلها تحتاج إلى مصاحف وكتب إسلامية لأن المصاحف تكاد تكون معدومة.

وقال: إننا سنفتح في شهر سبتمبر القادم المعهد الإسلامي وهذا حدث عظيم لأننا نريد تربية رجال الدين الإسلامي ليكونوا علماء في هذه المقاطعة ونتمنى من الرابطة إرسال المدرسين الذين يساعدون على التدريس في المعهد الإسلامي.

فأجبت بكلمة شكرتهم فيها على جهودهم الإسلامية الحثيثة ونوهت خاصة بعزمهم على افتتاح المعهد الإسلامي في سبتمبر القادم وقلت إن هذا سيكون

حدثاً عظيماً مهماً بل فتحاً إسلامياً جديداً لأن أهم ما ينبغي أن يحرص عليه المسلمون هو نشر الثقافة الإسلامية وتربية أولادهم تربية إسلامية حتى لا يفقدوا التربية الإسلامية فيفقدوا مقومات المحافظة على دينهم .

لأنني قد رأيت أقليات عديدة إسلامية في كثير من البلدان قد ذابت ذراريهم في الأكثرية الكافرة بسبب عدم التعليم وإطباق الجهل بالدين حتى فقدت ناشتتهم انتماءهم الديني الصحيح ولذلك صارت فريسة لدعاة الضلال وبالتالي ذابت فيهم.

وقلت لهم إننا في رابطة العالم الإسلامي مستعدون للإسهام في إقامة هذا المعهد سواء من حيث إرسال المدرسين والكتب الدراسية أو من حيث الإسهام في النفقات.

وعلى ذكر النفقات أخبرونا أن الجمعية الإسلامية المركزية في بكين قد أعطتهم سبعين ألف ين مساهمة منها في إقامة المعهد وقد التفت إليّ أحد المسؤولين في الجمعية فقال علنا: إن ذلك المبلغ هو من المبلغ الذي سبق أن تبرعت به الرابطة للإخوة المسلمين في الصين وقدره خمسمائة ألف دولار.

كما قالوا: إن الحكومة المحلية في المقاطعة قد أعطتهم خمسين ألف ين إسهاماً في إنشاء المعهد الإسلامي وهذا أمر عجيب إذ هي حكومة أكثرية كافرة بل شيوعية ملحدة ولكنها تريد التقرب من المسلمين وتحاول أن تحسن سمعتها في نفوسهم.

ومع هذه التبرعات فإنهم ذكروا أنهم لكي يعيدوا بناء هذا المقر وبناء معهد إسلامي معه يحتاجون على الأقل إلى ما يقارب مليون ين فوعدناهم بالمساعدة على ذلك.

وقد ضمناه تقريرنا الذي وضعناه عن الجهات المحتاجة للمساعدة المالية.

وفي نهاية زيارة مقر الجمعية الإسلامية أحضروا دفتر الزيارات ومعه قلم قديم يكتب فيه من حبر سائل أسود كالذي كنا نستعمله في القديم.

ثم ودعناهم شاكرين داعين لهم بالخير، وكان وداعاً حافلاً التفت حولهم جماهير المسلمين والتفت معهم أعداد من غير المسلمين حضروا للتفرج برؤية هؤلاء الضيوف الغرباء الذين يلبسون لباساً عربياً غربياً على أعينهم ويمتطون سيارات صغيرة فارهة لا يركبها من الصينيين الا من هو ذو حظ عظيم وقليل ما هم، أما ملكيتها فإن الصينيين لا يملكها منهم أحد.

ومسجد آخر هدمه الشيوعيون أيضاً:

تركنا المسجد الذي كان أكبر مسجد في مدينة (لانججو) قبل أن يخربه الشيوعيون وهو يرفرف على مقره العلم الإسلامي أو لنقل شعار المسلمين وهو علم أخضر قد رسموا الهلال والنجمة في وسطه إلى مسجد آخر هدمه الشيوعيون أيضاً إبان طغيانهم في هذه البلاد ولكنه لم يكن أكبر مسجد بل لم يكن من المساجد المشهورة بالكبر. ويسمى (مسجد تشنغ هوتشان) ومعناه زقاق الصين الجديدة وهو بالفعل واقع في نهاية زقاق غير واسع.

وكان مسجداً قديماً يظنون أنه بنى قبل مائتي سنة فهدم أثناء الثورة الثقافية الشيوعية وقد رأينا مكان المسجد خالياً تماماً إذ أزالوا الأنقاض المهدومة تمهيداً لإعادة بنائه على الطريقة الأصلية التي كان عليها.

وتألفت لهذا الغرض جمعية من أهل الحي أخذت تجمع النقود بالين الواحد ونصف الين حتى جمعوا بعد جهد جهيد ثلاثين ألف ين من سائر المسلمين هنا فلم تعطهم الجمعية الإسلامية الصينية ولا أية جهة أخرى خارجية أو داخلية شيئاً من المال.

وذكروا أنهم لا يزالون يحتاجون إلى ثمانين ألف ين.

ومن الطريف أنهم وضعوا قائمة طويلة بالمتبرعين نوهوا فيها بأسمائهم والمبالغ التي تبرعوا بها وذلك من أجل أن يحثوا الآخرين على الاقتداء بهم.

فقلت لهم: إنني أرجو أن تضموا رابطة العالم الإسلامي إلى هذه القائمة وإن كنا نعتقد أننا لا نتبرع تبرعاً وإنما نقوم بأداء الواجب الذي نرى القيام به لازماً لنا.

ثم جلسنا في مصلى مؤقت كانوا قد أقاموه يصلون فيه ريثما يتم بناء المسجد ويقع في جانب من الفناء المكشوف التابع للمسجد.



المصلى المؤقت في المسجد المهديم كله في لاتفيا

وهو متواضع يدل على إخلاص العمل مع نقص الإمكانيات، من ذلك أن فرش المسجد كلها من جلود وبعضها تحته بعض الأردية المحلية في شكل غير متناسق ولكن هذا هو جهد المقل لهؤلاء الأخوة الكرام الذين هم من الصابرين

المصابرين بل ربما صح القول إنهم من المرابطين لأنهم يدافعون الإلحاد مع الفقر وقلة الإمكانيات.

وقد أخبرونا عن المسجد القديم أنه كان مبنياً بالأخشاب وأنهم الآن يريدون إعادة بنائه بالآجر والأسمنت فدعوت لهم بالتوفيق وشجعتهم على مواصلة العمل فيه وبنيت لهم ما أذخره الله سبحانه وتعالى من الأجر والثواب لمن بنى بيتاً من بيوت الله وبخاصة في هذه البلاد التي تقطنها أغلبية من غير المسلمين ثم قادونا إلى غرفة في المكان هي التي تتخذها جمعية المسجد بمثابة المكتب وقاعة الاجتماع فوجدناهم قد أعدوا المكسرات والمأكولات الخفيفة ومعها الشاي الصيني كالمعتاد ويقع المسجد في حي قديم يسمى (تشنغ أن تشي) أكثر بيوته بالطين والآجر وأزقته ضيقة.

ومع ذلك وجدنا الحكومة قد اهتمت بالأمن وحفظ النظام هنا أكثر ربما من أجل كثرة الجماهير التي لم يكونوا ينتظرونها فأضافت إلى الموكب ضابطاً راكباً على دراجة نارية وجنوداً يكونون موجودين في المكان الذي نذهب إليه قبل وصولنا لا يفارقونه حتى نتركه.

وفي هذا الحي حوانيت في شارع فيه عام لا يتسع لأكثر من سيارتين وهي حوانيت متوسطة أخبرونا أنها كلها مملوكة للحكومة.

وأكثر المواصلات شيوعاً فيه بل هي الوسيلة الوحيدة هي الدراجات الهوائية المعتادة لذا رأينا راكبي الدرجات من الرجال والنساء عندما يرون هذا الموكب المؤلف من عدة سيارات صغيرة يقفون بدراجاتهم وينظرون إليه بشيء من الفضول ولكن بهدوء ونظام كما هو الغالب على حالتهم لأنني لم أر في هذا الحي كلة أية سيارة غير سيارتنا إلا واحدة.

حالة مؤثرة:

لقد كان الإخوة الذين يقومون على تعمیر المسجد قومًا من ذوي الدخل المحدودة إن لم يكونوا من الفقراء تدل على ذلك مظاهرهم من ثياب رخيصة قديمة وفرحهم وتأثرهم من أي مبلغ يضم إلى مالههم للمسجد ولو كان قليلاً.

ومع ذلك يصبرون ويصابرون على جمع المال على أمل أن يروا هدفهم في تعمیر المسجد قد تحقق.

لقد قال الإخوة المرافقون من الصينيين: إن كثيراً من المسلمين لا يجدون كفايتهم من الطعام ومع ذلك يتبرعون للمساجد.

وهذا أمر صحيح عرفته من حال الصين في قلة الأجور وإغلاق أبواب الأعمال الحرة التي قد تزيد من الدخل المحدودة حتى يعتبر الشعب بحق كله من الفقراء ماعدا قلة من المسؤولين الحكوميين الذين يكونون أكثر ترفاً وإن لم يكونوا من أصحاب الثراء.

وتذكرت ما نحن فيه من النعم كما تذكرت أقواماً من بني قومننا العرب في ديارنا وفي خارج ديارنا عندهم فضول من المال لا يدرون كيف يصرفونها فتجد بعضهم يصرفها في الملذات المحرمة وفي الأشياء المباحة التي لا يحتاجها وقلت: ماذا لو تضامن هؤلاء جميعاً وأنشأوا صندوقاً خيراً لدعم الإخوة المسلمين الذين يرزحون تحت كابوس الشيوعية أو يثنون تحت ثقل الفقر والحاجة يساعدونهم على بناء المساجد وافتتاح المعاهد الإسلامية؟ وثقل ذلك على نفسي رغم ما أراه من مظاهر الفرح والابتهاج البادية على وجوه إخواننا المسلمين هؤلاء.

وعندما ذكرت أن المملكة العربية السعودية هي أكثر دولة تقدم العون والتعاضد للإخوة المسلمين في أنحاء العالم وأنني بنفسى كنت واسطة لإيصال العدد الكبير من هذا الدعم إلى المسلمين سواء بما اقترحتة من مساعدات حازت الموافقة أو بما قدمته مباشرة من أموال فوضني المسئولون بتقديمها للمسلمين سُرِّي عني قليلاً فحمدت الله وشكرته.

ثم عدنا إلى الفندق سائرين مع الضفة الجنوبية للنهر الأصفر مع الشارع المسمى بشارع الكورنيش وهو شارع واسع جيد قد اعتنوا به عناية خاصة غير أن هذه العناية مقصورة على الضفة الجنوبية التي تقع في ضاحية واسعة وتقطنها أغلبية من غير المسلمين أما ضفة النهر الشمالية التي يقع عليها الحي الإسلامي فإنها لم تقسها يد الإصلاح والتعمير وربما كان السبب في ذلك ضيقها حيث أنها تنهض مباشرة مع نهوض الجبل من ضفة النهر.

ويذكر بهذه المناسبة أن النهر الأصفر الذي هو من أهم الأنهار في الصين تقع أول مدينة مهمة عليه هي هذه المدينة (لانجو).

استئناف الجولة على المساجد:

تناولنا الغداء في الفندق في الوقت المحدد الذي لا يتغير في كل أنحاء الصين وهو الثانية عشرة ظهراً ثم استرحنا قليلاً وكانت الجولة في الصباح على مساجد كلها واقعة في الضفة الجنوبية من النهر الأصفر أما هذه المرة فقد اجتزنا النهر الأصفر في الساعة الثالثة ظهراً من الجنوب إلى الشمال قاصدين الضفة الشمالية من النهر.

مسجد منصة السماء:

واسمه بالصينية (مسجد خوتين تاي) قالوا، إن معناها (مسجد منصة السماء) والسبب في ذلك أنه مرتفع في الجبل الواقع على الضفة الشمالية من النهر.

رأينا المنظر المتكرر وإن لم يتكرر الناس فيه وهو منظر الجماهير المحتشدة من المسلمين التي اصطفت في صفوف منتظمة مفسحة الطريق إلى المسجد وذلك بتنظيم من رجال الأمن ومن زعماء المسلمين فأوقفنا السيارات في شارع ضيق في أول الجبل ثم أخذنا نصعد على الأقدام إلى الجبل مع أزقة غير واسعة بعضها فيه درج وبعضها مرتفع ارتفاعاً متدرجاً يصعب السير فيه وذلك كله بين صفيين طويلين من صفوف المستقبلين حتى قال لي أحد المرافقين وهو يرفع رأسه إلى الأعلى هنا بوابة المسجد فرأيت بوابة عالية عليها أزج أي عقد يشبه الهلال المسترخي وهو على غير بناء وإنما وضعوه يدل على حد الأرض التابعة للمسجد وهو قديم.



طريق الوفد إلى مسجد منصة السماء بين صفيين من المسلمين

وجدنا الزحام على أشده عند باب المسجد واستقبلونا بنشيد بالصينية قال لنا المترجمون إنه نشيد الترحيب ثم كان الاجتماع في غرفة من بيت ملحق بالمسجد لأن المسجد هنا مثل سائر المساجد القديمة في الصين تتبعه ملاحق

ومرافق وقد وجدناهم نصبوا مائدة مستطيلة حافلة بالأطعمة الخفيفة الجافة مع الشاي الصيني المعتاد والتفاح الذي تنتجه المقاطعة.

كان يتزعم الحاضرين ويتصدر الحديث إمام المسجد الأخ (محمد بشير ماه لين).

حدثونا عن المسجد وهم جماعة كبيرة فقالوا: إنه مسجد قديم يرجع تاريخه إلى ما يزيد على ثلاثمائة وخمسين سنة وأنه خرب بل هدم إبان الثورة الثقافية الشيوعية وهم لا يصفون الثورة الثقافية هذه بإنها شيوعية لأن هذا الوصف ينطبق أيضاً على الحكومة الحاضرة التي أعادت المساجد للمسلمين وإنما يصفونها بأنها من تدبير عصابة الأربعة.

قالوا: إن لهذا المسجد أهميته التاريخية في نفوس المسلمين ولحاجتهم للصلاة فيه في الوقت الحاضر لهذا أعيد المسجد إلى المسلمين في أوائل عام ١٩٨٠م ولكنه لم يبق فيه مكان يصلى فيه لأن الشيوعيين خربوه كله.



الاستقبال في حي (منصة السماء) في لانجو

فتألفت جمعية من أهل الحبي أخذت تجمع التبرعات وبدأت في ذلك فوراً غير أنها بعد جهد جهيد ووقت عدته طويلاً استطاعت أن تجمع من أفراد المسلمين مبلغاً قليلاً لا يكفي ترميم المسجد فقررت أن تضع برنامجاً لتعميره مقسماً على أربع سنوات وأنجزت المرحلة الأولى في حينها. وما زالت حتى الآن تجمع التبرعات وتوالي الترميم.



بوابة مسجد منصة السماء

وأخبرونا أن الحبي الذي يقع فيه المسجد فيه أربعة مساجد وكلها قديمة وتحتاج إلى ترميم وهو قريب من المسجد الأول الذي زرناه أمس في طريقنا من المطار إلى الفندق المسمى (بمسجد فوق الماء).

وقالوا: إنهم يقدرون النفقة اللازمة لإكمال ترميم المسجد بعشرين ألفين وأربعة وثلاثين ألف ريال سعودي. وقد وعدناهم بالإسهام العاجل في ذلك كما وعدناهم بتقديم مبلغ آخر أكثر وأجل من ذلك.

كما وعدناهم أيضاً بالإسهام في فرش المسجد لأنهم لم يجمعوا شيئاً لذلك على اعتبار أن المهمة الأولى هي الترميم وفرش المسجد في الأماكن الباردة أمر

مهم جداً لأن المصلين لا يستطيعون في الأيام الباردة أن يصلوا على بلاط أقرع أو حتى على فراش خفيف بخلاف البلاد الدفيئة أو الحارة.

كان الجميع يتكلمون ويردون على الأسئلة غير أنني أردت أن أرى الرجل الذي يرأس جمعية المسجد فسألتهم عنه قالوا: إنه الأخ (محمد عوض) واسمه الصيني (تشيانغ جي فوا). فقدموا رجلاً صموتا يغلب عليه الخجل قدرت عمره في حدود الخمسين. فقلت له كيف توفق بين العمل في رئاسة جمعية المسجد وكان العمل قائماً بالفعل في المسجد ونحن فيه وبين عمك الأصلي؟.

فأراد أن يتكلم غير أن القوم سبقوه قائلين: إنه عامل متقاعد.

فقلت له: إذا كم عمرك؟ فأجاب: إحدى وثمانون سنة!

فعجبت من هذا الذي قاله ووافقته عليه الجميع الذين قالوا: إنه تقاعد عن العمل منذ ست وعشرين سنة ولكنه لم يتقاعد عن العمل الصالح في إصلاح هذا المسجد وتعميره.

المسلمون يعمرون أكثر من غيرهم :

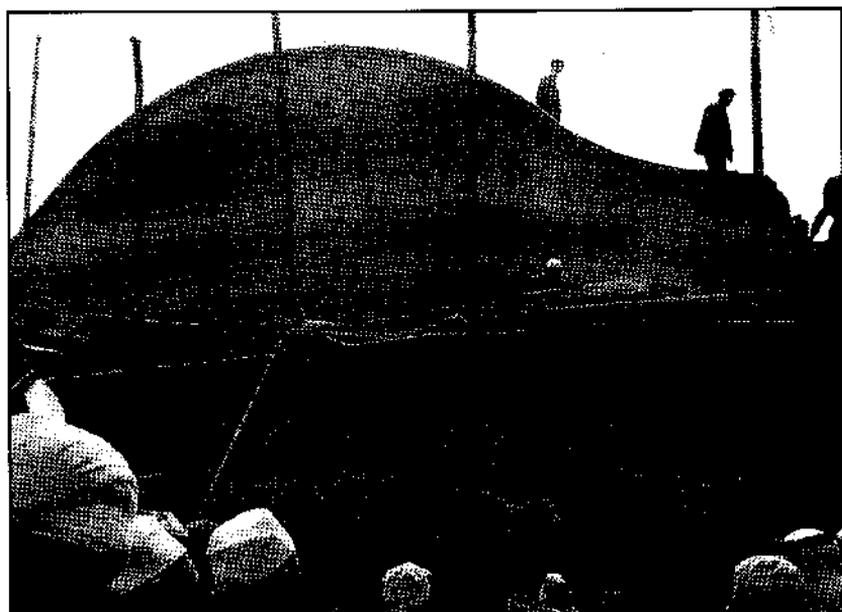
عندما أبدت عجبتي من حال هذا الأخ الكريم الذي لا شك في أن سبب نشاطه وعدم ظهور أثر الثمانين سنة على وجهه هو إيمانه العميق قال لنا إخواننا المسلمون الحاضرون: إن المسلمين يعمرون طويلاً في الصين وإن كون ابن الثمانين يعمل كما يعمل الآخرون أمر معتاد ولا يلفت النظر وقال أحد المثقفين الحاضرين: لقد نشرت مؤخراً دراسة قام بها جماعة من الباحثين الصينيين من غير المسلمين وتناولت دراسة حال اثنين وعشرين شخصاً من العمرين الذين تجاوزت أعمارهم مائة سنة فوجدت أن واحداً وعشرين شخصاً منهم من المسلمين وواحد فقط فيهم من غير المسلمين. كما وجدوا أن عشرين شخصاً منهم من

أهل الريف واثنين فقط ممن كانوا يعيشون في المدن.

وقالوا: إن الباحثين قالوا: إنه ربما كان سبب طول أعمار المسلمين عدم أكل لحم الخنزير الذي هو مشبع بالدهن وعدم شرب الخمر إضافة إلى الطمأنينة النفسية التي يوفرها الإيمان.

وعلى أية حال فإن القرويين من المسلمين مشهورون بطول الأعمار في الصين.

وبعد حديث طويل مع الإخوة المسلمين انتقلنا إلى مشاهدة المسجد فوجدناهم قد أعادوا بناءه واسعاً مبنياً بالأجر والأسمنت ومسقفاً بالخشب والحديد على هيئة السنام القوي المتقن. ومفروش الآن بجلود من جلود الغنم ربما كانت عارية من بعض المحسنين. وهي في الصفوف المتقدمة التي يصلى عليها في الأوقات المعتادة وفي الجزء الأمامي من المسجد فقط وليست شاملة له.



مسجد منصة السماء (تحت البناء)

وقد شجعناهم على مواصلة العمل ودعونا لهم دعاءً جماعياً كانوا يؤمنون عليه وللأخ الكريم المعمر في الخير/ محمد عوض رئيس لجنة إعمار المسجد بصفة خاصة.

حديقة العيون الخمس:

ودعنا هؤلاء الإخوة الكرام وداعاً مؤثراً ثم انطلقنا نازلين مع أزقة هذا الحي المتعرجة المتدرجة في النزول وسار الموكب تتقدمه دراجة نارية بثلاث عجلات فيها ضابطان من ضباط الشرطة فاجتزنا الجسر الذي يعلو النهر الأصفر قاصدين جهته الجنوبية فدخلنا المدينة التي تقع في معظمها على الضفة الجنوبية من النهر محصورة في وادٍ مستطيل بين جبلين كما تقدم.

وكانت الفقرة التالية في زيارة الوفد حسب البرنامج الموضوع هي زيارة حديقة (موتشوان) ومعناها: العيون الخمس، والمراد بالعيون هنا عيون الماء لأن فيها عيوناً تنبع من لحف الجبل الذي تقع فيه الحديقة.

وجدنا باب الحديقة مغلقاً دون السيارات لأنه لا يسمح بدخولها ولأنه لا توجد سيارات وإنما وجدنا بديلة عنها آلاف الدراجات التي أوقفها أربابها في الخارج ودخلوا الحديقة بأعداد كثيرة لأن اليوم هو الأحد وهو يوم العطلة الوحيد في الأسبوع لأن العمل في الصين يستمر ستة أيام بدلاً من خمسة أيام كما هو عليه الحال في بلادنا وفي أكثر البلدان المتقدمة في الاقتصاد والصناعة.

ففتح باب الحديقة لسيارات الموكب التي هي خمس غير دراجة الشرطة ثم أخذت السيارات تصعد مع طرق مسفلتة في وسط الحديقة الواقع في لحف الجبل حتى انتهى بها الصعود في ساحة مرتفعة مبلطة. ولم يبق أمام من يريد

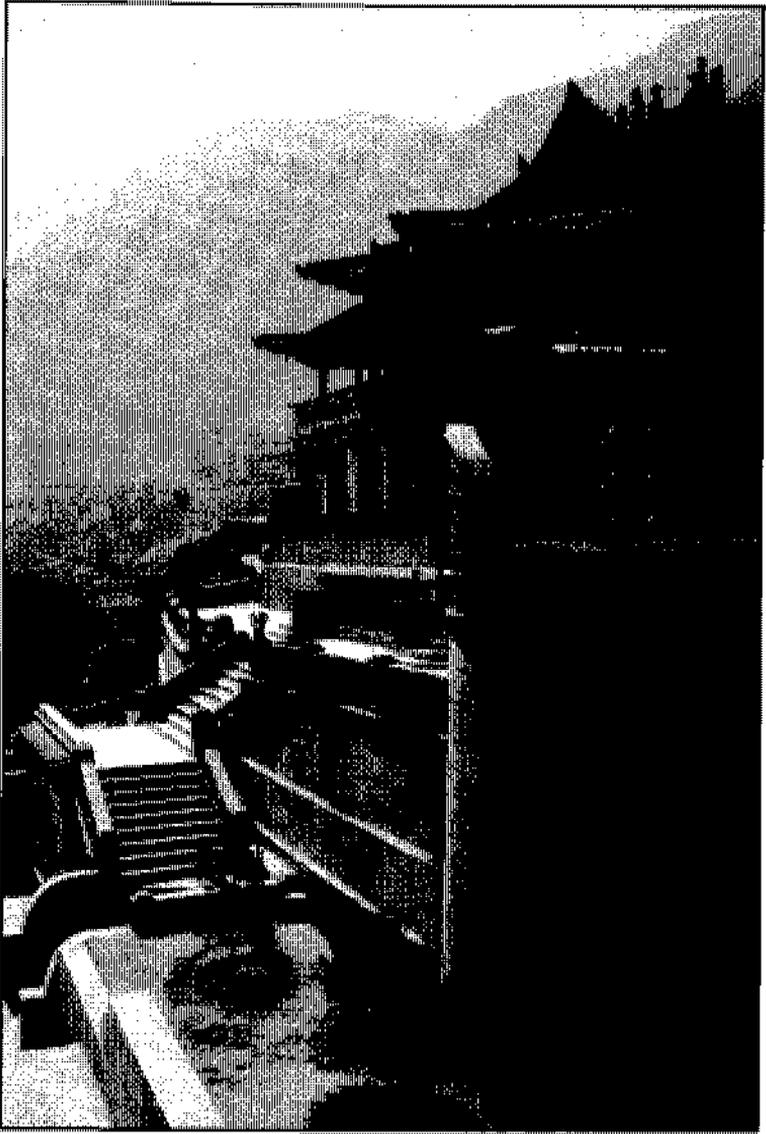
المزيد من الصعود في الجبل الا أن يرقى مع درج صخري صاعد في الحديقة الصاعدة في الجبل. فصعدنا على أقدامنا درجا فوق درج حتى وصلنا إلى بناء صيني في قمة الحديقة ولكنه دون منتصف الجبل الذي تقع الحديقة في لحفه ابتداء من سفحه حتى حوالي ربعه فأشرفنا من هذا المكان المرتفع على إحدى العيون الخمس التي سميت الحديقة على اسمها وهي في الحقيقة عيون صغيرة أو منابع للمياه وهي قليلة المياه.

واستقبلنا مدير الحديقة الذي كان في الانتظار بموجب أمر من السلطات الرسمية وهو غير مسلم ذو ملامح صينية كاملة ليس فيها من وجهة الملامح الصينية التي على وجوه المسلمين شيء واسمه (فونغ تشان يان).

قال: إن رواد الحديقة في هذا اليوم يبلغون ثلاثين ألفا وفي أيام الأعياد يبلغ العدد سبعين ألفاً. وهم يتسلمون رسماً مقداره خمسة أجزاء من مائة جزء من الين عن الشخص الواحد.

وقال: إن الحديقة بهيئتها الحاضرة أي بكونها حديقة عامة لم توجد الا في عام ١٩٥٣م ، أي في زمن الحكم الشيوعي غير أن الأبنية قديمة. ولا أشك في أن كل هذه الأشياء التي رأيناها فيها قديمة ما عدا الملاجئ التي سيأتي الكلام عليها.

والأبنية التي فيها هي على هيئة أبنية القصور الصغيرة التي كان يسكنها المترفون والأثرياء والنبلاء في القديم وكلها من الخشب المزوق بالحفر والنقش والتزيين وفق الذوق الصيني التقليدي المعروف، ولكن أكثر هذه الأبنية قد أصبح في حاجة إلى طلاء أو ترميم.



حديقة لانجو

ومن الغريب الذي كان مفاجئاً لي أن هذا الجبل العالي الذي تقع الحديقة في
لحفه هو من التراب الصلب الذي يختلط بالحجارة بنسبة ضئيلة جداً. وكان
منظره على البعد يوحي بأنه جبل من الصخر لأنه واقف ويبدو ذا هضاب

متعددة. وهو واحد من الهضاب التي تؤلف الحد الجنوبي للوادي الذي تقع فيه مدينة لانجو ويسير النهر الأصفر في شماليه.



في حديقة العيون الخمس في لانجو

تقدمنا مدير الحديقة في جولة على الأبنية الموجودة في أعلى الحديقة تخللتها وقفات في أماكن تشرف على مناظر معينة رائعة فيها. إذ يشاهد المرء منها الحديقة العالية تحته وجزءاً كبيراً من مدينة لانجو والتلال العالية التي تؤلف الضفة الشمالية من وادي (الانجو).

ثم دعانا إلى الجلوس في قاعة للجلوس ذات أثاث غربي حديث لا طعم له عندنا لأنه مألوف لنا مملول من أنظارنا ثم أحضروا المشروبات الغازية أيضاً التي هي الكوكاكولا ونحوها وكان الأنسب لنا لو كان الأثاث صينياً خالصاً والشراب صينياً محلياً وجاءوا كذلك بالشاي الصيني الساخن الخالي من السكر.



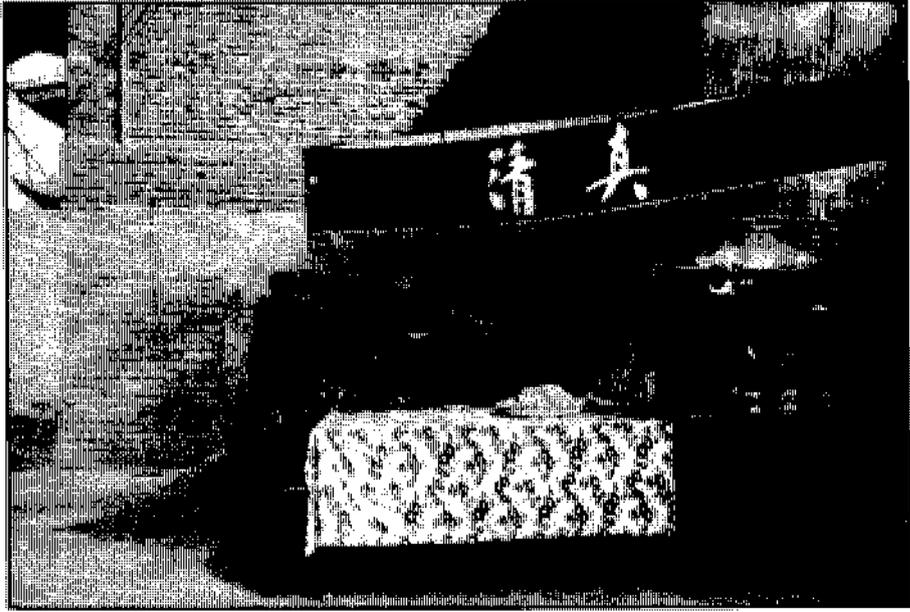
ثلاثة من الزملاء تحت قوس من أغصان الشجر المعمر في حديقة العيون الخمس

ثم انحدرنا مع مدير الحديقة وباقي المرافقين لمشاهدة الحديقة فوقفنا عند إحدى العيون التي هي على هيئة بئر تصب تفيض في بركة بجانبها. وكان الانحدار على الأقدام مع درج يكون حاداً في بعض الأحيان.

مطعم المسلمين:

لم ن فقد أثر المسلمين في الحديقة رغم قلتهم في العدد إذ وجدنا مطعماً مكتوباً عليه بالصينية (تشن دن) وهو الاسم الشائع في اللغة الصينية للدين الإسلامي ومعناها النقاء الخالص، أو الأكثر صفاءً.

وقال مدير الحديقة إن في الحديقة مطعمين لعامة الصينيين ومطعماً واحداً للمسلمين هو هذا.



مطعم المسلمين في حديقة العيون الخمس

وقد رأينا الطعام في المطعم الإسلامي أغلبه من اللحم المفروم والمكرونة الصينية.

وواصلنا الإنحدار مع درج منحوت في أرض الحديقة التي هي في سفح الجبل حتى وصلنا.

الملجأ:

وهو ملجأ أقامته الحكومة الصينية عندما اشتد النزاع ما بينها وبين الاتحاد السوفييتي وخشيت أن يتطور هذا النزاع إلى حرب بين البلدين فأنشأت هذا الملجأ تحت سطح الأرض الذي هو في الحديقة جانب من سفح هذا الجبل الطيني الصلد.

ولكنهم عندما أكملوه لم يدعوه بدون استغلال فجعلوا فيه من المناظر ما يغري بالزيارة وفرضوا رسماً على من يدخلونه فجنوا منه من المال أضعاف ما أنفقوا عليه، ولا يزالون يستغلونه حتى الآن دخلنا إلى هذا الملجأ خلف مدير الحديقة التي يتبعها الملجأ في الإدارة لأنه واقع في وسطها فنزلنا مع درج في الأرض مضاء بالكهرباء.

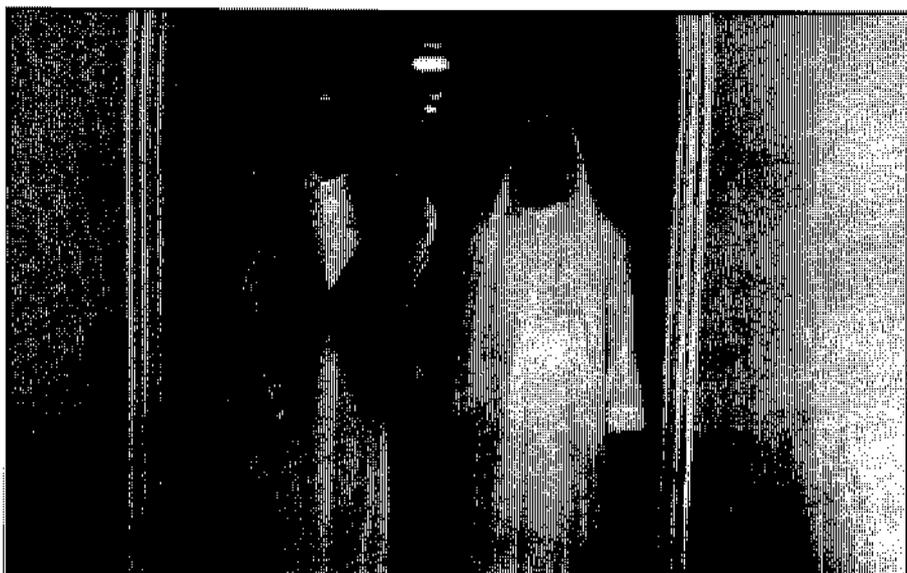
وقد أفضى هذا الدرج النازل إلى الأسفل إلى قاعة انطلق منها ممران متشابهان ثم تفرع كل ممر إلى ممرات عدة ولكي يعطوا المرور شيئاً من الحياة أو المتعة عرضوا رسوماً ولوحات وأحياناً نماذج من المصنوعات المحلية الجميلة في أماكن متفرقة.



تشال عروس البحر في حديقة العيون الخمس

ومن طرائف المعلومات عنه ما أخبرنا به مدير الحكومة من أنه ينقص ثلاث عشرة درجة عن الخارج في شدة البرد والحر فتكون درجة الحرارة فيه في شدة الصيف أقل من الخارج ثلاث عشرة درجة وتكون في الشتاء أعلى بثلاث عشرة درجة.

ثم أوغلنا في سردايب نظيفة مضاءة كان من أطرف ما رأينا في آخر أحدها
منظراً طبيعياً مجسماً فيه تماثيل لضفادع تسمع نقيقتها مسجلاً وكأنما هي
ضفادع حقيقية ومثلها طيور سجلوا أصواتها أيضاً وهي كلها تماثيل جامدة.



الشيخ عبد الرحمن المنيعي والشيخ عبد الرحمن بن عوين يخرجان
من الملجأ في حديقة العيون الخمس

وقد خرجنا منه نهتدي بمدير الحديقة لأنهم يقولون: إن الخروج منه من غير
دليل أمر صعب وذكروا أن اسمه (الملجأ الشعبي) وأنه توجد عدة ملاجئ مثله
في المدن الرئيسية في الصين.

وقد ابى مدير الحديقة الا توديعنا عند باب الحديقة الذي هو في أسفلها.

في قلب المدينة:

كان المقرر في البرنامج أن تكون الفقرة التالية زيارة معبد بوذي في المدينة
وقد وضعتها الحكومة للتدليل على أنها لا تمنع العبادة ولا تغلق دورها غير

أنا رأينا عدم الذهاب للمعبد لأنه واضح من الموكب ومن ملابسنا العربية أننا وقد إسلامي رسمي ولا نحب أن نزور معبداً بوذيًا ونحن بهذه الصفة الرسمية.

فعدلنا عن ذلك إلى قضاء بعض الوقت على ضفة النهر الأصفر فاخرقنا قلب المدينة الذي يعج بالناس في مثل هذه الساعة التي تجاوزت الخامسة وهي وقت انصراف الموظفين في العادة ولكن اليوم هو يوم الأحد الذي هو يوم العطلة الأسبوعية.

وأكثر ما يلفت النظر في هذه الشوارع هو منظر راكبي الدراجات لكثرتهم وتنوع أعمارهم وسيرهم الحضاري الرزين الذي لا نرى فيه أحداً يحاول الاعتداء على أحد بالتسابق على المرور أو الازدحام عليه.

والقوم هنا صينيون لغتهم الوحيدة هي الصينية ولكنك ترى في ملامحهم شيئاً يغير ما نعرفه عن وجوه الصينيين قليلاً فالوجوه فيها استطالة أكثر من المألوف في وجوه الصينيين والأجسام أقل كثافة؛ والعيون أقل اتساعاً أو لنقل أكثر ضيقاً لأن الاتساع الحقيقي غير موجود في عيون الصينيين على وجه العموم. كما يبدو الشباب والأحداث منهم في صحة أكثر من هم في سائر الصين أو هكذا خيل إلي وربما كان ذلك بسبب تأثير الجو الشمالي البارد لقد فكرت وأنا أرى كثرة المشاة وراكبي الدراجات وقلة السيارات فيما لو أتاحت للصينيين الفرصة التي أتاحت لأكثر الشعوب من امتلاك السيارات لأنه لا يكاد يوجد في الصين من يملك من المواطنين سيارة خاصة به فتيقنت أنهم لو ملكوا السيارات مثل غيرهم لضاقت بهم مدنهم ولم يستطيعوا التحرك في شوارعها.

وذلك بسبب كثرتهم ولكون شوارع المدن الرئيسية قد بقيت على ماهي عليه قبل الشيوعية من دون توسعة، وتحتاج توسعتها وتهيئتها للسيارات التي

يملكها أفراد الشعب إلى جهود وأموال لا تستطيع الحكومة الشيوعية الحاضرة ولا حكومة مثلها أن توفرها. فتذكرت في نفسي قولة لأحد الظرفاء من أهل بلدنا كان قد قالها قبل الرخاء الاقتصادي واليسار الذي نتمتع به الآن وهو قوله على طريق التمايح والتمازح: «الحمد لله على الفقر وقلة الدراهم».

وشيء آخر من قلة السيارات في شوارع المدن الصينية قد ينفع السكان الا وهو قلة تلوث الهواء بما تقذفه السيارات من دخان محترق.

وسرنا رويداً ونحن في السيارات في بعض الأسواق ذات الحوانيت الكبيرة والمتوسطة التي قال لنا مرافقونا: إنها كلها حكومية بمعنى أن الحوانيت والبضائع التي فيها كلها مملوكة للحكومة وليس فيها شيء يملكه الأفراد أو يملكون البضائع التي فيه.

وذلك أن الحكومة سمحت للأفراد بممارسة التجارة الصغيرة جداً وعلى نطاق محدود وذلك لا يكون في الحوانيت الكبيرة.

ويلفت النظر في هذه المدينة أن سيارات الأجرة (التاكسي) لا توجد فيها فليس هناك سيارة كتب عليها إنها (تاكسي) أو صبغت بما يدل على ذلك كالذي يكون في البلدان الأخرى، وإنما على من يحتاج إلى التنقل في المدن أن يمتطي دراجة أو يركب في حافلات النقل العام التي هي موجودة بشكل ظاهر بل متوفرة في الصين وهي مملوكة للحكومة مثل سائر الأشياء العامة.

ويلاحظ قلة الأطفال الصغار في شوارع المدن وربما كان هذا من آثار تحديد النسل في الصين وإنما يشاهد الأطفال مع أمهاتهم في أعداد قليلة وكثيراً ما شاهدتهم يحملون الطفل على الدراجات فقلت في نفسي: ربما كان الذين حددوا النسل بطفل واحد أو وحيد على حد تعبيرهم للأسرة الواحدة قد لاحظوا عدم إمتلاك أفراد الشعب للسيارات.

ومن الأسواق التجارية أو لنقل الاستهلاكية لأن أكثرها تباع على الناس ولا تشتري منهم فهي أشبه ما تكون بمحلات توزيع البضائع منها بمحلات البيع والشراء. وصل الموكب إلى ميدان للاستعراضات عليه أبنية (عمارات) حكومية هامة.

ومن الملاحظ أن زفلة الشوارع والميادين جيدة خلاف ما عليه الحال في مدينة (أورومسي) عاصمة مقاطعة سينكيانغ. بل إن الزفلة في هذه المدينة تعتبر ممتازة بالنسبة إلى بقية الأشياء في مدن الصين.

والقول بأن المرافق العامة هنا من شوارع وميادين وأبنية احسن منها - على وجه العموم - في مدينة (أورومسي).

وعلى ذكر الشوارع أقول: إنني رأيت هنا ما رأيت في مدن الصين الأخرى من عاملات البلدية اللاتي يكنسن الشوارع وهن ملثمات اتقاء للغبار ومكانسهن من القش وبأيدٍ طويلة.

أما اللباس في هذه المدينة فإنه اللباس المعتاد في الصين وهو الذي يكاد يكون موحداً من حيث الشكل لا من حيث اللون وكان قبل ذلك موحداً بأمر من الحكومة إبان الثورة الشفافية، ولكنه الآن أصبح موحداً، أو هو قريب من أن يكون كذلك بسبب كون المصانع التي هي حكومية كلها وهي التي أنيط بها تأمين اللباس للشعب الصيني الذي يزيد عدده على ألف مليون إنسان هي تخرج الملابس بشكل يكاد يكون موحداً لأنه قصد منه أن يستر العورة ويبقي من البرد من دون أن تقصد منه الزينة فضلاً عن الترف في الزينة.

وحتى تفصيل الملابس يكاد يكون موحداً وهو مؤلف في أغلبه من قميص يشبه السترة أو (الجاكيت) ولكنه أطول منها قليلاً تحته سروال واسع لا أثر للإغراء في تفصيله سواء أكان للرجال أو للنساء فهو متقارب بالنسبة إلى الجنسين.

ولا يرى المرء أصباًغاً أو مساحيق أو أي شيء من الزينة في وجوه النساء ما عدا تصفيف الشعور بطريقة مبسطة تكاد تكون متماثلة في جميع النساء.

وقد كانت الأصباغ ممنوعة بأوامر حكومية ولكنها الآن لا توجد بسبب الفقر وضيق ذات اليد عند سائر النساء وإلا فإنه لا يمنع عليها من الحكومة.

ويذكر أن هناك أعداداً نادرة من النساء يستعملن الأصباغ ولكن ذلك لا يكاد يرى لقلته.

إلا أنني لاحظت هنا حمرة غير معتادة في خدود بعضهن فسألت عنها فأخبرني المرافقون أن ذلك سببه الأمراض التي يسببها جفاف الجو في البرد ولذلك يضطر كثير من الناس إلى دهن وجوههم وأيديهم بمادة دسمة أو مرطبة.

ثم تركنا وسط المدينة قاصدين ضفة النهر الجنوبية فسار الموكب مع شارع (الكورنيش) وهو شارع جيد فأوقفنا السيارات على ضفة النهر عند جسر والتقطنا صوراً تذكارية مع المرافقين على ضفة النهر من فوق ذلك الجسر.



صورة تذكارية لاعضاء الوفد على ضفة النهر الأصفر

وإدت لنا مياه النهر غير كثيرة بل هي منخفضة المستوى فأخبرونا أنها تزيد بعد ذلك من جهتين من جهة الثلوج التي تذوب في منابعه العليا عندما تقترب من فصل الدفء ومن الأمطار الصيفية الموسمية الغزيرة التي تسقط على الصين في فصل الصيف.



الضفة الجنوبية من لانبجو على البحر الأصفر

وقد وجدت بعض المتنزهين على الضفة النهر في الشارع المرتفع في مجرى النهر وذلك على قلة وهم ليسوا بأهل فضول لذلك تجد بعضهم ينظر إلى اللباس العربي باهتمام ولكن في حدود المعقول من النظر. وبخاصة عندما تقدمنا الشرطيان الملازمان للموكب ونحن نسير على أقدامنا فأوقفنا المرور من المشاة والدراجات والسيارات حتى نقطع الشارع فذلك أمر غير مألوف.

ثم تركنا الضفة النهر الجنوبية داخلين في ضواحي المدينة قاصدين الفندق. فشاهدنا فيها بيوتاً شعبية طينية قديمة. وقد عدنا إلى الفندق في تمام السادسة.

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني بإذن الله.

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	٥
الأمنية تتحقق	١٠
هذا الكتاب	١١
أحوال الصين	١٦
نظرة خاطفة إلى الأوضاع العامة	١٨
الحرية الدينية والمسلمون	٢١
وزارة الأقليات القومية	٢٥
مكتب الشؤون الدينية	٢٦
الجمعية الإسلامية الصينية	٢٦
سكان الصين	٢٨
تعداد السكان في الصين	٢٩
دخول الإسلام إلى الصين	٣٢
ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الصينية	٤١
المخطوطات القرآنية	٤٣
ترجمات غير كاملة	٤٤
ترجمة كاملة	٤٥
العلاقات الاقتصادية بين الصين والعرب قبل الإسلام	٤٦
العلاقات الاقتصادية بين الصين والعرب قبل أسرة تانغ	٤٧
العلاقات . . . من أسرة تانغ إلى أسرة مينغ	٤٩
الأديان في الصين	٥٥
البوذية والتاوية	٥٥
الكنفوشية	٥٧
التقسيم الإداري في الصين	٥٩
العلوم الإسلامية في الصين	٦٣
العلاقات بين الصين والعرب في القرون الوسطى	٦٧

١٨٢ الكنز الذهبي
١٨٤ وتعددت الخزائن الذهبية
١٨٤ الذهب في العبادة
١٨٥ وفي الحرب
١٨٥ وفي الخرافة
١٨٦ ذهبُ الصيني وذهب الآخرون
١٩٣ في بكين القديمة
١٩٦ مسجد خواتشي
١٩٩ جوارب ومقاعد
٢٠١ إنهم قوم مجاهدون
٢٠٢ مع نائب رئيس المجلس الاستشاري
٢٠٦ في مخزن الصداقة
٢٠٧ الصداقة بالعملة الصعبة
٢٠٧ في جامع بكين
٢١١ حفلة شئوون الأديان
٢١٢ أمر له معناه إلى مقاطعة كانسو
٢١٧ مقاطعة كانسو
٢١٧ المناخ
٢١٨ الصناعة
٢١٨ مدينة لانجو
٢١٨ من ورومسي إلى لانجو
٢٢٠ إلى لانجو
٢٢٣ المضيفات يأكلن وسط الركاب
٢٢٦ فوق مطار لانجو
٢٢٦ في مطار لانجو
٢٣٠ بيوت التلال
٢٣٣ في مدينة لانجو

٢٣٦	شارع غرب المدينة
٢٣٨	حيّ بداية المدينة
٢٣٨	مسجد فوق الماء
٢٤٢	الصلاة والموعظة
٢٤٧	في فندق الصداقة
٢٤٩	مآدبة الجمعية الإسلامية
٢٥٠	كف الجمل وجناح السمكة
٢٥٥	حالة الأمن
٢٥٦	جولة في مدينة لانجو
٢٥٧	زيارة المساجد
٢٦٠	المسجد الكبير
٢٦٤	إلى مسجد آخر
٢٦٨	المسجد الذي خربه الشيوعيون
٢٧١	في مقر الجمعية الإسلامية
٢٧٣	ومسجد آخر هدمه الشيوعيون
٢٧٦	حالة مؤثرة
٢٧٧	استئناف الجولة على المساجد
٢٧٧	مسجد منصة السماء
٢٨١	المسلمون يعمرّون أكثر من غيرهم
٢٨٣	حديقة العيون الخمس
٢٨٧	مطعم المسلمين
٢٨٨	الملجأ
٢٩٠	في قلب المدينة

محمد بن ناصر العبّودي

داخل أسوار الصين

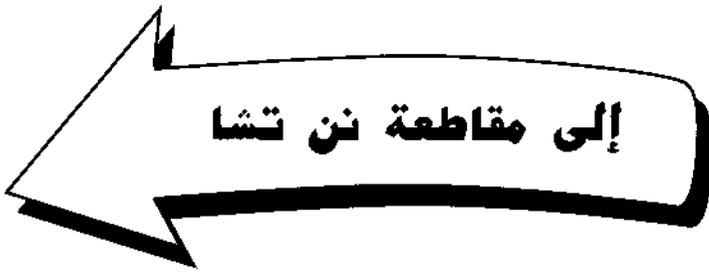
رحلة وحديث في شئون المسلمين

الجزء الثاني

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

الأعمال الجغرافية
مطابع الفرزدق التجارية- الرياض
تلفون: ٤٨٢٤٨٦٥ - ٤٨٢٤٩٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المسلمون في مقاطعه نى تشا

تقع مقاطعة نى تشا الذاتية الحكم لقومية خوي في وسط شمال الصين الغربي ومساحتها ٦٦ ألف كم مربع. يخترق النهر الاصفر شمالها من الغرب إلى الشرق وعلى شاطئيه ينبسط سهل ين تشوان وتتراكم في وسط المنطقة هضبة التراب الاصفر، سمك التراب الاصفر ١٠٠ متر تقريباً..

تعداد سكان المقاطعة ٣,٨٩ مليون نسمة. منهم ١,٢٠٥ مليون نسمة من المسلمين من قومية خوي يشكلون ٣١,٤٪ من تعداد سكان المنطقة الاجمالي وينتشرون في منطقة جبال ليويان ومدينة ين تشوان وتونغشين ولينغو ووتشونغ وغيرها من المدن والمحافظات.

دخول المسلمين إلى المنطقة

ترك التجار والمجاهدون المسلمون من مختلف البلدان في وسط آسيا أول ما تركوا بصماتهم في المنطقة في اسرة تانغ (٦١٨ - ٩٠٧م) وفي عهد شيشيا اسرة سونغ الشمالية (٩٦٠-١١٢٧م) كان دائماً ما يمر الضيوف المسلمون.

وعندما جاءت اسرة يوان المغولية دخل المسلمون المنطقة بأعداد ضخمة. ونظم جنكيزخان بعد أن فتح آسيا الوسطى وآسيا الغربية، جيشاً من مسلمي مختلف القوميات ليرابط في الصين. وحسب ما سجل في « تاريخ اسرة يوان » أن جيش المسلمين دخل شيشيا في عام ١٢٧١م. وبعد سنتين من ذلك أمر الامبراطوري قوبلاى خان أن يبقى هذا الجيش في المنطقة ويعيش مع الاهالى المحليين. وكانت المنطقة تابعة لحكومة شنشى. وفي عام ١٢٨٨م عين البلاط الامبراطورى

عثمان الدين من قومية خوي مسئولاً عن مرابطة الجيش والزراعة في كانسو وشنشى.. ودخل الصين بعض المسئولين الكبار والتجار الاغنياء المسلمين مع الجيش المغولي. وكان ناصر الدين بن شمس الدين رجل الدولة المسلم المشهور في اسرة يوان مسئولاً كبيراً في مقاطعة شنشى. وانقسم ابناؤه واحفاده إلى أربع أسر كبيرة هي: نا، وسو، ولا، ودين.. انتشرت في ويوع البلاد. وعدد الذين اسم عائلاتهم نا كثير في المنطقة اليوم.

التقاليد والعادات

يتميز المسلمون في المنطقة بالتقاليد الخاصة إضافة إلى تأدية الدروس الدينية. ويهتمون بالنظافة حيث كتب فان تشانغ جيانغ الصحفى الشهير قبل ٤٠ سنة: « بيوت المسلمين وحقولهم منظمة ومرتبة ويبدلون جهوداً جبارة في الري واستئصال الاعشاب من الحقول وحياتهم زاخرة حيوية ونشاطا. ويمكننا أن نجد الاناء معلقا على عارضة وراء باب كل بيت وخذقا ضيقا تحته، وبجانب الخندق ابريق.. وهم يستعملون الابريق في غسل الوجه واليد بدلاً من الطست. وفوق كل بئر غطاء، والدلو الصغير معلق على الجدار مغطى بالقماش الابيض، والدلو الكبير يوضع مقلوباً، حتى المغارف والملاعق في الدولاب توضع معكوسة أيضاً.

يحب المسلمون في المنطقة أن يجملوا بيوتهم بالصور والكتابة العربية ويصنعون الاطعمة المقلية في الاعياد. ويكرمون الضيوف بانواع مختلفة من الشاي. والاجود منها الشاي فيه الفول السوداني والتين الصيني المجفف والعنب ولب الجوز.

يلبس رجالهم قطنسوة بيضاء وثوباً أبيض وسترة سوداء ويلبس بعضهم جوارب قماشية بيضاء طويلة وتلبس النساء الثياب المفتوحة من الجانب. وفي المنطقة الجبلية يسلمون على بعض باللغة العربية: « السلام عليكم».

التطور

شكل المسلمون في ين تشوان وقويوان وغيرهما من الولايات والمحافظات مناطق معيشية كثيرة في أسرة مينغ (١٣٦٨-١٦٤٤) وازداد عددهم ازدياداً كبيراً في أواسط أسرة تشينغ. لذلك كتب بي يوان رئيس شنشى في تقريره إلى البلاط الإمبراطوري أن قرى خوى « يعنى المسلمين » منتشرة بين مسافة ١٠٠٠ لى من نن تشا وبينغلانغ. وقيل إن بين كل عشرة أشخاص ٧ من خوى و ٣ من قومية خان في منطقة كانسو ونن تشا وتشينغهاى.

وأول ما وجد من السجلات عن الجوامع القديمة في المنطقة هو « تاريخ نن تشا في عهد جياجينغ» (١٥٢٢-١٥٦٦م) فيه موقع جامع مدينة ين تشوان. أما الجامع الكبير في محافظة تونغشين فقيل إنه أسس في أوائل أسرة مينغ، ولا يزال النصب الحجري الذي نحت عند ترميم هذا الجامع في عام ١٧٩١ باقياً.

وعاصمتها مدينة ين تشوان على ضفاف النهر الاصفر وهي مدينة حدودية قديمة جميلة المناظر. وقد اتخذتها مملكة شيا الغربية (١٠٣٨-١٢٢٧م) عاصمة لها.

إن نن تشا غنية بالثروات المعدنية والموارد المائية. ومن أهم معادنها الفحم الحجري والبتروول والحديد والفوسفور والجص وحجارة الزجاج الرملية والصلصال والسليكون... إلخ. وتحتل نن تشا المكانة الخامسة في الصين كلها من حيث احتياطي الفحم الحجري. زد على ذلك أن فحم الانتراسيت المنتج في روتشيكو

والمعروف باسم « فحم تايشى » منخفض الكبريت والفوسفور وقليل الذرور وشديد الاحتراق. هذا ما جعله يحظى بالترحاب الحار في أسواق دول آسيا وأوروبا. أما الجص المحلي فهو جيد النوعية مع العلم بأن احتياطيه يفوق ما يكون في بقية أجزاء الصين. وقد ظهر في نين تشا اليوم كثير من المؤسسات الصناعية التي تشمل الفحم الحجري وتوليد الكهرباء والماكينات والغزل والنسيج والتعدين والكيماويات والبتترول والأجهزة الإلكترونية.

وتتميز نين تشا بالظروف الطبيعية الخاصة بها. وقد عرفت سهول نين تشوان من نين تشا باسم « المملكة السماوية المحدودية ». ومنذ عهد أسرة تشين الملكية (٢٢١-٢٠٧ ق م) شهدت هذه السهول قنوات الري. وفي عهد أسرة خان (٢٥-٢٢٠ م) وأسرة تانغ (٦١٨-٩٠٧ م) وأسرة شيا الغربية (٣٨-١٠٢٢٧ ق م) ظهرت فيها قنوات جديدة. وجدير بالذكر أن قنوات تشين وخان وتانغلاي وأخواتها ظلت مستعملة حتى يومنا هذا. ولذلك فإن سهول نين تشوان من أقدم المناطق المروية الشهيرة في الصين. ولو أتيت إلى سهول نين تشوان لأعجبك ما فيها من القنوات والترع المتشابكة وغللال الأرز والأسماك الطرية والغابات المخضوضرة والمزروعات المثقلة بالحبوب والمواشي المكتنزة بالعضلات والفواكه الحلوة. وبالإضافة إلى أن نين تشا هي موطن القمح والرز والقنب والنباتات الزيتية والبطيخ والفواكه فإن لها مروجاً واسعة وهي منطقة هامة لإنتاج الفرو في الصين. ومما يستحق الذكر بصورة خاصة أن فرو حملان «تان» رائع جداً بنعومته ورونقه وتميز شعره بالتنوعات الطبيعية التسعة فهو فرو فاخر للوقاية من البرد.

ولقد كان نشاط المسلمين في نين تشا عادياً حتى أوائل الستينات ثم تضررت جميع مجالات المقاطعة خلال الثورة الثقافية وأيام العصاة الرباعية ولكن الأوضاع عادت إلى مجاريها الطبيعية بعد سقوط العصاة الرباعية .

وكان عدد المساجد في المقاطعة عند قيام الثورة الشيوعية ١٥٠٠ مسجد وصل عدد المساجد المفتوحة منها بعد سقوط العصاة الرباعية ١٤٠٠ مسجد، ولا يزال العمل جارياً في ترميم المساجد وبنائها وتعمل الجمعية الإسلامية على ترميم وبناء اثني عشر مسجداً مشهوراً في المقاطعة تم ترميم ثلاثة منها وبدأ العمل في ستة مساجد وسوف يتم ترميم ثلاثة مساجد بعد ذلك، وتحتاج هذه المساجد إلى ثلاثة ملايين ين لإكمال ترميمها وإصلاحها. وقد بلغ مجموع المساجد فيها الآن ١٥٠٠ مسجد.

وفي جنوب المقاطعة حيث يتركز ٦٠٪ من مسلمي المقاطعة يوجد كثير من المساجد التي تحتاج إلى خمسة ملايين ين للإصلاح والترميم، ويتم ترميم وبناء هذه المساجد من تبرعات المسلمين ومساهمة الحكومة المحلية كما تسعى الجمعية الإسلامية لمقاطعة نين شيا إلى بناء معهد إسلامي في ين تشوان تكون الدراسة فيه أربع سنوات بعد الثانوية ويقبل كل سنة ٣٠ طالباً.

يوم الإثنين ٢٩/٧/١٤٠٤ هـ ٣٠ أبريل ١٩٨٤ م

إلى مقاطعة (نن تشا)

حان موعد سفرنا إلى (مقاطعة نن تشا) التي يكثر فيها المسلمون من قومية (خوي) مثلهم في ذلك مثل أكثر المسلمين في مقاطعة كانسو ويمكن تعريف قومية (خوي) بأنها تتألف من مسلمين ترجع أصول بعضهم إلى العرب أو الفرس أو الترك. ولكنهم تحولوا إلى التكلم باللغة الصينية نتيجة لسكنائهم الطويلة في الصين، وتزاوجوا فيما بينهم حتى صاروا لافرق بينهم وبين سائر أهل الصين إلا في الدين بخلاف أهالي سينكيانغ الذين هم من الأتراك الأصلاء ولا يزالو يتكلمون بلغة متفرعة عن التركية هي اللغة الأيغورية.

تناولنا طعام الافطار مبكرين في الفندق ثم انتقل الموكب تتقدمه الدراجة النارية التي يمتطيها ضابطان إلى محطة القطار الرئيسية في (لانجو) وكان ذلك في الساعة و الربع.

وقد تركنا امتعتنا في غرفنا في الفندق وكان من المقرر أن نغيب عنه ليلتين.

وفي هذه الساعة المبكرة من الصباح كانت الشوارع مكتظة بالذهابين إلى أعمالهم ما بين مشاة وراكبي دراجات ولا تلمح شخصاً تشعر بأنه يذهب إلى عمله بالسيارات لأنه لا توجد سيارات خاصة كما أسلفت كما أن مداومة الانتقال بالحافلات العامة إلى أماكن العمل مما يرهق جيوب أكثر الموظفين.

وقد اخبرنا اخواننا أن الناس يذهبون إلى أعمالهم في هذه اليوم في المصالح الحكومية والمصانع التي هي حكومية أيضاً حتى المتاجر هي حكومية كما قدمت وهم على نشاط عظيم لأن غداً هو يوم مشهود عندهم فهو أول مايو الذي هو عيد العمال كما يقولون والناس في البلدان الشيوعية يكادون يعتبرون كلهم من العمال.

ويسمونه هنا كما في الاتحاد السوفيتي عيد الربيع وهذا حقيقي لأن الربيع في شمال الصين لا يحين أو لا يبدأ بصفة حقيقية إلا في هذا الوقت بخلاف من قلدوهم من بني قومنا العرب مثلما كنا نسمعه في العراق إبان المد الشيوعي فيها خلال حكم عبد الكريم قاسم إذ كان المفتونون بالشيوعية يرددون العبارات المستوردة من الاتحاد السوفيتي ويرددونها كما ترددها البيغاوات بدون معرفة معناها ومنها عبارة (عيد أول أيار عيد العمال عيد الربيع) مع أن أول أيار (مايو) في البلدان العربية الواقعة في الشرق العربي لا يكون ربيعاً بل يكون حاراً مغبراً إذ تنشط فيه الرياح (الخمسية) أو (الخماسين) نسبة إلى الأيام الخمسين التي تبدأ بالهبوب فيها في ذلك الشهر من كل عام.

وقد لاحظت أن بعض الناس ينتظرون الحافلات في المحطات ولكن بأعداد قليلة لا تتناسب مع أعداد السكان، وربما كان أو لئك من كبار الموظفين أو ممن هم أقل فقراً من غيرهم.

وصل الموكب محطة القطار الرئيسية في (لانجو) ووقفنا فترة عند قاعة لكبار الزوار أو (صالون للشرف) كما يعبر عن ذلك بعض جهلة الكتاب فلم يفتح بابها فانتقلنا إلى غرفة أخرى لكبار الزوار في الطابق الثاني من بناء المحطة.

وبناء المحطة نظيف حديث من الأسمنت المسلح الذي بني قبل سنتين فقط ويقع على ميدان متوسط السعة نظيف أرضه مزفلة زفلتة جيدة تحف به أبنية (عمارات) أسمنتية حديثة ذات طوابق متعددة.

ومحطة القطار هذه مع الميدان التي تقع عليه مما يرجح كفة هذه المدينة الصينية الشمالية على كثير من عواصم المقاطعات الصينية من حيث العناية بالمرافق العامة.

في قطار بكين:

انطلق القطار في تمام الثامنة بالضبط وذلك هو مواعده المقرر بعد أن ودعنا الاخوة الكرام من أهل لانجو. وهو قطار لأبأس به بل ربما صنف من القطارات الجيدة في البلدان النامية، ويسمى قطار بكين لأنه ينطلق من هذه المدينة (لانجو) إلى مدينة بكين العاصمة فيقطع في رحلته إلى هناك ألفاً وثمانمائة كيلو متر منها رحلتنا هذه التي تستغرق من لانجو إلى مدينة (بن تشوان) عاصمة مقاطعه (نن تشا) مسافة أربع مائة وخمسين كيلو متراً يقطعها

القطار في تسع ساعات كما أخبرونا ويقولون إنه يحتاج إلى ثمان وثلثين ساعة من السير لكي يصل إلى بكين وذلك غير الوقفات المعتادة في بعض المدن و عواصم المقاطعات.



الوفد في محطة القطار

وقد ركبنا في الدرجة الأولى في مقصورات جيدة لا يشاركنا فيها أحد من الركاب كل مقصورة مخصصة لأربعة من الركاب فيها أربعة أسرة للنوم كل اثنين في جانب أحدهما فوق الآخر كما تكون عليه الحال في أكثر القطارات في العالم.

والمقصورة مؤثثة بأثاث جيد قد أكثر وفيه الأغطية والوسائد وفيها مكبر للصوت يذيع بالصينية وأحياناً يذيع موسيقى لأنه للقطار عامة كما أن فيها مصباحاً للقراءة ومائدة صغيرة للكتابة ذات غطاء نظيف وفيها أيضاً حتى أحذية الحمام (الشباشب) ولكن الذي يكدر فيها أنها قد علق بها غبار كثير

لأنها تمر بمنطقة صحراوية ويظهر أنهم لم ينظفوها بعد ذلك. وإن كانت النافذة مضاعفة الزجاج اتقاء للبرد الشديد في شمال الصين الذي يشتد برد الشتاء فيه إلا أن زجاجها غير صاف بسبب ما تنفثه مداخن القطار من دخان كثيف لأنه يسير بينخار الفحم.

وعندما سار القطار قدم لي الأخوة المرافقون مدير القطار الذي رحّب وأكثر من الترحيب، وقال: نحن في خدمتكم فأرجو إذا احتجتم شيئاً أو شعرتم بأن هناك قصوراً في الخدمة أن تخبرونا وقد لاحظت العناية العظيمة التي أحاطونا بها بصفتنا وفدأ رسمياً حتى إنهم يجعلون أحد رجال الأمن في القطار يراقبنا من حيث لا نشعر حتى إذا خلت مقصورة مناسباً انتقال من بها إلى المقصورة الأخرى سارعوا وأغلقوا بابها بالفتاح على أمتعتنا الخفيفة التي أخذناها معنا من باب المحافظة عليها.

وبعد مسير القطار جاءوا مسرعين بالشاي الصيني الأخضر في أكياس صغيرة ومعها الأكواب الصينية التقليدية ذات الأغطية الثقيلة من (الصيني) أي الخزف الجيد وجاءوا بالأوعية التي تحفظ المياه حارة وهي الزمزميات، وشيء لا يفعلونه لأنفسهم وهو أن أحضروا قديراً من السكر لأنهم يعلمون أن ضيوفهم يفضلون ما لا يفضلونه وهو شرب الشاي بالسكر.

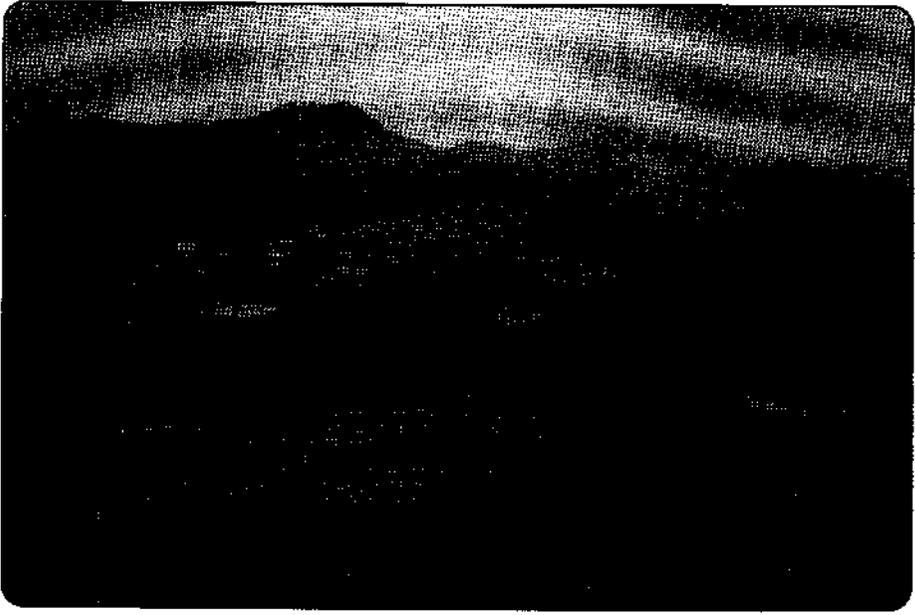
وقال أحد الأخوة المرافقين: إننا قد رتبنا أمر الغداء في القطار مع المدير من أجل أن يكون طعاماً إسلامياً بعيداً عن أية شائبة.

لم يكد القطار يفارق مدينة لانبجو حتى دخل في نفق مظلم لأن المنطقة منطقة تلال عالية أغلبها تلال طينية صلدة.

ثم مر القطار فوق نهر صغير من فروع النهر الأصفر الكبير وإن كان كبيره لا يصل به إلى حجم النيل ولا حتى حجم نهر دجلة فيما رأيناه منه.

واخترق الخط الحديدي منطقة التلال الطينية الصلدة التي هي أعجب ما رأته من أنواع الأراضي في حياتي فهي تلال طينية ولكنها متماسكة كأنما بنيت بناء وهي كثيرة بل هي لكثرتها قد شملت المنطقة التي رأيناها كلها حتى الآن وقد رأيت منها قدراً واسعاً من الطائرة ثم تعددت الانفاق القصيرة التي يدخلها القطار وأظن بعضها يخترق تلك التلال الطينية.

ومررنا بقري ريفية كل بيوتها بدون استثناء من الطين الذي لا يختلف لونه عن لون التلال الطينية الصلدة هذه.



بيوت من الطين في الطريق بالقطار بين لانجو وين تشوان

ولكن البيوت أكثرها مبني بطريقة رثة بحيث تقل عن البيوت الطينية في المدن الصينية التي رأيناها حتى الآن. ولكنها لا تقل عن بيوت الطين في الهند وافغانستان. ولقد ذكرني الركوب في هذا القطار في درجته الأولى هذه بالركوب في قطارات أخرى في العالم كثيرة كان أردأها على الإطلاق القطارات الهندية.

أما هذا القطار الصيني فإنه يعد بينها في الوسط واسوأ ما فيه الغبار والدخان المتطاير من مداخنه الذي تكاثف على زجاج النوافذ حتى لم أستطع التصوير من خلالها .

وقد لاحظت هنا أنه يوجد بين المزارع الواقعة بين التلال الطينية اقسام منها صغيرة محمية عن البرد ببيوت من اللدائن واغطية منها وهي في أغلبها مزارع للخضرات.

كهوف التلال:

ليس العجب من هذه التلال الطينية الصلدة هو وجودها بهذا الشكل الكثيف الواسع وصمودها على الزمن تقاوم الثلوج والامطار والرياح وعوامل التعرية وإن كانت جميعها تاخذ منها فتخصب السهول الزراعية وتغني مياه النهر الاصفر بالطمي الأصفر الذي اكتسب النهر تسميته من لون مياهه المائلة للصفرة.

ولكن العجب أيضاً من صلابتها التي جعلت الصينيين ينحتون فيها بيوتا وغرفاً تكررت رؤيتها هنا كما سبقت رؤيتها في الطريق ما بين المطار ومدينة لانجو واخبرونا أنها أكثر ما تستعمل هنا لايواء الدواب في الشتاء. وبعضها قد ركبوا عليه أبوابا وهي في مجملها مما يذكر المرء بمنظر مدائن صالح مع الفارق بطبيعة الحال.

وهذه التلال جرد، خالية من الأشجار والأعشاب ومثلها الأماكن المرتفعة هنا فإنها جافة خالية من الأعشاب رغم كوننا في فصل الربيع إلا بقايا شجيرات صحراوية تبدو كالمحترقة من الجفاف فكأنها الأرض الصحراوية في بلادنا

العربية من دون فرق لولا وجود الأماكن المنخفضة المزروعة زراعة مزدهرة تعتمد على مياه النهر الأصفر والقنوات التي شقت منه. والطريق ذو مناظر ممتعة لغرابتها.

وكنت واقفاً أتأمل هذه الأرض من النافذة فمر بي احد موظفي القطار ورآني احدق فيها، فقال: هذه الأرض صحراوية ولكن ربما كان تحتها بترول.

الوقادات أو المساواة في الشقاء:

نادت الشيوعية بالمساواة وقامت مدعية ذلك ولقد فجحت في صورة من صور المساواة هي مساواة الأغنياء بالفقراء وليس مساواة الفقراء بالأغنياء فهي أفقرت الأغنياء ولكنها لم تغن الفقراء.

صحيح أنه قد يكون من المريح لأنفس الفقراء أن يروا الذين كانوا اغنياء قد اصبحوا مثلهم فقراء فشعروا بالمساواة أو على الأقل عدم الغبن لحالتهم.

ذكرت ذلك عندما وقف القطار فقال الإخوة المرافقون إن المسؤولين في القطار اخبروهم بأنه سيتوقف مدة ١٣ دقيقة وإنه يمكنكم أن تنزلوا إلى الأرض خلال تلك المدة ولم يكن القطار توقف منذ ساعة وخمسين دقيقة مدة مغادرتنا (لأنجو) إلاوقفات قصيرة لاتتسع للنزول والصعود.

ونزلت إلى الأرض استجلي معالم هذه المحطة التي تسمى (دي جيا تاي) وتقع في منطقة صحراوية الطابع في واد فيه منجم فحم للفحم الحجري شأنه في ذلك شأن كثير من الأماكن في شمال الصين.

رأيت منظراً ذكرني بهذا العنوان الذي ذكرته وهو (الوقادات أو المساواة بالشقاء) ذلك أنني رأيت وقادات من النساء - جمع وقادة - وهي التي توقد الفحم في مرجل القطار فتزوده به ولقد رأيت واحدة منهن معها المجرفة وهي

واقفة على سطح المقدمة في القطار تغرف بالمجرفة من الفحم الحجري الذي هو معروف بثقله وهي لاتكاد تستطيع ذلك وتفرغ في المرجل وقد تثلثت اتقاء لغبار الفحم ولكن الفحم لا يرد غباره اللثام وقد غدت هي وملابسها في منظر يرثى لها منه. وذكرت المساواة بالشقاء.

وذلك أن مساواة المرأة بالرجل في العمل شملت حتى هذه الأعمال الشاقة وهو وظيفة (وقاد) في قطار يسير بالبخار فقلت في نفسي ما أغنى المرأة عن هذه المساواة! وقد رأيت قطاراً للبضائع يحمل فحمًا من هذا المنجم ربما ليذهب إلى جنوب الصين.

صحراء حقيقية:

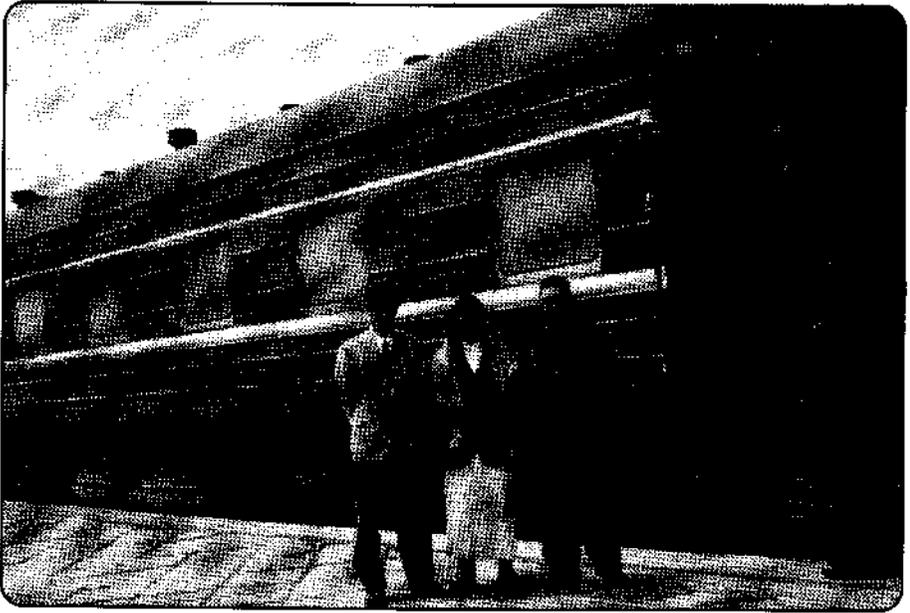
استأنف القطار سيره بعد انقضاء المدة المقررة للوقوف في صحراء حقيقية لاتختلف عن صحرائنا العربية بشيء من حيث وجه الأرض لامن حيث تكوينها لان هذه توجد فيها التلال الطينية الصلدة التي ذكرتها وقد أخذت تتباعد وبصغر حجمها كما لاحظت أن بعضها يكون طينه مختلطا بحجارة حمراء.

ولقد اصبح عدد القرى والمنازل قليلا في هذه الصحراء وكذلك الأراضي المزروعة وإن كانت هذه المنطقة الصحراوية يربها النهر الاصفر فإن القطار يبتعد في بعض الأحيان عن مجرى النهر فتصبح الأرض صحراوية خالصة للصحراء.

ثم وقف القطار في محطة صحراوية بدون سكان رأيت فيه مقادير كثيرة من حجارة صلبة ربما كانوا أحضروها من أماكن بعيدة للبناء بالأسمت المسلح لتكسيورها إلى حصباء للأسمنت وهذه المحطة لاتحاصرها التلال كأكثر الطرق التي قطعناها حتى الآن لأننا تجاوزنا منطقة التلال.

وقد تبين لي بعد ذلك أننا نكن بعيدين عن مجرى النهر الأصفر فقد وقف القطار في محطة في بلدة زراعية وتتألف بيوتها من الطين بعكس أبنية المحطة

فهي مبنية من الأجر خلاف الأبنية السائدة هنا التي هي كلها من الطين، وقد امتدت مزارع هذه جنوباً لأنها الجهة التي يقع فيها مجرى النهر.



صورة تذكارية عند وقوف القطار في الطريق إلى بن تشوان

وعندما فارق القطار هذه المحطة أصبح يسير في أراض زراعية قريبة من مجرى النهر الأصفر و لكنها ليست واسعة لان المنطقة فيما عدا ما هو على مجرى النهر منطقة صحراوية حقيقية، وأكثر المزارع هنا هي مزارع القمح.

صحراء تانقوري:

استمر القطار في سيره المتوسط فلا هو بالسريع ولا بالبطيء بل إنه يعتبر سريعاً بالنسبة إلى القطارات التي تسير بالبخار فمتوسط سيره هو ٥٢ كيلو متراً في الساعة.

ووصل في سيره إلى منطقة صحراوية رملية ذات لون رمادي في الأراضي المنبسطة وفي أطرافها كثبان رملية حمر إذا رأيتها لاتفرق بينها وبين المناطق الرملية في المملكة وليس فيها أي عود أخضر من أعشاب أو غيرها ماعدا شجيرات صحراوية تبدو كأنما احترقت من فعل البرد والثلوج في الشتاء أو من شمس حارة في فصل صيف جاف كان قبل ذلك.

وقد استمتعت برؤية هذه المناطق وكنت أكتب في بعض الأحيان على المائدة الصغيرة المعدة للكتابة ونحوها في مقصورتني بالقطار إلا أن الكتابة فيها صعوبة شديدة بسبب اهتزاز القطار.

وأما رفاقي في الوفد فإنهم قطعوا الوقت بروايات القصص والنوادر في مقصورة أخرى وأما المرافقون الصينيون للوفد فإنهم كانوا في مقصورة مجاورة أيضاً يقطعون الطريق الممل بالنسبة إليهم بلعب الشطرنج.

وفي الساعة الواحدة جاء القوم يدعون إلى تناول الغداء في مطعم القطار فوجدنا عربة طويلة قد نصبت فيها موائد منسقة نظيفة وهي كذلك بطبيعتها لأن هذا الجزء من القطار خاص بالدرجة الأولى ويركب فيه ضيوف الدولة والمسئولون الكبار فيها وكلهم ممن يستحقون أن يتناولوا طعامهم في مثل هذا المكان النظيف.

المأدبة الإسلامية:

كانت المفاجأة في مطعم القطار أن وجدنا جملة عربية مكتوبة بخط عربي جميل هي (المأدبة الإسلامية) ولما كان من غير المعقول أن تكتب في القطار هذا اليوم لمناسبة وجودنا لأنه ليس معنا من يحسن مثل هذا الخط من الصينيين فقد سألنا أهل القطار عنها فاخبرونا أن الذي كتبها هو احد أئمة المساجد في (بكين) وأنهم يحملونها معهم في القطار حتى إذا كان معهم ضيوف مسلمون سواء أكانوا ضيوفا حقيقية أم كانوا من الركاب المعتادين ولكنهم من المسلمين الذين

يركبون في الدرجة الأولى فانهم يضعونها في مكانها من المائدة لتدل على أن الطعام الذي سيقدم على تلك المائدة هو من طعام المسلمين الذي يحل للمسلم أكله.



الرفد في مطعم القطار

وبالطبع فانهم يجنبون هذه المائدة أو الركن من المطعم كل ما هو محرم على المسلمين حتى لحم الحيوان الحلال إذا لم يكن ذبحه مسلم، وقد قدموا طعام الغداء صينيًا معتادًا ذا أنواع متعددة من الصحون أكثر مافيها الأعشاب والخضرات، وخادمت المطعم صينييات منتفحات الوجوه يظهر أنهن من جنوب الصين أو من وسطها.

في مقاطعه نن تشا:

استمر القطار في السير في هذه الأراضي الصحراوية وكنا نراقب ذلك أثناء الغداء.

ولفت نظرنا أحد المرافقين إلى أننا قد فارقنا أرض مقاطعة (كانسو) ودخلنا في أراضي مقاطعة (نن تشا) وهي المقاطعة التي نتجه إلى عاصمتها ولكننا لم نرحدوداً على الطريق ولا مايدل على أننا انتقلنا من مقاطعة إلى مقاطعة والمقاطعة هنا تعني تقريباً مايعنيه لفظ ولاية في الهند مثلاً ولا يكون ذلك مثل ولاية في الولايات المتحدة الأمريكية لأنها دولة اتحادية بمعنى أنها مؤلفة من ولايات متحدة أما الصين فإنها دولة موحدة بمعنى أنها مؤلفة من دولة واحدة ولكنها ذات نظام للمقاطعات يعطي لكل مقاطعة حكومة خاصة بها. ومجلساً تمثيلاً (برلماناً) محلياً أيضاً مع أن المجلس التمثيلي في المقاطعة مثله في ذلك مثل المجلس التمثيلي المركزي الذي هو لجميع الصين إنما هو مجلس لا يمثل الشعب كله لأنه ليست هناك انتخابات عامة حرة وإنما الانتخابات لأعضاء الحزب الشيوعي أو المتحالفين معهم مثل الصين في ذلك مثل سائر الدول الشيوعية. وبعض تلك المقاطعات ذات حكم محلي كما يسمونها وإن كانت لا تستطيع أن تخرج عن الأطار السياسي الذي تنتهجه الحكومة المركزية في بكين.

وهناك فروق عدة بين المقاطعة التي غادرناها وهي (كانسو) وهذه التي نحن مقبلون عليها وهي (نن تشا).

فالأولى حكومتها صينية بمعنى إنها للصينيين غير المسلمين الذين يؤلفون الأكثرية الساحقة في الصين ويسمونهم (خان) والثانية حكومتها للمسلمين الذين هم من أصل صيني ويسمونهم (خوي) وذلك رغم كون المسلمين في هذه المقاطعة لا يؤلفون الأغلبية وإنما هم أقلية عديدة بين الكفار من قومية (خان).

فرئيس الحكومة في مقاطعه (نن تشا) التي نحن مقبلون عليها هو الحاج حسين خي بي لي هو مسلم، ونائب رئيس الحكومة وهو الحاج (قدرة الله مايتنغ أي) مسلم أيضاً وقد سبق أن زارني في مكنتبي في رابطة العالم الإسلامي في

مكة المكرمة عندما كان عضواً في بعثة الحج الصينية هذا العام، وكنا قد استضفنا بعثة الحج الصينية في موسم الحج جرياً على العادة التي تسير عليها رابطة العالم الإسلامي بالنسبة إلى بعثات الحج من البلدان الشيوعية التي تكون قليلة العدد وإمكاناتها المالية محدودة لأن الحرية في التملك محدودة، ولأن الخروج بالعملة الصعبة ممنوع إذا استطاع الحاج أن يجد عملة صعبة في بلاده يشتريها.

وهناك أعمال للمسلمين في هذه المقاطعة التي نحن مقبلون عليها وهي (نن تشا) سيأتي الكلام عليها في محله.

ومع وجود الفروق الكبيرة من هذه الناحية بين المقاطعتين فإن حدودهما تشترك بلافروق في كونها تقع في هذه الأرض الصحراوية الرملية التي لولا وجود النهر الأصفر فيها وإن كنا لا نبصر مجراه الآن ولا ما عليه من مزارع لكنت صحراء ميتة لاتصلح للسكنى.

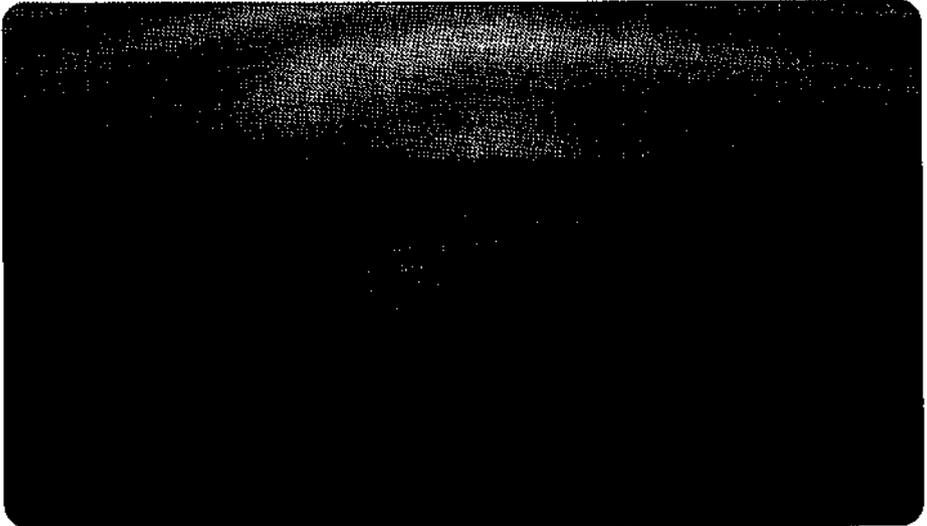
وأخبرنا الأخوة أن هذه الصحراء هي جزء من صحراء (تانقوري) المشهورة في الصين.

ولقد شئت أن أسميها تجاوزاً بدهناء الصين تشبيهاً لها بالدهناء في الجزيرة العربية التي هي رمال مطبقة ليس فيها عشب ولا شجر إلا أن صحراء (تانقوري) هذه دهناء الصين فيها في بعض المواضع أماكن يختلط فيها الطين أو الحصى الصغار بالرمل وإن كان ذلك على قلة، ولقد قلت لرفاق الوفد من السعوديين: ما قولكم فيما لو حمل أحد الأعراب الذين يسكنون في الدهناء أو أي صحراء رملية في بلادنا وأنزل في هذه الأماكن هل يرى ما يستغربه هنا إذا كانت نقلته لها مفاجأة ولم يعلم في أي مكان ينزل؟ فأجابوا بالنفي. إلا أن أحد الرفاق قال متسائلاً: أين الضَّبُّ؟

فأجبتة: إنه لا يكون في الأراضي الرملية الرخوة لأنه يحتاج إلى أرض صلبة يحفر فيها جحره ويذهب به يميناً وشمالاً في مجاهل يضلل بها من يحفره ليصيده كما أنه تكون في العادة عند جحره حصاة وهذا غير متيسر له في هذه الصحراء.

أما صبر الضب على البرد هنا فإن ذلك ما لا أعرفه ولكن أعرف أنه يكون في مناطق باردة في بلادنا العربية فيقضي فصل الشتاء كله في جحره لا يخرج منه حتى ينقضي البرد ويظل دون أكل على ما تزعمه العامة من بني قومنا من أنه يأكل رجيعة وهو برازه. ولاشك في أن هذا تعليل غير صحيح لعدم خروجه للرعوي وإنما الصحيح أنه مثل الحية وأنواع من الأسماك والحشرات التي تستطيع أن توقف الحياة في أجسادها بمعنى أنها تتوقف عن الأكل والشرب مدة طويلة لأنها لا تكون في حياة كاملة معتادة تحتاج معها إلى الأكل والشرب اللازم لاستمرار الحركة وقد أعطاها الخالق ذلك ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾.

تثبيت الرمال:



تثبيت الرمال

قال الأخ لقمان ماشان لي: سترى بعد قليل كيف نثبت الرمال المتحركة في صحراء الصين الرملية فرما يهملك هذا وربما يكون له مماثل في بلادكم. فقلت له إنني في شوق إلى رؤية كيفية ذلك.

ووصلنا المنطقة التي ثبتت فيها الرمال فإذا بي أرى ما أثار عجبني واستغرابي فلم أكن أتصور أن يبلغ عندهم تثبيت الرمال هذه المنزلة من الأهمية التي انفقوا فيها أموالا عظيمة وجهوداً مضنية ولم يشرح لي أحد من المرافقين السبب في ذلك.

لقد رأيتهم يثبتون الرمال عن طريق مربعات ضخمة من الخشب على هيئة ألواح فيها خروق متسعة تعترضها الواح مثلها حتى تؤلف مربعا أو شكل صليب ثم يستقون ذلك بما يشبه الشبكة الواسعة الخروق من أعواد الشجر المصفوفة التي ربطوا بعضها ببعض بحبال قوية.

ثم يدفنون تلك في الرمل المتحرك الذي يوجد في هذه الصحراء على هيئة كتبان صغيرة من الرمال الساقية الذهبية.

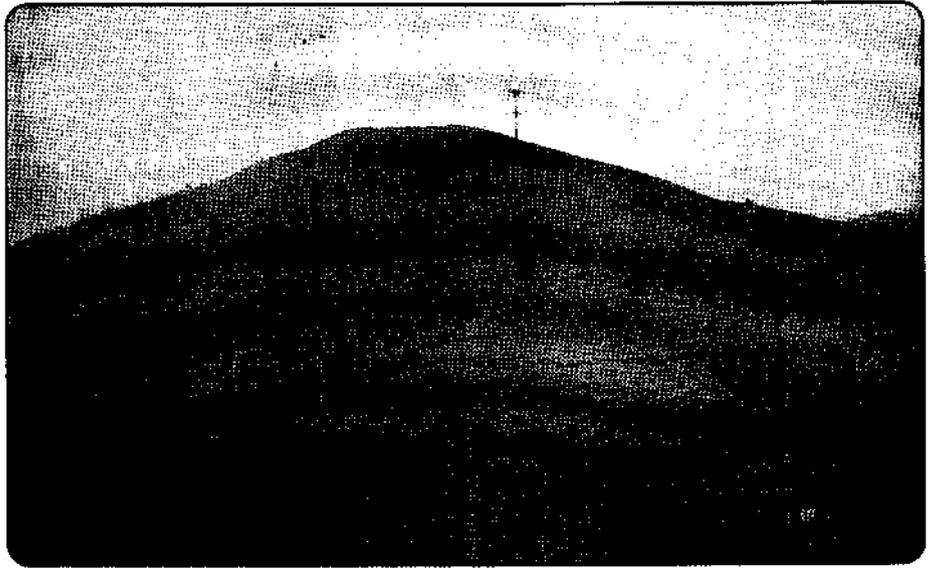


مكافحة زحف الرمال في الصين

وقد بدت رموس هذه الأعواد المتشابكة أولنقل هذه الشباك الواسعة من خلال الرمال التي استطاعت تثبيتها بالفعل فأوقفت زحفها؛ لأنهم وضعوها وقديصح أن نقول: إنهم غرسوها في مساحات واسعة من الرمال وإنها لم تورق لأنهم يضعونها ميتة ولوأنها حية فإنها ستموت بلاشك من عطش الصحراء كما ماتت الأشياء النامية الأخرى فيها.

والذي أثار عجبى هو هذه الأهمية التي أعطوها لتثبيت الرمل في أرض صحراوية مع مايتطلبه ذلك من نفقات وجهود كثيرة.

وزال العجب عندما عرفت السبب - والسبب هو أن التثبيت لم يكن من أجل عدم انتقال الرمال السافية في أرض صحراوية طبيعتها أن تكون كذلك ولايمكن تغيير طبيعتها وإنما كان لأن الوادي الذي يجري فيه النهر الأصفر غير بعيد منا فهو لايبعد عن خط القطار هنا إلاقليلاً جهة الجنوب.



حتى الرمال المرتفعة يمكن إيقافها

وكان سفي الرمال يهدد مجرى الوادي بالطمر والاغلاق وانحباس طائفة من مياهه في هذه الصحراء الرملية وبالتالي يهدد استمرار إنسياب النهر إلى المقاطعات والأراضي التي تعتمد عليه في الري والزراعة بل والكهرباء.

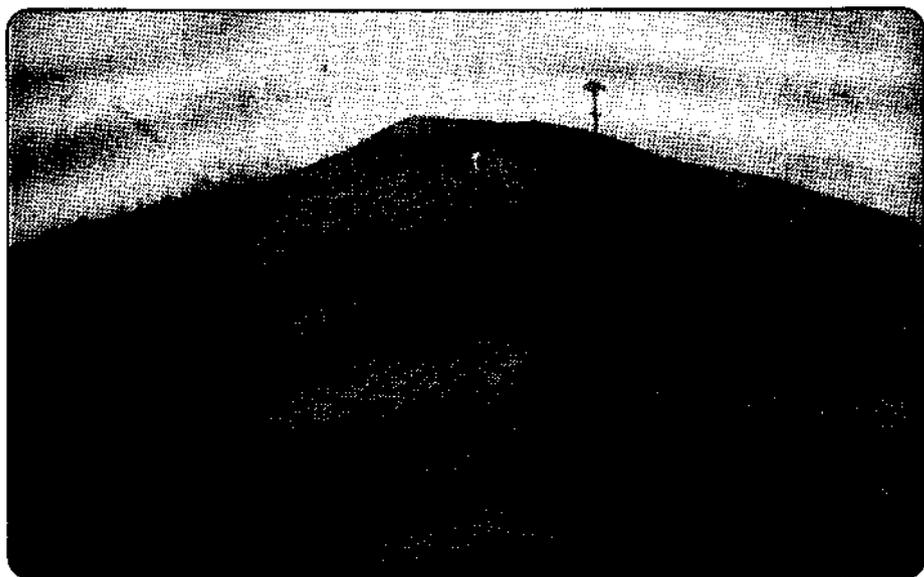
فكان كل جهد يبذل في وقف زحف الرمال ولو كان كبيراً يكون في محله وكان المال الذي ينفق على هذا العمل لم يذهب هباءً.

وأمر آخر له أهميته وهو أن تثبيت الرمال هذا قد تم بمساعدة من الأمم المتحدة لجمهورية الصين الشعبية ليس ذلك من أجل أن الصينيين ليس عندهم خبرة أولاً يجدون فكرة ينقذون بها أحد الواديين المشهورين الكبيرين، وهو النهر الأصفر من الإنغلاق والانحباس أو علي الأقل الشح والنزارة في المياه ولكن الأمم المتحدة عندها الخبراء وعندها الشيء الأهم وهو المال الذي أنفقته على هذا المشروع.

وأما الخبراء فإنهم فيما ذكروا سبق لهم أن عاجوا تثبيت الرمال في أماكن أخرى من العالم ولقد كنت رأيت احد تلك الأماكن وهو في صحراء موريتانيا إلى الشرق من العاصمة (نواكشوط) حيث تهدد رمال سافية مائلة طريقاً ازفلياً هاما تكلف أهل موريتانيا جهوداً وأموالاً اقترضوها لإقامته.

ولكن عمل الأمم المتحدة في رمال موريتانيا غير عملها في رمال الصين فهنا في الصين العمل مثمر ومتقن وهناك في موريتانيا العكس فهم عملوا عملاً ربما يضحك منه من يعرف الرمال وطبيعتها فقد عملوها على هيئة ما نسميه -صرائف- جمع صريفة وهي غصون الأشجار أو جريد النخل يركز في الأرض على هيئة حوائط مستقيمة كالصفوف الطويلة المتياعدة غير المترابطة وقد

تحدثها رمال موريتانيا بالفعل فابتلعتهما حتى رعوسها واستمرت في الزحف في الصحراء وتهديد الخط الأزقلى الغالى.



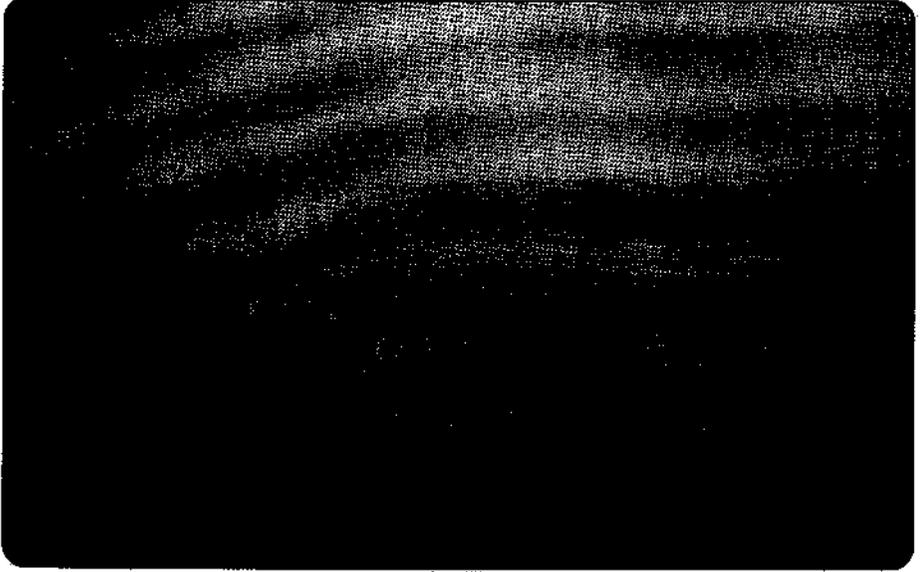
كيفية تثبيت الرمال

واستمر القطار يسير في هذه الصحراء وتكاثفت أدوات تثبيت الرمال التي صار منظرها على البعد يشبه منظر الشباك المنشورة على هذه الرمال أو منظر الحصر المفروشة عليها.

وصرنانرى وادياً عظيماً على أيماننا فيه النهر في مجرى غائط عظيم الإنخفاض لاشك أن السبب في كونه كذلك أن هذه الأرض هي تربة سهلة غير صلبة وقد حفر النهر واديه العميق هذا على مدى الدهور.

ومع ذلك كان يختفي الوادي في بعض الأحيان لأن خط القطار يبتعد عنه قليلاً.

ولقد حاولت أن ألتقط صوراً لهذا الوادي العميق الذي يغص بالخضرة في هذه الصحراء الرملية القاحلة التي يصح أن تسمى كما قد مت (دهناء الصين) ولك أن تتصور غرابة ذلك في نفسي إذا تصورت أنه قد وجد نهر زاخر بالمياه



النهر الأصفر في الصحراء تصوير المؤلف من نافذة القطار وهو يسير

في منطقة الدهناء في شرق المملكة العربية السعودية إلا أن الصور التي التقطتها لم تكن واضحة لسببين أولهما عدم انسياب القطار في السير فهو يهتز اهتزازاً طبيعياً أو أكثر من المعتاد في بعض الأحيان، وثانيها أن نوافذ القطار بقيت مغلقة، لئلا يدخل معها غبار الصحراء وبخار القطار وبخاصة أننا في منتصف هذا النهار الصحراوي وقد نشطت الرياح كما يكون الحال عليه في منتصف الأيام الدفيئة والحارة في الصحراء في العادة في غير فصل الشتاء.

في وادي الدهناء

لأدري لم أجد محبباً إليّ وصف هذه الأرض الصحراوية بالدهناء ووصف وادي النهر الأصفر فيها بوادي الدهناء. ولذلك كتبت هذا العنوان عندما انحدر

القطار بنا من هذه الأرض الصحراوية الخالية تماما من النبات حتى استقر في وادي النهر الأصفر وهو وادٍ أخضر غير متسع بل يعتبر بمثابة الشريط الضيق في الصحراء ولكنه أخذ في الاتساع كلما أمعن القطار السير فيه حتى صار القطار يماشي قناة قد سحبوها من النهر الأصفر سارت مشرقة مثل سير القطار وقد بنيت عليها قرية زراعية ذات بيوت طينية جيدة المظهر .

بلدة شنغ وي:

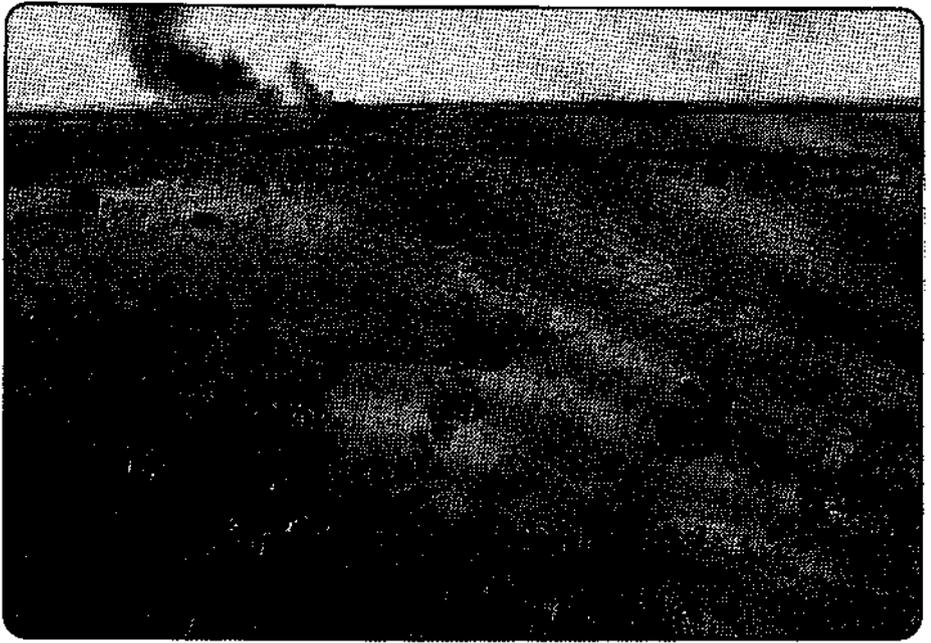
وفي الساعة الثانية والثلاث وقف القطار في محطة تسمى (شنغ وي) على اسم البلدة التي تقع فيها ، وهي محطة جيدة مبنية بالآجر على حين أن أكثر بيوت البلدة مبنية من الطين ماعدا قسماً صغيراً حديثاً فيها فهو مبني من الآجر المقوي بالأسمنت ..



في محطة تشنغ وي

وفسر الإخوة المرافقون معنى اسمها (شنغ وي) بأنه حامية الوسط . فشنغ في الصين حامي أو حامية و(وي) : وسط .

وقد غرسوا في المحطة أشجاراً بطريقة منظمة فنمت وأعطتها منظرًا جميلاً.
ولم يكدر علينا الاستمتاع باستجلاء هذه المنطقة إلاقْدوم قطار من اتجاه
معاكس ومداخنه تنفث دخانا من دخان الفحم أظلم به الجو وكاد يكتم الانفاس.
وسارالقطار في حوض النهر الأصفر هذا في منطقة زراعية تنتشر فيها
البيوت الطينية التي تشبه البيوت الطينية في بلادنا في القديم.



القطار يعبر المنطقة التي ثبتت فيها الرمال

الاستقبال المبكر:

قبل ساعة من وصولنا إلى مدينة (نن تشا) التي نقصدها وقف القطار في إحدى المحطات فصعد إليه أخوان من الأخوة المسلمين أرسلهما المسلمون في (نن تشا) لمقابلة الوفد قبل الوصول إلى المدينة.

وهما الأخ الحاج (يوسف ليو جونغ لو) نائب رئيس الجمعية الإسلامية في مقاطعة (نن تشا) والأخ (محمد فضيل يي تشن فا) نائب رئيس الجمعية الإسلامية أيضاً وهم في الصين يكثرون من نواب الرئيس في أكثر الدوائر حتى في رئاسة الوزارة.

وذكرا أنه قد بقي على الوصول إلى مدينة (ين تشوان) التي نقصدها مسافة خمسين كيلو متراً.

وبعد أن سرنا من هذه المحطة عشرة كيلات أصبحت الأرض الخارجة عن الوادي صحراء قاحلة جداً أكثر جفافاً من صحرائنا العربية وهبت فيها عاصفة رملية مؤذية سحبها ققام غامت معه الشمس دون غيم.

في محطة ين تشوان:

(وين تشوان) هي المدينة التي نقصدها وهي عاصمة مقاطعة (نن تشا) كما تقدم.

وقبل الوصول إلى محطة القطار فيها كان المنظر ريفياً أخضر بعد المنظر الصحراوي الجاف إلا أن الجو لا يزال مغبراً.

ووجدنا الاستقبال العظيم في المحطة من مظاهر زينة لاتصنع إلا لاستقبال الرؤساء والملوك ومصورو التلفزة الرسميون الذين كانوا يسجلون كل حركة من حركات وصول الوفد.. وقد تجمهر جماعة من الاخوة المسلمين عند القطار ولكن بنظام وعلى رأسهم الأخ (قدرة الله مايتنغ آي) نائب رئيس الوزراء في حكومة المقاطعة.

والشيخ محمد إسماعيل مولي لان رئيس الجمعية الإسلامية لمقاطعة نن تشا.



الأخ قدرة الله نائب رئيس الحكومة في الاستقبال في محطة القطار في ين تشوان
على يمينه الأخ لقمان المترجم فالمؤلف فالاستاذ (محمد شاه حبيب الله) عضو وفد الرابطة

والشيخ سليمان او كو جونغ رئيس الجمعية الإسلامية لمدينة ين تشوان
عاصمة المقاطعة والحاج نور الدين منغ ري لين مدير الشئون الدينية في حكومة
المقاطعة. والسيد جيونغ جي نائب رئيس الجمعية الإسلامية لمدينة ين تشوان.
وآخرون غيرهم يطول الكلام بذكرهم كلهم.

فكان استقبال هؤلاء الأخوة لاخوانهم في الوفد حافلا بل هائلاً لم نتوقع
بعضه وليس ذلك من ناحية عدد المستقبلين فهو ليس بالكثرة المفرطة وإنما لكون
الاستقبال رسمياً شارك فيه المسئولون من المسلمين في الحكومة ونظمته الشرطة
الحكومية وصورته أجهزة الإعلام الرسمية وإن لم يكن ذلك مقتصرًا عليها بل
شارك في تصويره مصورون صحفيون وغيرهم من غير الرسميين ولا غرو في

ذلك لان الحكومة رسميا واسميا هي حكومة للمسلمين في هذه المقاطعة بخلاف مقاطعة كانسو.



عند الوصول في محطة القطار في نن تشوان
وقدره الله مايتنغ نائب رئيس الوزراء

وبعد ذلك كان انتقال الوفد بموكب رسمي تتقدمه سيارة عسكرية وتتبعه عدة سيارات رسمية وركب معي في السيارة الرسمية المخصصة لرئيس الوفد الأخ (قدره الله مايتنغ أي) فانطلق الموكب قاصداً فندق الضيافة المسمى (فندق نن تشا) على اسم المقاطعة ويقع الفندق في وسط المدينة ونلاحظ أن الناس هنا يرتدون ملابس زاهية ذوات ألوان أكثر اختلافاً وإن لم تخرج عن الطابع العام للملابس الصينية المستعملة في الصين كلها في الوقت الحاضر.

وخيل إليّ أن وجوه الناس هنا أكثر إشراقاً وأنهم ينالون غذاءً أوفر وأكمل مما يناله سكان مقاطعة (كانسو) التي تركناها في هذا الصباح ومقاطعة (سينكيانغ) التي غادرناها قبل أيام أو هذا هو ما انطبع في ذهني عند النظرة الأولى إلى أهل هذه المدينة.

في مدينة ين تشوان:



المؤلف في دار الضيافة في نن تشا يصادح العلماء

وجدنا في ساحة الفندق حشداً كبيراً من الأخوة المسلمين من أهل المقاطعة وفيهم بعض طلبة العلم بملابسهم السود المميزة وعمائمهم البيض ذوات الذوائب المرخاة خلف العنق. ومعهم أيضاً شخصان مسلمان كبيران قدما من بكين العاصمة للاجتماع بالوفد فقطعا لهذا الغرض ألفا وخمسمائة كيلو متر بقطارهم البظيء هذا وهما الشيخ (الياس شن شيا شي) النائب الأول لرئيس الجمعية الإسلامية الصينية المركزية والشيخ (عيسى محمود كنج تاي) مدير العلاقات الخارجية بالجمعية.

وكان استقبال الوفد عند وصوله الفندق رسمياً حافلاً سجله مصورو التلفزة والصحافة وكان مشهوداً يكاد يفوق الاستقبال الرسمي في محطة القطار.

ثم انزلونا في غرف جيدة في فندق قد رموه حديثاً وجددوا أثاثه ورياشه فأخذنا إلى راحة قصيرة بعد تعب القطار الذي استمر تسع ساعات.

مسجد الفندق:

عندما كنا ننزل في الغرف لفتوا انظارنا إلى محل خاص مكتوب عليه بعربية بارزة ويخط جميل كلمة (مصلى).

وقد تساءلنا فيما بيننا عما إذا كان هذا المصلى قد أعد لمناسبة زيارة الوفد أم انه قديم في الفندق قد أعدوه ليؤدي فيه الصلاة من ينزلون في الفندق من المسلمين لأن الحكومة هنا تكاد تعتبر حكومة للمسلمين، وقد وصلنا إلى الاعتقاد بأنه ليس من أجل الوفد لأنه قاعة واسعة مفروشة بسجاد خاص فاخر يكاد يكون قد فصل لها تفصيلاً وفي مقدمته محراب من الخشب الفاخر المحفور الغالي الثمن الذي يصعب إحضاره لمناسبة واحدة وقد كتبوا فوقه الشهادتين بخط عربي جميل.

وهذا من الفروق بين هذا الفندق وفندق الضيافة في (لانجو) وبينهما فروق كبيرة كلها في صالح فندق (نن تشا) هذا عند المقارنة ما بين الفندقين.

ووجدناهم وضعوا في الغرف الشاي الصيني، وأوعية الماء الحار كالمعتاد ولكنهم هنا زادوا على ذلك بأن وضعوا الفاكهة والحلوى وعصيرا من عصير البرتقال الذي تنتجه هذه المقاطعة ويعصرونه طبيعياً غير مغير.

حفلة الجمعية الإسلامية:

لم يطل بنا وقت الراحة لأن موعد حفلة العشاء التي ستقيمها الجمعية الإسلامية في مقاطعة (نن تشا) هذه قد أوف وقد غربت الشمس منذ فترة.

وقد كانت الحفلة في قاعة في الفندق حضرها نائب رئيس الحكومة وعدد من زعماء المسلمين وأعضاء البرلمان المحلي، وبدأت بكلمة من رئيس الجمعية

الإسلامية في المقاطعة الأخ (محمد إسماعيل موبي) صورها مصوروا التلفزة
الرسميون وكانوا يكثرون من الصور إلى درجة لا أجد لها مبرراً في نظري
وكانت كلمة رئيس الجمعية باللغة الصينية.

وقد رددت عليه بكلمة مناسبة حمدت الله سبحانه وتعالى في بدايتها على
أن قدر هذا الاجتماع ويسره باخواننا المسلمين في مقاطعة (نن تشا) ثم شكرت
الإخوة المسلمين هنا وعلى رأسهم الأخ قدرة الله مايتنغ اي نائب رئيس الحكومة
والأخ رئيس الجمعية الإسلامية في المقاطعة واخبرتهم بمهمة الوفد الذي رأسه
وبأنه وفد من رابطة العالم الإسلامي التي مقرها مكة المكرمة جاء إلى هذه البلاد
في مهمة إسلامية خالصة لله وفي الله وإنا سوف نبحث معكم الأمور المتعلقة
بالتعاون على البر والتقوى مثل المساعدة على إعمار المساجد وتسهيل اداء
فريضة الحج لمن يستطيعون إليه سبيلا من مسلمي هذه البلاد.

ثم انتقل الجميع إلى موائد الطعام في الفندق الذي يقع في جهة منه بعيدة
نوعاً ما عن مكان الاجتماع هذا.

وكان عشاء (متلفزاً) أي مصوراً للتلفزة وللصحف.

وكانت المائدة حافلة تدل على السخاء العظيم الذي تأكدنا منه بعد ذلك في
هذه المقاطعة التي يحكمها المسلمون كما كان عليه السخاء بالطعام في
المقاطعة التي يحكمها المسلمون ولو في الأمور البسيطة في سنيكيانغ
(تركستان الشرقية).

ومن الحق أن نقول: إن هذه الإشادة بكرم الأخوة المسلمين في الصين لا ينبغي
أن نؤخذ على أن ضيافة الصينيين من غير المسلمين كان فيها قصور في
الضيافة أو حتى عدم سخاء فيها حاشا وكلا ولكن موائد الإخوة المسلمين هي
أسخى وأوفر على وفرة موائد الصينيين الآخرين.

ومما يستحق التنويه به هنا أن مآذبة الليلة فيها كل اللحوم المعروفة التي يأكلها المسلمون من لحم البقر إلى لحم الغنم إلى الدجاج والبط والأسماك التي هي أكثر من نوع.

والأشربة ثلاثة أنواع توالي عاملات المائدة ملاً أكوابها باستمرار وعلى ذكر العاملات فقد أخبرونا أنهم من المسلمات وقد كان لفت نظري أن على وجوههن إشراقاً لم أدرسببه حتى أخبروني أنهم مسلمات .

مناظر من المقاطعة:

بعد انتهاء مآذبة العشاء انتقلنا إلى قاعة أخرى في الفندق لأن الفقرة الثانية في البرنامج تشتمل على عرض متلفزٍ مسجلٍ لمناظر واحداث ذات أهمية فيها وذلك من أشربة خاصة عندهم.

فكان الشريط الأول مناظر للصحراء القاحلة ذات الرمال السافية ولكيفية تثبيت الرمال التي رأيناها ونحن في القطار، وكيف أن تثبيت الرمال قد اعطى النتيجة المتوقعة منه فأوقف زحف الرمال بل إن بعض الأراضي الرملية التي كانت رمالها خطراً على ماحولها من المزارع قد استصلحت بمعونة من الأمم المتحدة فصارت أراضي زراعية منتجة ولكن ذلك لم يكن إلا بعد جهود مضنية كان من نتيجتها استصلاح أراضٍ محدودة.

ولم يكن عملهم لقلّة الأرض الصالحة للزراعة في المقاطعة وابتغائهم أرضاً زراعية جديدة ولكنهم فعلوا ذلك ابتغاء وقف الرمال ودرء خطرهما عن مجاري المياه والأراضي المزروعة الخصبة.

وقد رأينا في التلفاز كيف يقطعون اغصان الأشجار ويربطون بعضها ببعض في جبال مفتولة ثم يغرزونها في الرمال ويربطون بعضها ببعض أيضاً على هيئة مربعات حتى تصبح متماسكة لاتزحزحها الرمال ثم صوروا المتاعب التي

واجهتهم وهم يشقون قناة يجلبون بها مياه النهر الأصفر إلى هذه الأراضي الرملية المستصلحة.

أرأيت أن (دهناء الصين) أحسن حظاً من (دهناء العرب) التي ضرب العرب أنفسهم بها المثل في الظمأ من قلة الماء!؟

وعندما انقضى عرض هذا الشريط الذي يبين الأراضي الصحراوية الجديدة في المقاطعة التي يجري فيها النهر الأصفر عرضوا (شريطاً) آخر لمناظر من قسم جبلي فيها خصب لأن فيه واديا يجري فيه نهر آخر يسمونه النهر الأسود وهو صغير و ينبغي أن يلاحظ السبب في نعت الأنهار بالألوان هنا.

وكان الشريط الذي تلا ذلك جميلاً شائناً إذ مثل أحوالاً من أحوال المسلمين المختلفة في هذه المقاطعة من الرياضة التي يتميز بها المسلمون من دون غيرهم وتشبه أكثر ماتشبه حركات المبارزة بالسيوف وإن لم تكن هناك سيوف وفي آخرها يسير المتدرب على رجل واحدة وقد رفع الرجل الثانية ومدّها مدّاً شديداً أفقياً معتدلاً.

وقال لي الأخوة المرافقون عندما رأينا هذه الرياضة في مناسبة أخرى في التلفاز: إنها رياضة معروفة في الصين وانهم قد أخذوها من المسلمين في هذه المنطقة الذين لا يزالون يسعون في تحسينها وتطويرها إلى الأفضل.

ومن المناظر الشيقة منظر زواج للمسلمين بما صحب ذلك من عادات وتقاليد ومن ذلك أنواع الأطعمة ومنها الكعك الذي تصنعه نساء المسلمين لمثل هذه المناسبة وانتقال الزوجة العروس إلى قرية زوجها على عربة يجرها حصان يرافقها أخواتها الصغار ووالدها.

وذلك في مناظر نفيسة لاتتيسر رؤيتها كثيراً.

وانتهى ذلك في حوالي الحادية عشرة ليلاً.

وذهبت إلى الفراش وأنا أفكر في هذه الحفاوة العظيمة التي نشعر أنها صادرة من القلوب في هذه المدينة ولاشك في أن السبب في ذلك هو أن إخوتنا المسلمين كانوا يكرمونا لله وفي الله، وفي أن وجود رجل من أبناء المسلمين على رأس الحكومة فيها هو سبب رئيسي في زيادة الإكرام ومظاهر الاحترام.

يوم الثلاثاء ٣٠/٧/١٤٠٤هـ ١ مايو ١٩٨٤م:

أذان الفجر:

كان صوت المؤذن يجلجل في هذا الفندق الذي لايجلجل في أمثاله صوت المؤذن في العادة حتى في بلدان المسلمين، وقالوا إن هذا المؤذن خاص لمسجد الفندق ثم جاء الإمام فصلى الفجر إذ هو والمؤذن قد عينوا هنا من أجل وجود الوفد في الفندق لأننا قد نزل معنا عدد من الأخوة المسلمين في الفندق من أهل بكين وغيرهم.

وقد رأيت حفاوتهم بالمسجد كبيرة ومن ذلك أنهم جعلوا مكتبة صغيرة فيها كتب دينية من عربية وصينية ملحقة بهذا المسجد.

وكان هذا المسجد الذي هو حقيقة مصلى مع مافي الفندق من عناية ورعاية وما قابلونا به من حفاوة وتكريم باعثاً للسرور مع أن السرور العظيم كان لما وجدنا عليه اخوة لنا مسلمين في هذه المقاطعة النائبة لم نكن نظن أنهم يكونون بهذه المثابة من العناية بأمور دينهم و من المكانة بين بني قومهم من أهل الصين.

وعندما حان موعد الإفطار المبكر على العادة ذهبنا إليه في مطعم الفندق فلاحظنا عليه لافتة مكتوبة بالعربية وبخط جميل أيضاً (المطعم الإسلامي)

ولاندرى أوضعت من أجل زيارة الوفد أم كانت موجودة قبل وجوده والأخير هو الظاهر.

ولمناسبة الحديث عن الطعام والعناية بالمظاهر الإسلامية هنا قال لنا الأخ (قدره الله مايتنغ أي) نائب رئيس حكومة المقاطعة: إن حكومتنا الشعبية ستفتح مطعماً إسلامياً في مدينة بكين العاصمة نديره ونشرف عليه حتى نوفر فيه طعاماً إسلامياً إضافياً نظيفاً ذا نكهة خاصة وهو مايفضله حتى كثير من السكان غير المسلمين لأن مطاعم المسلمين لايقصر الدخول إليها على المسلمين وحدهم بل هي مطاعم عامة ولواقصر الدخول إليها على المسلمين لما كثرت وازدهرت بحيث أصبحت على ما هي عليه الآن من الكثرة والانتشار.

اللقاء برئيس الحكومة والمسئولين المسلمين:

كانت الفقرة الأولى في برنامج هذا اليوم هي اللقاء برئيس حكومة المقاطعة الأخ الحاج (حسين خي بي لي) وغيره من زعماء المسلمين من الرسميين والموظفين الكبار.



الحاج حسين خي بي لي رئيس الوزراء في قاعة فندق ين تشوان على يمينه المؤلف فالاستاذ محمد شاه حبيب الله عضو الوفد فالشيخ عبد الرحمن المنيعي وعلى يساره الحاج إلياس

وكان اللقاء في قاعة ملحقة بالفندق حيث وجدنا رئيس الحكومة ومن معه من كبار المسئولين من المسلمين قد سبقونا إلى القاعة.

فكان الاستقبال الحار الذي كان من مظاهره العناق ما بين رئيس الحكومة وإيأى وذلك أن رئيس الحكومة كان قد حج في عام ١٩٦٤م.

ورغم كونه يتقلد منصب رئيس الحكومة الشعبية لهذه المقاطعة التي هي إحدى مقاطعات جمهورية الصين الشعبية التي تدين بالمذهب الشيوعي فإنه فيما بلغني رجل مسلم متمسك بأداء فرائض الدين ومنصبه حسب الاصطلاح الذي سارت عليه الحكومة الصينية لا بد من أن يتقلده مسلم لأن هذه المقاطعة ذات حكم ذاتي ومخصص للمسلمين من قومية (خوي) كما تقدم.

وقد بدأ اللقاء هذا بمقابلة رجال الحكومة في القاعة المجاورة للفندق وهم:

الحاج حسين خي بي لي رئيس حكومة مقاطعة نن تشا المتمتعة بالحكم الذاتي

السيد محمد علي ماشى بن رئيس مجلس النواب في المقاطعة.

السيد عبده ماينغ لان نائب رئيس حكومة مقاطعة نن تشا.

السيد جمال ماسى جونغ نائب رئيس حكومة مقاطعة نن تشا.

السيد إسحاق ماجودو نائب رئيس حكومة مقاطعة نن تشا.

السيد مالك بن حسين نائب رئيس المجلس الاستشاري للمقاطعة.

السيد حسين تنغ خين مدير الشؤون الخارجية لمقاطعة نن تشا.

السيد يوسف مافي لو رئيس لجنة شؤون القوميات في حكومة المقاطعة.

الحاج نور منغ وي لين مدير الشؤون الدينية لمقاطعة نن تشا.

الحاج قدرة الله مايتنغ أي نائب رئيس حكومة مقاطعة نن تشا.

السيد خير نغ شو نائب رئيس الإدارة الدينية لمقاطعة نن تشا.

وقد حضر هذه المقابلة كل من..

الحاج الياس شين شيا شي نائب رئيس الجمعية الإسلامية الصينية المركزية في بكين، والشيخ محمد إسماعيل مولي لان رئيس الجمعية الإسلامية لمقاطعة نن تشا والشيخ سليمان اولوجونغ رئيس الجمعية الإسلامية لمدينة ين تشوان وقد ألقى معالي الحاج حسين خي بي لي رئيس الحكومة كلمة قال فيها: إن مقاطعة نن تشا لقومية خوى الإسلامية المتمتعة بالحكم الذاتي تأسست عام ١٩٠٨ وكانت متأخرة قبل التحرير ومع أنها تضررت ابان الثورة الثقافية في الصين إلا أنها بدأت تتقدم تقدماً ملموساً في المجالات الصناعية والعمراية والثقافية ثم شكر الرابطة على اهتمامها بالمسلمين ودعا إلى أن تقوم الرابطة أيضاً بدور الوسيط في توثيق العلاقة بين الدولتين.

وقد حج الحاج حسين خي بي لي في عام ١٩٦٤ ووجهت له دعوة من رابطة العالم الإسلامي لاداء مناسك العمرة في غير أيام الحج لكي تتاح له الفرصة لمشاهدة معالم الحضارة والتقدم في المملكة العربية السعودية .

وقد أجبته بالشكر على الترحيب الحار الذي لقيه الوفد كما أشدت بحسن العلاقة الأخوية بين الجمعية الإسلامية ورابطة العالم الإسلامي التي تقرب الصلات الأخوية بين مسلمي الصين والمسلمين في العالم وأن الرابطة تؤدي واجبها الإسلامي سواء بالمساعدة على تنفيذ المشروعات الإسلامية أو بالاستضافة لبعثة الحج في مواسم الحج من كل عام.

انتهى هذا اللقاء الودي الذي كان مفيداً لي و كان مبعث سرور مضاعف لأنه غير متوقع و لما وجدته عليه هو ومن معه من تمسك بالشخصية الإسلامية

وحرص على عدم الذوبان في هذا المجتمع الكافر، بل إنني رأيتهم الآن وفي ظل هذه الحكومة الشيوعية التي يسمونها شعبية لأنها لم تقيد حرية المسلمين في تعمير المساجد، بل وبناء مساجد جديدة لم يكتفوا بالمحافظة على رأس المال وإنما يحاولون أن يحسنوا من وضعهم في الناحية الدينية وذلك له أثر هام على الدعوة إلى الإسلام في أوساط الكفار كما هو معروف.

وفي نهاية اللقاء نهض رئيس الحكومة وقدم لي ولأعضاء الوفد هدية مما تنتجه هذه البلاد وهي زهريات جميلة أي حاملات زهور كتب على بعضها الشهاداتان كما أهدى إلينا حبوباً مشهورة في الصين بتجديد الشباب أو كما يقولون بترميم الجسم ضد الشيخوخة لأن أهم عملها في الجسم ترميم الأعصاب الثالفة والمساعدة على إسالة الدم في العروق وهي مشهورة في جميع أنحاء الصين.



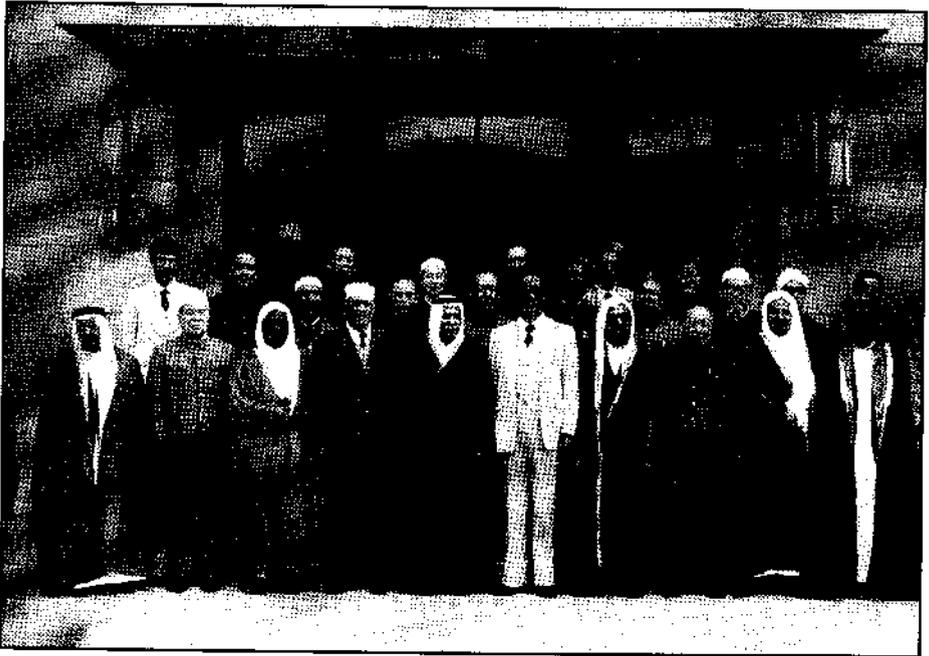
الحاج حسين يقدم الهدايا لأعضاء وفد الرابطة

وهذه الحبوب التي أعطانا إياها هي من إنتاج هذه المقاطعة التي تصدرها إلى كافة أنحاء الصين وإلى الخارج وأقرب وصف إليها هو (حب الصنوبر)

واسمها (لى سي ي) وطريقة استعمالها أن تؤكل بمعدل خمس حبات في اليوم مع إحدى السوائل مثل الشورية أو الشاي أو حتى الماء.

ويقولون: إنه لايجوز أن يتناول المرء منها أكثر من ذلك لأنه إذا تناول عشرين حبة منها مثلاً في اليوم فإن ذلك يسبب له النزيف في الأنف وبالتالي فقدان جزء من دمه. وهي واحدة من الأدوية الصينية المتعددة التي تعتمد على الأعشاب والأدوية الطبيعية من دون أن تمسها معامل الأدوية الصناعية أو تدخلها المواد الكيماوية.

وقدمت له هدية هي مقادير من تمر المدينة المنورة معلبة في علب جيدة وساعة يدوية مناسبة.



صورة تذكارية لوفد الرابطة أمام باب الفندق في بن تشوان
مع رئيس الحكومة الحاج حسين خي بي لي وقدرة الله ما يتنغ
ومحمد علي ما تشي رئيس البرلمان في المقاطعة

جولة على المساجد:

قدمت القول بأن لرؤية المساجد في البلاد التي يحكمها نظام شيوعي أهمية عظيمة لأن المبدأ الشيوعي يقوم على الإلحاد وبالتالي لا يطمئن بل لا يسمح بعمارة دور العبادة سواء بالمصلين المتعبدين أو بعمارتها بتشييدها وإصلاحها.

غير أن شيوعية الصين كانت في بادئ الأمر تزعم أنها شعبية تتآخى مع جميع الذين يتحالفون معها ضد الاستغلال والاستعباد -على حدزعمهم- ولذلك تألفت في أول الأمر مع هيئات واتجاهات غير شيوعية وسمت نفسها لهذا السبب جمهورية الصين الشعبية.

ومن الأشياء التي تعاقدت الحكومة الصينية الشيوعية مع غير الشيوعيين عليها حرية العقيدة وعدم التدخل في الشئون الدينية .

وكان هذا هو السائد في أول الأمر غير أنه بعد فترة طويلة أحس فيها قائد الثورة الشيوعية في الصين (ماو تسي تونغ) أن العقيدة الشيوعية بدأت تفتقر، بل بدأ الشعب يتململ تحت وطأتها وينشد الخلاص منها فأجج ماسماه بالثورة الثقافية والحقيقة أنها الفورة الفكرية الشيوعية الصرفة وحرص الشباب والأحداث على كل ما هو قديم ولو كان أصيلاً فحرقت الكتب والمطبوعات العربية وخربت المعابد والمساجد وصودرت الحريات وزج بالعديد من أئمة المساجد في السجون حتى إنه لم يبق في مدينة بكين العاصمة الإمسجد واحد هو الذي ظل مفتوحاً لكي يؤدي السفراء والممثلون للبلاد الإسلامية والوفود الرسمية الصلاة فيه. وقيل لنا: إنه حتى ترك هذا المسجد الوحيد في بكين من الاغلاق أوالتخريب كان بناء على تدخل من رئيس الوزراء السابق (شوان لاي) الذي كانت له صلات قوية بعدد من زعماء العالم من أظهرهم الرئيس عبد الناصر وحتى الملك فيصل- رحمه الله تعالى- فقد كان اجتمع به إبان المؤتمر الآسيوي الأفريقي في باندونج وهو يعرف مدى تأثير هذه الأعمال في نفوس المسلمين. ثم جرى ما جرى من ثورة الشعب الصيني على عصاة الأربعة التي كانت مساعدة للزعيم (ماو) على تأجيج الثورة الثقافية وتخریب البلاد

فاستفاد المسلمون من ذلك مثل غيرهم وأعيدت إليهم أكثر المساجد ومازالت الإعادة مستمرة للباقي منها ، وعلى أية حال فإن هذا ليس موضع الحديث عن الماكرات التي حصلت للمسلمين تحت ظل الحكومة الشيوعية فذلك ربما يكون له مجال في الحديث عن تاريخ المسلمين في الصين.

وإنما جر إلى هذا الحديث ما اعتزمنا القيام به اليوم من رؤية المساجد في هذه المدينة وماقرب من ضواحيها لأن حالة المساجد فيها تكاد تكون مرآة لصدق دعاوى المسئولين من إعطاء المسلمين قدراً من الحرية من عدمه.

ومن الطبيعي أننا لن نكون ممن تخذعهم المظاهر فمجرد وجود المسجد في بلد ليس دليلاً كافياً على أن أهل ذلك البلد أحرار في دينهم وان كان دليلاً من الأدلة لا يقوى الا إذا عضده غيره من الأدلة على قدرة أهل البلد على عمارة المسجد بالعبادة والتعليم وعلى قدرتهم أيضاً على عمارته بالإصلاح والترميم.



الإخوة الذين اصطفوا عند باب الفندق لخروج وفد الرابطة

انطلق الموكب في التاسعة والربع من هذا الصباح تاركاً قصر الضيافة الجميل المسمى (فندق نن تشا) وهو فندق حكومي وكان يرافقنا عدد من الأخوة المسلمين من أهل هذه البلاد وانضم إلى فريق الترجمة أحد أبناء المسلمين و قد يسمى نفسه (بحاراً) لأن الاسم الصيني الأخير له يقرب لفظه من ذلك وقال: إنه تعلم العربية في معهد اللغات في بكين ثم سافر مع جماعة صينية شعبية للقيام ببعض المشروعات في اليمن الشمالي وقال إنها مشروعات تنفق عليها المملكة العربية السعودية ضمن البرنامج السعودي لمساعدة اليمن، كما أنه زار عدداً من البلدان العربية منها دولة الامارات المتحدة ولكنه والحق يقال رغم ما قال- لايساوي بل لايقارب مترجمنا الحصيف اللطيف الأخ (لقمان ماشان لي) الذي له ذوق في اللغة العربية لا يقل عن ذوق أهلها وله اجتهاد في معرفة غربتها يفوق مالهم من ذلك والاسم الصيني لهذا المترجم الجديد هو (شو فو هاي) واسمه الإسلامي (أحمد عبد الله بحار) . ولكن طول اسمه لم ينفعه في المعرفة ولم يجعلنا نستغنى عن الشيخ الحاج لقمان .

اخترق الموكب وسط المدينة المزدهم في هذا اليوم الذي هو يوم عطلة سنوية لأنه يوم عيد العمال عيد الأول من شهر (مايو) أيار . وأكثر الذين فيه من المشاة الذين كاد يضيق بهم ، ومن الملاحظة السريعة على القوم أن في وجوههم نضارة ليست في وجوه أكثر الصينيين الذين رأيناهم ربما كان ذلك بسبب الطقس أو الموقع الجغرافي لهذه المقاطعة: وربما بسبب خصب المقاطعة وقلة السكان فيها قلة نسبية وسرنا مع شارع التحرير وعلى أوله أبنية حديثة جميلة وهو محاط بالخوانيت (الدكاكين) التي أغلبها حكومي بمعنى أن الحكومة تملك الخانوت ومافيه من بضاعة والعمال الذين فيه يعتبرون عمالاً للدولة كالموظفين عندها .

وذكرنا لنا أن فيه خوانيت خاصة ويسمونها هنا شخصية لأنها دليل مادي على التملل تحت الشيوعية و عدم صلاحيتها للتطبيق الكامل .

وفي رأس شارع التحرير هذا نصب صيني الطراز شبيه بقوس النصر مع الفارق إذ هو أقل قدرا وأدنى مستوى من ذلك وحوله ميدان صغير يفضي إليه الشارع وقالوا: إنه بني هنا بمثابة مركز للمدينة يخرج منه من وسطها إلى جنوب المدينة. وبعد هذا النصب بيوت من بيوت الطين القديمة قالوا إنها ملك للحكومة وهي مهدومة ذكروا أن السبب في ذلك أنهم يريدون أن يقيموا على أنقاضها أبنية كبيرة صالحة، ولقد ذكرت منظر البيوت الطينية في بلادنا في القديم ، وداخل هذه البيوت وغرفها لاتبعد عما كنا نعرفه في بيوتنا كثيراً.



نصب على هيئة بوابة في ين تشوان

ويلاحظ المرء هنا ملاحظته في مقاطعة كانسو من أن اللغة الصينية هي اللغة الوحيدة هنا، لا ترى على الأبنية المهمة أي لافتات مكتوبة بلغة سواها.

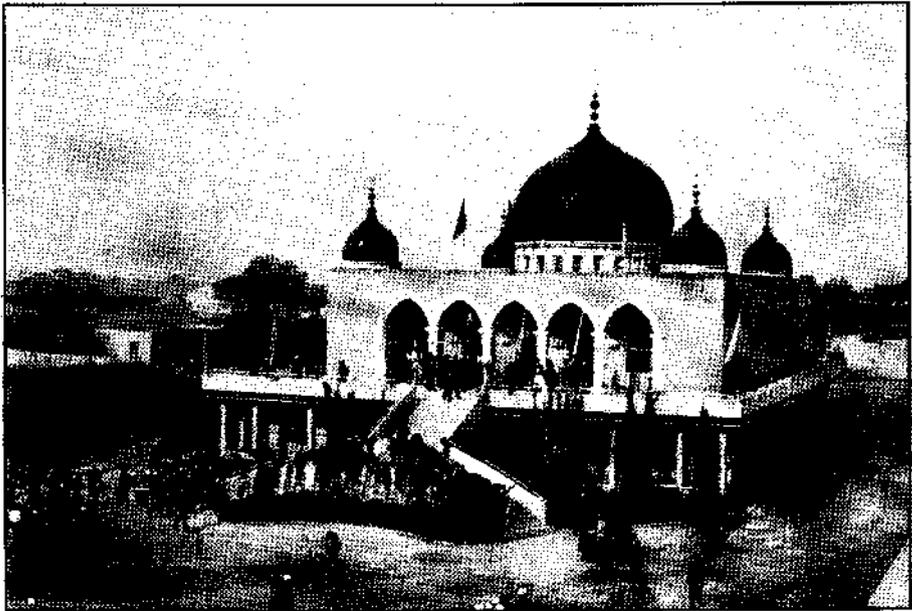
ولمناسبة الأبنية التي ستقيمها الحكومة ذكروالنا أن الحكومة تؤجر الغرف إلى عمالها وموظفيها بأجرة تكاد تكون رمزية وهي ثلاثة ينات في الشهر للغرفة الواحدة ولأدري صحة ذلك لأن تكلفة البناء قد زات ماعدا أجرة العمال. مع أن الحكومة تذكر أنها لاتريد بالايجار لهؤلاء الريح وإنما تريد أن تؤمن لهم ما يحتاجونه من مساكن.

ومع أن الصحيح الذين عرفناه فيما رأيناه بأنفسنا من بلاد الصين أن الحكومة لا توفر ما يكفي عشر معشار ما يحتاجه أبناء الشعب من المساكن وإنما تقوم بذلك في خارج اوساط المدن الرئيسية البيوت الطينية في الأحياء الشعبية والأرياف وبيوت الأخشاب في الأماكن المطيرة من البلاد.

وبعد الخروج من هذا النصب الصيني الذي كان يعج براكبي الدراجات تركنا الشارع الرئيسي إلى آخر فرعي مزفتة زفتة جيدة وقلت في نفسي أين أرومسي من هذا ؟.

فهذه المدينة (ين تشوان) على صغرها النسبي إذ سكانها يبلغ عددهم ثلاثمائة وسبعين ألفاً هي أحسن تنظيماً وأكثر عناية بالشوارع والمرافق العامة من مدينة أرومسي عاصمة سينكيا نغ التي يبلغ سكانها مليوناً من النفوس.

المسجد الجنوبي والمفاجأة:

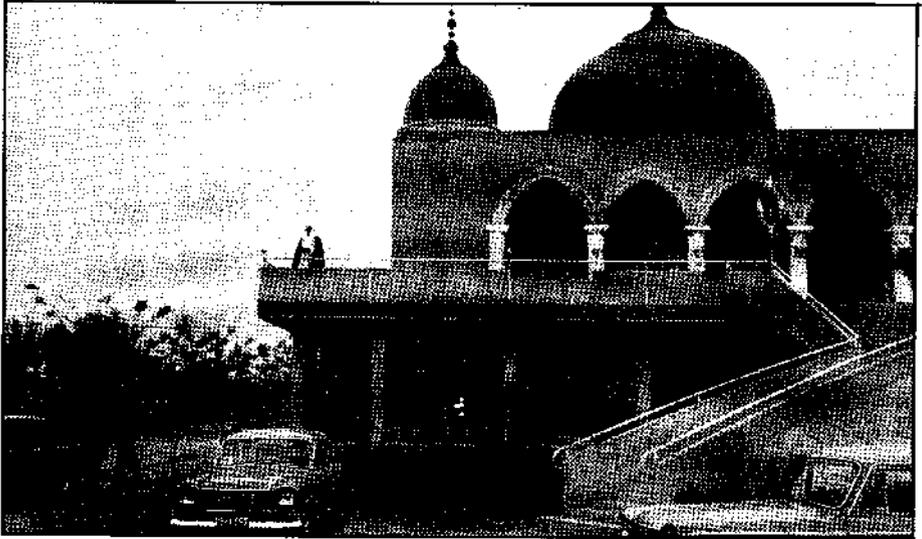


المسجد الجنوبي في ين تشوان

سار الموكب مع هذا الشارع الفرعي الذي تحف به بيوت طينية جيدة المظهر والقصد زيارة المسجد الجنوبي كما يسمونه لأنه واقع في هذا الجزء الجنوبي من المدينة واسمه مسجد (نانغ وان) بمعنى المسجد الجنوبي.

وكانت المفاجأة عندما قبلنا عليه مفاجئتين اولاهما أنه مبني على طراز عربي إسلامي وإن شئنا الدقة قلنا على الطراز العربي (الملوكي) فهو بقبة عربية كبيرة بارزة تدور بها نوافذ ذات زجاج ابيض والقبة مطلية بطلاء أخضر جميل. ويحيط بها قباب اربع صفار في اركانها الأربعة وكلها مطلية بطلاء أخضر والمفاجأة الثانية أن حكومة مقاطعة (نن تشا) الشعبية هي التي وقع عليها الجزء الأكبر من نفقات بنائه.

ذلك بأنه كان في الأصل مسجداً قديماً يرجع تاريخه إلى اسرة (مينغ) هكذا قالوا لنا في ذكر تاريخه وذكر تواريخ مساجد أخرى في تاريخهم التقليدي يؤرخون باسماء الأسر الحاكمة ثم يعودون يحسبون متى ابتدأت تلك الأسرة ومتى انتهت ولما كنا لانعرف تاريخ اسرة مينغ ولاغيرها فإنني سألتهم عن التاريخ التقريبي لبنائه الأول فذكروا أنه يرقى إلى أكثر من ثلاثمائة سنة.



ركن من المسجد الجنوبي في ين تشوان

وهو مسجد عزيز على نفوس المسلمين في هذه المقاطعة ولكن الشيوعية في عهد عصاة الأربعة وثورتهم الثقافية خربوا هذا المسجد فيما خربوه من مساجد وأماكن أثرية أخرى لأنهم سيقيمون بزعمهم على انقاض ذلك ثقافة شيوعية جديدة فلما ولي عهدهم الأدبار واعادته الحكومة الحاضرة اليهم كانت العامة من المسلمين أعجز من ناحية المال عن أن تسارع إلى بنائه وبخاصة أنهم أرادوا أن يبنى على طراز عربي إسلامي خلاف بقية المساجد في الصين أو أكثرها فإنها مبنية على طراز صيني لذلك قامت الحكومة ببنائه وأسرعت في ذلك حتى قالوا إنه تم وصار على ما هو عليه الآن في مدة عشرة شهور.

وكان ابتداء البناء فيه يوم ٧/٢/١٩٨٢م. وقد أسهمت الجمعية الإسلامية في نفقات بنائه ولم يتلقوا أية مساعدات من خارج الصين على ذلك.



الصعود للطابق
الثاني من المسجد

وجدنا جماعة من الإخوة المسلمين في استقبال الوفد عند البوابة الخارجية للمسجد يتقدمهم الأخ (محمد إسماعيل لي جنغ رين) إمام المسجد والأخ (عمر لي فونغ) مؤذن المسجد .

فصعدنا من الفناء الخارجي المكشوف المحيط بالمسجد إلى درج ينتهي إلى المصلى في طابق فوق الأرض فرأيت في غاية من النظافة لالكونه جديداً فحسب وإنما لكونه معتنى به واخبرونا أنه يتسع لأكثر قليلا من ألفي مصلي .

ومن فوق الدرجة استطلعنا المنطقة المحيطة بالمسجد التي ذكروالنا أنها تعتبر من أحياء المسلمين واسم الحي (نانغ وان) . وقد هدموا بعض البيوت الطينية القريبة من المسجد بحيث أصبح حوله فراغ واسع مناسب يسمح لالظهار المسجد ويبرز للناظرين فحسب وإنما ليتمكن إذا احتيج في المستقبل إلى توسعته أو إنشاء مرافق جديدة أن يتسع لذلك .



النزول من المسجد
الجنوبي في بين
تشوان
مع إمام المسجد

ومن المصلى الرئيسي انحدرنا إلى الطابق الأرضي بين عدسات مصوري التلفزة ومصوري الصحافة وهو أمر لم نقصده ولم نرم إليه ولكن اخوتنا المسلمين المسئولين في حكومة هذه المقاطعة أرادوا ذلك وقال لي أحد الإخوة المرافقين إنهم يريدون أن يحتفظوا عندهم بسجل كامل مصور لتحركات الوفد وتنقلاته في المقاطعة. ويتألف الطابق الأرضي من محلات وقاعة اجتماع ومكتبة.

فوجدنا مالفت انظارنا في أماكن الوضوء من نظافتها وكثرتها وقد صفوا اباريق الوضوء فيها صفوفًا منتظمة.

ثم انتقلنا إلى غرفة أخرى في هذا الطابق الأرضي وجدناهم قد اعدوا فيها مائدة كبيرة عليها مقادير كبيرة من المكسرات والحلوى والفاكهة إلى جانب الشاي الصيني المعتاد.

وكانت جلسة مذاكرة طيبة مع إمام المسجد والأخوة المسلمين من أهل هذا الحي على هذه المائدة التي لم نستشر في إقامتها ولو كان لي من الأمر شيء في هذا الأمر لما وافقتهم على ذلك لأنه يكلفهم مايشق عليهم توفيره ونحن لم نأت للموائد وإنما جننا لمعرفة أحوال إخوتنا المسلمين ورسم الطريق لكيفية التعاون معهم في أمور دينهم.

وقد رأيتهم هنا يعملون في الشاي شيئًا لم أر من قبلهم ممن مررنا بهم من أهل الصين يعملونه وهو أنهم يضعون في الشاي حبوبًا صغيرة مثل حبوب السمسم تكون طافية فوق الفنجال وظني أنها من حبوب حدثونا عنها أنها تنبت في هذه المقاطعة وأن لها أثرًا طيبًا جيدًا وقد أهدى منها لنا رئيس الحكومة الحاج (حسين خي بي لي) فيما أهداه لنا من إنتاج المقاطعة وهي في مظهرها لا تفرق بينها وبين حبوب السمسم المعتاد.

وتزين ساحة المسجد الخارجية المكشوفة نافورة جميلة تتراقص مياهها فتزيد الجو ندى على ندى ليس بحاجة إليه لأننا أصبحنا هذا اليوم على جو غائم معتاد واخذ السحاب يرسل رذاذاً خفيفاً فطلب الإخوة من أهل المسجد أن يلتقطوا للوفد صورة تذكارية أمام هذه النافورة فكانت هذه الصورة التي لا عيب فيها إلا أنها اقتصرت على بعض الأخوة المسلمين دون بعض.



صورة تذكارية أمام النافورة في المسجد الجنوبي
مع إمام المسجد وبعض المسلمين من بن تشوان

إذ لاحظنا أن حشداً من المسلمين كانوا يقفون خارج أسوار المسجد يرقبون الوفد ويحيونه بأدب واحتشام على عادة الصينيين في التزام الأدب وعدم الفوضى في الاستقبالات أو الاجتماعات.

ولا يزالون يعملون الآن في بناء بوابة للمسجد كبيرة يدخل منها إلى الساحة الخارجية المكشوفة وذكروا أيضاً أنه يحتاج إلى مئذنة يريدون لها أن تتناسب مع طراز المسجد العربي وقبته الكبيرة ولذلك لا بد من أن تكون عالية بحيث يكون المسجد معلماً سياحياً من معالم المدينة بل من معالم هذه المقاطعة إلى جانب كونه مكان عبادة.

وأخبرونا أنهم قدروا النفقات اللازمة للمئذنة بحوالي اربعمائة ألف ين اي حوالي ستمائة وثمانين ألف ريال سعودي فوعدناهم في أمر المساعدة على بنائها.

إلى المسجد المتوسط:

هكذا سموا المساجد القديمة بموقعها من المدينة فمن المسجد الجنوبي انطلق الموكب عائداً إلى قلب المدينة القديمة لزيارة (المسجد المتوسط) كما يسمونه أو بالصينية (تشونغ سي اي).

وكان مرور الموكب من شوارع المدينة أشبه بالمظاهرة الإسلامية لأن هذا اليوم يوم أول مايو هو يوم عطلة والموكب بسياراته الكثيرة الفاخرة بالنسبة للشعب الصيني الذي لا يستطيع الفرد من أهله أن يملك أي سيارة ونحن أعضاء الوفد نرتدي الملابس العربية كاملة فيكون ذلك أكثر إغاثاً لنظر المواطنين.

وهذا مبعث سرور لأخوتنا المسلمين في هذه البلاد كما أخبرونا لأنهم يقولون بالفعل لا بالقول لمواطنيهم الصينيين من غير المسلمين: إننا لسنا وحدنا في هذا العالم انظروا إلى أخوتنا المسلمين الذين جاءوا إلينا من البلاد المقدسة الإسلامية ليشاركونا القيام على شئون ديننا.

ويلمح المرء الذي يمر وسط هؤلاء القوم بأن وجوههم فيها طول بالنسبة إلى عامة أهل الصين، وأن عليها رونقاً لأنهم في أغلبهم أو في قسم كبير منهم

ينتمون إلى قومية (خوى) التي يقولون: إنها قومية إسلامية من المسلمين الذين جاؤا من البلاد الإسلامية البعيدة من فارس وتركستان وبلاد العرب فاختلطوا بالمسلمين الصينيين ومن أسلم من الصينيين اختلط بهم وصار مثلهم من قومية (خوي)، وإن كان قبل ذلك يعد من قومية (خان) التي هي القومية الغالبة في الصين وأهلها هم الأكثرية من أهل الصين وهي كافرة كما هو معروف.

مررنا بسوق اسمه (سوق الدقيق) فيه رواق من الخشب تحمله أعمدة من الخشب القوي مطلية بلون أحمر كما هي العادة في طراز البيوت الصينية القديمة، ولم نقف في هذا السوق وتمنيت أن أنزل واختلط بالناس وأتحدث إلى بعضهم ولكنني جريت ذلك في أماكن أخرى من الصين فوجدت أنه من الصعوبة بمكان لأن رجال الأمن والمرافقين الذين معنا سيلتفون علينا بغرض الحماية الشخصية وجماهير المواطنين يلتفون علينا من باب الاستطلاع فلا يكون لي ولا لمن أريد أن أحدثه الحرية اللازمة للحديث.

هذا إلى جانب شيء قالوا إنه نادر الحدوث في هذا الفصل من السنة وهو نزول المطر فقد بدأ يتساقط فيمنع الوقوف والتجول دون وقاية من مظلات أو نحوها.

المسجد الذي حماه الله:

كان أول مالفت انظارنا عندما وقعت أعيننا على المسجد أنه ذو طراز صيني عتيق من طراز البناء التقليدي.

وعندما اطمأن بنا النزول من السيارات وتحدثنا مع إمامه الشيخ (حبيب عبد الله شي سونغ لي) وهو نائب رئيس الجمعية الإسلامية لمقاطعة (نن تشا) وغيره من الأخوة من أهل الدين والعلم في المسجد عرفنا السر في ذلك وهو أن هذا المسجد قد حماه الله من شرور الشيوعية في زمن الثورة الثقافية فلم يصيبه بتخريب لذلك بقي على ما هو عليه.



عند الدخول إلى المسجد المتوسط في بن تشوان على يساري إمام المسجد

وقد أخبرونا أنه فرغ من بنائة الحالي في عام ١٨٦٠م، أي منذ حوالي قرن وربع من الزمان وهو على الطراز الصيني القديم لم يتغير منه شيء فهو ذوسقوف خشبية مسترخية بخشب مخروط منقوش نقشا بارزاً.

هذا وكان مصورو التلفزة يلاحقون الوفد يصورون كل حركة تصدر عن أعضائه.

دورة تدريب الأئمة:

في قاعة جيدة نظيفة وجدنا قوماً يدرسون على هيئة فصل دراسي واخبرونا أنهم يدرسون في دورة لتدريب أئمة المساجد في هذه المقاطعة نن تشا.

ويبلغ طلابها أو الدارسون في هذه الدورة ٤٠ شخصاً فيهم شبان وشيب والشيب حوالي ٧٠٪ وهذا أمر سار جداً لأن معناه أن الجيل الجديد الذي نشأ تحت ضغط الحكم الشيوعي لن يتخلى عن إمامة المساجد وعمارتها.

وقد اخبرونا أن طلاب هذه الدورة هم الدفعة الثالثة من دورات أقاموها لتدريب الأئمة، وكانت الدورة الأولى عام ١٩٨٢م، وعدد الدارسين فيها ثلاثون

طالباً، والثانية في عام ١٩٨٣م وطلابها أربعون مثل هذه وتستمر الدراسة في الدورة ستة أشهر.

ومدير هذه الدورة هو الشيخ (محمد إبراهيم ماجنغ ساي).

وقد أقيمت في الدارين كلمة تتضمن النصح، والوصية بإخلاص العمل لله، وبينت فيها المسؤولية الكبيرة التي يتحملونها لكونهم سيصبحون أئمة المساجد بمعنى أنهم المسئولون عن شئون المسلمين فيما يتعلق بالعبادة والإفتاء والإرشاد.

ثم عقب عليها رئيس الجمعية الإسلامية الصينية بكلمة باللغة الصينية أخبروني أنها تتضمن التعريف بالوفد وطلب منهم أن يعوا هذه النصائح ويتذكروها.



صورة تذكارية لوفد الرابطة داخل المسجد المتوسط مع العاملين والدارسين في دورة تدريب الأئمة

وقد تأملت هؤلاء الأخوة الدارسين الذين سيصبحون أئمة في المساجد في المقاطعة وبعضهم يتولون الإمامة في الوقت الحاضر فوجدتهم نظيفي الأبدان والثياب على وجوههم إشراق عجيب وخاصة إذا قورنوا بمواطنيهم الصينيين من غير المسلمين.

وعلى ذكر المساجد في مقاطعة (نن نشا) فقد أخبرونا أن عددها في المقاطعة يبلغ ألفاً وخمسمائة مسجد.

جلسة مفيدة:

وبعد توديع هؤلاء الأخوة الكرام من أئمة المساجد والمرشحين للإمامة دعانا الأخوة المسئولون عن المسجد إلى جلسة في قاعة كبيرة ملحقة بالمسجد فوق البناء كالتي فيها الدورة ولكنها نظيفة معتنى بها رغم كون بنائها قديماً وسقفها من الخشب.

وكانت المكسرات والفاكهة التي أهمها هنا التفاح قد وضعوها فيها إلى جانب الشاي الساذج المعتاد.

وكان الأهم من ذلك أن نائب رئيس الجمعية الإسلامية في هذه المقاطعة الشيخ الحاج (يوسف لوتشنغ لن) وهو شخص متفرغ للعمل الإسلامي ونشيط ومتحمس للدعوة ولاعمل له الا هذا قد بدأ في الإدلاء بمعلومات مهمة عن المسلمين في المقاطعة وما حققوه من أعمال إسلامية وما يحتاجون اليه من ذلك وبين الأشياء التي ذكر أنهم بحاجة إلى التعاون مع الرابطة على تحقيقها فكان من الأشياء السارة التي ذكرها في كلمته قوله إن حكومة المقاطعة قد اعطتنا مليوناً ونصف المليون من اليانات للمساعدة على اصلاح المساجد وبخاصة ماخبرته الثورة الثقافية منها كما أن الجمعية المركزية في بكين قد اسهمت في هذا الأمر بمبلغ خمسين ألف ين وهم إذا ذكروا هذا الأمر فإنما يريدون أن هذه

النقود هي من الرابطة لأن الرابطة سبق أن قدمت للجمعية الإسلامية الصينية مبلغ خمسمائة ألف دولار قامت الجمعية بتوزيعها على المشروعات الإسلامية في المقاطعات الصينية المختلفة وبخاصة مايتعلق منها بإعمار المساجد.

وقال: إن هذا لا يكفي بطبيعة الحال ولكننا نعتمد على تبرعات الإخوة المسلمين من محبي الخير في هذه البلاد.

والشيء السار الآخر الذي ذكره هو عزمهم على انشاء معهد إسلامي للمقاطعة يكون مقره مدينة (نن تشا) وقال: اننا حصلنا على سبعين ألف ين تبرعات لهذا المشروع من المسلمين.

وقال: إن حكومة المقاطعة قد منحتنا الأرض اللازمة لبناء المعهد. وهي موجودة تنتظر توفر المبالغ المالية اللازمة للبدء في العمل بها.

وقد رأيت أن أنقل هنا نص الترجمة الحرفية لكلمته كما ترجمها لنا الأخوة المرافقون لماشتمل عليه من معلومات كثيرة عن المسلمين في هذه المقاطعة.

قال:

يشرفني أن أقدم لكم تعريفاً عن أحوال المسلمين في مقاطعة نن تشا.

- في هذه المقاطعة عشرة أجناس من البشر وان المسلمين فئة من هذه الفئات العشر.

- المساحة تقدر بـ ٦٠.٠٠٠ كيلو متر مربع تقريباً.

- عدد السكان ٤.٠٠٠.٠٠٠ بينهم ١.٣٠٠.٠٠٠ مسلم وكثافة المسلمين تعادل السكان.

- في الأماكن ذات الكثافة السكانية من المسلمين تم افتتاح مدرسة ابتدائية ومتوسطة لتربية جيل جديد من المسلمين.

العلاجات مجاناً كما مشاهدة الافلام بدون مقابل.

انتشار الإسلام في هذه المقاطعة كان قبل ٧٠٠ سنة على أيدي العرب والفرس أثناء حكم «يان» (الحكم المنغولي) وكما يوجد قيادتان إسلاميتان في ذلك الوقت مهمتهما الأولى استتباب الأمن والثانية زرع الحقول. وكانت من أهم مقاطعات الصين في ذلك العصر.

وازداد عدد المسلمين في نهاية عهد «اليان» وبداية عهد الدولة المعروفة باسم «مين» في عام ١٣٦٨م.

في العصر الحديث الحالي يوجد تقريباً ١٥٠٠ مسجد في هذه المقاطعة.

وكثير من المساجد تم هدمها في الماضي القريب في عهد عصابة الأربعة وخلال عشر سنوات كما تم إحراق الكثير من الكتب وتقييد حرية المسلمين.

وأن في الوقت الحاضر تحسنت الأحوال الاقتصادية لدى المسلمين واعادة ترميم المساجد القديمة وأنشاء مساجد جديدة حتى وصل عدد المساجد إلى ١٤٠٠ مسجد تقريباً والعمل جار لإنشاء المزيد منها، وأن الحكومة والجهات المستولة في المقاطعة تساهمان في تمويل هذا العمل.

وقامت الجمعية الإسلامية بطبع القرآن الكريم وتفسير الجلالين وكتاب اللؤلؤ والمرجان وتوزيع هذه الكتب على المسلمين.

وقد استلمنا ٨٠٠ نسخة من القرآن الكريم من الجمعية الإسلامية الصينية وأن هذه النسخ أرسلت من قبل رابطة العالم الإسلامي إلى الجمعية الإسلامية بواسطة جهات الباكستان المستولة، وتم توزيع هذه النسخ من القرآن الكريم بين العلماء والأئمة المسلمين في هذه المقاطعة، وأن حكومة الصين قد فحنت للمسلمين يوماً واحداً كعيد الأضحى كل سنة والحكومة ستقوم بتأسيس مدرسة إسلامية بالتنسيق مع الجمعية الإسلامية كما خصصت دفعة أولى من الاعتماد

المالي ومقدارها ٥٦.٠٠٠ ين ونسعى في الوقت الحاضر بجمع تبرعات من كافة الجهات.

وقمنا بتعليم دفعيتين من العلماء والأئمة في الدورات التعليمية ونتحمل جزءاً من التكاليف كما وان الحكومة تحتمل جزءاً من النفقات. وتخرج من هذه الدورات ٧٠ شخصاً.

ومهمتنا في الوقت الراهن:

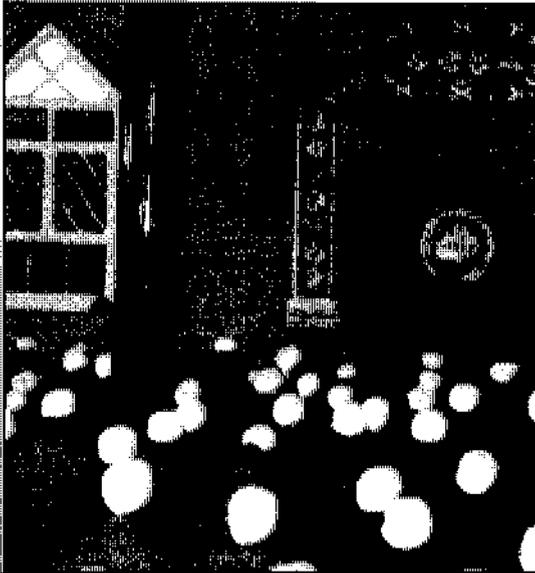
١- نساند الحكومة ونساهم في نشر سياسة حرية الأديان.

٢- نساعد المسلمين في كافة نواحي أمورهم الدينية.

٣- تطوير وتحسين مستوى العلماء والأئمة.

٤- نشر روح التعاون بين المسلمين.

ونجهل كثيراً من الأمور الدينية فنأمل تزويدنا بالمشورة والنصح، والحمد لله رب العالمين.



درس في دورة تدريب
الأئمة في بن تشوان (داخل
المسجد المتوسط)

كما أعطانا الحاج محمد إسماعيل المسئول عن الدورة كلمة بالصينية هذه ترجمتها:

بسم الله الرحمن الرحيم

قمنا بتعليم ثلاث دفعات من العلماء المسلمين في ن تشا.

الدفعة الأولى:

أكتوبر- ١٩٨٢ إلى أبريل ١٩٨٣م.

وتضم ثلاثين طالباً من مختلف المقاطعات والقرى.

ومدة الدراسة ستة شهور.

الدفعة الثانية:

١٩-٨-١٩٨٣ إلى ٢-١٩٨٤م.

وتضم أربعين طالباً، ومدة الدراسة ستة شهور

الدفعة الثالثة

٤ - ١٩٨٤م

وتضم أربعين طالباً موزعين على المرحلة المتوسطة فما فوق. ولمدة ثمانية شهور.

وتشتمل المواد الدراسية على مواد اجبارية وإختيارية.

ومناهج المرحلة المتوسطة الإجبارية: عمدة الرعاية- اللؤلؤ والمرجان- تفسير الجلالين، والمواد الاجبارية: تفسير حسين- تاريخ الإسلام- أحوال الدول العربية.

ومناهج المرحلة العليا الإجبارية:- علم العقائد (علم التوحيد)- تفسير البيضاوي- مشكاة- مكتوبات.

والمادة الاختيارية:- تفسير حسين

- قام بالتدريس نخبة من كبار العلماء في مسجدين، و جمعت النفقات من قبل الحكومة وتبرعات فاعلي الخير من الصينيين.

ومما يصعب من عملية التعليم ندرة الكتب.

ونرجو تزويدنا بالكتب التالية:

عمدة الرعاية

مشكاة

شرح الجلالين

تفسير الصاوي

تفسير البيضاوي

رمضان افندي

إحياء علوم الدين

در المختار (شامي).

الحاج محمد إسماعيل

نن تشا

وغادرنا هذا المسجد الذي سلم من عبث الشيوعية، وكان المطر يهطل فأخلى رجال المرور الشارع لمرور سيارات الموكب مما زاد من لفت أنظار الناس إلى موكب هذا الوفد الإسلامي فوقفوا يتفرجون.

فكان الذهاب إلى الفندق والغداء السخي على الطعام الصيني اللذيذ الذي زاد من لذته كونه قد أعد بأيدي مسلمة يأمن معها المسلم من دخول أي مكروه إليه.

إلى السلام الدائم:

قالوا : سيكون ذهابنا في هذا الظهر إلى محافظة السلام الدائم، فقلت: هذا اسم جيد لولم يكن فيه الا التفاؤل لكفى، وان كنا نعلم أن السلام الدائم في هذه الدنيا لا يكون. فلم الذهاب إلى هناك؟

فأجابوا لرؤية مسجد تاريخي هام.

ثم عرفت أن (السلام الدائم) هو اسم إحدى المحافظات في هذه المقاطعة وأنا سوف نذهب إلى مسجد تاريخي هام في قرية واقعة في هذه المحافظة وليس في مركز المحافظة التي فيها عدة مساجد ولكنها أقل أهمية عندهم من هذا المسجد. واسم المحافظة بالصينية (يونغ نغ) بهذا المعنى أى السلام الدائم. خرجنا من الفندق والمطر يهطل قاصدين قرية تسمى (ناجاكو) فيها ذلك المسجد التاريخي القديم وتقع على بعد اثنين وعشرين كيلاً من عاصمة المقاطعة (ين تشوان).

وعندما خرجنا رأينا جموع الراجلين وراكبي الدراجات الذين كانوا في شوارع المدينة يستمتعون بعطلة أول مايو قد اختفوا أو كادوا فقد ألجأهم المطر وقلة الوسائل في اتقائه إلى ترك الشوارع إلا من كان منهم يحمل مظلة واقية وبعضهم يحملها وهو على دراجته وهم قليل وبعضهم قد وضع معطفه على رأسه ولو كان الجو غير بارد يتقى به المطر.

وخرجنا من المدينة مع طريق أزفليتي ليس فيه أرصفة بخلاف الشوارع التي في داخل المدينة فكلها أو أكثرها ذات أرصفة جيدة.

وتحف بالطريق بيوت طينية قديمة ذات سقف مائلة إلى جهة واحدة حتى ينزلق ماء المطر عنها. وقليل منها مستوية السقف أي مسطحة.

ومررنا بمصنع غير كبير قالوا: إنه مصنع ساعات ويمعهد طبي يقع في بناء
أسمنتي جيد ومن الفخار المطلي بالأسمنت.

ورأينا هنا في بعض الأماكن في الريف ما يعده بعض مرافقينا الصينيين
تقدما وهو بيوت من لبن الإسمنت مما نسمى مثيله بالبيوت الشعبية أي
الأسمنتية غير المسلحة وذلك بالفعل يعتبر تقدما بالبيوت إذا قورن ببيوت
الطين.

كما لفت المرافقون نظري إلى فلاح عنده تفاح يبيعه على الطريق وهم
يقولون: شخصي شخصي، أي إنه يبيعه لشخصه وليس للحكومة وهو أمر مهم
عندهم وإن كان الآن قد أصبح كثيرا فإنه مما يستحق أن يلفت إليه النظر، لأنه
يدل على الرجوع عن الشيوعية الكاملة التي أراد (ماوتسى تونغ) في آخر
حياته أن يطبقها كما تقدم.

ومررنا بمشتل فيه أشجار صغيرة قالوا: إنها تشتري لتصد الرمال في
الأماكن المعرضة لذلك والافان المنطقة التي نحن فيها الآن لاتعاني من ذلك بل
هي في حوض وادي النهر الأصفر وهي أرض طينية حرة لاشك بأن الطين الذي
فيها هو مما جلبه النهر الأصفر إليها على مدى القرون.

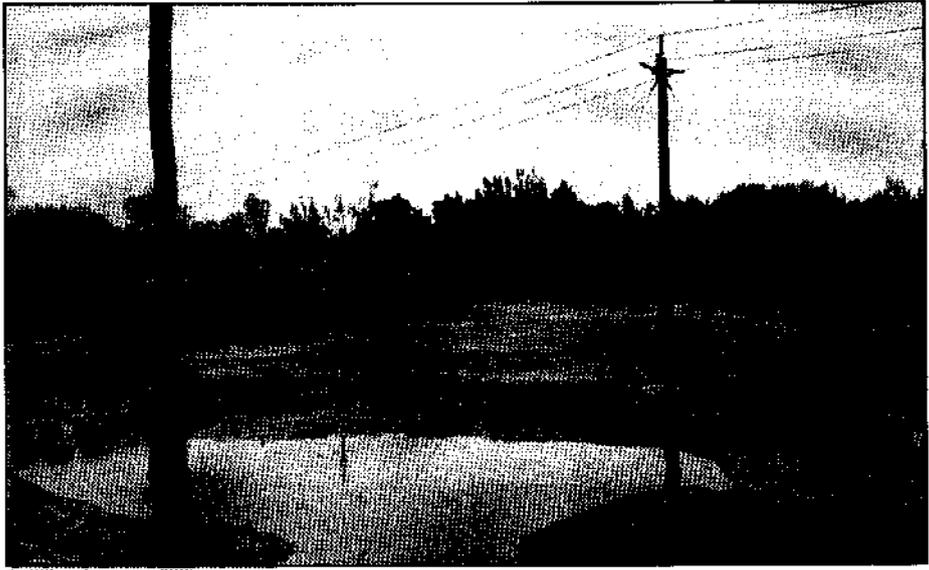
ومن الملاحظ هنا أن الطقس لطيف ولذلك كانت أشجار الطريق كلها خضرة
خضرة يانعة ولا أثر للبرد هنا وقد وجدنا أنفسنا فجأة في الريف فالمدينة ليست
كبيرة وضواحيها ليست متسعة وهو ريف أخضر أكثر المزارع فيه هي مزارع
القمح الشتوي النضر، قالوا: إنه يزرع في أول مارس ويحصد في يوليو.

وهذا بخلاف مانعرفه في بلادنا حيث نبذر القمح في وسط الجزيرة في
القصيم مثلا في نوفمبر ويحصد في مارس.

ولكن هذه المقاطعة إلى جانب إنتاجها للقمح فإنها تشتهر بإنتاج نوع جيد
من الأرز وذلك لوفرة المياه فيها ولدفء ظاهر في جوها عندما ينقضي الشتاء

لأنه طقس شبيه بالطقس الصحراوي ويقولون: إن له رائحة جيدة مما ذكرني برائحة نوع من الأرز يستنبت في العراق يسمونه العنبر، وبعضهم يسميه (عبر بوه).

وقد رأينا بعض البيوت الريفية الطينية قد بيضوا واجهاتها بالجص فقط مثل بيوتنا التي كنانينها بالطين ونظفها واجهاتها وماحول ابوابها ونوافذها بالجص من باب التجميل وبعضها رأينا جصه جديداً مما يدل على أنهم لا يزالون يبنون البيوت بالطين ويزينونها بالجص وليسوا مثلنا قد تركنا ذلك حتى أصبح أثراً لا يعرفه الجيل الناشئ.



بيوت ريفية خارج بين تشوان

والريف منبسطة هنا كله يشرب من مياه النهر الأصفر إما مباشرة أو من قنوات شقوها من النهر وقد لاحظت كثرة التبن في بيوت الطين مما يدل على أن المنطقة تنتج الحبوب بكثرة وأنهم يستعملون التبن في أوجه كثيرة من الانتفاع ومنها مثلاً أعلاف الدواب وخلطه بالطين الذي تطلّى به البيوت ليساعد على عدم انجراف الطين من الحيطان وبعضه يسمدون به الأرض لكثرتهم.

وسألتهم عن الحر في الصيف أهو شديد؛ فقالوا: إن الحر يكون شديداً لديهم في شهر يوليو واغسطس وهذا أمر طبيعي لأن بلادهم شمالية. ولكن الشعور بالحر أمر نسبي فما يشعر به قوم في بلادهم بأنه حر شديد قد يشعر به آخرون في بلاد أشد حراً بأنه لطيف.



التبن فوق السطوح

وتكررت رؤية اكداس التبن التي وضعوها على سطوح المنازل وقال بعض الأخوة: إن هذا هو الأرز يجعلونه هنا لأنه أحفظ له من وجوده على الأرض حيث يكون معرضاً للرطوبة والفساد ويريدون بذلك أنه الأرز بقصبه وسنبله ولكن الذي أعرفه أن الأرز يقطف قطعاً ويترك قصبه على الأرض حيث ينتفع به بعد ذلك في أوجه عدة.

وقد كاد الطريق يخلو من الناس من أجل المطر وأما السيارات فإنها فيه قليلة لأنها قليلة في الأصل في هذه البلاد الصينية كما تقدم- وأكثر السيارات التي رأيناها في الريف هي الشاحنات التي تصنعها الصين وكلها مملوكة للدولة.

ومن الغريب انني رأيت عدداً قليلاً من الناس من رجال ونساء يسيرون تحت المطر بدون مظلات ولا أي شيء يقيهم منه لأنهم بحاجة إلى الخروج وليست عندهم وسيلة من وسائل اتقائه.

في قرية نجاكو:

ويبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف وسبعمائة نسمة كلهم من المسلمين، قالوا: إن بيوتها تبلغ الف بيت تقريباً ووجدنا أهل القرية كلهم تقريباً في استقبال الوفد من رجال ونساء وأطفال وقد وقفوا تحت المطر الذي أحال الأرض في هذه الناحية إلى وحل زلق يصعب المشي عليه لأن الأرض طينية حرة فتعلق بالارجل وتسبب الانزلاق ولكن ذلك لم يمنع هؤلاء الأخوة من التجمع لرؤية إخوانهم القادمين من بلاد الحرمين الشريفين.



مصافحة المسئولين من المسلمين في نن تشا

كان على رأس المستقبلين إمام المسجد الشيخ (كمال الدين كنگ جانغ جو) ورئيس لجنة تعمیر المسجد الأخ (عادل نارونغ شون).

كان المطر يهطل والأرض زلقة كما قدمت ومع ذلك كان الجموع في الخارج ينتظرون أما نحن فقد أدخلونا غرفة صغيرة عليها مائدة مستطيلة حولها كراسٍ غير كافية.

فالتقى رئيس لجنة تعمیر المسجد الأخ (عادل) كلمة بالصينية تضمنت بعض المعلومات عن هذا المسجد. وقال إنهم يريدون تعميمه وقد بدأ بالفعل جمع التبرعات غير أن المبالغ المطلوبة للتعمير كبيرة لايقوون عليها الا أن ذلك لم يفت في عضدهم.

وقد رددت عليه بكلمة مختصرة شكرته فيها والإخوة الحاضرين على هذا الترحيب ثم قلت له: إن رابطة العالم الإسلامي التي ينتمي إليها وفدنا وأنا أحد المسئولين فيها سوف تحرص على أن تقدم المساعدات المجزية لبناء المسجد.

ولم أشأ تطويل الكلمة لأننا كنا في هذه الغرفة التي يتوفر فيها الدفء والشاي الصيني الحار على حين أن سائر الأخوة من المسلمين كانوا لايزالون واقفين تحت المطر في انتظار أن يسمعوا شيئاً من الوفد أو على الأقل أن يحظوا بالسلام على أعضاء الوفد ومصافحتهم.

لذلك قالوا إنه يستحسن أن توجه اليهم كلمة فخرجت اليهم وجاءوا بكرسي وقفت عليه لكي أراهم ويروني ووقف الأخ المترجم (لقمان ما شان لي) على كرسي أخر بجانبني فالقيت لهم كلمة اوضحت فيها تأثرنا بهذا الاستقبال الإسلامي الحار الذي قابلونا به في هذه اليوم البارد الماطر وقلت لهم إننا سنبلغ إخوانكم في المملكة العربية السعودية خاصة وفي البلدان الإسلامية عامة عن طريق الرابطة مارأينا لديكم من محبة لإخوتكم المسلمين ومن تمسك بعقيدتكم

الإسلامية ذلك التمسك الذي لم تنل منه التهديدات ومحاولة الصدعن دين الله في زمن طغيان عصابة الأربعة والثورة الثقافية حتى إنهم صادروا مساجدكم وخربوا بعضها وهالتم الآن تستعيدون هذه المساجد وتسعون في تعميمها رغم قلة ذات اليد ورأيكم لا تكتفون بتعمير المساجد القديمة وإنما تبدأون بعمارة مساجد جديدة.



في قرية نجاكو المؤلف واقف على الكرسی يخطب والأخ لقمان ماشان لي على يساره واقف على كرسى أيضاً يترجم.

وقد كنت اتكلم من تحت مظلة واقية عن المطر أما الأخوة فان بعضهم لم يبالوا بالمطر والبرد وبعضهم كان قد التجأ إلى بعض المحيطان القريبة وكان الجمهور مؤلفاً من الجنسين ومن الأحداث أيضاً الا أن النساء لا يخالطن الرجال بمعنى أنهن يكن بينهم في الاجتماعات دائماً ولكن يجتمعن بجانبهم وفي نهاية اللقاء استمعنا إلى معلومات عن هذا المسجد التاريخي.

قالوا: لقد بنى هذا المسجد قبل اربعمائة سنة تقريباً قالوا ذلك بعد أن جعلوا يحسبون ويذكرون الأسر الحاكمة التي يؤرخون بحكمها فذكروا اسرة (منغ) وان المسجد قد رمم في تاريخه الطويل مرتين.



صورة لمسجد قرية نجاكو قبل التخریب الشيوعي

وانه ظل طول تاريخه يصلى فيه ويعمر بالصلاة وذكرا لله إلى ان جاءت الثورة الثقافية في طغيان الشيوعية في الصين وهم لا يذكرون كلمة طغيان الشيوعية بل ولا يذكرون الشيوعية أو الا اشتراكية في كلامهم في العادة بحال من الاحوال لا مدحاً ولا قدحاً وإنما يعبرون عن ذلك بالثورة الثقافية او خلال حكم عصابة الأربعة فاستولوا على المسجد وصادروه من المسلمين وجعلوه مصنعا ولم يراعوا حتى كونه مصنعا من ناحية صيانتة بل أهملوا ذلك وخرّبوه، ولك أن تتصور المسجد حينما يحال إلى مصنع.

وقد رأيتة كذلك خربا قد تهدم سقفه وتكسرت الاخشاب التي في ارضه وأصبح لا يصلح بحالته الحاضرة للصلاة ولذلك فإن الإخوة الآن يعيدون بناءه من جديد وقد قربوا بعض المواد.

وقالوا: إنهم جمعوا من عامة المسلمين عشرين ألفين وساعدتهم حكومة المقاطعة التي يرأسها الحاج (حسين خي بي لي) بخمسين ألفين مساعدة على بناء المسجد بحجة أنه ذو قيمة أثرية تاريخية، و المقاطعة مقاطعة للمسلمين وإن لم يؤلفوا الأغلبية فيها. الا أنهم يحتاجون مع ما جمعوه إلى مائة الفين أخرى حتى يستطيعوا أن يكملوا عمارة المسجد.

وكانوا يقولون ذلك وأنا أعجب من أمر هذا الدين الإسلامي الذي قل أنصاره بل كثر محاربه في الصين في وقت من الاوقات ثم نصره الله فكان المسلمون أكثر تمسكا وصلابة في دينهم وحتى إن الدولة ممثلة في حكومة المقاطعة التي كانت تحت سيطرة الشيوعيين المتعصبين وتخلصت منهم مثلما تخلصت منهم في باقي اجزاء الصين وإن لم تتخلص من الشيوعية والاشتراكية بعد قد اعادت المسجد إلى المسلمين ولم تكتف بذلك وإنما اعطتهم خمسين الفين اسهاماً منها في اعادة تعمير المسجد.



الصورة مع الجماهير في ناياكو

وقد ودعنا أخوتنا المسلمون والمطر لا يزال يهطل بغزارة بالغة؛ وكان المنظر المؤثر أن الأرض كانت قد أصبحت زلقة يعلق طينها الذي سببه المطر بالأرجل ويصعب تخليصها منه ومع ذلك ظلت هذه الجموع، تواكب الموكب وتسير في زقاق القرية حتى فارقتها. وكان مصورو التلفزة الحكومية والمصورون الآخرون يسجلون ذلك كله.

وأذكر أنني عندما خرجت من المسجد إلى حيث السيارة والطريق زلقة بادر أحد الشيوخ المسنين المسلمين أقدر عمره بما يقارب السبعين سنة فأخذني من أبطي يساعدي على السير في الطين اللين ويمعني من السقوط

إلى بلدة ينغ أو:

ولن أتحدث عنها مباشرة لانناسمر في طريقنا إليها بما يستدعي الحديث قبلها وبخاصة قرية في الطريق أيضاً فيها مسجد قديم خربه الشيوعيون إبان الثورة الثقافية وقد أعاده الأخوة المسلمون وإنما نقول هنا إن بلدة (ينغ أو) هذه تبعد عن العاصمة ستة وستين كيلومتر وأن ٧٠٪ من سكانها مسلمون.

سار الموكب في الطريق الاسفلتي الذي اصبح سيئاً بعد توالي نزول المطر لأن الطين الذي كان يملأ النقر والحفر الصغيرة الموجودة فيه قد ذاب فاصبح كالماء فصارت السيارات كأنها تسير في بعض الاحيان على أرض غير مزفلتة وكانت مناقع المياه الصغيرة تمنع السيارات من الاسراع لثلاثتلتخ بالماء والوحل.

وقد اخبرنا الإخوة المرافقون من أهل هذه المقاطعة أن نزول المطر بهذه الكيفية في هذا الوقت يعتبر من الأمور النادرة.

ومررنا على فرع صغير من فروع النهر الأصفر فقال الأخ (يوسف ليو) نائب رئيس الجمعية الإسلامية في مقاطعة (نن تشا) وكان يرافقني بالسيارة نفسها طول الوقت من أجل أيضاً ما استوضحه منه في هذه البلاد: إن هناك مسجداً على النهر ولكننا لن نمر بالقرب منه ورأيت على البعد ظاهراً واضحاً الا أنه

ليس بالكبير وقال الأخ يوسف: إن أغلب القرى هنا فيها مساجد لأن المسلمين موجودون في أغلبها ولا يمكن لنا أن نزورها كلها وإنما نزور المساجد الأثرية التاريخية الكبيرة التي يحرص المسلمون على إعادة تعميرها. وسألته عن بقية المواطنين غير المسلمين الذين يسكنون هنا فأجاب: إنهم لا دين لهم.

ثم مررنا بفرع آخر للنهر الأصفر على هيئة قناة واسعة تفوق في سعتها سعة نهر بردى في دمشق وتتدفق بمياه خصبة لا يوجد نهر بردى بمثل تدفقها إلا في أيام فيضانه. وقد غلبت الصفرة على لون مياه النهر الأصفر بالفعل وذلك بفعل الطمي الذي ينحدر مع الأمطار من التلال الصغيرة التي يمر النهر بمنطقتها في مقاطعة (كانسو) وخارجها.

ثم مررنا بالنهر الأصفر نفسه فرأيناه في هذه المنطقة واسع المجرى ولكنه غير مكتظ بالمياه واخبرونا أن السبب في ذلك قلة سقوط الثلج على المناطق الباردة في اعاليه هذا العام.



في الطريق خارج ين تشوان

فقطعناه فوق جسر جيد. وصرنا بعد ذلك نسير مع طريق ازفلتية جيدة وسط حقول خضر نضرة أهم مافيه أشجار التفاح المزهرة الذي كنا قد رأينا شجرات منه مزهرة في فندق الصداقة في مدينة (لانجو) وهانحن الآن نرى أشجاراً كثيرة منه وأخبرونا أن المقاطعة تنتج مقادير كبيرة من التفاح سواء في هذه المنطقة أو في شمال المقاطعة.

ولايزال المطر ينزل لذلك خلا الطريق أوكاد من المارة والمتفرجين برؤية الموكب الذي لاشك في أنه ليس مألوفاً للريفيين من أهل البلاد لأنه بالإضافة إلى السيارات العديدة المعتادة فإنهم أرسلوا معنا سيارتين عسكريتين اضافيتين جعلوهما تتقدمان الموكب احدهما من الجيش في المنطقة والثانية من الشرطة. وفي الساعة الثالثة والنصف كنا نمر ببلدة (ينغ أو).

ولم نتوقف في البلدة نفسها وإنما واصلنا السير إلى قرية مسلمة تقع غير بعيدة منها ولكن أشياء استوقفت نظري فيها منها سور عليها قديم مبنى من الطين يشبه أسوار الطين التي كانت موجودة حول بعض المدن في بلادنا قبل خمسين سنة الا أن هذا السور الطيني الصيني هو أرشق قواماً، واحسن بناءً فقد تأنقوا في بنائه حتى رأيت الطين الخارجي الذي طلي به قد أكثروا من وضع التبن فيه كما كنا نفعل في طلاء حيطان المنازل وأسطحها وهو يمنع الطين من الانجراف عندما ينزل المطر ولكنه لا يكون في حيطان الأسوار والمنازل الكبيرة المحصنة اكتفاء بكون تلك الحيطان تكون غليظة بحيث لا يضرها ذهاب ما يجرفه المطر من حيطانها.

وأكثر بيوت المدينة التي رأيناها من الطريق هي كذلك من الطين الذي جعلوا لحيطانها أساسات من الحجارة تقيها الرطوبة وفيها أبنية قليلة بالأسمنت. وكان الشارع الذي مررنا به متوسط السعة عليه أشجار من أشجار الظل الباسقة.

ولم نر أناساً كثيرين في شوارعها مع أن الموكب بهئيته المتميزة يجذب المتفرجين ولاشك في أن ذلك كان بسبب كثرة المطر.

وكل الذين رأيناهم في الشوارع كانوا يحملون المظلات الواقية من المطر. وعلى البيوت الواقعة في اطراف المدينة أكوام التبن ربما كان ذلك من أجل حفظ التبن لئلا تفسده رطوبة الشتاء وقال لي أحدهم: إنهم يفعلون ذلك من أجل تدفئة البيوت أيضاً في فصل الشتاء ولا أدري صحته.

قرية تاي تسي المسلمة:

قطعنا عشرة كيلات بعد بلدة (يونغ او) فوصلنا إلى القرية المسلمة المقصودة (تاي تسي) وتنقط (تسي) حرفين مع أنها بثلاثة أحرف لأن حرف (تس) ينطق ما بين مخرج حرف السين والزاي وهو مخرج غير مستعمل في أحرف الهجاء العربية الفصيحة.

ويقولون: إن معنى اسمها هو (المنصة).

ودخلناها مع طريق اسفلتي جيد لم تفارق جانبيه أشجار الظل الباسقة كسائر الطرق.



الاستقبال في قرية تاي تسي

فوقفنا عند مسجد القرية الذي وجدنا فيه جمهوراً من المسلمين مجتمعين حوله في انتظار وصول الوفد وقد تجمهروا في المسجد وخرجوا في المطر لاستقبالنا خارجه.

منهم الحاج (إسحاق كاي تشي نين) نائب رئيس الجمعية الإسلامية في المنطقة وإمام المسجد الجامع سابقا والشيخ (عباس ما وانقو) نائب إمام المسجد.



جموع المستقبلين المسلمين

وأسرعوا يدخلوننا إلى غرفة كبيرة في جانب المسجد حيث كانوا قد اعدوا مائدة مستطيلة بالشاي الصيني الحار الذي كان له وقع جيد في هذا اليوم الماطر لا سيما مع وجود حبات السمسم التي تسبح على وجوه الفناجين المملوءة بالشاي والتي لا يمكن اتقاؤها إلا بإمالة غطاء الفنجان مع ابقائه فوق الفنجان أثناء الشرب و على المائدة كانت المكسرات والفواكه المجففة المعتادة.

ولاحظنا أن مظاهر القوم فيها شيء من مخالفة المظهر الصيني فوجههم تميل إلى الاستطالة قليلاً وعيونهم تميل إلى السعة بالنسبة إلى وجوه الصينيين

الأصلاء فأخبرني أحد الأخوة بأن فيهم عرقاً من المغول لقرب هذه المنطقة نسبياً من منغوليا ومن المعروف عند أهل هذه البلاد أن أناساً من أهل منغوليا كانوا قد قدموا إليها في مرحلة تاريخية سابقة.

وجرت محادثات مهمة بين الوفد وبين الأخوة المسلمين الذين وجدناهم في هذه البلدة. وكان الأخ (عباس ماوا نقو) هو المتصدر الرئيسي للحديث والقوم يستمعون وقد يعلقون.

فكان مما قاله: إن مسجدهم هذا كان قد خرب بل هدم إبان الثورة الثقافية ولكنهم استعادوه من الحكومة في عام ١٩٨٠م، وبدأوا في عام ١٩٨١م، بإعادة تعميره فأقبل المسلمون على دفع ما يستطيعون من التبرعات حتى جمعنا ما أصلحه بحيث قام هيكله الاسمنتي كما ترونه وكان الهيكل العام فيه قد استكمل بالفعل وإن لم يتم الطلاء ولا تركيب النوافذ في بعض اجزاء المسجد والملاحقات به مثل الغرفة التي كنا جالسين فيها.

عدد المسلمين:

وقال إن عدد المسلمين في قرية (تاي تسي) هم خمسمائة أسرة تؤلف ما يبلغ أكثر قليلاً من ثلاث آلاف نسمة.

وإنه لا يوجد فيها من غير المسلمين إلا عشرون أسرة يبلغ عدد أفرادها مائة وثمانية وعشرين نسمة.

وقال إن هؤلاء المواطنين من غير المسلمين يعملون مع المسلمين في صالح القرية ولا يشذون عنهم في ذلك حتى في التبرع لإعادة بناء المسجد الذي خربته الثورة الثقافية إبان نفوذ عصاة الاربعة فقد تبرعوا لذلك مثل المسلمين.

وقال: إن مسارعة المسلمين إلى إعادة بناء المسجد تدعو للفخر والاعجاب فقد كان الذي لا يستطيع أن يجد ما يقدمه للمسجد يتبرع بأشياء عينية مما يستطيع حتى إن بعضهم يقدم عدداً محدوداً من لبن الأسمنت أو من الآجر لأنه لا يستطيع غير ذلك.

وقال: إن الصلوات الخمس كلها تقام في المسجد حتى العشاء والفجر وان عدد المصلين في الاوقات المعتادة هو في حدود خمسمائة مُصلٍ وأما صلاة الجمعة فانه يحضرها في المتوسط ما بين سبعمائة إلى ثمانمائة مُصل.

وتتبع المسجد مدرسة للعلوم الإسلامية يدرس فيها الآن حوالي اربعين دارسا ليسواكلهم من صغار السن وإنما بعضهم من الكبار الذين يريدون أن يتفقهوا في أمور دينهم.

ولاشك في أن هذه المدرسة أشبه بالكتاب ولكن مجرد وجودها على هذه الصفة يعتبر تقدماً عظيماً بل فتحاً مبيئاً في هذه البلاد التي ابتليت بالشيوعية وكانت شيوعيتها متعصبة بل فظة في تعصبها في ذلك الوقت الذي يسمى وقت الثورة الثقافية أو وقت تسلط عصاة الأربعة على مقدرات الصين.

وقد قال بعض المسلمين هنا وهم فرحون بأن الحياة الآن احسن من ذي قبل وأنهم يأملون في أن تكون احسن في المستقبل وهم لا يستطيعون أن يقولوا أكثر من هذا لأن الحكومة الحاضرة هي بالفعل أحسن من الحكومة الشيوعية السابقة وإن كانت الحكومة الحاضرة لاتزال تسمى نفسها حكومة شيوعية وتتصرف على هذا الأساس إلا أنها تقول وتكرر القول بأن السير على بعض النظم المتعصبة البالية فيما يسمونه بتطبيق الشيوعية قد أضرباقتصاد البلاد ومس كرامة الشعب الصيني العريق حيث كان قد قضى على حرياته وحاول هدم تقاليده وموروثاته.

وقالوا: إن الفلاحين قد أصبحت لديهم مدخرات كثيرة من الفلاحة لأنهم أصبحوا يستطيعون أن يبيعوا ما ينتجونه من مزارعهم وأشجارهم بحرية ويتمتعون بعائد ذلك حتى تمكن بعضهم من شراء جرارات زراعية صغيرة.

وكانوا يذكرون ذلك بكل فخر واعتزاز وكأن امتلاك جرار صغير يعادل امتلاك أسطول من السيارات والآلات الزراعية في البلاد الحرة غير الشيوعية.

ثم ذكروا أن المسلمين قد طبخوا طعاما خاصا بنا وأن عدداً من أهل القرية يريدون منا أن ندخل إلى بيوتهم لتناول الطعام ولحصول البركة من دخولنا بيوتهم لكوننا قدمنا من الحرمين الشريفين.

وتلك فرصة- كما قالوا- لم تسنح من قبل بل هو شرف عظيم لم تحظ به منطقتهم- على حد تعبيرهم جزاهم الله خيراً.

وقد أفهمهم الإخوة المرافقون بأن الوقت ضيق وأن الوفد قد تأخر في الوصول اليهم بسبب المطر المتواصل كما أن العودة إلى مدينة (ين تشوان) عاصمة المقاطعة تحتاج إلى وقت إضافي لهذا السبب ولدينا برنامج مرسوم من قبل هناك.

ثم عادوا يكررون الحمد لله والشكر لهذه الحكومة الحاضرة على تبديل حالتهم حتى قال خطيبهم: إن بعض المسلمين من اصحاب الحرف اليدوية الحرة قد صارت لديهم أرباح خاصة بهم لأنهم صارو يعملون بحرية للآخرين وعند الآخرين بخلاف ما كان عليه الحال في السابق عندما كان كل شيء مقيداً.

وقالوا: إنه حتى التجارة صار فيها شيء شخصي مريح لمن يعملون فيها.

وخلصوا من ذلك إلى القول بأنهم لهذا السبب يفكرون الآن في بناء مسجد آخر جديد في القرية يكون مخصصاً للنساء.

وذكروا بل أخوا على حاجتهم الماسة إلى الكتب الإسلامية باللغتين الصينية والعربية .

وقالوا: إنه يصعب الحصول عليها حتى بالشراء .

وقد رددت على الخطيب بكلمة حمدت الله فيها وشكرته على أن يسر لنا الاجتماع بهم وسماع ما يريدون أن يقولوه وكررت ما كنت ذكرته لغيرهم من مهمة الوفد، ومن عمل رابطة العالم الإسلامي .

وقلت لهم: إن ما ذكرتموه عن تبدل حال المسلمين هنا من السيئ إلى الأحسن لهو مما يثلج الصدر وسوف ننقل ذلك إلى إخوانكم المسلمين في سائر أنحاء العالم .

كما أننا في رابطة العالم الإسلامي لن ندخر وسعاً في مساعدتهم على مشروعاتهم الإسلامية وخاصة ما ذكروه من حاجة المسجد إلى مرافق وفراش .

وعندما انقضت الكلمات ذكرنا من تاريخ بناء هذا المسجد أنه كان مبنيًا بالخشب منذ مائة وعشر سنوات وأنهم أنفقوا على إعادة بنائه بعد أن استعادوه من الدولة أكثر من مائة الف ين ومع ذلك لا يزال بحاجة إلى إكمال مرافقه .

في أحد بيوت المسلمين:

طلبوا منا وأخوا على أن ندخل بيوت المسلمين في القرية لأنهم علموا بقدمونا وأملوا فيه فاعتذروا بضيق الوقت ولكن ذلك لم يقنعهم فاتفق الأخوة المرافقون على الاكتفاء بدخول بيت واحد .

اسم صاحب البيت الطبيب (ادريس وانغ تشن تشونى) قالوا إنه طبيب شعبي وإنه يعمل لنفسه، وليس لدى الحكومة .

وكان في الاستقبال الأخ الطبيب المذكور وإن كان لا يحمل شهادة طبية حديثة فهكذا يسمونه؛ له أربعة أولاد بنتان وابنان، إثنان من أولاده تخرجوا في الجامعة، وقال: إن له ثلاثة أحفاد، والتنويه بما للرجل من أولاد وأحفاد يتخذ في الوقت الحاضر معنى خاصا لأن الحكومة الصينية قد حرمت زيادة الإنجاب على ولد واحد للأسرة الواحدة. بل قالوا: إنه ولد وحيد بمعنى أنه لا ثاني له هكذا رأيناهم كتبوا في بعض كتبهم بالإنجليزية ولكن بعض الناس وبخاصة في القرى والأرياف لم يمثلوا لذلك امتثالاً كاملاً فالمسلمون مثلاً خارج المدن قد تغض الدولة النظر عن مخالفتهم لهذه القاعدة على اعتبار أنهم من أهل الريف الذين لا يشكون ضغطاً في المساكن ولا يتسببون في ارهاق ميزانية المدن التي تنفق عليها الدولة.

وهذا بطبيعة الحال كله بالنسبة للأولاد الذين ولدوا بعد صدور قانون الإنجاب والا فإن الذين ولد لهم قبل ذلك لا يشملهم هذا الأمر.



في بيت أحد المسلمين في تاي تسي

أما البيت نفسه فإنه طيني، بل هو من الطين كله دخلنا إليه من باب خارجي إلى فناء مكشوف (حوش) تفتح عليه أبواب غرف عديدة رأيناها عدداً من النسوة المسلمات ينظرن من دون أن يقتربن من الوفد والمرافقين، فضلاً عن أن يجرأن على السلام أو الكلام.

وقد اخبرونا أنه يضم أكثر من الأسرة الواحدة التي تعني رجلاً وزوجه واولادهما ودخلنا غرفة طينية من تلك الغرف مسقوفة بالخشب ومدعومة تحت الخشب بخشب قوي أسفلها يساعد على حمل السقف.

وذكروا أن هذا البيت بنى قبل خمس وأربعين سنة وأن بيوت الطين إذا تعهدتها أهلها بالترميم والملاحظة فإنها تعيش مدداً طويلة لأنها هي الشائعة عند الناس في هذه الأرياف وفي أطراف المدن أيضاً وذكروا أن كثيراً من الناس يشعرون أنها أكثر ملائمة للسكان في هذه البلاد التي يشتد فيها البرد في الشتاء. ويكون فيها صيف حار أيضاً وذلك لكون الطين عازلاً للحرارة. ولكون هذه البيوت كلها تبنى من بيئتهم أما الأشجار التي يأخذون منها أخشاب السقوف فهي أشجار الصفصاف التي تكثر عندهم.

جلسنا في غرفة الضيوف في البيت على دكة عالية في مقدمة الغرفة مرتفعة عن باقي الغرفة وجلس معنا عدد من علية القوم وهذا هو مكان الضيوف الذين يجلونهم.

وجلس سائر الناس الذين صحبونا من القرية أسفل من ذلك على أرض الغرفة.

ووجدناهم قد أعيدوا قبل وصولنا على هذه المنصة المرتفعة أنواعاً من المكسرات والكعك والخبز اليابس والحلوى ومع ذلك الشاي الصيني الشبيه بالأخضر. وفيها مدفئة للحاجة إليها في هذا اليوم الندي، وجلس معنا صاحب

البيت بناء على إلحاحنا وإلا فإنه كان قبل ذلك واقفاً بمثابة المستعد لخدمة ضيوفه.



الوصول إلى القرية المسلمة

وتجدر الإشارة إلى أن هذا البيت الطيني ملك له وحده كما أخبرونا.

كان أول شيء بدأوا به ونحن نتناول المكسرات والشاي أن احضروا أربعة أطفال من أبناء المسلمين وأمروهم بقراءة بعض السور القصار يقرأ الواحد منهم من السور من حيث انتهى صاحبه بعضهم مثلاً قرأ: (قل يا أيها الكافرون) والذي بعده (إذا جاء نصر الله والفتح) وهم كلهم في سن تتراوح بين الثامنة والثانية عشرة فهم إذا من ناشئة المسلمين الذين ولدوا في الشيوعية، ولكن أهلهم استطاعوا أن ينشئوهم تنشئة إسلامية رغم قلة الوسائل، وعنق الهجمة الشيوعية الإلحادية وبعد أن فرغ الأطفال من تلاوة القرآن الكريم أخذنا بالحديث

معهم عن شئون مختلفة من شئون المسلمين وإن كنا لانطمع في أن يكون حديثهم صريحاً في انتقاد ما قد يريدون انتقاده من أعمال الدولة أو حتى في الشكوى إلينا نحن أخوتهم في الإسلام الذين قدموا من بلاد المسلمين لأننا وقد رسمي يعلمون كما يعلم غيرهم أن الحكومة قد احاطته بمراقبين ومراقبين فضلاً عن السماعين المحليين لها .

وكان من أهم ما تحدثوا به شوقهم العظيم إلى حج بيت الله الحرام الذي كانوا قد منعوا منه عدة أعوام واتيحت الفرصة الآن لبعضهم إذا تيسر لهم الحصول على عملة أجنبية قابلة للتحويل .

وقدموا إلينا رجلاً قالوا وهو يسمع: إنه كان قد جمع كل ما يملك وخرج من هذه المقاطعة مقاطعة (كانسو) قاصداً باكستان من أجل أن يحصل على تأشيرة للحج ففاته الوقت لطول الطريق وغاب عنا ستة أشهر ثم عاد من دون أن يتمكن من أداء الحج بعد أن أنفق كل ما كان قد جمعه .

وكانت قصة هذا الأخ مؤثرة، ومنظره أيضاً يبعث على التأثر الشديد لاسيما وهو يروي قصته ينظر إلى المترجم الذي كان ينقلها إلى العربية. فكانت جميع خلجات وجهه توحى بالتأثر والأسف .

ولاشك أن السبب في ذلك هو كونه لم يستشر مجرباً في الحصول على سمة الذهاب إلى الحج .

وعمنا الأسف والأسى لحالته وطلبنا منهم أن يعطونا اسمه ووعدناه أن نبذل جهدنا لتمكينه من الحج في العام القادم إذا تقدمت الجمعية الإسلامية الصينية باسمه ضمن أسماء المسلمين الراغبين في أداء فريضة الحج كما اعتادت الرابطة أن تقدم أسماءهم إلى وزارة الخارجية في المملكة العربية السعودية لتأمر باعطائهم سمات الدخول إلى المملكة بغرض الحج تحت كفالتها .

واعلنت له أمام أهل القرية أنه يسرنا أن نستقبله ضيفاً على رابطة العالم الإسلامي عند وصوله إلى المملكة وأثناء موسم الحج حتى مغادرته.

فسر بذلك ووعدنا نائب الجمعية الإسلامية في المقاطعة الذي كان حاضراً معنا بأن يقدم اسمه إلى الرابطة لهذا الغرض قبل حلول موسم الحج بوقت كافٍ. وكانت هذه الجلسة مع الإخوة المسلمين في هذه القرية المسلمة من الجلسات الطيبة التي لاتكاد تحي من الذاكرة.

العودة إلى ين تشوان .

ودعونا بحفاوة بالغة وودعهم الوفد كذلك وانطلق الموكب في جوماتركشف عيوب الطريق الأزفتلي إذ كانت النقر والحفر الصغيرة فيه قد ملئت بتراب أزاحه المطر أو أذاب طينه فأصبح الموكب يمشي رويدارغم الحاجة إلى السرعة لأن لنا موعداً هناك في عاصمة الولاية(ين تشوان) نريد إدراكه ولأن لنا حاجة ملحة نريد قضاءها في فندق الضيافة مبعثها أننا فارقناه منذ ساعات وشرينا الشاي عدة مرات في هذا الجو الماطر البارد الندي ولم نستعمل حماماً أثناء هذه المدة.

عدد المساجد في هذا الزيف .

مررنا بمسجد جديد ظاهر على الطريق الأزفتلي، وكان ظهوره وبروزه مع جدة بنائه هو الذي لفت نظري مع بهجة طلاته ورونق مظهره وهذا أمر له معناه في بلاد سادتها الشيوعية كما سبق أن ذكرته عند الكلام على جولة المساجد في مدينة (النجو) عاصمة مقاطعة (كانسو).

فسألناهم بهذه المناسبة عن عدد المساجد في هذه المنطقة؟، فأجاب رئيس الجمعية الإسلامية التي هي الجهة الوحيدة المسئولة عن المساجد التي تعترف بها الحكومة إن عددها يبلغ مائة وخمسين مسجداً.

وهذا رقم مفرح بل رقم عظيم لا يستطيع المسلم إذا سمعه إلا أن يشكر الله سبحانه ويحمده، وقد فعلنا ذلك.

ولكن الأخ نائب رئيس الجمعية أضاف شيئاً مفرحاً آخرًا الا هو قوله: إن هذه المساجد كلها مساجد جديدة فقلنا..و(يأبى الله الا أن يتم نوره).

وقد سلطنا في العودة إلى عاصمة المقاطعة(ين تشوان) طريقاً أخرى غير الطريق التي قدمنا بها إلى قرية (تاي تسي).

فأبصرنا الريف زراعياً أكثر الغلات فيه هي الحبوب وأهم مظهر من مظاهر ذلك كثرة التبن الذي وضعوه على سطوح المنازل وحتى رفعوه هنا كتلا كبيرة فوق الأشجار الكبيرة وربطوه هو إليها ربطاً وثيقاً لا يسقط مع الرياح وإن كانوا قد وضعوه فوق الجذوع القوية لفروع الأشجار ففي هذا صيانة له عن أن تفسده رطوبة الشتاء على الأرض ومنعا من الحيوانات عن أن تصل إليه.

وكان المطر لا يزال ينهمر وهم يقولون: إنه ليس من المعتاد سقوط الأمطار بهذه الكثرة في هذا الفصل من السنة. ولكن استمرار سقوط المطر عزز في نفوسنا الشعور بخصب هذا الريف الصيني البعيد بل الموغل في البعد عن عاصمة الصين (بكين) وعن المراكز الإدارية في الجمهورية الصينية الشعبية التي يزيد سكانها على الألف مليون.

ومررنا بقرية اسمها (أوجونغ) أهم ما فيها على الطريق بالنسبة إلينا مسجد جديد ظاهر قالوا إنها مثل قرية(تاي تسي) تابعة لمحافظة في المقاطعة غير محافظة العاصمة.

وعندما وصلنا فندق الضيافة في ين تشوان كانت الساعة قد تجاوزت السادسة وهو موعد حفلة العشاء التي سيقمها رئيس حكومة المقاطعة فبادر الرفاق مسرعين يصعدون الدرج بدون أن يتمهلوا فيمسحوا احذيتهم التي في ارجلهم بماسح كانت إدارة الفندق ممثلة في مديرة حازمة قد وضعتها عند المدخل وصعدوا يدوسون على السجاد النظيف الذي يغطي درج الفندق لأن تلبية نداء الحاجة إلى الحمام كانت قد أنستهم كل ذلك.

حفلة رئيس الحكومة:

كان البرنامج يتضمن حضور حفلة على مأدبة عشاء يقيمها للوفد رئيس حكومة مقاطعة (نن تشا) حسين خي بي لي وكان موعدها السادسة وقد وجدناه حاضراً في الفندق غير أنه عندما علم بتأخر وصولنا أخرها نصف ساعة.

وعندما حان الموعد وجدناه قد دعا عدداً من الوزراء وكبار الموظفين من مسلمين وغير مسلمين كما دعا إليها كبار المسلمين.



مع رئيس الوزراء حسين خي بي لي على يسار المؤلف المترجم الاستاذ لقمان ماشان لي وخلفه أحد الصحفيين يسجل مايدور من حديث

واقام مأدبة عشاء فخمة صينية أصيلة غير أن صينيتها كلها ممزوجة بمزاج إسلامي صافٍ خالٍ من الوسواس بدخول شيء من المنكرات أو المحرمات فيها فلم يكن فيها شيء من ذلك وعندما صفت اطباق المقدمات الشهيرة وبعضها كان غريباً نهض الداعي رئيس الحكومة المحلية الأخ (حسين خي بي لي) فألقى كلمة ترحيب بالوفد.

فردت عليه بكلمة مناسبة تضمنت شكره وشكر الأخوة المسلمين في هذه المقاطعة التي تشتهر بأنها مقاطعة للمسلمين من قومية (خوي) وأنها متمتعة بالحكم الذاتي وقلت له: إنه مادامت هذه المقاطعة معروفة بهذه الصفة فإننا نرجو أن تكون بمثابة المثال الطيب للمقاطعات وأن تكون مشرفة للمسلمين وأن تسبق في التطوير والتقدم المادي والمعنوي بقية المقاطعات المماثلة لها في الظروف والامكانات.

وبخاصة في موضوع المساعدة على ترميم المساجد القديمة وتشبيد المساجد الجديدة و تثقيف المسلمين ثقافة إسلامية صحيحة.

ثم توالى أطباق الطعام الغريبة وفيها عصب خف البعير، والأرز بالعسل، والحلوى في منتصف الطعام وأنواع متنوعة من اللحوم من الغنم والبقر والطيور حتى إنهم جاؤا بثلاثة حملان صغيرة. والحمل ولد الشاة الصغير وكلها مشوية قالوا: إن عمر الواحد منها أربعون يوماً فقط، وكانوا قدموا قائمة الطعام في أول المائدة فعرفنا ماسوف يقدم لنا.

وفي ختام المائدة أمر الرئيس بإحضار الطباخين ليسلموا علينا وليرينا أنهم كلهم من الإخوة المسلمين كما حضر للسلام معهم أيضاً النساء اللاتي كن يقدمن الطعام وهن مسلمات أيضاً.



تقع محافظة تونغ شين في الجزء الأوسط من مقاطعة ن تشا ،على حدود مقاطعتي كانسوو شنشي، وبالقرب من منطقة منغوليا الداخلية.

ويكثر في هذه المحافظة المسلمون حتى وصلت نسبتهم إلى ٨٠٪ من مجموع السكان وهي أول منطقة أسس فيها حكم ذاتي للمسلمين من قومية خوي في جميع أنحاء الصين. ولذلك تكثر فيها المساجد ومنها مسجد تاريخي عريق سيأتي الكلام عليه.

وتزدهر فيها زراعة القمح والأرز وساتين التفاح كما تشتهر بإنتاج البطيخ والشمام.

يوم الأربعاء ١٤٠٤/٨/١ هـ ١٩٨٤/٥/٢ م

إلى مدينة تونغ شين:

توجه الموكب في الساعة والنصف صباحاً إلى مدينة (تونغ شين) وتبعد مائتين وسبعة وعشرين كيلو متراً عن مدينة (ين تشوان) عاصمة مقاطعة (ن تشا) التي هي مقاطعة للمسلمين كما تقدم ومتمتعة بالحكم الذاتي وهذه المدينة تابعة لهذه المقاطعة.

ومعنى هذه المسافة أن علينا أن نقطع بالسيارة أكثر من أربع مائة وخمسين كيلو متراً في الذهاب والإياب في الطريق البري من أجل زيارة هذه المدينة التي تضم أعداداً كبيرة من المسلمين من أهلها وتعتبر مدينة نائية.

والسبب في السفر إليها إضافة إلى السلام على الإخوة المسلمين الذين يعتبرون في مكان ناء بعيد عن الطرق السلوكية المعتادة هو مشاهدة مسجد تاريخي عظيم فيها ومشاهدته لمجرد المشاهدة تستحق الزيارة ولكن إخوتنا

ارادوا أن تكون المشاهدة وأملوا أن تتبع المشاهدة المساعدة على إعادة ترميم ذلك المسجد التاريخي العظيم الذي يذكرونه ذكراً مقروناً بالفخر.

ومجرد وصول وفد من الأراضي المقدسة من مكة المكرمة إلى أي مدينة فيها مسلمون هو مقصد من المقاصد التي تستوجب الزيارة وهو مطلوب لذاته فإذا انضم إلى ذلك مقصد إسلامي آخر كان هذا مطلوباً على مطلوب أو نوراً على نور.

تألف الموكب هذا اليوم من ست سيارات تتقدمها سيارة عسكرية أظنها للشرطة.

ومررنا بمستشفى حكومي فسألتهم عن كيفية العلاج فيه ؟؛ فأجابوا بأنه لا يد لمن يأتي للعلاج فيه من أن يدفع ثمن الدواء الذي يحتاجه.

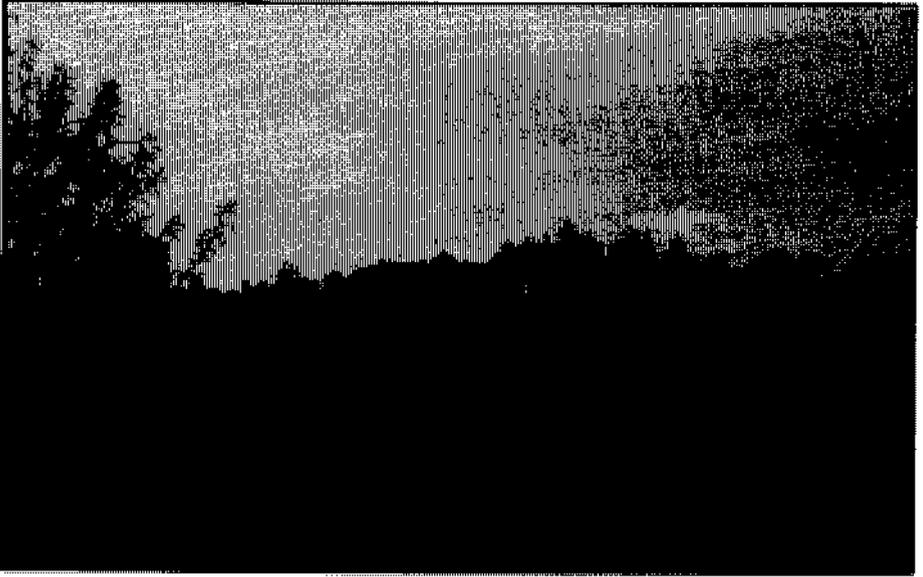
وكان سير الموكب وتبدأ بسبب ما خلفه المطر أمس والبارحة من مناقع في الحفر التي حفرها الزمن في الطريق الاسفلتي فحد من إندفاع السيارات. وكان هذا أمراً محموداً بالنسبة إليّ رغم كونه قد يكون مضيعة للوقت لأنني أعتبر استجلاء ما حول الطريق من هذه الأرض النائية من البرالصيني الشاسع أمراً مرغوباً فيه بل إن الوقت الذي يذهب في ذلك لم يذهب سدى.

ثم مررنا بمعهد زراعي على الطريق الاسفلتي أيضاً وذلك بعد أن قطع الموكب خمسين كيلو متراً من الطريق وهو في مكان ريفي وليس في مدينة من المدن ولاشك في أن الريف احق بالمعاهد الزراعية من المدن.

ومع وجود هذا المعهد الزراعي الذي يوحي بالحداثة في الزراعة فإنني رأيت ماقد يتناقض مع ذلك. أو ما يظهر أنه كذلك وهو منظر أناس يزرعون الأرز معهم حمار وفرس يستعينون بهما بدلاً من الآلات الزراعية الحديثة- إن صح التعبير- أو لنقل على الأدق،: إن ذلك لكونهم، لم يحصلوا على الآلات الزراعية الحديثة.

مسجد ياتشنغ:

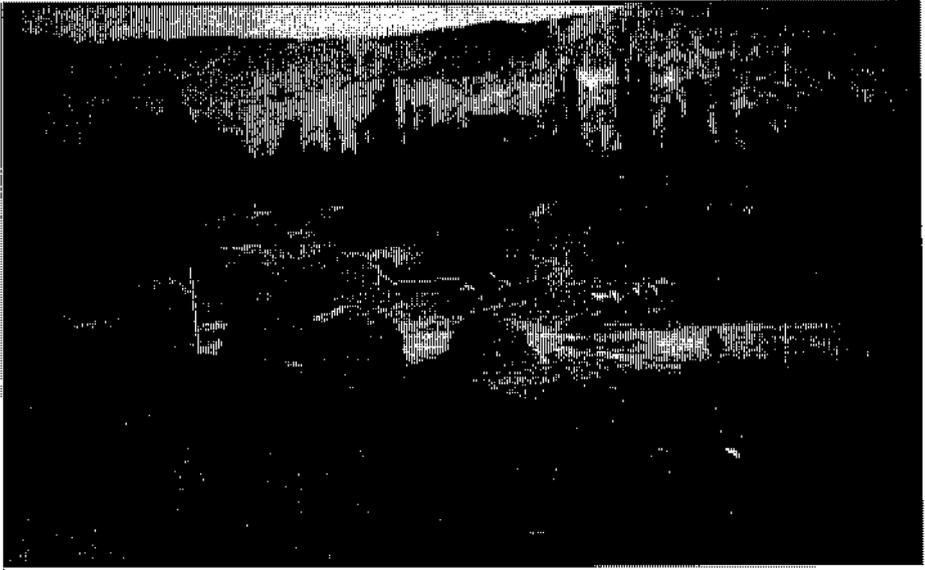
مررنا بمسجد على الطريق أخبرنا الأخوة المرافقون أن اسمه (ياتشنغ)
فالتقطنا له صوراً وقد أعجبنا لكونه أحسن بناء موجود في القرية وهذا مما يدل
على عناية هؤلاء الأخوة المسلمين بدينهم.



مسجد في الطريق

ولذلك شواهد تقدم ذكر بعضها وسيأتي ذكر الآخر وهو أن غالب المنازل في
هذا الجزء الشمالي الغربي من الصين مبنية بالطين مثلما كانت البيوت لدينا في
نجد قبل التطور الأخير إلا أنهم يخصصون المسجد ببنائه بالحجر أو الخشب
الصقيل المعتنى به الذي يجعله يبدو كأنه المبنى الاسمنتي المعتاد.

ثم مررنا بقرى متعددة كلها ريفية وبعضها صغير وفيها سكان مسلمون
عرفنا ذلك من دون تعريف بالقلانس البيض وهي الطواقي - جمع طاقية - التي
يضعها المسلمون فوق رؤوسهم مع أن المسلمين لا يلتزمون كلهم بأن يضعوا على
رؤوسهم الطواقي ولكن هذه عادة شائعة لدى كثير منهم.



قرية بين لانجوين تشوان

بلدة أوتنغ:

بعد مسيرة ثمانين كيلو متراً مر الموكب مع الشارع الرئيسي لبلدة تسمى (أوتنغ) والشارع الرئيسي فيه السوق الرئيسية التي تكون في الصين حافلة بالمتاجر الصغيرة غير الحافلة بالسلع أو بالبسطات وهي الأشياء الصغيرة التي يعرضها أربابها للبيع منشورة على فراش فوق الأرض أو عربة من عربات اليد. وذلك لعدم وجود الحرية التجارية الكاملة في البلدان الشيوعية كما هو معروف على أن الصين الشعبية هي من أقل البلدان الشيوعية تعصباً لاحتكار التجارة الصغيرة.

والبيوت الواقعة على هذا الشارع الرئيسي واجهاتها من لبن الإسمنت والأجر بخلاف البيوت الواقعة على الأزقة والشوارع الداخلية فهي من الطين.

وقد رأيت فيها مارأيته في أماكن عدة من كونهم لا يزالون يبنون بالطين أو يرمون البيوت الطينية القديمة به.

ومن المظاهر القديمة في هذه البلدة حمار يجر عربة ويسير في الشارع الرئيسي في البلدة ورجال أمامهم عربة يد محملة يدفعونها بأيديهم.

وتقع البلدة على قناة قدشقت من النهر الأصفر. وفيها محلات أحسن حالاً من بيوت الطين المعتادة ومن ذلك أبنية حكومية حديثة مما تؤجرها الحكومة لموظفيها وعمالها وبيوت آخر مسنمة السقوف رغم كون البلاد ليست مطيرة وربما كان ذلك من أجل سهولة انزلاق الثلج عن السقف المسنم وإلا فإن غالب البيوت فيها ذوات سقوف مسطحة.

وفي أطراف البلدة القديمة منازل ريفية من لبن الطين- جمع لبنة- على سطوحها أكوام من تبن الأرز أو القمح - لأدري فالمنطقة تزرع الاتنين- ولذلك رأينا في ريفها بعد ذلك قمحاً أخضر نظراً .



مركب وفد الرابطة واقف تحت الأشجار الباسقة التي تزين جانبي الطريق

وتزين أشجار الطريق الباسقة هذا الطريق وهي لم تفارقه منذ مغادرة مدينة (نن تشوان) عاصمة المقاطعة الا أنها في بعض المواقع أكثر ظلالاً وأكثر ارتفاعاً كما هو عليه الحال في ريف هذه البلدة.

وقد شعرنا بأن الجو قد برد قليلاً الا أن المطر لم ينزل لحسن حظنا لأنه يعكر علينا صفو الرحلة ولو لم يكن من ذلك إلا الإعتام على المصورات، وعدم رؤية الحفر والنقر في الطريق الاسفلتية و الوحل في الأماكن غير المسفلتة خارج الطريق والا فإن الطريق كله مزفلت.

قطعة من الصحراء:

سبق أن قلنا وأكدنا قولنا بأن هذه المنطقة هي قطعة من الصحراء لولا وجود هذا النهر الأصفر العظيم الذي يمدها بالماء والنماء تماما مثلما عليه الحال في صعيد مصر مثلاً بل في مصر كلها التي هي- في الحقيقة- صحراء قاحلة لولا نهر النيل الذي يمدها بالمياه وأسباب النماء من الطمي الذي يخصب الأرض ويجدد شبابها.

وقد تذكرت ما ذكرته من قبل حول هذا الموضوع عندما خرجنا من بلدة (أوتنغ) هذه التي نشأت وربما كانت أقيمت في الأصل بسبب وجود هذا الفرع من النهر الأصفر إذ ما أن فارقناها خارجين من الوادي المنخفض الذي تقع فيه حتى شعرنا بأننا قد خرجنا من الوادي الخصب إلى وجه الصحراء الجديب. إذ أصبحنا في أرض صحراء جهراء، أي مستوية لا تختلف عن صحرائنا العربية بشيء.

ومع ذلك شعرنا بشيء شدا إلى العصر الحديث عند حدود هذه الصحراء الصينية مع الوادي الخصب الذي تقع فيه هذه المدينة إذ شاهدنا مصنعاً للاسمنت ذكروا أنه صغير وأنه يوجد في المنطقة مصنع للاسمنت آخر أكبر منه.

ورأينا طوائف من السكان يسرون راكبين دراجاتهم على هذه الطريق ، وهذه المنطقة منه يصح أن تسمى بالطريق الصحراوي.



في الطريق بين بن تشوان وتونغ شين

وقد حسنت حالة الطريق نفسه وذلك بسبب بعده عن مضايقات الريفين ورطوبة المياه، وتزين هذه الصحراء تلال طينية متطامنة.

وقد شعر ركاب الموكب بما يشعر به من أكثر من شرب الشاي أو القهوة في صباح يوم من أيام الشتاء، فأوقفوا السيارات على جانب الطريق الصحراوي وتفرقوا بين الشعاب والتلال الامن كان منهم من الكفار فانهم وقفوا بشياهم وبالقرب من اصحابهم يبولون ولايبالون بما أصاب من ذلك من ثيابهم.

ولقد أبعدت قليلاً ابتغاء لمكان مطمئن وهو الغائط في اللغة الفصحى وبه سمي (النجو) أو البراز بلغة الأطباء لكون من يبتغى ذلك يذهب إلى مكان غائط في الأرض أي مطمئن أو منخفض فيها.



المركب واقف في الصحراء بين ين تشوان وتونغ شين

وشعرنا ببرودة الريح وكانت الشمس غائمة والأرض رطبة على أثر المطر الذي سقط أمس فكان الاحساس بحالة الجو يشبه الاحساس بحالة الجو في الشتاء في نجد واعتذر الرفاق عن البرودة في الجو في هذا الفصل الذي هو فصل الربيع وقالوا: إن هذا البرد جاءنا من (سينكيانغ) وهي تركستان الشرقية التي قد منا منها قبل أيام قليلة فقلت لهم كأنما كان برد تلك المنطقة يلاحقنا. وقد قصصت قصته في كتاب «في مهد الترك» ويمكنك أن تطالعه إن شئت.

فوق رأس البقرة:

الصينيون مولعون بالتشبيهات والمجازات في لغتهم ولا يستطيع أن يتحدث عن ذلك بالتفصيل الا خبراء بلغتهم ولست منهم غير أنني لم أعدم شواهد على ذلك كثيرة تمر في أضعاف الكلام أو تحس بها في الأسماء أو الصفات عندهم.

ومن ذلك أننا رأينا على البعد تلة جبلية صحراوية فقالوا: إنها (نيو تيو تشان) ومعناها: (جبل رأس البقرة) فنيو هو بقرة ويذكرنا ذلك بما سبق أن أوردناه عن (جامع) (نيوجيه) في بكين الذي قالوا: إن معناه جامع حي البقرة أو شارع البقرة. وتيو: رأس وتشان: جبل. وذكروا أن هذا الجبل سمي بذلك لمشابهته في المنظر لرأس البقرة.

ولم أر عند رأس البقرة شيئاً من البقر وكان الأولى به أن يسمى رأس البعير لأنه واقع في صحراء ولأن مثل هذه المنطقة- لولا قناة النهر الأصفر- لا تعيش فيها البقر وإنما تعيش فيها الإبل، ولكنني رأيت قطعاً من الغنم البيض يرعى في هذه الصحراء كما ترعى الأغنام في صحرائنا العربية.

وذلك رغم كون الرعي هنا قليلاً فعدا بعض الأشجار القليلة اللطئة بالأرض فإنه ليست هناك اعشاب خضر في الصحراء ماعدا ما كان على جانبي الاسفلت مباشرة لأن المطر القليل الذي سقط وتسرب إلى جانبيه تسبب في إنباته.



الصحراء القريبة من مجرى النهر

واخبرونا أن الاغنام ترعى الاعشاب اليابسة التي كانت قد ازدهرت في الصيف الماضي، وإذا جاءها الشتاء البارد جفت وبيست ولكنها تبقى صالحة لرعي الأغنام وذلك خلاف ما يكون عليه الحال عندنا حيث تجف الأعشاب بعد الربيع ثم تكون هشيمًا تذروه الرياح قبل حلول العام القادم. وقد اخبرونا أنه نظراً لبرودة الجو فإن المطر القليل يكفي لإرواء العشب لمدة طويلة.

على رأس البقرة:

وصل الطريق إلى جبل رأس البقرة الذي تبين أنه ليس جبلاً صخرياً عالياً، وإنما هو تلة جبلية متسعة يتألف ظهرها من الطين والحجارة وسبب كونها تری على البعد هو كونها تقع على ظهر حزم مرتفع من الأرض.

ولذلك ركب الطريق الاسفلتي ولم بجانبه

إلى الوادي الخصيب ثانية:

بعد نصف ساعة من السير في هذه الصحراء القاحلة هبط الطريق إلى منطقة منخفضة من الأرض على هيئة واد غير عميق يجري فيه النهر الأصفر نفسه إلا أنه غير متسع جداً بسبب وجود الأماكن الصخرية المرتفعة التي تحاصره.

فتبدلت المناظر فجأة من صحراء كدرة إلى أرض خصبة نضرة وكان من أول مايلفت النظر مزارع الأرز التي بسطوا فيها الأغصية الرقيقة من اللدائن من أجل حماية الأرز مادام صغيراً من البرد.

وشجرة تشبه الأشجار الصحراوية المتوسطة أسرع المرافقون يروننا إياها باهتمام وهم يقولون (كوتشي) (كوتشي) ولم أفهم أول الأمر حتى شرحه لي الأخ

المترجم (لقمان ماشان لي) فقال: هذه الشجرة ذات حبوب مشهورة في الصين بأن تناولها مفيد جداً وبخاصة لكبار السن فهي تغذي الأعصاب وتسبب إسالة الدم في العروق وهي التي اهدى اليكم منها رئيس وزراء هذه المقاطعة (نن تشا) كما أنهم في المائدة الرسمية وضعوا في طبق الحسا ثلاث حبات منها لكل شخص فتذكرت ذلك وأن حبوبها في حجم حبة الهيل أو لنقل حبة القهوة الا أنها مستطيلة، وقالوا إنها تنبت في الأصل برية وأنها تنقل من هذه المقاطعة إلى سائر أنحاء الصين والعالم.

وهذا المكان تابع لمحافظة (تشونغ نغ) ويبعد مائة وستة وخمسين كيلو متراً عن عاصمة المقاطعة (ين تشوان).

وقد استمر الطريق يسير وسط هذا الوادي الخصب بغية أن تستفيد القرى منه، وقد انتصبت الأشجار الاسطوانية العالية على جانبيه ساكنة ساجية إذ كان الجو ساكناً ليس فيه من الهواء ما يحرك الخوصة فما شبهت هذه الأشجار الاسطوانية الفارعة الساكنة الآن الا بالجنود الصينيين الذين يقفون في وقفة عسكرية على ابواب المحلات الهامة للحراسة أو لمجرد المظهر فهم يقفون وقفة مشدودة مستقيمة وقد سكنت اعضاؤهم حتى اصبحت لا تكاد تفرق بين سكون الجندي وسكون بندقه التي تكون بيده، ولو لا أنك قد تمعن النظر في وجهه فتجد أن جفنه يطف في بعض الأحيان لظننته تماثلاً من التماثيل وليس آدمياً حياً.

وقد التقطت صورة لأشجار الطريق الاسطوانية هذه بسوقها البيض وفروعها الخضراء والسيارة تسير وذلك لاستقامة الطريق وامتداده في جزء من هذه المنطقة.

وأخبرنا الإخوة المرافقون أن المسلمين يؤلفون أكثرية من سكان هذه المحافظة (تشونغ نغ) فيما عدا عاصمتها فان المسلمين فيها أقلية عددية.

ومن المناظر المميزة منظر امرأة جميلة كانت تتركب دراجة ثم نزلت منها واقفة، على ترعة من النهر الأصفر وتبين لنا أنها من الأخوات المسلمات لأنها تضع فوق رأسها قلنسوة (طاقية) بيضاء، وهي شعار المسلمين وتلبسها بعض المسلمات المحافظات على المظهر الإسلامي.

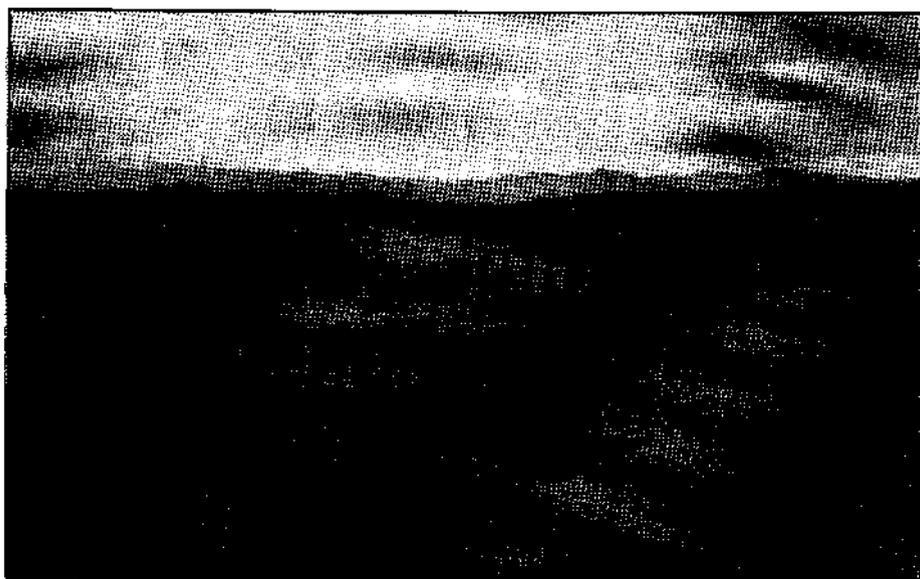
ومر الطريق بسوق البلدة على الشارع العام فلاحظنا وجود بعض البيوت الاسمنتية عليه بخلاف سائر البيوت هنا فإنها من الطين كما رأينا الفلاحين قد احضروا معهم بعض ماينتجونه وهم يبيعونه في السوق بأنفسهم.

ولاحظت هنا كثرة الدراجات بينما لم أر سيارة ركوب واحدة في هذا السوق ولافيما حوله. وإنما كانت توجد بضعة سيارات من سيارات الشحن. وكذلك رأيت عدداً قليلاً من الجرارات الزراعية، وقد أخبرونا أن سكان هذه المدينة التي هي عاصمة محافظة (تشونغ نغ) يبلغون مائة الف نسمة.

وتلفت النظر أيضاً هنا الكتابة الصينية المعقدة فوق واجهات المنازل الطينية البسيطة. ثم مررنا بفرع من فروع النهر الأصفر ومن بعده رأينا حافة هذا الوادي الخصب صحراوية غليظة كالتي نسميها الحزم في بلادنا.

واسرع الموكب لركوب هذا الظهر الصحراوي المرتفع وأسرعت معه الأشجار الاسطوانية المنتصبة على جانبي الطريق الا أنها عندما علا الطريق هذا المكان الصحراوي المرتفع وقفت ولم تفعل ذلك فهي تحتاج إلى رطوبة وماء كثير لايتوفر لها الا في الوادي الخصب.

وصرنا مرة أخرى في مكان خالٍ من العمارة لعدم استطاعتهم إيصال الماء إليه من مياه النهر لارتفاعه ولايتأتي ذلك إلا باستعمال مضخات ضخمة وهو يشق عليهم توفيره لأن الصين الشعبية تعتبر - كما قال لنا ذلك ممثلوها الرسميون - دولة نامية وليست من الدول المتقدمة والمراد بالدولة النامية الدولة الناقصة النمو كما هو معروف.



نظرة من بعيد إلى جامع تونغ شين

وحتى في هذا القسم رأينا عدداً من الدراجات وشخصين راكبين حمارين ولم أر سيارات تذكر، بهذا المناسبة أقول إنني بحثت في ذهني وعيني عن محطات من محطات الوقود فلم أر منها حتى واحدة.

ومع أن السبب في ذلك مفهوم وهو قلة السيارات الخاصة أي التي يملكها أفراد الشعب أو انعدامها لكن أين تتزود سيارات الحكومة؟ والجواب أن ذلك ربما كان من محطات في أماكن غير بارزة من أجل حراستها ومن أجل عدم وضعها على طريق عام لأنه لا يوجد من عامة الشعب من يشتري منها الوقود وأما السيارات الحكومية فإنها تذهب إلى المحطات في أماكنها غير البارزة.

ووجه هذه الأرض المرتفعة الصحراوية التي هي صخرية معظمه من الطين يركبه السافي وهو الرمل الدقيق الذي تنثره الرياح.

وقابلتنا في الطريق ثلاثة جرارات زراعية يظهر أنها من الأملاك الخاصة وليست حكومية إذ يحمل أحدها تبنا ويحمل الآخران أمتعة وادوات للفلاحين.

ودراجتان من الدراجات المعتادة عليهما امرأتان تلتفحهما الريح الباردة وإن لم تكن بالغة البرد.

ثم قطع من الأغنام البيض، وعدد من الإبل ذوات السنامين رأيتها على البعد وتمتيت أنها قريبة منا.

وقد ذكرني ذلك ببلادنا إذا تغاضيت عن السنامين الذين يزينان ظهور هذه الإبل الصينية بدلاً من السنام الواحد على ظهور الإبل العربية النجيبة التي لا شك في أنها لو كانت ذات سنامين لأثقلها ذلك وأعجزها عن السرعة في الطلب والهرب فضلاً عن كونه يذهب منها الرشاقة واللياقة البدنية المعهودة.

وساعد في تذكر بلادنا وادٍ صحراوي جاف عليه جسر عبر فوقه الطريق.

وقفة الراحة:

سماها المترجم بذلك وهو يقصد المعنى الذي سمي من أجله بيت الخلاء (بيت الراحة) في بعض البلدان العربية فالمراد منها افساح المجال للمبال.



سيارات الموكب في وقفة في الصحراء في الطريق بين تشوان وتونغ شين

فرأيت غير بعيد من الطريق قناة اسمنتية قد شقوها في هذا الجزء الصحراوي وهي قادمة من النهر الأصفر في الجزء الذي تجاوزناه وذهابته إلى واحة أخرى هي التي نقصدها ولا يفصل بينهما الا هذا المرتفع الصحراوي الذي نقف عليه وهي تجري في هذه الصحراء الجرداء، بمنظر أنيق، وانسياب طليق، ورأيت راعيين اثنين معهما أربعة أحمره- وهذا هو جمع القلة في العربية الفصحى لكلمة حمار- وقد جلسا على كوم من الطين والحمير ترعى.

الإبل الصينية:



المسلم الذي قابلنا راكبا بين سنامي البعير

وكنت أتأمل هذه الصحراء الصينية التي وقعنا فيها فجأة كما يفعل مثل ذلك من يخرج فجأة من وادي النيل إلى مايليه من الصحراء المصرية وأسائل نفسي عن وجود الإبل فيها وإذا بي أرى راكبا معه جملان ضخمان قصيران من ذوات السنامين فهي إذاً إبل صينية وهي أيضاً من ذوات السنامين. فهي إذاً جديدة بالمشاهدة.

وكانت مقبلة علينا مع الطريق الاسفلتية وسياراتنا مسرعة ومجرد أن
ألمحها وهي كذلك لا يكفي فأمرت بإيقاف الموكب المكون من سبع سيارات
تتقدمها السيارة العسكرية ذات البوق المميز الذي يتقدم الموكب الرسمية عادة
ونزلت من السيارة أحمل المصورة فنزل معي الحارس الخاص والمترجم بسرعة
يتبعونني وأنا أحاول التقاط صورة لصاحب الإبل مع إبله فكلموه بكلمات
يسيرة قالوا لي على أثرها إنه من إخوتنا المسلمين فتبادلنا التحية الإسلامية.



الإبل ذات السنامين في الطريق إلى تونغ شين

وعندما كنت أهم باغتنام هذه الفرصة السانحة فالتقط له صورة وقد اعجلني
المنظر عن خلع العباءة وكان المصور الحكومي الذي يرافقنا يسارع بالتقاط صورة
لي وأنا أفعل ذلك لأنه كان يعتقد أن هذه فرصة لا ينبغي أن تضيع.



المؤلف بين الإبل ذات السنامين

قبل الهدف:

إن الهدف من رحلتنا الطويلة هذه بالسيارات هو زيارة مدينة (تونغ شين) ذات الأغلبية المسلمة بين سكانها ومشاهدة مسجدها التاريخي العظيم الذي يقول حتى الصينيون الكفار إنه مفخرة من مفاخر تاريخهم، ولذلك رصدوا مبلغاً من مال الدولة للإسهام في تعميمه واعادته إلى ما كان عليه.

بعد سير استمر أربع ساعات و نصفاً أقبلنا على هدفنا المنشود في وادٍ متسع منخفض من الأرض تمضي إليه القناة التي سحبوها من النهر الأصفر متجاوزة ذلك الجزء الصحراوي الواقع بين الواديين الخصيبين.

ووصلنا قبل الحوض المنخفض إلى قسم من الأرض الصحراوية المستصلحة حديثاً واضح ذلك من جميع أمرها فمنازلها كلها من الطين الحديث البناء، وليس فيها عود أخضر من الأشجار الطبيعية وإنما معظم الزراعة هي من القناة وأكثرها حقول زراعية غير متسعة.

ولاحظنا العلامة المميزة للمسلمين في هذه البلاد وهي القلانس (الطواقي)
البيض على الرعوس حتى على رعوس الأطفال وهي رمز أكثر منها مفيدة لأن
بعضها خفيف لايقي من البرد أو الحر كما رأيتها بعد ذلك.

ثم وصلنا الوادي الذي يشرب من هذه القناة وهو زراعي متسع جميع البيوت
فيه من الطين بعضها بجانبها ما كنا نسميه في بلادنا (المطينة) وهي الحفرة
التي يؤخذ منها الطين للبناء وقد استغلها هؤلاء الصينيون فغرسوا فيها أشجار
الظل النافعة.

وهذه البيوت كلها بيوت خاصة أي يملكها الأفراد وليس للحكومة فيها
تدخل لأن الناس بينونها بأنفسهم من أرضهم.

وقد مررنا بمسجد صغير عند هذه البيوت ليست له منارة.

ومن الأشياء اللافتة للنظر في هذه البيوت أن سطوح بعضها مقببة أي يشبه
نصف البطيخة المستطيلة وبعضها ذات سقوف مسطحة. وربما كانوا فعل ذلك
لتقوية السطوح على حمل الثلوج في الشتاء وقد أكثروا من غرس أشجار الظل
والاعشاب في البيوت وخارجها.

ومنظر مسجد صغير صيني الطراز. وعربة يجرها حمار ويقرة قد قرنا معاً.

الاجتماع العظيم عند الجامع القديم:

اقلنا على مدينة (تونغ شين) فرأينا أعلى مافيها مسجدها التاريخي القديم
لأنه مقام على ربوة مرتفعة وهو أيضاً مرتفع بالنسبة لبقية المباني في المدينة
وبخاصة بيوتها التي لاتكاد ترتفع عن الطابق الواحد. وقد اخبرونا أنه يرى من
مسافة خمسة كيلو مترات وأنه يرى كله وليس منارته فقط التي هي صينية
وتبدو كأنها القباب الصغيرة المربعة التي يعلو بعضها بعضاً بحيث تكون العليا
أصغر من التي تحتها.

وقبل الوصول للمسجد مر الطريق بمجرى واد عميق جداً وهو جاف ذكروا أنه
وعدة وديان أخرى كانت تغذي المدينة بالمياه في القديم غير أنها قل المطر فيها
في الأزمنة الحديثة فشقوا عوضاً عنها هذه القناة من مياه النهر الأصفر.

أما الوادي الذي تقع فيه المدينة وعلى ضفافه فهو ذو ضفاف واقفة حولها
تلال حمر جميلة المنظر.

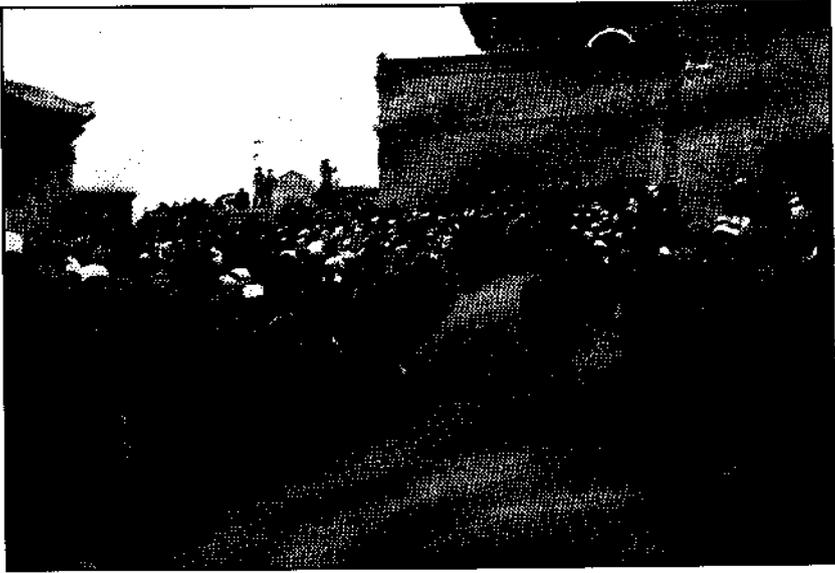
ثم رأينا قسماً من المدينة طيني المنازل كله وبعض البيوت فيها متفرقة ولم
أر الأجر في مبانيها ووجدنا الصفوف الهائلة التي تضم الألوف المؤلفة من
الإخوة المسلمين من كافة الأعمار وقد خرجوا لاستقبال إخوانهم القادمين من بلاد
الحرمين الشريفين.



جماهير المستقبلين في بلدة تونغ شين على يميني المحافظ

وكانوا في مشاعر مهتاجة من الفرح والابتهاج منهم جميعاً عند المسجد
الذي يقع على ربوة عالية كما أنه ليس حوله من مباني المدينة شيء في الوقت

الحاضر وإنما ترى المدينة بعيدة وقد جاء القوم على اقدمهم ليكونوا في الاستقبال جزاهم الله خيراً.



صفوف من المسلمين عند جامع تونغ شين

وذلك لأن المنازل القديمة كانت حول المسجد ولكنها خربت ورأينا خرابتها ظاهرة في واد قريب من المسجد ولا أدري سبب خرابها هكذا.

وقد وجدناهم نظموا المستقلين في سماطين أي صفين طويلين سار بينهما الموكب بسياراته السبع ولم يكديسير إذ اندفع الجميع إلى السيارات يريدون أن يحيوا الضيوف فيطبقوا على الموكب، وكان وراء الصفين من الجماهير من يدفعهم إلى ذلك. بل إن المنطقة كلها قد امتلأت بالمستقلين الذي صعدوا الأماكن المرتفعة حتى جلولها كلها بأجسادهم.

وكان رجال الأمن يبعدونهم عن الطريق غير أن السيارات لم تستطع الوصول إلى الموقف المقرر لها بسبب إغلاق الطريق بالمستقلين.

وقد خيل إليّ أن سكان المدينة كلها خرجوا عن بكرة أبيهم فكان في الاستقبال عند وقوف الموكب أعيان المدينة ورجال العلم والدين فيها على رأسهم

الأخ (موسى تو غونغ بو) عمدة المحافظة التي تقع فيها المدينة والإمام (بلال لي تو خا) الامام الأول للجامع و(داود أو تشي مي) نائب رئيس فرع الجمعية الإسلامية في المحافظة وخلق من ذوي الرتب والمسئولين في المدينة لم أذكر أسماءهم لكثرتها وصعوبة كتابتها فضلاً عن استحالة فهمها.

كان محافظ المنطقة ورجال الأمن وأهل العلم والدين يحاولون منا أن ننزل بسرعة من السيارات لكيلا يطبق علينا الجمهور الذي كان يتدافع من أجل السلام والمصافحة أوحتى من أجل مجرد رؤية الإخوة القادمين من البلاد المقدسة وكنا جميعاً نرتدي الملابس العربية الكاملة مما جعل غرابية الزي أيضاً حافزة على المزيد من التزاحم.



جانب من المستقبلين في تونغ شين.

وكان قد أعلن عن مجيئنا من قبل واخبرونا أن هؤلاء القوم الذين هم من جميع الأعمار من الجنسين (الرجال والنساء) كانوا قد حضروا إلى هنا منذ مدة طويلة.

وكنا على عكس الإخوة الذين يريدون منا أن نسرع في الترحل من السيارات ونسارع إلى الخروج من وسط هذه الجماهير الحاشدة فكنت أودالتمهل من أجل تأمل القوم وتصوير بعض هذا الاستقبال إذ تصويره كله يقتضي الوصول إلى مكان مرتفع والإشراف عليه ثم تصويره من هناك وهو غير متيسر مطلقاً.

فالتقط الإخوة بعض الصور لجوانب من هذا المشهد وتأملت القوم فرأيت في ألوانهم إشراقاً وعلى وجوههم طلاوة ولاشك في أن مرجعها إلى وقوع بلادهم في مكان موغل جهة الشمال.



موكب وفد الرابطة بين المستقبليين بجانب الجامع في بلدة تونغ شين

كما أن كونهم مسلمين يزيد وجوههم إشراقاً لأنه يبعد عنها شرب الخمر التي تسبب التجاعيد في الوجه والاكثار من أكل الخنزير الكثير الدهن وهو ما يجعل كثيراً من وجوه الكفار الصينيين غير مشرقة أويسهم في كونها كذلك.

وكانت التلفزة والصحافة تصور هذه المشاهد وتسجلها.

على مائدة سريعة:

من عادة الأخوة الصينيين أن يقدموا للضيف مائدة حافلة بالمكسرات أشبه ماتكون بالمائدة التي يعبر عنها في البلدان الغربية ومن قلدها من أهل بلادنا الغربية بمائدة الشاي ولكنهم يجعلونها حافلة بالأطعمة التي تغني حتى عن المائدة الرئيسية الحارة لأنها تكون قد اشتملت على أنواع متنوعة من الكعك ومن الخبز الخفيف الذي يصنونه حسب طريقة لهم خاصة فالصينيون لا يقلدون غيرهم في صنع الطعام وإنما العكس هو الصحيح على مدى التاريخ إضافة إلي الفواكة المجففة والطازجة والسكريات المتنوعة وأصناف الحلوى الغربية ونجم ذلك كله هو الشاي الصيني الخفيف الذي لا يدخله السكر وإنما يضعون فيه حبوا شبيهة بالسمن تكون طافية على صفحة الكوب الصيني الصيني والأولى نسبة إلى الصين والثانية نسبة إلى الصيني الذي هو الخزف الذي ينسب في الأصل أيضاً إلى الصين لأنها كانت قد اشتهرت بصناعته أكثر من غيرها في التاريخ القديم.

لقد اعدت ذكر ذلك وإن كنت قد ذكرته من قبل وذلك لمناسبة مائدة مكسرات كبيرة وجدناهم قد أعدوها للوفد في غرفة واسعة من عدة غرف تابعة للمسجد وإن كانت منفصلة عنه بل بعيدة نسبياً منه.

لقد تقدمنا القوم بسرعة وهم يشيرون إلى الطريق لهذه الغرفة متجاوزين الجماهير المجهرة وهي واقفة في العراء كما كانت كذلك منذ مدة قبل وصول الوفد.

فكان حديث ممتع على المائدة وكان تعريف ببقية الحاضرين من القوم الذين لم يتم التعريف بهم أول الأمر بسبب شدة الزحام ومنهم طائفة من أئمة المساجد كتبوا أسماءهم.



على المائدة عند الوصول إلى بلدة تونغ شين مع جماعة المسلمين

المساجد في المحافظة:

على ذكرائمة المساجد واسمائهم وكثرتهم سألنا القوم وهم مجتمعون يستطيع بعضهم أن يصحح مايقع في كلام الآخرين من غلط اوسهو فقلنا لهم: كم عدد المساجد في هذه المحافظة؟ فاجابوا: إنه ثلاثمائة واربعة عشر مسجداً، وهذا كما ترى عدد ليس بالقليل الا أن المفاجأة السارة كانت عندما ذكروا أنها كلها مفتوحة للصلاة فقد كانت بعض المساجد في أنحاء من الصين لاتزال مغلقة بعد أن صادرتها الحكومة أو اغلقتها في زمن حكم عصابة الأربعة.

ولاشك في أن مرد ذلك إنما هو لكثرة المسلمين وقوة نفوذهم في هذه المحافظة التي هي جزء من مقاطعة(نن تشا) ذات الحكم الذاتي المخصصة للمسلمين من قومية(خوي).

تكلم عمدة المحافظة الأخ (موسى تو غونغ بو) في المائدة فقال من جملة قوله: إن سكان المحافظة عددهم مائتان وعشرون ألفاً وإننا نرحب بكم باسمهم جميعاً ثم قدم للوفد هدايا من إنتاج المحافظة أهمها نوع من الشعيرية الصينية الجيدة.

وقد سألت نائب رئيس الجمعية الإسلامية في المحافظة الأخ (داود أو تشي مي) عن عدد المسلمين بين سكان هذه المحافظة؟ فأجاب : إنهم مائة وسبعون ألفاً من مجموع السكان الذي هو ٢٢٠ ألف نسمة وهذه نسبة جيدة ولله الحمد نسأل الله تعالى أن يصلح احوالهم ويسدد اعمالهم إلى مايرضيه.

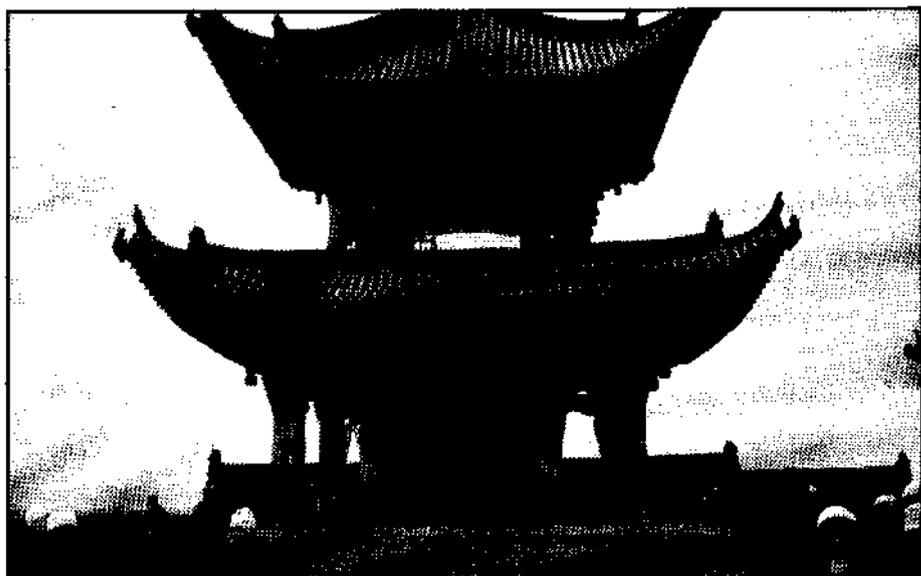
وتحدثوا عن هذا المسجد التاريخي العظيم فذكروا أنه أسس في أوائل حكم أسرة مينغ وعلى وجه التحديد كان بناؤه في عام ١٣٦٨م أي أنه قد مضى عليه مايزيد على ستمائة سنة.



جانب من الحائط الخارجي لجامع تونغ شين
والاستاذ ابراهيم الخزيم مقبل منه

واخبرونا أن له قيمة أثرية بالغة الأهمية عند المسلمين وغيرهم وأن المدينة التي كانت قريبة منه قد خربت عدة مرات وتهدمت بيوتها بسبب فيضان السيول وبقي المسجد وحده بعد أن نقل السكان منازلهم إلى أماكن بعيدة آمنة من الهدم.

وبقي المسجد وحده لم يضر وذلك لكونه واقعاً على ربوة مرتفعة وبنائه جيد يشبه بناء بعض القصور الصينية التاريخية.



إحدى منارات المسجد التاريخي في تونغ شين

وقالوا: إن عدد المساجد الموجودة في مدينة (تونغ شين) وضواحيها ٣١٤ مسجداً.

فرددت عليهم بكلمة ضافية شكرت فيه هذا الترحيب الحار الصادر من أعماق القلوب بالوفد وذلك الاستقبال المنقطع النظير الذي أملى على هؤلاء الأخوة أن يأتوا من جهات بعيدة لمكان الوصول وان يبقوا فيه الوقت الطويل أيضاً.



المؤلف يتكلم على يساره المترجم لقمان في تونس شين

ومن خصوص المسجد ذكرت لهم اننا نشارككم الاعتزاز بوجوده ونرى أن واجبنا يقضي المشاركة بإصلاحه والإسهام في ذلك والتعاون معكم على ذلك وهذا كله من باب القيام بالواجب وإلا فنحن نعرف أنكم وحدكم لاتألون جهداً في ذلك كما رأيناكم في عدة أماكن ولاتقتصرون على اصلاح المساجد القديمة التي تحتاج إلى إصلاح وإنما تنشئون مساجد جديدة رغم قلة الامكانيات وضيق ذات اليد.

وقلت لهم: إننا سنبلغ ماشاهدناه منكم من مظاهر الترحيب التي تدل على عمق مشاعركم الإسلامية ومحبتكم لأخوانكم المسلمين في البلاد المقدسة وسوف تنتقل رابطة العالم الإسلامي ذلك إلى إخوانكم المسلمين في جميع أنحاء العالم.

هذه وكانت مصورات التلفزة والصحف تتابع كل ذلك وتسجله حتى إنني عندما اردت الذهاب للوضوء في الاماكن المخصصة لذلك في المسجد تبعني المصورون فطلبت منهم أن يعودوا.



عند الجامع التاريخي في تونغ شين

ولاشك في أن مرجع ذلك إلى أوامر كانت قد صدرت اليهم من سلطات الحكم في المقاطعة بأن يسجلوا جميع تحركات الوفد لأنهم يريدون أن يعرضوا ذلك في التلفاز لديهم وربما لدى غيرهم من المحطات في الصين كما أنهم ذكروا أنهم سيعطوننا نسخة من الشروط المتلفزة التي تضمنت ذلك.

الجماعة في المسجد:

خرجنا من غرفة الاجتماع إلى المسجد لاداء صلاة الظهر التي حان موعدها فرأينا الجموع المجمعمة من الناس لاتزال واقفة في الخلاء تنتظر الحصول على نظرة إلى إخوانهم في الله القادمين من بلاد الحرمين الشريفين وفيهم نسبة كبيرة من النساء والأطفال.



بعض الجموع في أنتظار وصول الوفد في تونغ شين

وأما الشيوخ والبالغون فقد اندفعوا إلى المسجد وبعدهما أذن المؤذن لصلاة الظهر بصوت نقي شجي زاد من شجاءه بل من شذاه منظر الإخوة الكرام الذين كانوا يتدافعون على الأعضاء للسلام وكان بعضهم يكتفى بمس الثياب إذا تعذر عليه السلام من باب إظهار الاحترام.

تقدمتهم لصلاة الظهر تحت إلماح منهم والزمام فقال الأئمة: إن صلاتنا خلفكم هو من باب التبرك والاستئناس لأنكم جئتم من بلاد خير الناس.

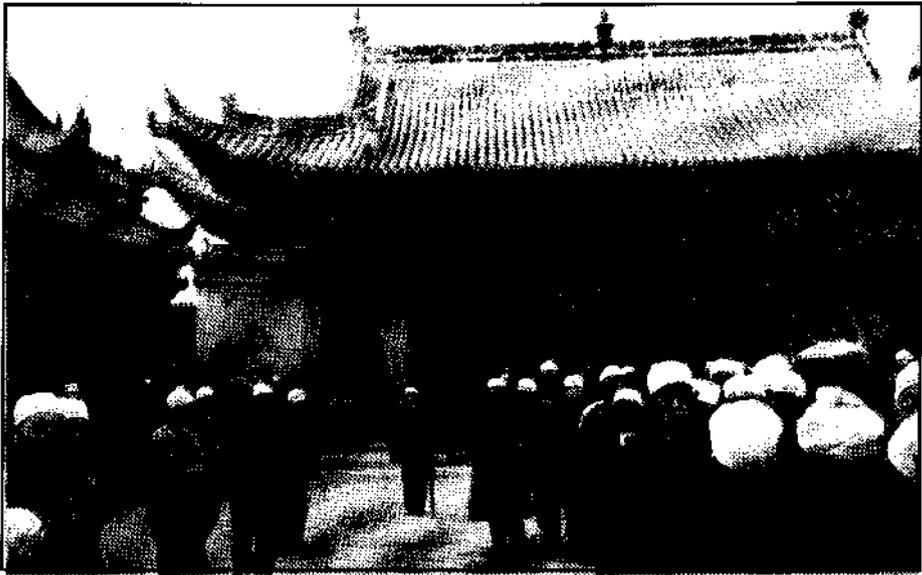


داخل جامع تونغ شين بعد الصلاة والمؤلف يلقي كلمة على يساره المترجم

ثم أُلقيت فيهم كلمة مرتجلة مناسبة اعقبها دعاء بنصر الإسلام و المسلمين عامة وهؤلاء الأخوة المسلمين الصينيين المخلصين خاصة.

ثم قدموا لنا تعريفاً بجامع «تونغ شين» باللغة الصينية هذه ترجمته:
يعتبر مسجد تونغ شين من اقدم وأكبر المساجد في مقاطعة نون تشا.

ويرجع تاريخ بنائه إلى ما قبل ٦٥٠ سنة وجرى ترميمه في اعوام ١٥٧٣ و ١٦٢٠، ١٧٩١ و ١٩٠٧. وبعد الثورة والتحرير في الصين تمكن المسلمون في المقاطعة أن يتولوا ادارة انفسهم في عام ١٩٥٨.



أحد الأروقة في جامع تونغ شين

والمسجد بنى على الطراز الصيني من الخشب ومزخرف بالنقوش الصينية والكتابات العربية وله مكانة خاصة في نفوس المسلمين في هذه المنطقة.. يقصده كثير من الزوار والسواح لمشاهدته. وكذلك يرتاده كثير من المسلمين للصلاة فيه في الصلوات الخمسة المفروضة ويبلغ من يرتاده من المصلين في صلاة الجمعة ما يقرب من ألف مصل.

وللمحافظة على هذا المسجد التاريخي القيم تبرعت الحكومة المحلية بمبلغ ٦١ الف يوان عام ١٩٨٣. والمسلمون يبذلون كل مافي طاقتهم للمحافظة عليه والاهتمام به.



الأستاذ رحمة الله بن عناية الله
سكرتير وفد الرابطة يتفرج على
حائط المسجد والجمهور يتفرج
عليه

والقيت نظرات خاطفة على المسجد ومحرايه الذي حفرت عليه الآية الكريمة
﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ ومنعنى الازدحام من استجلاء باقي المسجد فخرجت
مسرعا إلى فناء خارجي مكشوف واسع تابع للمسجد وهو كالمسجد في مكان
عالٍ كأنه السطح فألقيت اطلالة سريعة على أطلال المدينة القديمة التي كانت
قائمة حول المسجد فخربتها السيول ويقع معظمها في جهة الشمال من المسجد
وبجانب مرتفع منها مقبرة واسعة للمسلمين تدل على ماكانت وصلت إليه المدينة
من اتساع في القديم.



رأس منارة جامع تونغ شين

الوداع الحافل:

خرجنا من المسجد نخوض في جموع الأخوة الذين كانوا ينتظرون خروجنا
ومررتنا بهم إلى حيث تقف السيارات.



صورة تذكارية في محراب جامع تونغ شين مع إمام المسجد على
يساره الشيخ عبد الرحمن المنيعي عضو الوفد وعلى يمينه المؤلف

ولم نكد نخلص إلى السيارات أو نستطيع فتح ابوابها للركوب الا بمساعدة من رجال الشرطة والمستقبلين الرسميين الذين كانوا يقسون في بعض الأحيان على الأخوة المزدحمين حولنا ليبعدوهم عنا وهي قسوة استنكرتها غير أن أحد المرافقين قال: إن ذلك ضروري لحمايتكم ولم أفهم الحماية من العواطف الأخوية الكريمة وكان بودي أن أقف معهم مدة أطول أتحدث فيها اليهم واخبرهم بأننا نشتاقي اليهم كما يشتاقون إلينا.



صورة تذكارية في فناء جامع تونغ شين
مع بعض المسلمين عند توديعهم

ثم سار الموكب مودعاً هذه الجموع الكبيرة مغادراً المنطقة، وأنا أفكر في هؤلاء الأخوة الذين كانوا قدماوا من أنحاء المدينة المتباعدة وبعضهم جاء من ريفها الأبعد من ذلك و وسائل الركوب المعتادة المتاحة لغيرهم ليست متوفرة هنا فسلطنا طريقنا في بطن هذا الوادي العجيب الذي هو مجاور لمجرى وادٍ ضخم عميق المجرى جاف.



البيوت المنحوتة في التلال

ومن أعجب ما لاحظته في هذا الوادي بيوت عجيبه منحوتة في جانبي الوادي الذي يشبه الواحد منها جانب الجبل الواقف فتراهم نحتوا البيت فيه وركبوا عليه بابه دون أن يتكلفوا لذلك بناء حيطان او حواجز او تستقيفا للبيوت لأن ذلك كله من جانب الوادي كما رأينا في مدائن صالح في بلادنا حيث نحتت البيوت في الجبال، الا أن الفرق بينهما أن جانب الوادي هنا ليس صخريا خالصا، بل هو طيني غليظ مشوب بحصاً دقيق.

المأدبة الشعبية الكبيرة:

اخترق الموكب ضاحية من ضواحي مدينة (تونغ شين) التي هي في الحقيقة أكثر بيوتها بمشابة الضواحي لأنها متناثرة غير متلاصقة وأكثرها من طابق واحد حتى دخل إلى فناء مكشوف (حوش) تحيط به من جميع الجهات عدا الجهة التي فيها الباب غرف تفتح إليه دون اروقة أي أن الغرف تفتح مباشرة على

الفناء دون أن يكون فوق أبوابها سقوف من رواق أونحوه وفي ركن فيه كومة من مخلفات الفحم الحجري بعد حرقه لأنهم يوقدون بالفحم الحجري وهولا يستهلك كله عند الحرق بل يبقى منه رماد كثير.



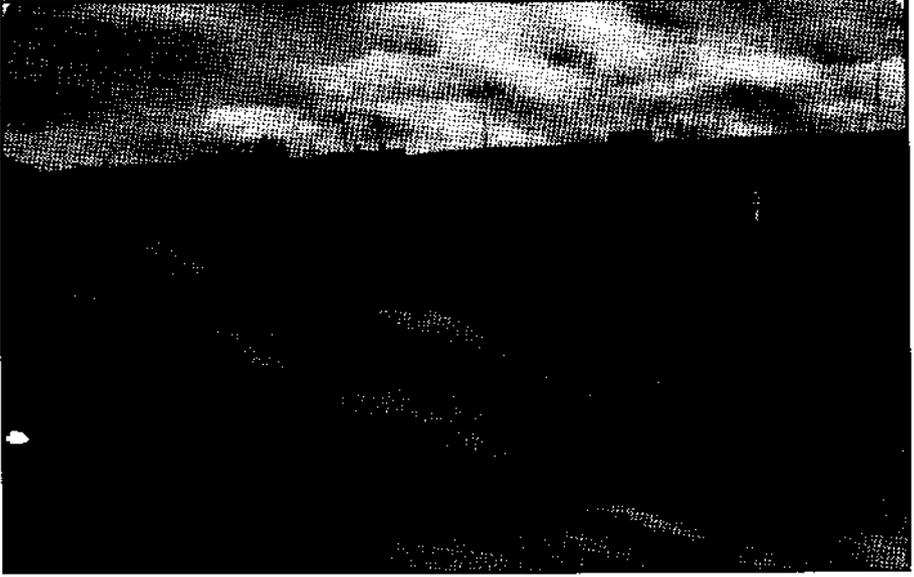
مقر المادة الشعبية في تونغ شين

توقف الموكب وعدد سياراته سبع مع ما انضم اليه من سيارات أهل المدينة عند الباب الخارجي عدا سيارتي فقد دخلت بعد السيارة العسكرية التي تتقدم الموكب.

واستقبلنا أخ من الإخوة المسلمين مهليا مرحبا قدموه لنا بأنه الأخ (صادق دينغ ليانغ تشو) وأن عمله هنا هو نائب رئيس لجنة المساجد وهي لجنة شعبية ألقت بغرض ترميم المساجد واصلاحها بعد الدمار الذي أصاب بعضها في عهد الطغيان الشيوعي السابق.

وأما عمله الخاص فهو (صاحب مطعم إسلامي شخصي) هكذا عرفوا المطعم بالإسلامي بمعنى أنه لا يقدم الا طعاما حلالاً للمسلمين، وقالوا: شخصي بمعنى

أنه ليس موظفًا عند الدولة فليس مطعمه ملكًا للدولة كما يكون عليه الحال في أكثر المطاعم.



المركب في تونغ شين القديمة

ونظراً إلى أن غرف المنزل تفتح مباشرة على هذا الفناء من دون أن يكون هناك بناء يسترهما عن العيون فقد وضعوا على ابوابها ستائر من القماش تسدل عليها عندما يكون الباب مفتوحاً.

ادخلونا غرفة الجلوس الرئيسية وفي صدرها مكان مرتفع عن الأرض بحوالي المتر ويعتبر هذا عندهم صدر المجلس الذي يجلس فيه الضيوف الأجلاء ويؤلف هذا المكان المرتفع حوالي ربع مساحة الغرفة أو ثلثها وقد جلسنا فيه نحن أعضاء الوفد جميعنا ومعنا بعض وجهاء البلدة ومنهم محافظ المحافظة أي الحاكم الاداري لهذه المحافظة التي هي جزء من المقاطعة والمقاطعة في الصين بمثابة الولاية في الولايات المتحدة الامريكية مثلاً لها حكومتها الخاصة وإدارتها المحلية. ووجدناه - كالعادة - قد أعد مقدمات الطعام الكثيرة التي

هي أشبه ماتكون بالمقبلات عند غيرهم وقد وضعوها قبل وصولنا وتشتمل على أنواع من الخبز المجفف وما يشبهه (البسكويت) والحلوى وبزر البطيخ لكي يتلهى به الضيوف قبل مائدة الطعام الرئيسية وسكر النبات وهناك نوع واحد من الفاكهة الطرية (الطازجة) وهو التفاح لأنه الوحيد الذي يكون طازجاً الآن مما تخرجه بلادهم.

كان مضيفنا الأخ (صادق دنغ ليانغ تشو) يجلس معنا قليلاً مهلياً مرحباً تتعثر كلمات الترحيب في فمه من فرط الفرحه والتأثر وتفيض على وجهه علامات الفرح والسرور وهو يرحب باخوانه الضيوف من بلاد الحرمين الشريفين.

ثم يذهب ربما ليدبر شئون المائدة التي عرفنا أنها كبيرة من كثرة عدد المدعوين الذين شغلوا عدة غرف غير التي كنا فيها.

وعرفنا بعد ذلك أنه ذبح خروفين وذلك غير اللحوم الأخرى كالدجاج واللحم في المائدة الصينية على وجه العموم لا يكون أكثر ما يقدم فيها لأنهم يصنعون أنواعاً متنوعة من الطعام والحضرات والأعشاب وأنواع اللحوم الأخرى من الطيور والأسماك.



داخل بيت أحد المسلمين في تونغ شين

ويكفى أن تعلم أن هذا الأخ الكريم قد اخذ في التقديم واخوانه وجيرانه يتعاونون على تقديم اطباق الطعام الفئدة منها بعد الأخرى فكان اللحم وحده اربعة أنواع إلى جانب الدجاج والطيور الأخرى ثم أنواع متنوعة من الخضرات والبقول المطبوخة والأرز بالسكر، والحلوى في وسط المائدة كالمعتاد عندهم والمكرونه وأنواع لانعرفها من طعامهم ولكننا نظمئن إلى أكلها لكون الذين صنعوها هم من إخوتنا المسلمين.

ولما رأيت المائدة بهذا السخاء والمدعويين بهذه الكثرة ابدت استغرابي من أن يستطيع شخص واحد في بلاد مثل هذه البلاد الشيوعية أن يقيمها بنفسه فهمس في اذني أحد الإخوة المرافقين الصينيين قائلاً: إن المسلمين من أهل البلدة تعاونوا على الانفاق على هذه المأدبة وإن هذا الأخ الكريم هو الذي أعدها وقام على انفاذها ولا أدري الحقيقة وإنما وضعت في يد طفل صغير لمضيفنا الكريم بعض النقود التي تساعد على تحمل نفقة هذه المائدة السخية.



أطفال في تونغ
شين

وكان الإخوة الضيوف المسلمون من سكان هذه المدينة يضيفون على المائدة من عبارات الترحيب بالوفد ما أضفى عليها مسحة مريحة أيضاً.

ومن ذلك أن محافظ المحافظة الأخ (موسى تونغ بو) قال وأعاد القول إن مدينة (تونغ شين) لم تشهد ترحيباً مماثلاً للترحيب الذي قابلتكم به حتى لضيوف الحكومة أو مسئوليتها الكبار لأنها ترحب بكم من القلب من دون أن يدفعها إلى ذلك دافع مادي أو نحوه. وقال: إنكم أول وفد إسلامي في التاريخ يصل إلى هذه المدينة. وقال: لذلك عندما سمع المسلمون بقدمكم جاءوا ليكونوا في هذه الأعداد الكبيرة في استقبالكم.

العودة إلى (بين تشوان):

بعد فترات من الوقت لاتنسى بين إختنا المسلمين الأعزاء في المدينة ودعونا في تأثر بالغ شارك فيه الجميع حتى النساء كن يشاركن في ذلك ولكن على طريقتهن المحافظة فالبعض منهن يطل من ابواب البيوت ويكتفي بذلك وبعضهن يجترئن فيقترين من الوفد ولكن لم يحدث أن تزاومت أجنبيات منهن من أجل الاقتراب من الضيوف ومصافحتهم كما تفعل الكافرات.

وأما الأطفال فإنهم كانوا أكثر جرأة وكان ذوهم يشجعونهم على ذلك يلتمسون البركة من أن تمس أيديهم الصغيرة أيدي إختهم جيران بيت الله في مكة المكرمة.

سار الموكب مغادراً مدينة (تونغ شين) في الثالثة والنصف من بعد الظهر. مع الطريق نفسه فوصلنا مدينة (أو تشنغ) في السادسة والرابع عصراً فوجدنا سوقها مزدحماً بالدراجات والمشاة أكثر مما رأيناه في الصباح لأن الناس في هذا الوقت يكونون قد انتهوا من أعمالهم اليومية في السادسة وخرجوا إلى السوق ومن الملاحظ هنا أن الناس حتى الفلاحين منهم يرتدون ملابس نظيفة على فقرهم وضيق ذات اليد المتفشى بينهم.

وأذكر أنني رأيت في الطريق سيارة شحن تحمل على ظهرها عدداً من الناس وكلهم نظيف الثياب نظيف البدن وعلى وجوههم علامات الارتياح مع أنه

لو كان هذا في بلادنا لغطى المرء منا وجهه لثلايراه الناس وقد يعرفون أنه راكب في ظهر سيارة شحن أما هؤلاء فرميا كان لسان حالهم ينشد مع الشاعر قوله:

وما عن رضى كان الحمار مطيتى ولكن من يمشى سيرضى بماركب

وهنا تذكرت شيئين هنا أولهما أن الطريق الأزفلتي قد أصبح مغبراً الآن لأن الشمس جففته فصار الطين القليل الذي علق به من جراء المطر غباراً يابساً متطائراً والثاني: أنه لا يكاد يوجد أحد حافٍ في الصين حتى الفلاحون الذي قد ترى بعضهم حافياً في كثير من البلدان لا تكاد تجد أحداً منهم بدون تعال.

وقد أدينا صلاة العصر جماعة في الخامسة والنصف وقد بقى على غروب الشمس ساعتان واخذ الكفار الصينيون الذين يرافقوننا من أجل التصوير للتلفزة والصحف يصورون هذا المشهد الغريب عليهم لأن الصلاة كانت على أرض الصحراء وليست في مسجد من المساجد المبنية و« جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ».

وقبل الوصول إلى مدينة (بن تشوان) تركتنا السيارة العسكرية التي كانت تتقدم الموكب لأنها من محافظة (تونغ شين) وحلت محلها سيارة عسكرية أخرى كانت تنتظر في مركز عسكري أظنه للشرطة تابع لمحافظة عاصمة المقاطعة وهي (بن تشوان). وكان الوصول إلى الفندق في الثامنة إلا الربع مساءً.

وهو الفندق الذي حللنا فيه منذ وصولنا إلى مدينة (بن تشوان) واسمه فندق (بن تشا) على اسم المقاطعة نفسها.

جلسة المباحثات الرسمية:

قلنا فيما سبق إن الأخ الشيخ (الياس شن شيا شي) النائب الأول لرئيس الجمعية الإسلامية الصينية المركزية كان قد حضر إلى لانجو من بكين بالقطار

عندما عرفت الجمعية أننا لم نتمكن من المجيء بالطائرة إلى بكين حسب البرنامج المقرر بسبب حالة الطقس وحضر معه الأخ عيسى محمود كو جنغ تاي رئيس العلاقات الخارجية بالجمعية الإسلامية وقد كان معنا في لانبجو ثم سار بالقطار إلى (ين تشوان) ونظراً لكوننا سنغادر (ين تشوان) بل سنغادر

مقاطعة (نن تشا) كلها غدا فانه لا بد من عقد جلسة المباحثات الرئيسية الختامية بين الجمعية الصينية ووفدنا وهي التي كان مقرراً لها أن تعقد في (بكين) في الأصل غير اننا الآن قد قررنا الا نمر أصلاً بمدينة بكين.

وقد عقدت هذه الجلسة في الساعة العاشرة من مساء هذا اليوم واستمرت حتى الساعة الثانية إلا ربع صباحاً أي قرابة أربع ساعات.

وكانت استكمالاً للاجتماع الأول الذي عقد بين وفد الرابطة والجمعية الإسلامية الصينية في بكين بتاريخ ١٤/٧/١٤٠٤هـ.

وقد مثل الجمعية المذكورة في هذا الاجتماع الثاني الإخوة:

١- الشيخ الياس شن شياشي نائب رئيس الجمعية الإسلامية الصينية المركزية.

٢- الشيخ صالح آن شي وي نائب رئيس الجمعية الإسلامية.

٣- الاستاد عيسى محمود كو جنغ تاي رئيس قسم العلاقات الخارجية في الجمعية المركزية.

٤- الاستاذ لقمان ماشان لى نائب رئيس قسم العلاقات الخارجية في الجمعية المركزية.

٥- الاستاذ مالك امين موظف في الجمعية المركزية.

٦- السيد يوسف ليو خغ لو نائب رئيس الجمعية الإسلامية لمقاطعة نن تشا.

وحضره من جانب الرابطة جميع أعضاء الوفد.

وقد دارت المحادثات الأخوية الإسلامية والمناقشات الودية التي تؤكد عزم الطرفين على توثيق العلاقة بين رابطة العالم الإسلامي والجمعية الإسلامية الصينية المركزية بما يعود بالنفع والخير على المسلمين.

وفي الساعة الواحدة والنصف من بعد منتصف ليلة الخميس ١٤٠٤/٨/٣هـ، انتهى الاجتماع بالاتفاق على الأمور الآتية:

أولاً: قبلت الجمعية الإسلامية الصينية المركزية شاكراً المنح الدراسية التي سبق أن عرضتها الرابطة عليها وهي عشرون منحة دراسية في المرحلة الأولى قابلة للزيادة بعد الاستفادة منها وحسب الضرورة والامكانيات . وتتحمل الرابطة مصاريف الدراسة والاقامة والسفر إلى مناطق الدراسة التي تحدد بان تكون في باكستان والبلدان العربية كالاردن ومصر والكويت وتونس كما تقرر بأن تكون عشر منح منها في الدراسات الإسلامية والعشر الباقية في اللغة العربية والتاريخ الإسلامي والجغرافيا وأن تتم دراسة اللغة العربية في البلدان العربية.

كما أكد الطرفان بأن يتم الترشيح لهذه المنح الدراسية من مختلف القوميات والمناطق الإسلامية في الصين وأن يتم ارسال وثائق الطلاب موثقة بالتصديق اللازم من الجهات المختصة في وقت مبكر لاكمال اجراءات الالحاق في الجامعات قبل شهر سبتمبر ١٩٨٤م.

ثانياً: يوجد في الصين الشعبية أكثر من ٢٠ ألف مسجد منها ١٢٠ مسجداً اثرياً كبيراً تحتاج إلى الترميم والاصلاح ولكن ٣٤ مسجداً من هذه المساجد الأثرية التاريخية تتطلب ترميماً عاجلاً. وتأتي في الاولوية والأهمية ١٥ جامعاً هي:

- ١- جامع جنغ جن في مدينة جان جو بمقاطعة فوجيان.
- ٢- جامع جنغ جو في مدينة نانكين.
- ٣- جامع شى واسي في مدينة جيلين مقاطعة شاندونغ.
- ٤- جامع خوتن في خوتن سينكيا نغ (تركستان الشرقية).
- ٥- جامع مافينغ كابي في كيولين بمقاطعة كوانغ سي.
- ٦- جامع نانجين كون منغ بمقاطعة يوننان.
- ٧- جامع فيت اليه في غولج بمقاطعة سينكيا نغ (تركستان الشرقية)
- ٨- جامع جنغ كوان في تونغ شين بمقاطعة نن تشا.
- ٩- جامع ناجاكو في ين تشوان بمقاطعة نن تشا.
- ١٠- جامع شما كوان في لانجو بمقاطعة كانسو.
- ١١- جامع عيدگاه في كاشغر بمقاطعة سينكيا نغ.
- ١٢- جامع يانغ خان في اورومسي بمقاطعة سينكيا نغ.
- ١٣- جامع شه شي وي في اورومسي بمقاطعة سينكيا نغ.
- ١٤- جامع دي شي في شيانغ بمقاطعة ليونينغ.
- ١٥- جامع دوون كوان في شينينغ بمقاطعة شنغهاي.

وتليها ١٨ مسجداً هي:

- ١- مسجد سونغ جيانغ في مدينة شنغهاي.
- ٢- مسجد بي سي في لينغ كينغ بمقاطعة شاندونغ.
- ٣- مسجد بوجن في بوجن خوي.

٤- مسجد جوشن جن في جوشن جن : خان.

٥- مسجد شوين ين في شيان : شانشي

٦- مسجد جنغ دوجنغ في جنغ دوجنغ : جنغ سي

٧- مسجد يانغ جو في يانغ جو خيانشو

٨- مسجد شوشي في شوشي اند خوي

٩- مسجد يانفو في يانفو اند خوي

١٠- مسجد جنغ وان في دنغ شان خوي

١١- مسجد دنغ واسي في كامفونغ خان

١٢- مسجد دوجانغ في دوجانغ خوي

١٣- مسجد سونغ زي في سونغ زي خوي

١٤- مسجد شيان في شانشي

١٥- مسجد جينكووان في انك كانغ شانشي

١٦- مسجد جن لونغ في بينغ ليانغ كانسو.

١٧- مسجد جوجان في جوجان كانسو.

١٨- مسجد عيدكاه في ياركند سينكيانغ .

وتحتاج الجمعية الإسلامية الصينية إلى ٣٠٠ الف دولار لكل مسجد على اصلاحه وترميمه وبناء على طلب المساعدة في نفقات الاصلاح والترميم فان الرابطة ستدرس مبدئياً امر المساعدة في الجوامع الخمسة عشر المذكورة؛.

أولاً: تؤكد الالتزام بالمساعدة عليها ولكن مسألة تحديد المبلغ سيكون حسب الامكانيات والاعتمادات المالية لميزانية الرابطة.

ثانياً: أما المساجد الصغيرة التي شاهدها وفد الرابطة في مناطق زيارته بالصين مثل سينكيانغ وكانسو فالأمر متروك لتقدير الرابطة في مساعدتها.

ثالثاً: تستضيف الرابطة عشرة من الشخصيات الإسلامية الدينية والعلمية والسياسية في الصين لاداء فريضة الحج وذلك من خارج بعثة الحج الصينية الرسمية. ويمكن أن تقدم الجمعية الإسلامية الصينية أسماء مرشحيها مع نبذة عن حياة ونشاط وعمل كل واحد منهم في شهر رمضان أو قبل الحج بشهرين ويلاحظ في الترشيح من لم يسبق لهم اداء فريضة الحج من قبل.

رابعاً: المساجد التي زارها وفد الرابطة شبه خالية من المصاحف مما يدل على حاجة المسلمين الماسة إلى المصاحف. وحيث ان الجمعية الإسلامية الصينية تزمع طبع مائتي الف نسخة من المصحف الكريم ذي الحجم المتوسط بثلاث دولارات فان الرابطة ستساهم في طبع مائة الف نسخة من تلك المصاحف كما أن الجمعية ستقبل المصاحف المهداة إليها من الخارج إذا كانت بكميات محدودة لأن إدخال الكميات الكبيرة من الكتب الدينية من الخارج إلى الصين الشعبية يصادفه صعوبة في الجمرك.

خامساً: الترجمة الصينية لمعاني القرآن الكريم التي اعدتها الرابطة سترسل نسخة منها إلى الجمعية الإسلامية الصينية لدراستها وامكانية طباعتها في الصين كما ستعطى لها ترجمة جزء عم من تلك الترجمة والتي يحملها الوفد إلى الجمعية للاطلاع.

والرابطة على استعداد لدفع نفقات إعداد الترجمة الصينية لتفسير القرآن الكريم من مصاريف ورواتب العلماء التي تستعدها الجمعية بشرط إشعار الرابطة مسبقاً بالاسماء والتكاليف قبل بدء العمل وبعد إتمام الترجمة سوف ترسل الجمعية نسخة من ترجمة التفسير إلى الرابطة لمراجعتها وإقرارها واعتماد المساهمة المالية لها.

سادساً: الترجمة الأويغورية التي يضعها الشيخ محمد صالح لمعاني وتفسير القرآن الكريم عندما تكتمل وتتم مراجعتها من قبل لجنة من علماء تركستان الشرقية. سترسل الجمعية الإسلامية الصينية نسخة منها إلى الرابطة لمراجعتها. واعتمادها واقرار المساعدة اللازمة لها.

سابعاً: نظراً لحاجة الجمعية الإسلامية الصينية إلى مطبعة لطبع المصاحف والكتب الإسلامية المختلفة ستقدم الجمعية دراسة كاملة وتفصيلية عن أنواع (مكائن) الطبع اللازمة وتكاليفها إلى الرابطة وستقوم الرابطة بدراسة الطلب وامكانية تامينها بارخص الاسعار من الشركات العالمية وستخبر الجمعية بما يتم بشأنها قبل الارتباط بتوريد (المكائن) إلى الجمعية.

ثامناً: ستسهم الرابطة في مشروعى المعهد الإسلامي في اورومسي والمعهد الإسلامي في لانبجو لأنهما جاهزان من حيث الأرض والخرائط ولديهم بعض المال للبدء في التنفيذ.

أما المعهد الإسلامي في ين تشوان الذي ستقيمه الجمعية الإسلامية لمقاطعة نن تشا والتي حصلت لذلك ٥٦ الف ين من الجمعية الإسلامية الصينية المركزية وتحتاج إلى مليون وخمسمائة الف ين فستنظر الرابطة في أمره إذا كانت لدى الجمعية الإسلامية لمقاطعة نن تشا الأرض ووضعت الخرائط اللازمة لإنشائه.

تاسعاً: الجمعيات والمعاهد الإسلامية والمساجد المنتشرة في الصين تحتاج إلى الكتب الإسلامية والمجلات والصحف وسوف ترسل الرابطة دورياتها الصادرة والمجلات الإسلامية والكتب الدينية المختلفة إلى الجمعية الإسلامية الصينية المركزية بناء على طلبها وستقوم الجمعية بتوزيعها على الجهات المعنية.

عاشراً: فرش المساجد يمكن تصنيعه في الصين ويمكن ارساله من خارج الصين وتتسلمها الجمعية الإسلامية الصينية المركزية بدون صعوبة وتقوم بتوزيعها على المساجد باسم الرابطة.

حادي عشر: ترغب الجمعية الإسلامية الصينية المركزية بأن تزودها الرابطة بجهاز توكس وآلات كاتبة عربية ومكائن تصوير المستندات كما ترغب تزويد المساجد بالمراوح الكهربائية ومكبرات الصوت وصور الحرمين الشريفين.

ثاني عشر: ترغب الجمعية تزويدها بالمدرسين للمواد الإسلامية والعربية ممن يجيدون اللغة العربية حينما تتقدم بالطلب إلى الرابطة في الوقت الملائم لها.

يوم الخميس: ٢ شعبان ١٤٠٤هـ ٣ مايو ١٩٨٤م ..

توزيع المساعدات العاجلة:

نحن نحمل كما قدمت مبالغ مالية نقدية بالدولار نوزعها على بعض المساجد المحتاجة بمثابة المساعدة العاجلة على ترميمها أو الإسهام في بنائها وهي قليلة بالنسبة إلى حاجة هذه البلاد الواسعة التي خرجت من تعصب الشيوعية الطاغية كالمريض الذي قاتل للشفاء بعد أن أنهكه المرض فهو يحتاج إلى غذاء بعد أن كان يحتاج إلى دواء وإن كانت في الحقيقة لم تعان من الشيوعية كلها فان الشر دركات كما أن الخير درجات والمثل العربي القديم يقول: إن في الشر خياراً؛ والشعر العربي الجاهلي السائر:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

ففي هذا الصباح وبعد تناول طعام إفطار خفيف فرغنا من توزيع المساعدات على المساجد التي زناها وسلمناها للمسئولين عن تلك المساجد بحضور موظفين كبار من الجمعية الإسلامية الصينية المركزية وفرع الجمعية الإسلامية في هذه المقاطعة.

كما وزعنا الأشرطة التي تتضمن تلاوة القرآن الكريم وأجهزة التسجيل ومكبرات الصوت التي نحملها على المساجد المحتاجة لها.

وفي الساعة العاشرة كانت وجبة غداء رسمية حضرها الأخ (قدرة الله ماتينغ اي) نائب رئيس الحكومة في المقاطعة وكانوا عجلوها من أجل الايعوقنا الغداء عن الوصول إلى القطار القادم من بكين ذاهبا إلى لآنجو، عاصمة مقاطعة كانسو، وكان الإفطار الخفيف الذي وزعوه هذا الصباح علينا في الغرف محفوظاً في علب من الورق المقوى مكتوبا عليها باللغة العربية (الحلويات الإسلامية) كما كانت الحلوى التي يقدمها المسلمون هنا وفي سائر مدن المقاطعة مكتوبا عليها بالعربية (حلويات إسلامية) والسبب في ذلك أن مجرد وجود الحروف العربية مع كون المسلمين لا يعرفون معناها يدل عندهم على أنها من صنع مسلمين فلا يتحرجون من أكلها بخلاف الحلوى التي يصنعها الكفار فإنها ربما لاتخلو من المحظورات سواء في الأدهان أو غيرها.

وداعاً يا نن تشا:

كان الوداع حافلاً في هذا الضحى تمثل في موكب رسمي انطلق من فندق الضيافة (فندق نن تشا) ضمن موكب طويل من السيارات كان في السيارة الأولى منها بعد سيارات الشرطة كاتب هذه السطور بجانبه الأخ (قدرة الله ماتينغ اي) نائب رئيس الحكومة وكان الأخوة المسلمون الذين لم يستطيعوا مصاحبة الموكب في انطلاقه من قصر الضيافة إلى محطة القطار التي تبعد عنه باثني عشر كيلو متراً قد تجمعوا يودعون وبعضهم يغالب الدموع عند باب قصر الضيافة.

ولم يقصد الموكب محطة القطار مباشرة وإنما ذهب إلى مكان في طرف المدينة بجانب ارض مزروعة ذكروا أنهم قد أعدوه ليقام عليه المعهد الإسلامي في هذه المدينة الذي يعلقون عليه آمالا كبيرة في إحياء العلوم الإسلامية وإيجاد جيل جديد من طلبة العلم ثم العلماء الذين يمكن أن يرسل بعضهم إلى المناطق الداخلية التي يقطنها المسلمون وهي في حاجة ماسة إلى وجود طلبة العلم فيها.

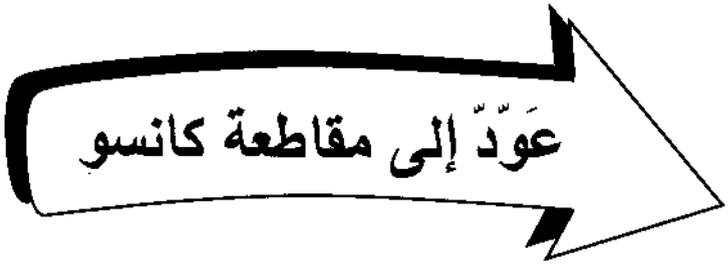
إضافة إلى كونهم يؤملون أن يصبح المعهد قبلة لطلبة العلم يفدون اليه من الجهات الأخرى لأن هذه المقاطعة تعتبر من الناحية الرسمية مقاطعة خاصة بالمسلمين من قومية (خوي) فلهم رئاسة الحكومة فيها ونيابة الرئاسة مع أنهم الآن لا يمثلون الأغلبية العديدة فيها لأن كفار الصين الذين يسمونهم قومية (خان) قد كثروهم على سكانها فكثروهم.

وقد وعدناهم بدعم مشروع إنشاء هذا المعهد الإسلامي إذا عزموا عليه بمساعدة مالية على بنائه ثم مده بمدرسين وكتب إذا طلبوا ذلك.

ثم كانت جلسة طبية في قاعة كبار الزوار في محطة القطار حيث امتلأت بالمودعين من الإخوة المسلمين وغيرهم من كبار الموظفين في الدولة.

وكانت جلسة وداع مفيدة تناولت الشؤون الإسلامية وتخللتها بعض الطرائف الخفيفة من ذلك أنني قلت لنائب رئيس الحكومة الأخ قدرة الله عندما تطرق البحث إلى موضوع تحديد النسل في البلاد واقتصره على ولد واحد للأسرة الواحدة: إنه ينبغي لكم أن تتسامحوا مع المسلمين لأنهم أقلية عديدة ولم يكن بإمكانه أن يقول شيئاً يخالف قوانين الحكومة في مثل هذا المشهد وإنما قال: اننا نعتمد تطبيق السياسة الحكومية في المقاطعة على ثلاثة أوجه أولها بالنسبة إلى سكان المدن هو تحديد النسل بولد واحد والثاني بالنسبة لسكان الريف بولدين لأن الفلاح يحتاج إلى ولد له يساعده على فلاحه أرضه وهذا أمر تشجعه الحكومة أيضاً. والثالث لسكان الأماكن الجبلية غير المسكونة ونسمح لهم بأن يصل عدد الأولاد إلى ثلاثة حتى يعمروا هذه الأماكن الوعرة الخالية.

ولم أشأ أن أبين له خطأ هذا الافتراض فيما إذا هاجر ساكن الجبال إلى المدينة أو الريف وهم لا يستطيعون رسمياً منعه من ذلك إلا أن الحياة تمنعه قهرياً بسبب عدم وجود سكن له في المدينة وهو لا يستطيع ذلك بنفسه بسبب ضعف الدخل وفقر السكان.



من ين تشوان إلى لانجو:

وكان الوداع الحار في القطار هو خاتمة العمل هذا النهار في هذه المقاطعة المنسوبة للمسلمين (مقاطعة نن تشا) فتحرك القطار في الحادية عشرة والنصف مبتعداً عن المحطة ولكن العواطف التي غمرنا بها إخواننا المسلمون فيها لم تبتعد ولن تبتعد عن الاذهان على مدى الأزمان ولم يكن في قطار العودة ما يحسن ذكره زائداً عما في قطار الذهاب الا أنهم احضروا لنا غداء إضافياً في علب من الورق لأنهم خشوا علينا الجوع من تأخر العشاء الكامل في القطار الذي حدد مواعده في الثامنة والنصف خلاف عاداتهم في التبكير بالعشاء.

أما هذا الغداء الإضافي فاكثره من الاطعمة الناشفة وفيه شرائح من لحم البقر الناشف أيضاً.

هذا وكان الوصول إلى لانجو في العاشرة والنصف ليلاً فوجدنا في الاستقبال جماعة من الأخوة الكرام وفيهم من لم نرهم من قبل.

ثم كان النوم في فندق الضيافة في لانجو الذي لا يقارن بقصر الضيافة في (ين تشوان) من حيث العناية والنظافة والترميم فهذا (اللانجوي) أقل من (الين تشواني) في هذا الميدان بكثير وعفواً من هذه التعابير التي يختلف الاجتهاد حتى في كتابتها بالعربية لأنها في الأصل بحروف تنطق بأصوات أو مقاطع صينية لانظيرها من الحروف العربية.



مدينة (لن تشا) هي عاصمة محافظة لن تشا وهي إحدى المدن العريقة التي يقطن فيها أبناء قوميتي خوي وخان.

من المدن التاريخية الشهيرة في اطراف الصين على طريق الحرير، وهي تبعد عن العاصمة بكين ٢٠٠٠ كيلو متر، تلقب باسم «مدينة الأفاق» (فوهان)، وما زال هذا الاسم موجوداً.

وبعد القرن الثالث عشر صار اسمها «خوتشو» ذكرت في آداب القدماء من الصينيين. وجاء وصف لها في كتاب «خوتشو» في اسرة مينغ الملكية (١٣٦٨-١٦٤٤): إن الجبال والانهار تلتف حولها وتعد من المناطق الاستراتيجية. وجمالها الطبيعي وآثارها التاريخية تفوق المدن الأخرى. ومشاهيرها ليسوا أقل من مشاهير المناطق الداخلية. والعادات والتقاليد في غاية البساطة. وأهلها يحافظون على الأخلاق الاجتماعية ويجتهدون في الزراعة، وعند الزواج لاتهمهم الثروة والجاه.

وفي ولاية لين تشا ١٤ قومية منها خوي وخان ودونغشيانغ وباوآن وسالا وتو. وبلغ عدد سكان الاقليات القومية أكثر من ٧٠٠ ألف، منها اربع قوميات مسلمة، هي قوميات خوي ودونغشيانغ وباوآن وسالا. فلذلك كانت المساجد فيها كثيرة تبلغ ١٣٠٠ مسجد.

يوم الجمعة ٣ شعبان ١٤٠٤هـ ٤ مايو ١٩٨٤م.

إلى محافظة لن تشا:

هذه محافظة خاصة بالمسلمين مثلما أن (نن تشا) مقاطعة خاصة للمسلمين وهي أيضاً متمتعة بالحكم الذاتي والفرق بينهما في الاسم حرف واحد في الأول لكن الفرق في الحجم و الادارة كبير فنن تشا مقاطعة أي ذات حكومة خاصة و(لن تشا) هذه محافظة اي جزء من مقاطعة كانسو وليست مقاطعة خاصة

ويجمع بينهما غير التقارب في الاسم كون كل واحدة منهما ذكر أنها للمسلمين من قومية خوي وبها أغلبية من المسلمين وأهم بلدة في المحافظة عندهم بلدة اسمها (خوتشو) وهذا هو أقرب الألفاظ إلى النطق بها وإن كان بعض المترجمين الكتبة من الصينية إلى العربية قد يكتبونها بطريقة مختلفة كما يفعلون في كتابة غيرها وذلك من أجل صعوبة إيجاد حرف في العربية مماثل للصوت الصيني كما تقدم.

ويلقبونها- أو لنقل: يسمونها- بمكة الصغيرة لشهرة أهلها بتمسكهم بالديانة الإسلامية أكثر من غيرهم في المنطقة.

ويقولون: إنها كانت من أشهر البلدان الصينية الشمالية في دراسة العلوم الإسلامية وتخريج العلماء. وقد زال ذلك كله أو أكثره بعد تغلب الشيوعيين على الحكم وانقطاع صلة المسلمين الصينيين باخوانهم في البلدان الإسلامية مما حرمهم من إرسال طلبة العلم والدين إلى البلدان الإسلامية وحرم إخوانهم المسلمين من زيارتهم وافادتهم والاستفادة منهم إلا أن الذي لم يزل من صدورهم بل إنه يقوى ويشتد في وجه الضغوط والتحديات العظيمة هو تمسكهم بإسلامهم وعدم تفريطهم بدينهم لذلك بقيت لهم هذه الشهرة العظيمة بالدين.

وبطبيعة الحال نحن لانقر تسمية (مكة الصغيرة) فهي تسمية جاهلية وغير جائزة وإن لم يقصد من قالوها بذلك محاربة الإسلام أو مخالفته فمكة هي واحدة وحيدة في العالم ولا تجوز مثل هذه التسمية وإنما ذكرناها بذلك لبيان الواقع واظهار أهميتها عندهم وأن الإسلام باقٍ حتى في مظاهره في الألفاظ في أماكن ازدهاره من الصين.

كان موعد الإفطار مبكراً جداً بحيث ذهبنا إلى مطعم الفندق الذي تفصل بينه وبين الفندق نفسه حديقة تكثر فيها أشجار التفاح التي بدأت أوراقها بالنمو بعد اليبس الشامل في الشتاء الصيني الشمالي الطويل.

وفي الساعة والنصف صباحاً كان الموكب المؤلف من ثماني سيارات تسبقها سيارة من سيارات الشرطة كالمتبع يتحرك من مدينة لانجو قاصداً مدينة (خوتشو) التي يسمونها (مكة الصغيرة) متأخراً عن الموعد المحدد لانطلاقه في الأصل حوالي نصف ساعة بسبب شيء يتعلق بمضيفينا من حيث ترتيب الضيافة وعدد المرافقين فيما نظن.

وتبلغ المسافة ما بين (لانجو) و(خوتشو) مائة وسبعة وخمسين كيلو متراً من المقرر أن يقطعها الموكب في ثلاث ساعات وذلك لأن حالة الطرق في الصين أقل من مثيلاتها في البلدان العربية وإضافة إلى طبيعة الأرض في هذه المقاطعة التي هي ذات جبال وهضاب صخرية وتلال طينية عالية بينها وديان عميقة يتلوى الطريق بينها وفي احضان التلال فلا تستطيع السيارات أن تسرع كما تسرع في البلدان المتقدمة أو في البلدان الصحراوية المفتوحة للنظر مثل أكثر الأماكن في بلادنا العربية.

وفي هذه الساعة التي هي ساعة الذهاب إلى العمل في الصباح يرى المرء القوم على حقيقتهم وهم ذاهبون إلى أعمالهم وأكثرهم يعتبرون موظفين وعمالاً للحكومة سواء منهم من كان يعمل في الإدارات الحكومية أو من كان غير ذلك وإنما يعمل في مؤسسات أخرى عامة ولكنها تابعة للدولة مثل حوانيت البيع والشراء حتى المطاعم والمشارب.

فتراهم جميعاً بدون سيارات ركوب وإنما الميسور منهم من يستطيع أن تكون له دراجة خاصة يركبها ويسير بها الهونا جرياً على عاداتهم في عدم الاسراع في السير حتى إذا كان السير على الأقدام. ولقد تكررت رؤية طائفة من النساء وهن يحملن اطفالهن الصغار معهن على الدراجات وربما لادخالهم دور الحضانة أو تسليمهم لمربيات في المؤسسات العامة.



الدراجات في أحد أزقة لانبجو

وكل العاملين نظيفو الشباب حسنو المظاهر برغم الفقر وضيق ذات اليد ولااستجداء بل لاأكاد في الصين كلها التي مررنا بها أذكر انني رأيت سائلا أو (شحاذاً) واحداً، بل حتى أداب الطريق تراهم قد اخذوايها فهم مؤدبون مهذبون تجاه الغرب لاينظرون اليه شزرراً، ولا يقفون ليتفرجوا برؤيته فضلاً عن سؤاله أو سؤال غيره عن حاله، وربما كان مارأيناه منهم في هذا الأمر سببه أننا وفد رسمي يرافقنا مراققون رسميون منهم.

الا أن الذي يسير على قدميه أو يركب دراجة هوائية فإنه من الطبيعي أن ينظر نظرات الغبطة والحسد لمن يركب سيارة فارهة.

و نرى القوم في ذهابهم لأعمالهم يكون زبهم موحداً فاللون الغالب هو الازرق والتفصيل واحد وذلك لكون المصانع كلها حكومية وهي تخرج للناس اقمشة متشابهة أو متماثلة لأن دخولهم متماثلة، وقدرتهم على الشراء متقاربة.

غادرنا مدينة (الانجو) مع طريق ازفلتي جيد اخترق ضواحيها الجنوبية لأن المدينة التي نقصدها وهي مدينة (خوتشو) واقعة في جهة الجنوب الغربي منها.

وسار الطريق في سفوح تلال طينية صلبة كالتي وصفتها عند الدخول إلى مدينة لانجو حتى تكاد تجزم في بعض الأحيان أنها هضاب جبلية حقيقية إذا نظرت إليها على البعد.

ووقعنا فور مغادرة المدينة في ريف ضيق بين التلال أكثر الأماكن الصالحة للزراعة فيه مكسوة بالقمح الشتوي الذي اخضر بالفعل وليس على ما هي عليه الحال في تركستان الشرقية (سينكيا نغ) التي تركناها قبل أيام ولما يخضر القمح كله فيها بعد، وذلك لشدة البرد فيها وطول مدة الشتاء بالنسبة إلى مقاطعة (كانسو) هذه.

وادوات النقل التي ترى أكثر من غيرها في هذا الريف هي العربات التي تجرها الدواب ولقد رأيتهم في عدة أماكن يساعدون الدابة عندما تبدأ بصعود المرتفع فيدفعون العربة من الخلف كما تكررت رؤية ركاب نظيفي الثياب من رجال ونساء وقد تكدسوا فوق ظهر إحدى الشاحنات.

في القمم السبع .

استمر الطريق مع وادٍ ضيق بين التلال وقد زرعوا سفوح التلال بالقمح في مدرجات ضيقة وكله أخضر مزدهر لأنه قد جاده المطر. وقد حفرت السيول على مدى السنين أخاديد عميقة في سفوح هذه التلال الحمر.

ولا يشاهد المرء عدداً من السكان يذكر فيها لصعوبة الأرض.

ثم صعد الطريق تلالاً أخرى في بعضها حجارة غير شاملة واخذ يسير في متونها إلى جانب مهاو عميقة في الوديان من دون أن يضعوا موانع على جانبي الطريق مما يلي الهاوية كما يكون في مثل هذه الأماكن في البلدان المتطورة.

ولا يشاهد المرء خضرة كثيرة في أعاليها ربما كان هذا من أجل البرد والثلوج في الشتاء. والسيارات في الطريق قليلة.

وتسمى هذه التلال (تشي تولىا) قالوا: إن معنى ذلك: القمم السبع.

ثم بدأ الطريق بالانحدار من هذه التلال وهو يتلوى وعلى جانبه المدرجات الضيقة التي سووها وزرعوا فيها القمح.

قرية موي بي كوان:

مررنا بقرية صغيرة ذات بيوت طينية كلها من الطين وعلى واجهات بعضها جص قصد منه أن يكون للزينة وليس قوة الحيطان.

وأكثر بيوتها رث أي غير معتنى به. وتقع قرب واد عميق في أسافله مناوع مياه من مياه المطر، وليس من كونه يجري كما يجري الماء في النهر.

وبدأنا نشاهد بين التلال الطينية تلالاً حجرية لاتكاد تفرق بينهما على البعد ثم أخترق الطريق قرية صغيرة أخرى رأينا فيها من الحيوان غنماً بيضاترعاها فتاة حمراء اللون حمرة ظاهرة عرفنا بعد ذلك أن كثيراً من الفتيات خدودهن حمر بسبب الكشف في فصل الشتاء الجاف الطويل.

ثم اتسع هذا الوادي الضيق وكثرت البيوت الطينية في ريف لا يشاهد المرء فيه من المزروعات الا القمح الأخضر النضر وإن كان لا يزال قصيراً. أما الأشجار فانها قليلة ولكنها خضر بمعنى أنها ليست كالأشجار التي شاهدناها في تركستان الشرقية قبل أيام كلها جرداء هامة بسبب البرد.

وكثر السكان في الريف. ومن المناظر فيه امرأة تحمل على كتفها رفشا وهو الشبيهة بالمسحاة الا أن نصابه الخشبي أو لنقل بلغة عوام الكتاب. يده الخشبية

طويلة. ورجل يحمل ماء في وعائين شبيهين بالصفحتين قد علقهما في خشبة وحملها على كتفه.

وقد مررنا بمصنع للأجر أي الفخار ومع ذلك لم نر في هذه المنطقة بيتا من البيوت بغير الطين لامن الأجر ولا من الاسمنت ولا من الحجارة رغم وجود الحجارة في بعض التلال.

ثم اصبحت التلال جبلية عالية في المنطقة الغربية من الوادي الذي يتجه في أكثر اتجاهاته إلى الجنوب وهي الجهة التي يتجه إليها الطريق أيضاً وإن كانت غايته الجنوب الغربي.

وقد رأيناهم في أماكن عديدة قد كوموا اللبن- جمع لبنه- من الطين وهو جاف مربع الشكل يشبه لبن الاسمنت فذكرت بذلك ما كنا نفعله في بلادنا في القديم وإن كانت هيئة اللبن الطيني عندنا ليست كهذا لأننا كنا نصنعه مستطيلاً وليس مربعاً.

ورغم المناظر المبهجة للنفس في الاطلاع على هذه المنطقة الغربية من مناطق الصين النائية فإن هناك مناظر تؤلم النفس منها منظر امرأة تدفع عربة من الخشب تسير على عجلتين، ومنظر عدة رجال يتعاونون على دفع عربة ثقيلة من الخشب وذلك لأنه لا توجد عندهم الآلات الحديثة التي تخدمهم بدلاً من هذه العربات القديمة.

الا أن الغريب الذي فوجئت به أنه حتى في هذا الريف، وعلى هذه العربات القديمة فإن المرء يلاحظ أن الفلاحين الذين يراهم عند بيوتهم الطينية هم نظيفو الثياب بل إن ملابسهم لا تكاد تختلف في نظافتها عن ملابس أهل الحواضر والمدن.

أما الوجوه فإن أكثرها شداً للانتباه هي وجوه العجائز ذوات العيون الصغيرة التي يخيل اليك أنها مغمضة دائماً لصغرها أو كأفئهن ناعسات يحلمن بأحلام لذيات أو يرتحن من هموم مقيمات، وشيوخ كبار السن بلحاهم البيض المستدقة وإن كان بعضهم يحلق اللحية ولكن ذلك لايزيده شباباً أو لايقربه حتى من منظر الكهول.

وأما الألوان فإنها البياض ولكنه بياض الصينيين المشوب بالصفرة التي تبعده عن منظر البيض في البلدان العربية أو الأوربية شدة ظهور التقاسيم الصينية.

والغريب الذي لمسناه هنا قلة الشكوى من الحال في الصين رغم الفقر والقهر والضيق في الحال وحتى في الآمال فالسكان في البلدان الشيوعية قد نزعت من نفوسهم حتى الآمال في صلاح الحال فلا يؤمل الواحد منهم أن يصبح من الأغنياء إلا إذا كان من الأغبياء لأن غنى الأفراد أمر يخالف قوانين البلاد إضافة إلى أنه يكاد يكون مستحيلاً في البلدان الشيوعية وهذا - على الأقل - هو ما عرف عن تلك البلدان منذ أن قامت فيها الانظمة الشيوعية.

وقد سألت بعض الإخوة الصينيين من المرافقين عما إذا كان ملاحظته من قلة الشكوى عند الناس صحيحاً مع أنني لست على يقين من كونهم سيذكرون لي ما يعتقدونه صريحاً فقالوا: «نعم». إن الشعب الصيني شعب صبور فقلت في نفسي ينبغي أن يضاف إلى ذلك القول بأن حاكمه الشيوعي حاكم قهور.

ثم مررنا بسوقٍ قروية صغيرة كل مافيها شخصي بمعنى أنه يملكه أفراد وليس مملوكاً للحكومة وجل مافيه من الخضراوات إلا عتزين اثنتين من الماعز الأبيض الموجود عندهم.

ورأيت في جانب هذا السوق صبيتين تتعاونان على دفع عربة فيها خضراوات قد تقدمتها إحداهما لجرها من الأمام وتأخرت البنت الأخرى لتدفع العربة من الخلف.

مسجد سيجا:

تبين لنا أننا نمر غير بعيد من مجرى نهر يسمى (هَو) بفتح الهاء واسكان الواو وهو فرع من النهر الأصفر ولذلك ازدهرت المزروعات ورأينا طوائف من الفلاحين المحظوظين يحملون العلف على الدراجات المعتادة.

ثم وصل الطريق إلى قرية (سيجا) واخبرنا الأخوة المرافقون أن أهل القرية كلهم من المسلمين. فوقفنا عند مسجد القرية فوجدنا إمام المسجد واسمه (كمال الدين).

والمسجد جديد يقع على ربوة مرتفعة واقعة على الطريق الازفلتية العامة بحيث يراه كل من يسلك هذا الطريق المهم.

واخبرونا أن المسلمين هنا هم من قومية مختلفة عن قومية المسلمين الموجودين في مقاطعة (نن تشا) الذين هم من قومية (خوي) التي ترجع أصولها إلى العرب والفرس والأتراك اختلطوا بمن أسلم من الصينيين وتألفت منهم هذه القومية التي قلت إن اسمها (خوي) ربما كان مأخوذاً في الأصل من معنى الأخوة العربية فخوي هي أخوي.

أما هؤلاء الأخوة المسلمون هنا فإنهم من قومية يسمونها (دونغ تشيانغ) وذكروا أنهم جنس آخر مختلط من الأتراك (التركستانيين) والصينيين وجنس ثالث مستقل.

وعندما وقف الموكب لتصوير المسجد والسلام على من نراه من أهل القرية الذين كلهم من المسلمين كما قدمت تجمهر عدد من أهلها وفيهم نساء كثيرات

من نسائهم فرأينا لباسهن المميز لهن ساترا بل سابغا يتألف من سروالٍ ضافٍ طويل، وقميص يضرب إلى نصف الجسم، وغطاء للرأس على هيئة الخمار أو (الغدفة) بلغتنا العامية وتلفه الواحدة منهن حول وجهها فينزل من فوق الرأس ويدار من تحت الحنك بحيث لا يرى الشخص بارزاً من المرأة غير وجهها وكفيها



في الطريق بين لانجو وخوتشو

وتلبس الشابات منهن فوق ذلك الغطاء قبعة عريضة على الرأس، أما منازل القرية فإنها من الطين مثل سائر البيوت في المنطقة ماعدا المسجد فهو من الاسمنت ولا أدري أهو من المسلح أم من لبن الاسمنت.

الشعار الإسلامي وحده:

كان كل شيء حولنا هنا يشعرنا بأننا في بلد خالص للمسلمين فالمسجد بمئذنته القصيرة وشعار المسلمين (الهلال والنجمة) فوقها، والأخوات المسلمات المتسترات والرجال الذين يعتمرون القلانس (الطواقي) وأهم من ذلك في ابراز

شعار المسلمين علما ن أخضرا ن ىرفرفا ن على المسجد قءرفعا رفعا أوهما كبىرا ن
بارزا ن، وعلى كل وااء منها كتبا الشهاءا ن (لا إله الا الله، محمد رسول
الله) بالعربىة وقد اءءفء الأعلام الصىنىة الشىوعىة الءمر.

والظاهر أنهم فعلا ذلك لمناسبة مرور الموكب من قرىءهم هءه وإن لم يقل لنا
ذلك اءء صراة .

الءمار سىء المعروضاء:

وسىاءة الءمار للمعروضاء هنا لىسء ناىءة من غلاء ءمنه أو من طىب نوعه
أو من هوى فى نفوس أهل هءه المنطقه فىه ولكنها ناىءة بءون شك من شءة
الءااة إىه.

فقاء مررنا بسوق شعبىة على بىن الطرىق الازفلءىة وسارها، وهى سوق
كبىرة ربما كان السبب فى ذلك أن الیوم هو یوم الءمعة یوم الراءة للمسلمىن وإن
ىكن یوم الراءة للرسمىن الءكومىن غىره.

وفى هءه السوق الشعبىة حیوااءاءاءاءة من البقر والغنم ولكن الءمىر هى
أءر هءه الءىوااءاءاءة ظهورا فىه من حیء الءءء والأهمىة، أما الءءء فظاهر واما
الأهمىة فلكونى رأىءهم ىعءنون بهءه الءمىر منها من ىرى أسناها ومنها من
ىسءعرض أءسامها، ومنها من ىركبها للءءربىة.

وهذا كله ءلاف ظهور أهمىة الءمىر فى كونها سىءة النقل والاءءقال فى هءه
السوق فىبعضها ىجر العرباء الءشبىة وبعضها علیه أشىاء للفلاءىن وبعضها قء
ءملاوا علیه مااءءءءه مزارعهم وهم مقبلون به على السوق، وبعضها صاءر منه
بما اشءروه مءملا على الءمىر، وربما كانوا قء باعوا ماءلبوه مءملا على الءمىر
أىضا وبعضهم رأىءه ىساعء ءماره على جر العربىة المءملة.

وفى هءه السوق الشعبىة عءا الءىوا بىض وءضراءاءاءة ءءى اءشاب
الوقوء معروضه بكءرة فى أشكالاءءءة وبعضها معروض للبىع وهو على ظهر

عربة يجرها بغل أو حمار حتى التبن رأيته معروضاً بأشكال متعددة ومنها تبن على عربة يجرها صبي من الفلاحين. وهناك الجلود المعروضة للبيع ولاحظت أن أكثر الأغنام المعروضة هنا ليس عليها صوف والظاهر أنهم جزوا صوفها أي قصوه منها للانتفاع به.

ولم يدخل السوق من الجرارات الزراعية ولكن على قلة.

وقد استطال هذا السوق وامتد مع امتداد الطريق وكان أحسن صورة لماضٍ في بلادنا وماشابهها من البلدان الصحراوية كان فبان، وعفا عليه الزمان. لولا شيء واحد وربما كان وحيداً وهو وجود الدراجات المعتادة التي تذكر المرء بأنه في الزمن الحاضر والتي توجد بمقادير لا بأس بها في الكثرة.

شرك من التبن:

منذ أن دخلنا في الريف الذي يلي مدينة (لانجو) ونحن نرى الفلاحين قد القوا بأكوام القصب الذي أكثره قصب الأرز وأقله قصب القمح فتركوه فوق الطريق الأسفلتي لتدوسه السيارات العابرة فتحطمه فيصبح كالتبن الذي يسهل على الدواب أكله ولم تكن نبالي بذلك إذ كانت السيارات تطؤه وتتجاوزته دون أن يلفت النظر في شيء.



التبن الذي عطل السيارة

وتركنا السوق الشعبية هذه ونحن نمر بين الفينة والأخرى بأكوام من التبن والقصب الذي يرادله أن يصبح تبناً وهي منشرة على الطريق.

وأكثر ما يبهج النظر هنا منظر المسلمين الذين نعرفهم من القلانس- أي الطواقي، جمع طاقية- التي تكون على رؤوسهم وبعضهم تراه قد أردف امرأته على دراجته وهي مستترة متحشمة خلفه.

وقد أخبرنا المرافقون وكرروا ذلك بأن هذه المناطق هي مناطق لقوم من المسلمين الذين ينتمون إلى قومية (دونغ تشانغ) وأن أغلب المسلمين في هذه القومية أسلموا خلال القرن الرابع عشر الميلادي وأنهم كانوا قبل إسلامهم من البوذيين ولذلك قال بعضهم: إنه ربما كان بينهم من هم من أصول مغولية.

هذا وقد بقي على الوصول إلى مدينة (خوتشو) التي نقصدها حوالي سبعين كيلو متراً وقد مررنا قبل ذلك بمسجد على الطريق ولم نقف عنده.

وقد رأينا كومة من التبن الملقى على الطريق الأز فلتى فلم ينتبه السائق إلى أنها كبيرة وأنها مرتفعة عن الأرض أكثر من المعتاد فوسط منها سيارته مسرعاً لتجاوزها كالعادة إلا أن السيارة لم تستطع ذلك وصدر عنها صوت منكر وكانت هي السيارة الرئيسية التي أركبها ولم تكن تتقدمها إلا السيارة العسكرية العالية.

توقف الموكب وجزمت بأنه قد حصل كسر للسيارة لأتتها أدخلت مقداراً كبيراً من القصب في داخل آلاتها السفلية.

وقد حاول السائق ومعه السائقون الآخرون وقوم من أهل القرية التي وقفنا فيها تخليصها فلم يستطيعوا ذلك لأن القصب قد ملأ ما بين جهاز الدوران الأسفل وعجزوا عن إزالته كما عجزت السيارة عن الحركة فاغتنمنا الفرصة

واخذت آلة التصوير وكان فرصة لنا لأن الأهالي الذين كلهم أو أغلبهم من المسلمين تجمهروا علينا فكنت أستجلي وجوههم من قرب وأصور من أريد تصويره منهم.

دلالة غطاء الرأس:

قلت ماقاله المثل القديم، وليس لنا مثل السوء: «من فرص اللص زحمة السوق»

أو كما قال المثل الآخر؛ وليس لنا مثل السوء مرة أخرى: «زلق الحمار وكان من شهوة المكارى».

وكان حديث مع جمهرة من الأطفال الذين تجمهروا حولنا فكان بعضهم يحفظ شيئاً من السور القصار.

وأما النساء فإن الفرصة كانت بمعرفة دلالة أزبائهن على وضعهن الاجتماعي فقد لاحظنا أنه رغم تشابه أو تماثل الثياب التي يرتدينها فإن غطاء الرأس مختلف جداً، إذ رأينا بعضهن يكون لونه أبيض ومجموعة منهن لونه اسود واخريات يرتدين غطاء للرأس اخضر اللون، وفسر ذلك لنا اخواننا المرافقون بناء على افادة أهل القرية قالوا: إذا كانت المرأة تضع على رأسها غطاء للرأس أخضر اللون فإن ذلك يدل على أنها غير متزوجة بمعنى أنها ليست بذات زوج الآن. وإذا كان لون الغطاء على رأسها أسود فإن معنى ذلك أنها متزوجة وأنها في عصمة الزوج الآن اما إذا كان لون الغطاء أبيض فإن ذلك يدل على أن المرأة ذات أحفاد أي ولد لابنها اولابنتها مولود.



متفرجون على المركب

وكان هذا أمراً سهلاً في التعرف عندهم على الوضع الاجتماعي للمرأة ولكن الذي لاحظناه أنه لا توجد منهم امرأة واحدة قد تركت رأسها بدون غطاء.

وقد حصلنا على صور نادرة لأهالي هذه القرية إن لم نقل المنطقة، لأن السيارة وقفت عند قرية أو تجمع سكاني كبير إذ لولا أنها قريبة من ذلك لما وضع التبغ في طريقها إذ ليس من المعقول أن ينقل أهل التبغ أو القصب تبغهم إلى مكان بعيد منهم لكي يعرضوه للسيارات حتى تطاه وتجعله سائغاً للدواب.

وصورنا أيضاً صوراً نادرة للمرافق أو الأماكن في القرية وعندما فرغنا من ذلك وكنت شغلت نفسي عن متابعة ما يجري للسيارة التي اذا تعطلت كثيراً فان معني ذلك أن تفوتنا صلاة الجمعة في مدينة (خوتشو) التي يسميها جهالهم بمكة الصغيرة.



الريف عندما تعطلت السيارة في الطريق إلى خوتشو

فرجعت إلى مكان السيارة وإذا بهم قد استعانوا بعدة رافعات ثم اخذوا يتناولون القصب من بين أحناء السيارة السفلى شيئاً فشيئاً حتى استطاعوا خلخلته بعد جهد، ويسمى هذا المكان (قوانغ خه).

الإفلات:

اقلتنا من هذه المصيدة التي هي من تبين، تعجب كيف استطاعت صيد السيارة القوية فتركنا (قوانغ خه) وواصلنا السير في الطريق الازفلتي الذي لا بأس به لولا ضيق فيه. ولاتزال اكوام التبين الملقى في الطريق تظهر واضحة الا أن السائقين كانوا قد تلقوا درساً قاسياً فكانوا يتجنبونه أو يجعلونه تحت عجلات السيارة دون وسطها وهذا هو ما يريده أصحابه عندما ألقوه في الطريق فمررنا بقرية قالوا إن اسمها (خوانق وانغ) وأن أهلها من المسلمين.

ولقد رأينا من المظاهر المفرحة فيها ما يدل على ذلك ومنها مسجد ذو منارة ظاهرة وهو يطل بمظهره السامي الشامخ على سوق البيع والشراء في القرية من

فوق مكان مرتفع على الطريق ويرفرف فوقه العلم الإسلامي الأخضر- كما يسمونه- وهو يحمل الشهادتين مكتوبتين بالعربية عليه.

ولم نقف لتصوير هذا المسجد الذي هو واقع على أيسر الطريق بسبب ضيق الوقت.

ثم مررنا بمسجد آخر جديد في الجهة اليمنى من الطريق وهو كبير مبني على الطراز الصيني التقليدي وطريقة بنائه تقتضي أن يكونوا انفقوا عليه نفقات طائلة وهذا أمر عجب من أمر تمسكهم بدينهم وحرصهم على إظهار شعائره مع ضيق ذات أيديهم، وقلة دخولهم.

وبعد ذلك رأينا على الطريق العام من جهة اليسار مسجداً مبنيًا بالآجر له منارة صينية غير عالية ولم نقف عنده كما لم نقف عند الذي قبله.

ثم تعددت رؤية المساجد من الطريق وأحدها ذو منارة لها قبة خضراء صغيرة وآخر ذو منارة صينية تشبه المظلة الصغيرة أو الطربوش الهرمي الشكل.

أما البيوت فإنها كلها من الطين الآن بعضها ذات سقوف مسنمة مسترخية كما هو الطراز التقليدي في الأبنية الصينية.

ثم تجاوزنا فرع النهر الأصفر الذي رأيناه من قبل وكان يصاحب الطريق في أكثر الوديان التي نسلكتها وقد رأيناه الآن وقد استهلك المزارعون مياهه حتى كادت تنتهي ثم ترك الطريق الوادي المنخفض جهة اليمين وصعد تلالاً متطامنة معمورة بالزراعة لأنها ليست عالية. والزراعة فيها نضرة والأشجار كلها نضرة وذلك لكونها أدفاً مما كان عنها شمالاً بكثيرة وبخاصة في إقليم سينكيا نغ الذي هو تركستان الشرقية وقد تركناه قبل أيام قليلة وقد اخذنا نشاهد حافلات للركاب وسيارات شحن حكومية تستعمل هذا الطريق مما يدل على أهميته إلا أن السيارات هذه ليست بكثيرة.

بلدة خو تنغ:

قبل الوصول إلى بلدة (خو تنغ) صار الطريق جيداً وأصبحنا نرى الأشجار التي تحيط بجانبه مورقة بل خضراً نضرة وهي موجودة في الأماكن التي تمر بالقرب من البلدان ومن الطريق لأنهم يتعهدونها بالسقي والرعاية.

ومن الأشياء التي لا تستحق التنويه هنا أنني لم أر طيوراً منذ أن فارقنا لانجو وقد عجبت لرؤيتي الآن غراباً واحداً وفسرت قلة الطيور هنا حتى الغربان لكون الكفار من الصينيين يأكلون أكثر الأشياء الحية، وربما يكون الغراب من بينها وهذا عكس ما عليه الحال في بلاد الهند حيث يشاهد المرء هناك اسرابا كثيرة من الغربان حتى في المدن المزدحمة مثل مدينة (بومبي) فيجدها تقع على الابنية المدنية المتعددة الطوابق (العمارات) فضلاً عن كثرتها اللافتة للنظر في الريف وقد اخبرونا أن مرجع ذلك إلى فلسفة الديانة الهندوكية التي تحرم إزهاق الأرواح حتى أرواح الحيوانات والحشرات الضارة.

واخبرنا الإخوة المرافقون أن سكان بلدة (خو تنغ) هذه كلهم من المسلمين وتقع هذه البلدة (خو تنغ) قبل مدينة (خوتشو) بعشرة كيلو مترات.

مررنا بسوقها دون أنه نقف فيه وإنما تمهل الموكب تمهلاً فرأيت زحاما من الناس الذين كلهم مظاهرهم مظاهر المسلمين وأرجعت كثرة الناس في السوق في هذا اليوم لكونه يوم الجمعة.



بالقرب من خوتنغ مسلمون على الطريق

ويضع الرجال على رؤوسهم القلانس (الطواقي) والنساء يضعن الخمر - جمع خمار - على الطريقة التي وصفتها من قبل.

ويظهر أن هذه البلدة زراعية جيدة إذ رأيت العناية بالحقول وأشجار الفاكهة فيها واضحة.

قبل الوصول إلى خوتشو:

هذه كلمات مستقاة من مصادر صينية رسمية عن هذه المدينة المسلمة المهمة (خوتشو).

سميت خوتشو « مكة في الصين » منذ نحو ١٠٠ سنة حين انتقل إليها مركز النشاطات الأكاديمية للإسلام في الصين من تشانغآن بسبب قمع حكام أسرة تشينغ الملكية لمسلمي مقاطعة شنشي. فاصبحت خوتشو من أكثر التجمعات الصينية مسلمين.

تاريخ خوتشو

تقع خوتشو في مقاطعة كانسو شمال غربي الصين وهي قاعدة محافظة لن تشا. ومساحتها ٨١٠٠ كيلومتر مربع، معظمها حقول مزروعة. وقد قال المسلمون المحليون إن أسلافهم جاءوا إلى خوتشو في أسرة تانغ الملكية (٦١٨ - ٩٠٧). ولأن خوتشو كانت في طريق الحرير القديم والتجارة الفرس والعرب من المترددين عليه، فمن المحتمل أن بعضهم استقروا في خوتشو. أما التسجيلات الواضحة فاولها في أسرة يوان المغولية إذ جاء في « تاريخ أسرة يوان » أن جنكيزخان فتح فيما بين ١٢١٨ و ١٢٢٥ اواسط آسيا حيث أسر أكثر من ١٠٠ ألف رجل، نظم منهم، رئيسياً، جيشاً أمره بالمرابطة في شينينغ

وخوتشو بعد فتح تلك المناطق. ومن المحتمل أن قومية دونغشيانغ التي تعيش في خوتشو وتعتنق الإسلام من ذراريهم.

وفي اسرة مينغ الملكية نزع عدد من المسلمين من الجنوب إلى خوتشو بسبب الضغط الواقع على المسلمين هناك واخلافهم يذكرون دائماً موطنهم السابق. وهم من قومية خوي ودونغشيانغ وباوآن الإسلامية وبلغ عددهم ٧٠٠ ألف شخص، وما زال في لغتهم إلى الآن كثير من الكلمات الفارسية والعربية.

ظل مسلمو خوتشو ينشطون في التجارة والاشغال اليدوية فلهم حوانيت ومطاعم صغيرة يغلقونها عند وقت الصلاة ويعودن بسلعهم إلى البيت في المساء.

فتلك المنطقة كانت مركزا عسكريا، صار أكثرية جنوده من المسلمين منذ اسرة يوان واسرة تشينغ ثم استوطنوا في المنطقة لأن المنطقة كانت سهلة في المعيشة فيها الحقول الخصبة والمراتع الواسعة كما كانت سوقا مهما لتبادلات القوميات. فانجذب عدد كبير من المسلمين إليها للتجارة والاستقرار. وبسبب تجمع المسلمين في المنطقة بادر إليها رجال الدين من بلاد العرب واواسط آسيا فور وصولهم إلى الصين للدعوة إلى الإسلام وقد لقوا ترحابا حارا.

وتناقلت الالسنة المحلية أن ٤٠ مبشرا بالإسلام جاءوا إلى خوتشو من اواسط آسيا في اواخر اسرة يوان واوائل اسرة مينغ. وما زالت قبورهم باقية ولهم عدد كبير من الذرية.

وفي أواخر اسرة مينغ جاء داعية من بلاد العرب واستقر في خوتشو وذريته يعيشون الآن في احدى القرى هناك. وبعده جاء داعيان عريان ما زال لهما حتى اليوم اتباع في خوتشو وتشينغهاي ونن تشا. ومن خوتشو ذهب كثير

منهم إلى مكة وخاصة منذ اواسط اسرة تشينغ الملكية- كان يسافر سنويا ٢٠ أو ٣٠ مسلماً للحج.

ويبلغ عدد الحجاج في احدى القرى ٦٧ شخصاً فيما بين عامى ١٩٣٣ و ١٩٤٩ ، ٨ منهم استقروا في مكة وامكنة اخرى.

ومن هنا يمكن القول إن التبادلات الودية بين خوتشو الصينية وبلاد العرب عريقة التاريخ طويلة الامد وإن الصداقة الاخوية بين المسلمين العرب والمسلمين الصينيين دائمة صادقة.

التقاليد الحميدة في مقاومة الاضطهاد:

كانت خوتشو مهذا لمقاومى الحكام الطغاة منذ مائة سنة حيث تتابعت انتفاضات عادلة جياشة بقيادة الأئمة أو الاعيان المحليين منها انتفاضة اشترك فيها ٣٠٠٠ مسلم ضد الاضطهاد القومى وقد فتحوا مدينة خوتشو وحاصروا مدينة لانجو حيث ثابروا على محاربة عشرة آلاف من جنود الحكومة نصف سنة حتى ضحوا بحياتهم في جبال هوالينغ القريبة من المدينة. وفي انتفاضة قومية خوي قاد الإمام ماتشان أو أكثر من مائة ألف مسلم في النضال الدموى الذي استمر ١٠ سنوات.

وفي عام ١٩٢٨ استنهض ما تشونغ ينغ، وهو في الـ ١٨ من عمره، عشرات الوف المسلمين في مقاومة قمع واضطهاد الحكومة الظالمة. وفي ١٩٤٣ انفجرت انتفاضة فلاحية من مختلف القوميات اشترك فيها الوجيه المسلم ما فو شان وما جى تسو بعشرة آلاف مسلم.. في كل هذه الانتفاضات شكل المسلمون المجاهدون قوة رئيسية ضد البغى والظلم ببسالة وعناد من أجل السعادة والمساواة. مع أنهم انتهوا بالفشل لكن مآثرهم المشجعة ظلت خالدة لاتمحي.

حاضر خوتشو:

في عام ١٩٥٦ انشئ فيها الحكم الذاتي الذي حقق السيادة للاقليات القومية الإسلامية وانقذها من المعاناة والاهانة.

فتولى أهلها المناصب الرئيسية على مختلف المستويات واشترك بعض الابناء منها في قيادة القطاعات والمهن. وفي هذه السنوات الأخيرة تمت تصفية آثار عصابة الاربعة ونفذت السياسات تنفيذا كاملا وخاصة سياسة الوحدة القومية والحرية في اعتقاد الدين فشهدت لين تشا فتح ١٧٠٠ مسجد، في كثير منها تلاميذ يتلقون اللغة العربية والقرآن الكريم واحتفل المسلمون باعيادهم الإسلامية في فائض البهجة والفرح.

هذه خوتشو:

أول مارأينا في ضواحي مدينة(خوتشو) المسلمة التي اسماها بعض الجهلة من الصينيين « مكة الصغيرة» عربات تجرها البغال وهي تنقل الحصى والآجر للبناء وعربات يدفعها العمال والفلاحون بأيديهم.

مداخلها في ريف زراعي زاهر ربما كان ذلك لكونها ذات طقس دفيء أما البيوت التي في ضواحيها فهي طينية ذات سقوف مسنمة مسترخية أي ليست كاملة التسنيم التي معناها أنها تكون كسنام البعير وإنما هي غير مشدودة.

كما شاهدنا عدة فتيات يعملن في جر العربات التي تحمل بعض المنتوجات الزراعية والظاهرانهن ذاهبات إلى (سوق الجمعة) إذ رأينا جماهيرغفيرة في سوق مررنا به فأخبرنا المرافقون أنه(سوق الجمعة) لكون هؤلاء الأخوة من المسلمين الذين يرتادونه في يوم الجمعة.

أما السوق فإنه حافل بالبضائع المعروضة وبخاصة المواشي من البقر والغنم وكذلك بالمنتجات الزراعية وربما كان هذا الخصب بسبب قربها من فرع للنهر

الأصفر رأيناه في ضاحية من ضواحيها بل قال لنا أحدهم إنه هو النهر الأصفر ولعله لا يقصد المجرى الرئيسي للنهر ولكننا رأيناه شحيح المياه إضافة إلى الاستقلال الذاتي المحدود الذي يتمتعون به في الأمور الاقتصادية الصغيرة.

أما الناس فإن أكثر الأشياء إلفاتا للنظر هو نساؤها اللاتي يضعن فوق رءوسهن قلانس (طواقي) بيضا لانهن من قومية (خوي) بخلاف المسلمات اللاتي مررنا بهن قبل قليل وكن يضعن على رءوسهن الخمر- جمع خمار- فهم من قومية (تونغ تشيانغ) واصلهم فيما يقال مختلط ما بين الصينيين والترك، و قال لي أحد الأخوة بعد ذلك: إن بعضهم من المغول الذين أسلموا وتزاجو مع المسلمين من قومية (خوي).

ثم رأينا حوانيت صغيرة من الطين قالوا: إنها شخصية أي ليست مملوكة للدولة وإنما هي ملك لأفراد يديرونها لأنفسهم بأنفسهم. ثم رأينا حوانيت قد أقيمت من الأخشاب. وقد ضايقنا غبار الشارع لأنهم كانوا يسعون في اصلاح جانب منه.

وعندما دخلنا المدينة كان أول الأشياء المهمة فيها ميدانا واسعا مزفلتا يعج بالدراجات الا أنه رغم وجود الازفلت فيه يعج بالغبار وقريب من الميدان مسجد تحت التعمير. وحوانيت كبيرة قالوا: إنها ملك للدولة.

في دار الضيافة:

توقف الموكب عند باب عليه سور طويل دخلناه فرأينا داخله أبنية متعددة على صفة مجموعات من الغرف التي تتقدمها الأروقة كل مجموعة من اربع غرف أوست وتفصل بين هذه المجموعات شوارع مزفلتة وأرصفة جيدة.



في دار الضيافة في خوتشو عند الوصول

وكان الوصول إلى (دار الضيافة) في الساعة الحادية عشرة والرابع ضحى فكان في الاستقبال عند وصول الموكب طائفة من الإخوة المسلمين من كبار موظفي الحكومة وائمة المساجد ورجال العلم والدين وفيهم أيضاً بعض الرسميين الحكوميين.

وعلى رأس المستقبلين الأخ (شعبان ما لنغ خي) رئيس حكومة محافظة أو لنقل اقليم (لن تشا) الذي هو اقليم تابع لمقاطعة كانسو التي قدمنا منها والتي عاصمتها (لافجو) كما سبق.

احتفال المحافظة:

استقبل الوفد عدد من الشخصيات وعلى رأسهم السيد شعبان مايونغ خي وبعض رجال الدولة والأئمة، منهم:

- ١- السيد الحاج / ادريس مايوخي نائب رئيس مجلس النواب لاقليم لين تشا.
- ٢- السيد / أحمد خان جونغ نيغ نائب رئيس مجلس النواب لاقليم لين تشا.
- ٣- السيد / إبراهيم لي شورو نائب رئيس المجلس الاستشاري لإقليم لين تشا.
- ٤- السيد / عبد الله مازي يانغ نائب رئيس المجلس الاستشاري لإقليم لين تشا.
- ٥- السيد / محمد مافروي الأمين العام لحكومة اقليم لين تشا.
- ٦- السيد / حسين مازي لي رئيس لجنة شئون القوميات.
- ٧- الشيخ محمد شمس الدين ماجنغ شن رئيس الجمعية الإسلامية لاقليم لين تشا.
- ٨- الحاج يوسف خايانغ تين نائب رئيس الجمعية الإسلامية لاقليم لين تشا.
- ٩- الشيخ هارون ماجي شو نائب رئيس الجمعية الإسلامية لاقليم لين تشا.
- ١٠- الشيخ حسين ماجنغ ليانغ نائب رئيس الجمعية الإسلامية لاقليم لين تشا.
- ١١- الشيخ اليسع ماونغ جنغ. أمام مسجد نانگوان.
- ١٢- الشيخ عثمان ماجنغ جي أمام مسجد لويانغ.
- ١٣- الشيخ ذا النون وانغ جيانغ جونغ أمام مسجد جن خي ين.

وخلال استراحة الوفد في قاعة الفندق ألقى السيد شعبان مايونغ خي كلمة ترحيبية بقدوم وفد الرابطة أشار فيها بأن المسلمين يتمتعون بالحرية الدينية بحكم القانون بعد زوال العصاة الرباعية من سلطة الحكم في الصين الشعبية وأن سكان إقليم لين تشا المتمتع بالحكم الذاتي لقومية خوي يبلغون مليوناً واربعمائة ألف نسمة والمسلمون منهم ٧٢٠ ألف نسمة بنسبة ٥٢٪ من قوميات خوي وسالا ودونغ شيانغ وبوآن الإسلامية وفي الإقليم ١٧٤٠ مسجداً و ٢٣٠٠ من رجال الدين.

وكان مع المستقبلين فتيات أظهن من الصينيات من قومية (خان) غير المسلمة معهن المناشف الحارة وهي جيدة لمثل حالتنا لأن القادم من السفر يمسح بها الغبار وأثر الطريق عن وجهه وكفيه.

وفي غرفة استقبال في دار الضيافة ألقى الأخ (شعبان) كلمة بالصينية قدم فيها المستقبلين باسمائهم ورحب بوفد رابطة العالم الإسلامي وقال بمقاله: إنه يرحب باسم سكان هذا الإقليم الذين يبلغ عددهم مليوناً واربعمائة ألف من النفوس بوفد رابطة العالم الإسلامي وإنني أيضاً أرحب بكم باسم الحكومة التي أمثلها كما أرحب باسم عامة الشعب في الإقليم.



مع الإخوة في لن تشا وذلك في أول اجتماع

وقال: إن في إقليمنا هذا (لن تشا) ألفا وسبعمائة وخمسة عشر مسجداً والفين واربعمائة من رجال الدين الذين يعتبرون تابعين لنا في الحكومة وذلك بخلاف غيرهم ؛ هكذا قال.

ثم قرأ برنامج الزيارة الذي أعدوه لإقامة الوفد وتنقلاته في الإقليم.

فرددت عليه بكلمة مرتجلة ترجمها الأخ (لقمان ما شان لي)تضمنت شكره على هذا الترحيب والاستقبال الحار.

ثم نوهت بكون إقليم (لن تشا) تبلغ نسبة المسلمين بين سكانه حوالي ٦٠٪ وهذا له معنى خاص عندنا لالكوننا لانقيم اعتباراً للأصدقاء من سائر أبناء الشعب الصيني ولكن لأن المسلمين هؤلاء نشترك نحن وإياهم في ثقافة تاريخية واحدة هي الثقافة الإسلامية العريقة وعن طريق تنمية هذه الثقافة يمكن أن تتقوى وأواصر الصداقة بين الشعب الصيني والشعوب الإسلامية التي تمثلها رابطة العالم الإسلامي ثم ألمحت إلى السبب الذي من أجله قدم وفد رابطة العالم الإسلامي إلى هذا الإقليم خاصة وإلى الصين عامة وقلت لهم: إننا لانسعى إلى هدف سياسي أو اقتصادي وإنما نسعى إلى توطيد العلاقة الثقافية الخالصة مابين مسلمي الصين واخوتهم المسلمين في العالم وهذا ما قد يفتح الباب إلى تعاون في عدة مجالات منها المجال الاقتصادي وإن لم يكن ذلك مقصوداً بالذات.

وبعد ذلك صحبنا مضيفونا إلى الغرف المعدة لنزول الوفد فصحبني رئيس حكومة الإقليم الأخ (شعبان ما لي خي) إلى الغرفة المعدة لنزولي وهي غرفة تتقدمها قاعة للجلوس صغيرة كما يكون في فنادق الدرجة الثانية وقد أخذ رئيس الحكومة يريني كيفية استعمال الأشياء الموجودة في الغرفة حتى في كيفية فتح صنوبر الماء وإغلاقه.

أما الغرفة فإنها ليست فيها أشياء معقدة بل هي معتادة ففيها جهاز لاستقبال الاذاعة وجهاز تسجيل.

ثم ودعنا هو وسائر الإخوة المستقبليين إلى حين قصير وذلك من أجل الوضوء والاستعداد لتناول الغداء قبل الذهاب لصلاة الجمعة.

ثم كان الغداء في قاعة الطعام في دار الضيافة وهو في ركن منفصل عنها كما يفعل أهل الصين في العادة بأن لا تكون قاعة الطعام ملاصقة للسكن.

فكان غداؤهم لذيذاً حافلاً إذا اطباق متعددة وأنواع من الطعام كثيرة بعضها لم نذقه من قبل بل لم نسمع به فضلاً أن نعرفه ومن ذلك نوع من الخضار اسمه (أذن الخشب) أو (الأذن الخشبية) وذكروا أن السبب في تسميته هذه أن أوراقه تكون من اغصان الأشجار التي تؤخذ منها على هيئة الأذن.

ولم أكن أظن أنه يوجد في الصين من هم أكثر عناية بالأكل وتعداداً في الأطباق من أهل لانجو غير أنني وجدت هذه المائدة أكثر انواعاً من مائدة لانجو وألذ منها مذاقاً وربما كان السبب في ذلك وجود المسلمين في هذه الإقليم وغلبة الكفار في لانجو مما جعل مضيفينا يستبعدون بعض أنواع الأكل المحرمة على المسلمين.

إلى جامع نانغ كوان:



صفوف المصلين في جامع نانغ كوان

عدنا إلى غرف الضيافة حيث توضحنا للصلاة فاسترعى انتباهي في الحمام أن الحوض الذي تغسل منه الأيدي نازل جدا إلى الأرض وقد وضعوا امامه كرسيًا من أجل أن يجلس عليه الشخص ويتوضأ بسهولة وبخاصة إذا أراد أن يغسل وجهه وهو مطمئن ثم أن يغسل رجليه وهو مستريح.

وفي الساعة الواحدة تحرك الموكب قاصداً جامع (نانغ كوان) ومعنى ذلك: البوابة الجنوبية لأن (نانغ) أو (نان) تعنى كلمة جنوب. مثل كلمة (نان) في أول (نانكين) المدينة الصينية المشهورة التي يعني اسمها العاصمة الجنوبية لأن (نان) جنوب وكين عاصمة أما (كوان) هنا فمعناها (بوابة).

وإذا معنى اسم الجامع (جامع البوابة الجنوبية).

وعند الخروج من دار الضيافة لاحظت أنه توجد في فنائها كومتان للوقود احدهما من الخشب والثانية من الفحم الحجري.

أيوم كيوم كاشغر؟

وصل الموكب إلى الجامع فوجدنا الجموع المجمععة من الأخوة المسلمين قد وقفوا في صفوف طويلة ابتدأت من الجامع واستمرت ممتدة منه على طريق الموكب لمسافات طويلة في الشوارع. فكنا نمر بهؤلاء الأخوة الكرام ونحن في السيارات فيحيون ويلقون بالسلام الينا قائلين السلام عليكم مع أنهم هم الواقفون ونحن القادمون.

وقد اخذ كل واحد منهم زينته الكاملة التي تكون في الغالب جبة نظيفة ملونة غالبا ماتكون سوداء وقلنسوة (طاقية) فوقها عمامة خفيفة غالبا ماتكون لها ذؤابة إلى الخلف الا أننا قبل الوصول إلى الجامع لم نستطع التقدم بسبب ازدحام الناس حولنا واعتراضهم طريق الوفد للنظر إليه والسلام عليه إن

أمكن فأسرع رجال الشرطة يبعدون الناس عن الطريق بالقوة ولولا ذلك ما استطعنا الوصول إلى الجامع فضلاً عن الدخول فيه.

وعندما وصلنا المسجد وجدناه مليئاً بالحضور الذين ينتظرون الصلاة فارتفعت قاماتهم، وشرأبت أعناقهم، وعلت أصواتهم بالتكبير والتحميد وبهمات لانعرفها مما جعلني أتساءل أهو يوم كيوم كاشغر؟

ويوم (كاشغر) هو اليوم الذي أدينافيه صلاة الجمعة في جامع (عيدكاه) في كاشغر وذكرت قصته في كتاب « في مهد الترك».



إمام جامع خوتشو يلقي خطبة الجمعة

لاسيما حينما قام الخطيب في هذا الجامع فذكر في الخطبة اسما لنا يقدمنا للجمهور يعرفهم بنا وقال وهو يبكي من فرط التأثر مخاطبا الجموع في هذا الجامع الكبير ما هو جزاء إخوانكم الذين جاءوا إلى هنا من أجلكم من أجل أن يروكم أنتم اخوانهم المسلمين.؟

وكنا بعد أن دخلنا المسجد وأدينا تحيته ركعتين استمر الإخوة في التنفل فأخبرنا المرافقون أن من عادتهم أن يتنفلوا قبل الصلاة بست ركعات أي ثلاث تسليمات وعشر ركعات بعد صلاة الجمعة.

وقد عرضوا علي أن أخطب بالناس خطبة الجمعة فامتنعت عن ذلك جريا على عادة أخذت بها نفسي وقلت لهم: إنه يمكنني أن أقي فيهم كلمة بعد الصلاة إذا شاءوا.

وعندما قام خطيب الجامع يخطب تخيلته من أهل الجزيرة العربية فصوته قريب من أصواتهم ولونه غير بعيد من ألوانهم.

والخطيب غير الإمام فالإمام صلى بنا بعد ذلك وذكروا إن اسمه (اليسع...) وكانت خطبته قصيرتين وكان يمد كثيرا من الكلمات في غير مواضع المد من أجل التاثر كما كان يمسك أثناء الخطبة بعصا طويلة غير صقيلة ذات عقد تشبه عصي أهل البدو عندنا.

أما المنبر فإنه خشبي رث وهو مؤقت لأن المسجد كله لم يكمل بعد فهو رغم كونه قد بنى بالاسمنت المسلح وقد رفعوا سطحه رفعا زائدا عن الحاجة فانهم لم يستكملوا تبليطه بعد وقد فرشوه بفرش موضوعة على التراب ونوافذه لم تتركب بعد.

والسبب في ذلك قصور النفقة عن إتمامه فقد أخبرونا بعد ذلك أنه مسجد قديم يرجع تاريخ إنشائه إلى حوالي سبعمئة سنة وقد خرب أثناء الثورة الثقافية فتنادى المسلمون لاصلاحه وبدأوا في الجمع لعمارته حتى انتهوا به في العام الماضي إلى ما هو عليه الآن وقد بقي عليهم ما يقدر بمائة وخمسين الف ين.

وذكروا أنه بلغ ما انفقوا عليه حتى الآن ما يزيد قليلا على مائتي الف ين لم يصلهم منها فلس من خارج بلادهم، إذ لم تصلهم أية مساعدات من الخارج.

وهذا أمر مفهوم السبب لأن المعلومات عنهم ضحلة أو نادرة بل تكاد تكون معدومة وقد أخبرونا أننا أول وفد من المسلمين يصل إليهم.

وقد حضر الصلاة معنا في الجامع جمهور كبير من المسلمين قد غص بهم المسجد ولاندري عن الجموع المجمععة التي كانت خارج المسجد لأنه لم يتسع لهم. وقدرت عدد المصلين الذين شاهدتهم في داخل المسجد وعند أبوابه بعشرة الآف مصل أما الذين هم في الشوارع فأنني لم استطع رؤيتهم ولا يمكنني ذلك لشدة الزحام حول المسجد.

وبعد الصلاة سعدت المنبر فالقيت فيهم كلمة ترجمها إلى الصينية الأخ (لقمان ما شان لي).



المؤلف يتكلم على منبر الجامع الكبير في خوتشو (نانغ كوان)

ولما لم يكن من عاداتي أن اكتب أية كلمة أريد إلقاءها خارج المملكة أو داخلها فأنني كنت قد اعتدت أن أقتصر في ذكر مضمون الكلمة على ماعلق في ذهني منها من كلمات محدودة.

وكانت معظم الكلمات التي أقيمتها إن لم تكن كلها يسجلها الإخوة الصينيون ومثلو الحكومة الصينية، ولم أكن أطلب نسخة من ذلك التسجيل لعدم أهميته عندي غير أن احدهم تبرع- في هذه المرة- فأرسل إليّ بترجمة انكليزية لهذه الكلمة وقد شعرت أن معظمها صحيح وإن كانت فيها كلمات محرفة إما بسبب الترجمة اوعدم فهم المقصود عند الترجمة من العربية إلى الانكليزية.

وهذا هو نص الترجمة بالانكليزية التي كانوا ترجموها من العربية إلى الصينية في شريط من كلامي في هذا المسجد.

وقد أعد الترجمة يجاوانج ميا:

بسم الله الرحمن الرحيم

أقدم في البداية باعتباري ممثل رابطة العالم الإسلامي أسمى التحية وخالص الاحترام إلى الحاضرين من الأخوة المسلمين وإلى جميع مسلمي خوتشو التي تعتبر هنا «مكة مصغرة» بالنسبة للصين وذلك نيابة عن جميع مسلمي العالم عامة والمسلمين في الأراضي المقدسة مكة المكرمة والمدينة المنورة بصفة خاصة.

لقد جاء وفد رابطة العالم الإسلامي من الديار المقدسة. ومع أن الصين تقع في عوالم بعيدة فان قلوبنا على اتصال وثيق دائماً بقلوبهم وإن جميع مسلمي العالم وفي مقدمتهم مسلمو الجزيرة العربية يعتزون بكم وبذكراكم إلى الأبد بنفس الدرجة التي تعتزون بهم. ونحن نقوم بزيارة خاصة لكم باعتبارنا مفوضين من منظماتنا رابطة العالم الإسلامي والهدف الوحيد الذي ننشده من وراء هذه الزيارة هو توطيد الصداقة والتفاهم والثقة فيما بيننا لكي نبدأ عهداً تتوثق فيه عرى الوحدة والتعاون معا كما أننا نريد في الوقت نفسه القيام باجراء مسح عام للوضع الإسلامي أيضاً، وسوف نبليغ جميع الأخوة المسلمين في العالم

عندما نتوجه إليهم، عما شاهدناه فعلا من أنشطة الجماعة المسلمة الدينية في الصين وعن ظروف حياتهم.

أيها الإخوة الأعزاء:

إن المسلمين أيا كانوا يحمل كل منهم للآخر إعزاز الشقيق، وينبع هذا الإعزاز من القرآن الكريم حيث يقول: «إنما المؤمنون إخوة» أى أعضاء في أسرة واحدة لذلك عندما قدمنا إلى هنا شعرنا كما لو كنا في ديارنا وبين أهلنا وأكد ذلك في نفوسنا ما أحطتمونا به من عواطف جياشة وود خالص. وقد غمرنا اليوم سرور بالغ حين شاهدنا العديد من المسلمين يتجمعون في هذا المسجد الرائع حيث ادينا صلاة الجمعة وكنا موضع ترحيب وحفاوة بالغين لقد هز ذلك مشاعرنا من الأعماق وتمنينا أن يدوم هذا اللقاء الخالد، وتفجرت أحاسيسنا في دموع منهمة لم نتمكن من السيطرة عليها وكان هذا هو التجسيد الحي لتعاليم الإسلام الروحية الأصيلة وهي: «أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمد رسول الله» لقد ربطتنا هذه العبارة المقدسة كمسلمين برباط وثيق كما لو كانت جبلاً متينا .

أيها الإخوة الاجلاء:

لقد قدمنا إلى هنا من مكة المكرمة والمدينة المنورة أي من الديار المقدسة، أقدس بقعة ورمز الوحدة بين جميع مسلمى العالم. وانطلاقا من هذه البداية التي نسعى فيها إلى إقامة صداقة تعم البشرية كلها ونتقصى بعض الظروف التي تسود العالم الإسلامي خلال هذه الزيارة الخاصة لكي نتمكن فيما بعد من تعزيز ودعم الوحدة بين المسلمين عامة. ذلك لأننا نعتبر أن انتشار عقيدتنا الإسلامية كمسلمين في صفوف المجتمع الإنساني كفيل بتحقيق الوحدة الحقيقية والمساواة الفعلية وغايتنا هي الاتجاه نحو تحقيق هذا الهدف الأمثل. لكي

تتحقق المساواة بين الأخوة المسلمين. وها نحن اليوم نشهد بأعيننا كم أنتم أتقيا جادون في عقيدتكم الإسلامية وهذا أمر يثلج صدورنا. ولا يوجد في الحقيقة اختلاف بين المسلمين إلا في الدرجة التي يحاول كل منهم الإسهام بها من عقيدتهم الإسلامية.

فالله الذي يعبده المسلمون واحد لا شريك له يتصف بصفاته العليا وهو سبحانه وتعالى يعلم متى وأين يعبده العابدون ويشني عليه الشاكرون.

ويبدو لنا أن مسلمي الصين من أعظم وأخلص من آمن بالإسلام بين مسلمي العالم. وليس ثمة عوائق يمكن أن تحول دون سيطرة الإسلام وانتشاره ليصبح دين البشرية كلها. وهذا يتفق مع ما جاء في القرآن الكريم من أن الله قد قسم الجنس البشري قسمين: قسم آمن أفراده بالدين الصحيح أما القسم الآخر فلم يؤمنوا به أو آمنوا ببعض الديانات الشريفة الفاسدة الأخرى. ولقد ذكر القرآن الكريم أن أحد النوعين سيكون في الدار الآخرة في جنات عدن بينما سيكون النوع الآخر في جهنم ولكن لم يذكر القرآن الكريم شيئاً عن تقسيم الناس حسب العنصر والقومية. وإنما حسب أعمالهم. فلم يذكر مثلاً العرب أو العجم (الفرس) بل إن بعض أتباع النبي قبل وفاته لم يكونوا عرباً مع أنهم جميعاً كانوا من خيرة صحابته من أمثال ابن إثيوبيا المؤذن الشهير بلال بن رباح وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وكانوا جميعاً مجاهدين في سبيل الله شجعاناً وقفوا خلف النبي صلى الله عليه وسلم وتبعوه للقتال في كل ساحات المعارك.

ومن الطبيعي ألا يكون أي فرد أو جماعة بعينها الممثل الوحيد المطلق للإسلام بل إن هذا الرجل هو المسلم التقى بغض النظر عن جنسيته أو السلالة التي انحدر منها. فالمسلم هو المسلم سواء أكان عربياً أو آسيوياً أو أوروبياً أو أمريكياً أو أفريقيًا. وجميع الأجانب الذين يقيمون على البعد من مكة المكرمة

والأرض المقدسة الآن سوف يكونون مهما كانوا بواسطة إيمانهم الراسخ وممارستهم العبادات الدينية بالتزام شديد، يفضل كل منهم خمسين من أصحاب رسول الله، وقد جاء في حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم قوله مامعناه يأتي على الناس زمان الصابر فيه على دينه كالثياب على الجمر له أجر خمسين قالوا: منا أم منهم يارسول الله؟ قال: بل منكم أي له أجر خمسين من صحابة النبي في عصره- وإذا لم تمكنه الظروف من تحقيق رغبته بسبب ظروف القاهرة رغم رغبته الشديدة في ذلك فان الله سوف يعتقه بسبب هذا القدر من الاخلاص.



المؤلف يخطب في الجامع الكبير في خوتشو وألوف المصلين ينصتون باهتمام

وقد جاء في حديث آخر للنبي معناه قوله:

لقد خلفنا في بلدتكم يعني المدينة بعضامنكم ممن يستحيل عليهم القيام بالرحلة الطويلة الشاقة وليحاربوا من أجل دين الله، ولكن الرجال الذين أرادوا

أن يقفوا إلى جانبكم بقلوب مخلصه وروح مضحية هؤلاء وأمثالهم لهم عند الله أجر الشهداء الذين ماتوا في سبيل دينهم.

أيها الإخوة في الدين القويم:

إنكم إذا تطلعتم إلى الله القوى بقلوب مخلصه واتحدتم وتعاونتم فيما بينكم - فإننا نرجو أن يكتب لكم أجر الحجاج- حتى وإن لم تسنح لكم أية فرصة لأداء فريضة الحج بسبب القيود التي نجت عن اتجاهات معارضة.

إخوة العقيدة:

لقد جاءت رابطة العالم الإسلامي إلى الصين بناء على دعوة تلقيتها من الجمعية الإسلامية الصينية حيث زرنا عدداً كبيراً من الأماكن وتحقق القدوم اليوم بفضل الله إلى لن تشا (خوتشو) وولتقى بعدد كبير من الأخوة المسلمين لنؤدي الصلاة معاً، وأقول صراحة ودون تلاعب بالألفاظ لقد شعرنا بالارتياح التام. فلنشكر الله من قلوبنا على حسن توفيقه ومن المؤكد أن حماية السلطات الصينية للمسلمين واحترامها لهم أمرله ما بعده إذ أنه يبعث على التفاؤل والأمل الكبير.

أيها الأخوة المسلمون:

ينبغي أن تغتنموا جميع مايسنح لكم من فرص ليس من السهل إدراكها وتدرکوا مدى أهمية الحقائق المحيطة بكم وتعملوا على تعميق جذور الوحدة فيما بينكم حتى تتغلبوا على كل مايعترضكم من عقبات كما ينبغي عليكم في الوقت نفسه أن تدرسوا التعليم الإسلامي بكل جد وحماس لكي تقوموا بتدريب الجيل القادم تدريباً جيداً على ما فيه الخير لهم حتى يلموا تماماً بتعاليم الإسلام الروحية التي هي خير عون لهم على المضى قدما دون توقف أو تردد.

هذه هي المهمة التاريخية التي يتعين إنجازها للبشرية دون تنصل من المسؤولية. لذلك يتعين على كل مسلم مخلص أن يتحمل على عاتقه عبء الواجب الثقيل نحو تعليم الجيل القادم قبل أن توافية المنية، وإلا فإن التاريخ الإنساني سوف يديننا على ذلك إذ أن التاريخ من أعدل النقاد المنصفين الذين يصدرون أحكامهم على أي إنسان دون رحمة أو هوادة.

وإذا نظرنا إلى ماضي أسلافنا ومستقبل أحفادنا نجد أننا نمر بمرحلة هامة وحرجة في التاريخ إذ أننا نمضي قدما حاملين على عاتقنا القضية المقدسة التي سبقنا إليها أسلافنا لندفع بها نحو المستقبل، لذلك يتعين علينا أن نحمل تلك المسؤوليات الجسام.

ولقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته». وجوهر تعاليم النبي هذه أنه طلب إلى كل منا أن يكفل تعليم أسرته وأطفاله أي أنه لا يتبغى عليه فقط أن يغمهم بحنانه بل يعلمهم أيضاً القيام بأي عمل ينفع البشرية ويحول بينهم وبين إتيان أي عمل يلحق الأذى بالآخرين أو يمنعهم من تحقيق الحق لأنفسهم. هذه مهمة حتمية يتعين على كل مسلم؛ على الأقل؛ أن ينجزها.

إيها الإخوة الأعزاء:

نحمد الله كثيراً لأننا لو نظرنا إلى العالم لوجدنا أن هناك أوضاعاً طيبة للإسلام في كل مكان. ويجب على كل مسلم أن يؤدي عمله على خير وجه وأن ندرّب - بكل عزم - أبناء الإسلام على ماينفعهم. إن العالم الإسلامي يتطلع باهتمام إلى مسلمي الصين فيأخوانكم خارج هذه الديار مهتمون بأنشطتكم الدينية وبأحوالكم المعيشية وعليكم أن تسعوا إلى جعل انفسكم مثلاً طيباً أمام العالم الإسلامي؛ فإن أصبحتم كذلك مكنتموهم من تقييم منجزاتكم والاعتزاز بها.

نحمد الله أيها الإخوة الاعزاء لاننا لو نظرنا إلى عالمنا لوجدنا أن هناك صورة طيبة لازدهار الإسلام؛ فالكثيرون من مختلف الجماعات العرقية والالوان في مختلف القارات يقبلون الإسلام دينا لهم... سوداً من إفريقيا.. وبيضاءً من أوروبا وصفراً من آسيا وحمرًا من أمريكا. إن لمسلمي الصين مكانة خاصة في العالم الإسلامي لأنكم ترفعون راية الإسلام خفاقة.

أيها الإخوة:

إن الغرض النهائي لوفد الرابطة الزائر لكم هو توثيق عرى المودة والتعاون بينكم وبين إخوة لكم وليس للزيارة أغراض سياسية أو اقتصادية. إن مسلمي العالم الإسلامي وخاصة اخوانكم في الأراضي المقدسة يذكرونكم دائماً. إن وفد الرابطة يقوم بزيارة ودية لكم بناء على دعوة كريمة من الجمعية الإسلامية بالصين وفي نفس الوقت لقد اجرينا سلسلة من المباحثات مع الجمعية الإسلامية المركزية والجمعيات الإسلامية بالمقاطعات والبلديات والمناطق المستقلة. وأثناء مشاوراتنا ومناقشاتنا تبادلنا وجهات النظر بشأن المشكلات التي تهم الجانبين من أجل زيارات ودية فيما بيننا ومن أجل التنسيق.

ومن الأمور التي ناقشناها:

- ١- تمويل بناء المساجد وخاصة تلك التي دُمّرت أثناء الثورة الثقافية.
- ٢- مساعدة الراغبين في اداء الحج.
- ٣- المساعدة على طبع الكتب الإسلامية.
- ٤- تشجيع التبادل الثقافي ومساعدة الطلاب المسلمين الراغبين في الدراسة في الخارج.

وساد شعور بالرضا عند الجانبين وليس هذا بغريب لأنه على المسلم أن يشد عضد أخيه.

واليوم تأثرنا كثيراً بمالقينا من ترحيب من قادة لين تشا ومن الجماهير العريضة من المسلمين وليس بوسعنا أن نعبر عن اغتباطنا الذي يعلم الله مداه. ولسوف نخبر المسلمين في العالم أجمع وفي الإراضى المقدسة عما شاهدناه في بلادكم بكل صدق حينما نعود بإذن الله. ولسوف يشاركوننا نفس السرور.

إخواني الأعزاء:

قبل أن أختتم كلمتي اسمحو لي بالنيابة عن رابطة العالم الإسلامي وعن وفدنا الزائر لكم أن أعبر عن خالص الاحترام لكم مرة أخرى وأوصيكم بتقوى الله وطاعة أولي الامر منكم واعلموا أن الله مطلع على أعمالكم. وحاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين(*) .

وقد كان التأثير بالغاً على هؤلاء الإخوة وهم يستمعون إلى كلمتي من مكبرات الصوت وكنت صعدت إلى المنبر وهو عالٍ من أجل المحافظة على النظام إلا أنهم صاروا بعد الصلاة يتدافعون إلى جهة المحراب التي نحن فيها كل يريد أن يرى أعضاء الوفد.

فكان صعودي على المنبر والقاء الكلمة من مكبرات صوت قوية عاملاً على بقاء كل منهم في مكانه لأنه يستطيع أن يراني ويسمع كلامي ولو كان بعيداً.

الا أن الزحام كان شديداً على نوافذ المسجد التي كان المصلون في خارج

(*) ترجمة بتصرف لعدم سلامة الأسلوب الذي كتب به الأصل باللغة الإنجليزية.

المسجد يتزاحمون على الإطلال منها إلى داخل المسجد ليرؤ أول وفد إسلامي جاء إليهم من الأراضي المقدسة بل هو أول وفد رسمي مسلم جاء إليهم على الإطلاق. فكان رجال الأمن الحكوميون يحاولون تنظيمهم وكان رجال الأمن قد حضروا إلى هذا الجامع وغيره من الجوامع التي سنزورها بكثافة كبيرة.

وجامع (نانغ كوان) كبير وحديث بل لم تكتمل المرافق لبنائه بعد- كما تقدم- وكان خروج الوفد من الجامع أصعب من دخوله إذ أقبل الأخوة المصلون داخل الجامع وهم ألوف كلهم يريد السلام على أعضاء الوفد رمصافحته ولكن رجال الأمن والأخوة المرافقين وقفوا سداً بينهم وبين الوفد وذلك- فيما قالوه لنا- من أجل الحرص على سلامة أعضاء الوفد لأنه من الجائز أن يتزاحم الناس حول أعضاء الوفد فيضرونهم من حيث لا يريدون ذلك، كما أن الوقت لا يكفي لمصافحة الجميع، ويصعب مصافحة بعضهم وترك الآخرين و(منع الجميع أرضى للجميع).

ومع ذلك كنا نلوح بأيدينا نلقي التحية والسلام لمجموع الإخوة المسلمين الذين اصطفوا صفوفاً حول المسجد وفي الشارع وللذين صعدوا إلى سطوح المنازل والأماكن المرتفعة.

مسجد شاطئ النهر الأمامي، أو مسجد السلفيين:

خرجنا من المسجد ولم نكد نستطيع الخروج لشدة الزحام وكثرة المتدافعين الذين يريدون أن يروا أعضاء الوفد غير أن رجال الأمن المرافقين أخذوا يبعدون الناس عن طريقنا بقوة اعتبرناها قسوة ولكننا لم نستطع منعهم منها.

وانطلق الموكب إلى مسجد آخر اسمه (مسجد تشان خويانغ) ومعنى ذلك (مسجد الشاطئ الأمامي للنهر).



الاستقبال عند مسجد السلفيين في خوتشو

فوصلنا إلى جماهير متجمهرة قد ضاقت بها الشوارع والأزقة بل حتى سطوح المنازل فدخلنا غمارها ولم نكد نستطيع الخروج منه إلا بحماية رجال الشرطة والمرافقين الصينيين وذلك كله قبل أن نصل إلى المسجد إذ لم تستطع السيارات الحركة وسط الجماهير التي نسيت نفسها وربما كانت قد نسيت وجوب الابتعاد عن طريق السيارات.



إمام جامع السلفيين علي يمينه المؤلف
وعلى يساره الشيخ صالح نائب رئيس الجمعية الإسلامية المركزية

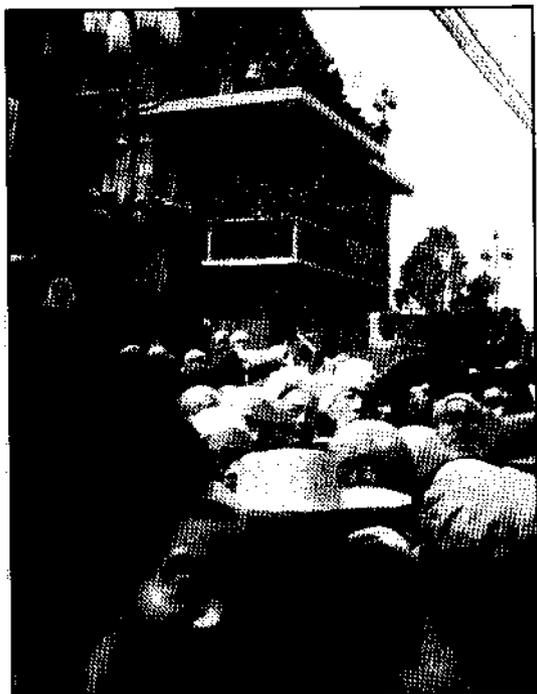
واخذنا نخوض غمار هذه الجموع الكاثرة فرأينا المسجد يرفرف عليه علم المسلمين الأخضر كما كنا قد رأيناه على المسجد الجامع الذي قبله وهو جامع (نانع كوان).

واستقبلنا شيخ نحيل الجسم يلبس لباسنا نحن السعوديين ماعدا العباءة ومعه طائفة من الطلبة كلهم عليه غطاء الرأس كالذي علينا وهو (الغترة) إلا أن لونها على رؤوس بعضهم أصفر وقدموه لنا بأنه الشيخ (ذو النون وانغ جانغ جو) إمام المسجد وقدم لنا نفسه بأنه إمام مسجد السلفيين وقال إن هؤلاء وأشار إلى عدد من الطلبة والتلاميذ واناس غيرهم بأنهم كلهم من السلفيين ثم تقدمنا يصعد درجاً إلى طابق في المسجد فأجلسنا في فصل دراسي من مدرسة تابعة للمسجد فجلسنا على مقاعد الدراسة فيه والألوف المؤلفة من الناس واقفون أو منتظرون وصعدت جموع منهم إلى منارة المسجد التي هي مرفوعة على عمد من الاسمنت المسلح قد تركوا ما بينها فراغا لا يشغله الا الدرجة التي تشغل جزءاً منه.



مع طلبة المدرسة السلفية في خوتشو

كما كثر الصاعدون على سطوح البيوت المجاورة إلى ماوراء عدة أزقة وشوارع وأخذ الشيخ يتكلم بعربية فصيحة ولكن دون انطلاق لأنه يحتاج إلى مران لكي ينطلق لسانه بالعربية ومع ذلك لم نحتج إلى مترجم بيننا وبينه.



مسجد السلفيين في خوتشو

وقال: أنا سلفي وأنا الوحيد الذي اتمسك بالسلفية هنا وأعلم السلفية لتلاميذي الذين يبلغ عددهم الآن كما ترونهم أربعين تلميذاً، وقال: لقد تعلمت العربية في الصين وواظبت على تعلمها وتعليمها هنا حتى وصلت إلى ما أنا عليه الآن- ولم أخرج إلى أي بلد عربي كما لم يحضر إلى بلادنا أي شيخ عربي نأخذ عليه العربية.

وتحدث عن مسجدهم فقال: إنه مسجد جديد وكان موضعه قبل ثلاث سنوات بستاناً فأعطتنا الحكومة عشرين ألف ين لعمارته والباقي جمعناه من إخواننا المسلمين وبخاصة من الذين يحبون السلفية والسلفيين، وقال: إن المسجد يتألف من ثلاثة طوابق الأول: فيه حجرات الدراسة والثاني مكاتب والثالث المصلى. وقال: إننا نحتاج إلى إكمال المسجد ببعض النقود وقد بنيناها كله من الاسمنت المسلح. وانفقنا عليه الآن مائة وخمسين ألف ين.



داخل المسجد السلفي في خوتشو

ولم ينس أخونا الشيخ ذوالنون وهو يواصل الترحيب بأخوته السلفيين القادمين من جوار الحرمين الشريفين أن يتطرق أيضاً إلى السياسة فهو سريع الكلام جم التفكير وإن كان بعض تفكيره يحتاج إلى المزيد من العمق والتركيز قال:

بعد سقوط عصاة الأربعة عادت السياسة في الصين إلى سياسة معتادة، ونحن نعيش بسهولة ونقوم بنشاطنا الديني المعتاد.

والظاهر أنه قال ذلك من باب الكياسة وليس حبا للكلام في السياسة لأن الجمع كان مشهوداً من أناس من الحكومة أو ممن ينقلون الحديث إلى الحكومة لأنه أضاف قوله: نحن من المذهب السلفي لم يكن لنا مسجد من قبل ولكن بمساعدة الحكومة بنينا هذا المسجد قبل ثلاث سنوات.

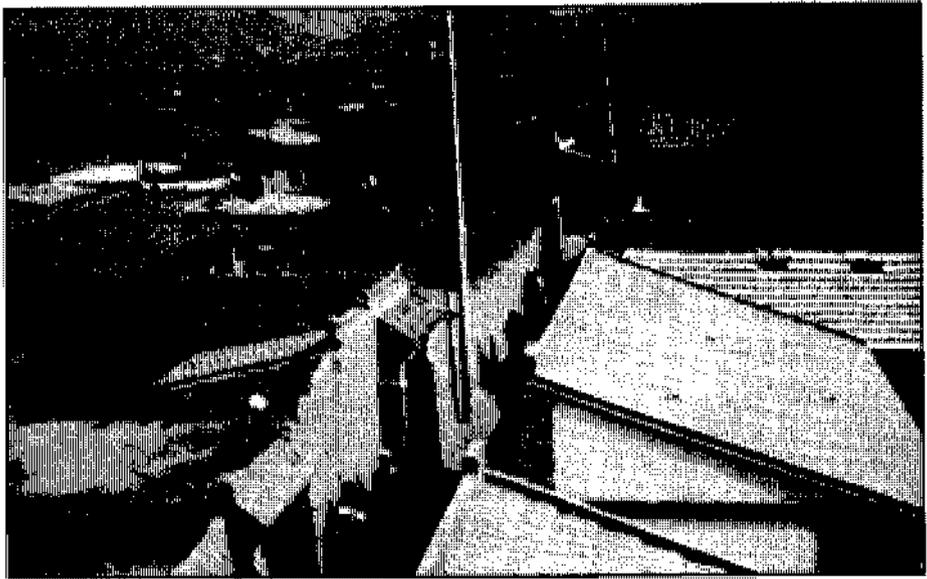
والواقع أن مظهر الشيخ نفسه ومظاهر تلامذته حوله مما يشهد بأنهم بالفعل من الحريصين على التمسك بالمذهب السلفي وحتى بالمظاهر التي يظهر بها

السلفيون لأنه لا يوجد بينهم من على رأسه عمامة كالتي تكون على مشايخ المتصوفين.

وحتى العبارات المكتوبة على السبورات في المدرسة جعلوها تدل على ذلك ومنها عبارة: الخير كل الخير إنما هو في اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والشر كل الشر إنما هو في الابتداع في دين الإسلام.

هكذا كتبوها - والمشهور في العبارة كما نحفظها هو: الخير كل الخير في اتباع من سلف والشر كل الشر في ابتداع من خلف.

وإلى جانب هذه العبارة بالعربية توجد في السبورات كتابات بالصينية قالوا: إنها تفسير لبعض النصوص الدينية.



من الطابق العلوي في مسجد السلفيين في خوتشو

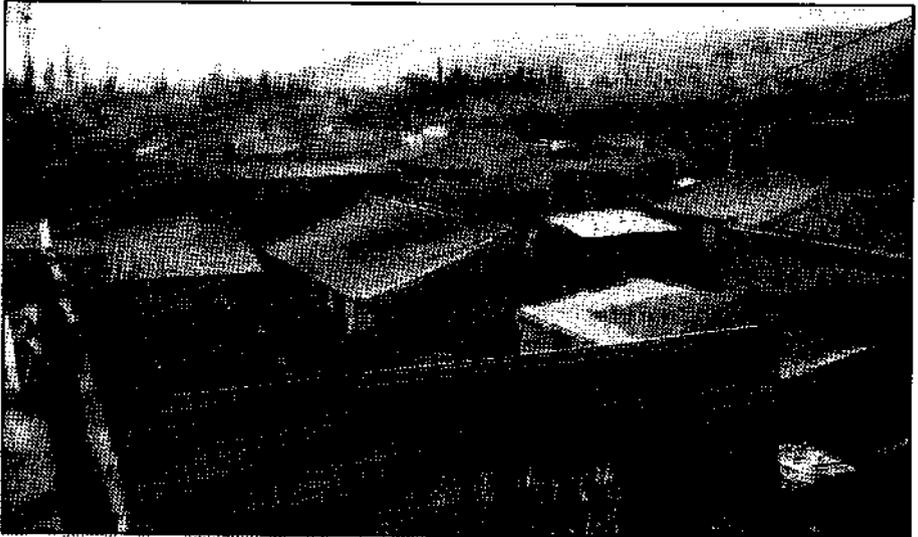
والواقع أن هذه هي المرة الأولى التي نسمع فيها صراحة من أحد في الصين انتسابه للسلفية وتظاهره بل اعتزازه بالانتماء إليها.

وقد لاحظت أن بعض كبار السن من الأخوة المسلمين الذين أقدر أعمارهم فيما بين الستين والسبعين تظهر عليهم علامات الصحة والقوة حتى كانوا عند المصافحة يشدون على أيدينا بقوة حتى تكاد تؤلمنا وهم انفسهم ذوو اجسام خفيفة ليست مترهلة.

وقد أخبرني بعض الإخوة المرافقين أن ذلك لكون بعضهم من ذوي الأصول المغولية .

هذا وقد قال الشيخ (ذوالنون وانغ جانغ جو) للمترجم الأخ لقمان أرجو إبلاغهم بأننا مشتاقون لحج بيت الله الحرام. ولكننا لانستطيع ذلك الا بمساعدة من المملكة العربية السعودية وربما قال ذلك بالصينية مع استطاعته أن يقوله لنا بالعربية من أجل أن يعرف الحاضرون من قومه الذين لا يحسنون العربية أنه قد أبلغنا إياه.

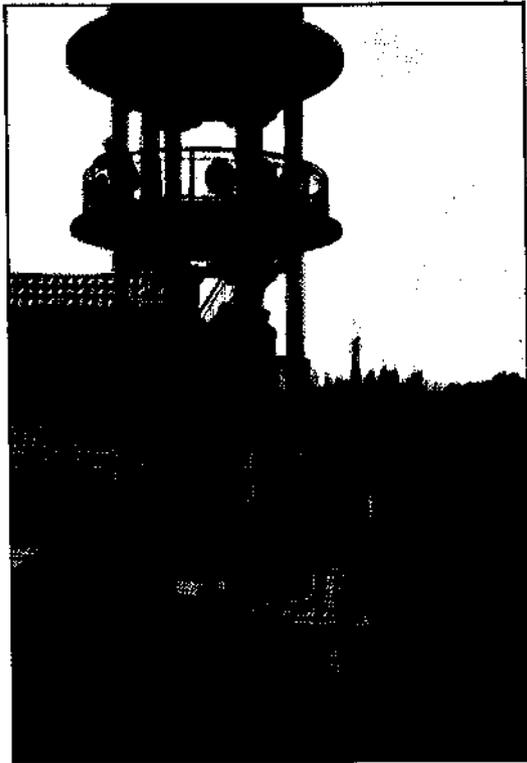
وذلك لأن موضوع تيسير الحج موضوع مهم عند الإخوة الصينيين لأنهم كانوا قد حرموا من الحج سنين عديدة إبان تعصب الشيوعية في زمن حكم العصاة الرباعية من أنصار الزعيم الهالك (ماو تسي تونغ).



نظرة من سطح مسجد السلفيين في خوتشو

وعندما خففت الحكومة الحاضرة من القيود التي كانت تمنعهم من الحج كان هناك صعوبة الحصول على العملة الصعبة، وبعد الأماكن التي يستطيعون الحصول منها على سمة الدخول إلى المملكة.

وقد القيت كلمة مبسوطة من مكبر الصوت رددت فيها على كلمة الشيخ (ذي النون) إمام المسجد. ووجهت الحديث فيها إلى هذه الجموع المحتشدة من المسلمين داخل المسجد وخارجه في الشوارع وأسطح المنازل لأن هذه فرصة نادرة ينبغي أن تغتنم .



منارة جامع السلفيين
في خوتشو

ثم تفقدنا المسجد الذي هو مبني بالاسمنت المسلح كما تقدم غير أن سقفه من الخشب لأنه في أعلى المسجد وأما فراشه فانه من الجلود وللجلود ذات الشعر الكثيف في هذه البلاد الباردة مزية الوقاية من برودة الأرض في الشتاء وهو مسجد حديث البناء بنى عام ١٩٨١م، ويجواره بناء تابع له مؤلف من ثلاث طبقات في الطبقة الأولى منه غرف دراسية وفي الدور الثاني مساكن للطلبة.

ثم انحدرنا مع الدرج ونحن نحبي الإخوة المجتمعين الذين كانوا في كل مكان حول المسجد فضلاً عن المسجد ذاته وقد امتلأت الشوارع القريبة منه فضلاً عن ساحاته بالواقفين.



جموع في مسجد السلفيين في خوتشو

في بيت أحد المسلمين:

ألح علينا الإخوة بزيارة بيت أحد الإخوة المسلمين ولما كانت الجموع المجتمعة قد ضاق بها المسجد وماحوله سألتناهم: كيف يمكن تحركنا فضلاً عن تحركها إلى هذا البيت؟، غير أنهم أخبرونا أن رجال الشرطة والمرافقين سيتولون هذا الأمر.

دخلنا بيتا في فناء مكشوف تطل عليه الغرف فا ستقبلنا الأخ الداعي (الياس لا يبي لي) وقد فهمنا سبب المحاحم على زيارة البيت وهو أن هذا الأخ الكريم له قصة مؤسفة ذلك بأنه قد سافر إلى باكستان عام ١٩٨١م، وأقام فيها عدة أشهر يحاول الوصول إلى بيت الله الحرام وأداء فريضة الحج ولكنه لم يوفق بسبب عدم أخذه ببعض الأمور الشكلية ثم حاول بعد ذلك أيضاً وأقام في باكستان لمدة شهرين ولم ينجح.

فوعدناهم بأننا سوف نعمل على تيسير حجه في المستقبل و أهم ذلك أن نطلب له سمة دخول للحج ضيفا على رابطة العالم الإسلامي وقد أخبرنا أن والده يقيم في الطائف وإنه لم يره منذ سنوات ويريد أن يراه قبل موته لأنه كبير السن واسم والده يوسف سراج الدين^(١).

إلى مسجد آخر:

لا اظنني بحاجة إلى التأكيد على أهمية المسجد في هذه البلاد الشيوعية بعد أن ذكرت ذلك فيما سبق وأزيد هنا أن زيارة المساجد في هذه البلدة اكتسبت أهمية إضافية من كونها مكانا لتجمع المسلمين والالتقاء بهم مما لم يتوافر في مكان آخر لكثرتهم.

انطلق الموكب قاصداً مسجد (لو خوا سو) فكان أول ما ظهر لنا منه أعلام المسلمين الخضراء تخفق فوقه وان كان من طابق واحد. واستقبلتنا جموع المسلمين على رأسهم الأخ (ابراهيم ما جنغ سو) وقد أخبرونا أن المسجد قديم ولكنهم جددوا بناءه من تبرعات المسلمين في هذه البلاد ولا يزال يحتاج إلى منارة و إلى فراش.

(١) ملحوظة: حج المذكور في موسم الحج التالي ورأى والده في الطائف غير أنه وجده مريضاً ومات والده بعد وصوله إلى الطائف بيوم واحد فشيعة إلى مشواه الأخير ودفنه هناك ثم عاد لإكمال حجه في مكة المكرمة.



المؤلف يتكلم في لوخراسي على يمينه الاستاذ لقمان ماشان لي يترجم كلامه

ثم ألقىت كلمة من مكبرات الصوت التي وجدتهم أعدوها لهذا الغرض، وقد بلغ التأثير بناوبهم مبلغاً عظيماً.

ثم مررنا بمساجد متعددة ولم نقف عندها لكثرة المساجد وصعوبة السيطرة على موقف الجماهير، وكان الناس من كافة الأعمار والأجناس ينظرون إلى الوفد و يتعجبون، فعدا الميزة العظيمة التي تميز الزيارة بأنها من قوم جاءوا من جوار الحرمين الشريفين فان الموكب المؤلف من عدة سيارات صغيرة والزي العربي الكامل الذي يرتديه أعضاء الوفد قد أضفى على الموكب غرابة على غرابة. وزاد المتطلعين لرؤيته تشويقاً إلى تشويق.

لاسيما مع كون الموكب اخترق عدداً كبيراً من شوارع مدينة (خوتشو) وأحيائها بقصد إظهار ذلك للمواطنين وتتقرب الحكومة بذلك اليهم مما جعلنا

نعتقد أن هذه الزيارة ستكون من الأحداث الباقية في ذاكرة ابنائها إلى أمد بعيد بل إنها ربما أصبحت مما يذكره الأول للآخر.



المؤلف على يساره الاستاذ محمد شاه حبيب الله عضو الوفد

ثم عدنا إلى دار الضيافة واستقبلنا عدداً كبيراً من الزوار المسموح لهم بزيارة الوفد والالتقاء بأفراده والافان الباب الخارجي لدار الضيافة محروس بحيث لايلجئه الأمن كان معروفاً مأذونا له بالدخول.

مائدة العشاء الرسمية:

أقام رئيس حكومة الاقليم الأخ (شعبان مايونغ خي) حفلة عشاء رسمية للوفد دعا إليها كبار موظفي الحكومة وأعيان البلاد من مسلمين وغير مسلمين فضلاً عن عدد من أئمة المساجد وأهل المدينة.

وكانت مائدة حافلة بأنواع الطعام كما كانت حافلة بوجوه القوم.

ومن ذلك أن الأخ (شعبان) قال لي وكان يجلس بجانبني: إن هناك عشرة أنواع من الطعام غير المقدمات والمقبلات، وهذه كثيرة متنوعة.

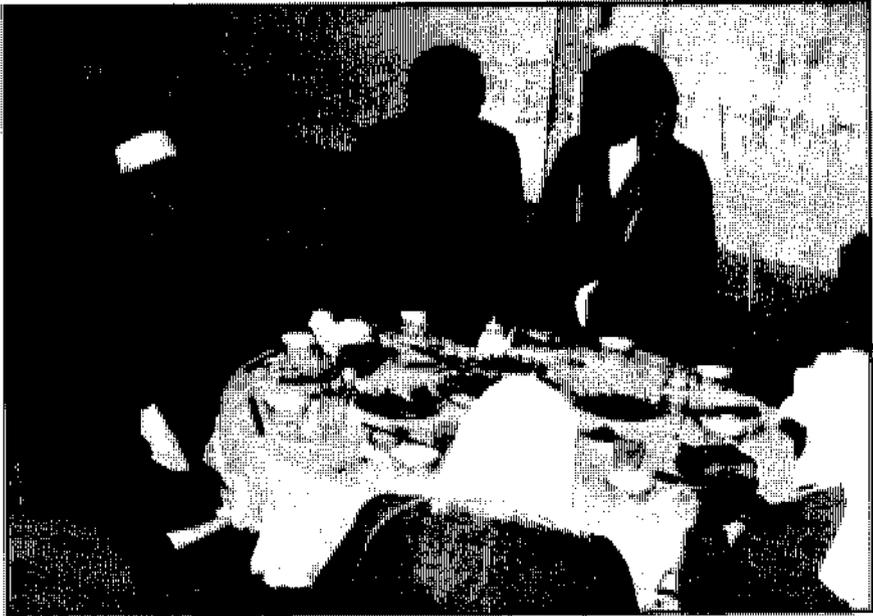
ثم أخذ (لقمان) المترجم يقرأ علينا الأنواع العشرة الرئيسية فمنها بيض الحمام، و(أذن الشجرة) ومصران الغنم المطبوخ بطريقة خاصة ونوع آخر من لحم الغنم الجيد، والأرز بالعسل. وهذا بالإضافة إلى عدد من أنواع الحلوى التي جاءوا بها في وسط الطعام كما هي العادة عندهم وخبز الصين الذي هو كالعجين الذي وضع في ماء مغلي ثم رفع عنه بسرعة وقبل أن ينضج، ونوع من الدقيق عليه العسل. ثم حلوى حارة وهي غير الحلوى الباردة التي قدموها في وسط المائدة ثم أرز حلو بالفاكهة المجففة مع السمن كما قدموا الفول نوعين أحدهما نيء والآخر مقلي بالصلصة، أما أنواع الخضرات فهي متعددة مثل الكرفس، كما قدموا نوعاً من المكرونة الصينية وهي طويلة جداً ودقيقة جداً وكان رئيس الحكومة الأخ شعبان يخدمنا بنفسه ويوزع علينا الطعام من باب الاحترام والاحتفاء.



الأخ شعبان يلقي كلمته في مائدة العشاء

وفي أثناء هذه المائدة الرسمية القى الأخ (شعبان) كلمته الرسمية وهي مكتوبة تحدث فيها عن شكر المسلمين هنا لاهتمام رابطة العالم الإسلامي بهم و قدوم الوفد اليهم وهو أول وفد إسلامي يصل إلى المنطقة كما شكر رئيس الوفد- يقصدني- على احاديثه التي وصفها بأنها قيمة وهي التي القاها في مساجد مدينة(خوتشو) التي زارها، وحث فيها المسلمين على الوحدة والتعاون ذلك بأن المسلمين في هذا الاقليم يشكون من الخلافات والصراع- كما قال-.

وقال: إن أحاديث رئيس وفد الرابطة ستكون حافزاً للجماعات الإسلامية والحكومة على نبذ خلافاتها من أجل العمل البناء.



المؤلف يتكلم في المائدة الرسمية في خوتشو
على يمينه المترجم فالاستاذ شعبان رئيس حكومة المحافظة

وقد عقبته على كلمته بكلمة شكرته فيها على الترحيب والحفاوة التي قوبل بها الوفد في هذا الاقليم سواء من المسؤولين الحكوميين أو من أفراد الشعب

وأكدت عليهم وكان الحاضرون كثيرا بالتعاون على البر والتقوى ونبذ الشقاق والخلاف لأن الدين الإسلامي يدعو إلى التعاون والتآخي كما قال الله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) كما أنه ينبغي على المسلمين أن يتعاونوا مع السلطات الرسمية على ما فيه المصلحة الوطنية العامة.

يوم السبت ٤ شعبان ١٤٠٤هـ ٥ مايو ١٩٨٤م.

الإفطار الرسمي:

ليس من العادة أن يكون طعام الإفطار رسمياً بمعنى أن يحضره المضيفون مع الضيوف لأنه يكون عادة بعد النهوض من الفراش ويكون الجميع مشغولين بالاستعداد للعمل غير أن القوم هنا خالفوا العادة لكون الإفطار يتبعه مباشرة برنامج عمل حافل.

فكان أن حضر طعام الإفطار معنا الأخ (شعبان ما يونغ خي) رئيس حكومة الاقليم وعدد من وجهاء الإقليم وأعيانه حتى صارت مائدة الإفطار في سعتها كمائدة الغداء.



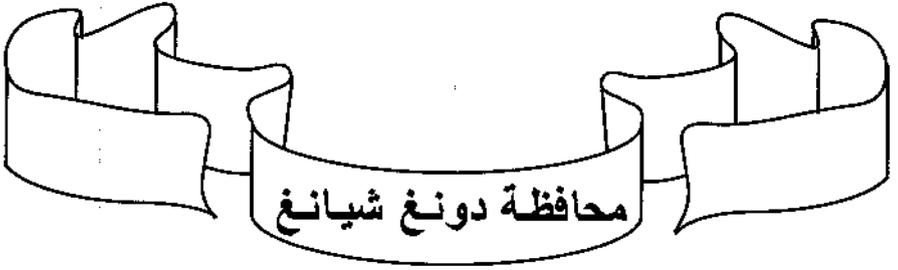
في حديقة لن تشا وعلى يساري رئيس المحافظة الأخ شعبان

ثم انطلقنا مع الجميع إلى حديقة (لن تشا) فجلسنا في قاعة للجلوس في بناء فيها جيد علمنا أنهم يعقدون فيها اجتماعات لبعض الزوار وكبار الموظفين في العادة فألقى الأخ (شعبان) كلمة أثنى فيها على وفد رابطة العالم الإسلامي وقال فيما قال: أنتم أول وفد إسلامي يصل إلينا حاملاً عواطف إخوتنا المسلمين إلى أهل هذه البلاد ولايؤسفنا في زيارتكم إلا كونها قصيرة بسبب ضيق وقتكم ولكننا رغم ذلك استفدنا كثيراً من زيارتكم.

ثم قال: وكانت كلمة رئيس الوفد -يقصدني- في الجامع الكبير أمس درساً عميقاً وخصوصاً تأكيداً على الأخوة بين المسلمين وكنا مع سائر المواطنين نتابع مقاله في خطبه في المساجد الأربعة التي تكلم فيها أمس فكلماته تشجع المسلمين بل إنها تشجع رجال الإدارة وبخاصة رجال الحكومة الشعبية في إقليم لن تشا، على التعاون مع المسلمين لأنها تحث على التعاون في الأمور المفيدة للجميع.

أما وحدة المسلمين فإنها قوة كبيرة لهم ولا بد من أن نتحد. وإنني أكرر أنه لشرف عظيم لنا أن نستقبل وفد رابطة العالم الإسلامي برئاسة فلان- يقصدني ونرجو العفو عما قد نكون قصرنا فيه نحو ضيافتكم.

ثم قدم بعض الهدايا التذكارية باسم حكومة الاقليم وسكانه ومنها خنجر صغير من صنع أفراد قومية تعيش في هذا الاقليم اسمها (بو آن) وقال: إن عددهم في هذا الاقليم ثمانية آلاف شخص. هذا إلى جانب هدايا أخرى صغيرة معتادة.



تقع محافظة قومية دونغ شيانغ الذاتية الحكم في الجهة الشرقية من لن تشا وتكثر فيها الجبال وتحيط بها أنهار من ثلاث جهات.

وتقع عاصمتها التي تسمى سونانيا على جبل ارتفاعه ٢٦٠٠ متر فوق سطح البحر، وهي مدينة صغيرة.

قال اديب من قومية دونغ شيانغ هو السيد وانغ يوى ليانغ: « يعرف معظمنا نحن ابناء قومية دونغ شيانغ اللغة الخانية وعلى الخصوص الشباب والكهول، أما إذا تكلم أهل دونغ شيانغ بينهم فلا يعرف غيرهم حديثهم».

لغتها وأصولها:

لقومية دونغ شيانغ لغتها غير المكتوبة، وتنتمي لغتها ولغة المغول إلى أرومة واحدة، ذلك لأن كثيرا من المفردات الأساسية مثل «الاكل» و«النوم» و« الحصان» و«البقر» و«الغنم» وغيرها من اسماء أعضاء جسم الانسان والاعداد متشابهة تماما. وتشمل من المفردات المغولية خمسين بالمائة أو أكثر، إذن أيكون أهل دونغ شيانغ مغولا؟

هذه المسألة لا تزال رهينة البحث لدى العلماء في علوم القوميات ولكن هناك آراء مختلفة.

أحد الآراء: كان اجدادهم جماعة من المغول في دولة اوغوتاي التي حكمها اوغوتاي الابن الثالث لجنكيزخان، تزوجوا مع المسلمين في دولتهم واعتنقوا الإسلام. فاضطروا أن يغادروا دولة أوغوتاي، وبعدما وصلوا إلى محافظة مينتشين اليوم في مقاطعة كانسو انقسموا إلى قسمين، احدهما دخل في منطقة منغوليا الداخلية، والآخر دخل في دونغ شيانغ (البلد الشرقي) من لن تشا اليوم.

من هؤلاء المغوليين الذين دخلوا دونغ شيانغ، واتخذت قوميتهم اسم المكان الذي يستقر فيه أكثرتهم؟.

الرأى الثاني: هم من الجنود المغوليين الذين بقوا في دونغ شيانغ عندما قام جنكيزخان بالحملة الغربية، حيث استصلحوا الاراضي زمنا طويلاً، وتعايشوا واختلطوا مع أهل قوميتي خوي وخان، فتشكلت قومية دونغ شيانغ اليوم.

عدد سكانها في المحافظة ١٠٢٥٠٠ نسمة، ولكن عدد سكانها الاجمالي يبلغ ٢٢٠ الفا تقريباً. وينتشر قسم منهم في المحافظات المجاورة لها.

الحياة والعادات:

أهل دونغ شيانغ يجتهدون في الزراعة ويعملون في الرعى والأعمال الجانبية، وظهرت الاسرة ذات المائة رأس من الغنم والاسر ذات العشرات منها، وتحسنت معيشة الفلاحين تحسناً ملحوظاً. مزروعاتها الرئيسية هي البطاطس والقمح والذرة وفول الصويا. ويحب أهل دونغ شيانغ لحم البقر والغنم وشرب الشاي. وادوات شرب الشاي هنا اسمها « سانباوتاي » يعنى تنقسم إلى ثلاثة اجزاء: صحن صغير وكوب وغطاء الكوب.

ومحافظة دونغ شيانغ تشتهر بالفواكه الحلوة، ففي وادي تانغوانغ مشمش كبير يشبه الخوخ حجماً، وفي وادي لاما البطيخ وفي هونغليوتان الكمثرى يمكن أن تبقى طول الشتاء ولايتغير طعمها.

و(دونغ شيانغ) محافظة بمعنى اقليم تابع لمقاطعة كانسو ولكن يتميز باكثريه من المسلمين من سكانه ولذلك جعلوه محافظة متمتعة بالحكم الذاتي مخصصا للمسلمين من قومية (دونغ شيانغ).

سار الموكب وقد زاد عدد سياراته كثيراً إذ صحبنا الأخ (شعبان) رئيس حكومة لن تشا وعدد من كبار الرسميين والوجهاء .

وخرجنا بسرعة من مدينة (خوتشو) التي يسميها جهالهم (مكة الصغيرة) رمزاً إلى تمسك أهلها بإسلامهم وحرصاً على ذلك فمررنا بمهبط صغير لطائرات الاسعاف الصغيرة والافانه لا يوجد في البلدة مطار لهبوط طائرات الركوب المعتادة حتى ولا الصغيرة منها.

مع أن سكان مدينة (خوتشو) يبلغ عددهم مائة واربعين ألف نسمة جلهم من المسلمين ولذلك تقام الجمعة في ثلاثة وعشرين مسجداً فيها.

ولم نكد نغادر المدينة حتى بدأنا صعود تلال متصلة بجبال نراها عالية ولم أكن أتصور أنها ليست جبلاً من الحجارة الابعد أن وصلنا إليها وتفحصناها لأنها عالية متعددة التلال بل الرؤوس الشامخة تفصل بينها وديان عميقة.

ومررنا بكهوف في عرض هذه التلال العالية المترامكة التي لا يشك من يراها في أنها جبال من الجبال الصخرية فرايناهم قد نحتوا في عرضها مساكن لم يتكلفوا لذلك غير النحت في التلة، والأرض طينية صلبة وليست صخرية فأخبرنا الذين معنا وجلهم من الرسميين الحكوميين بأن هذه المنازل هي منازل مؤقتة للعمال ويكفي أن تعرف للدلالة على عدم صلاحيتها للسكن المعتاد وبخاصة في غير اوقات البرد الشديد أنها ليست فيها نوافذ وربما تصل الرطوبة إليها من أعلى إلا إذا كانوا قد وجدوا حيلة يكافحون بها ذلك.

وعلى أية حال فانها من اعجب المساكن التي رأيتها وماشبهتها إلا بمساكن ثمود في مدائن صالح لولا أن تلك منحوتة في الجبال الصخرية و هذه منحوتة في تلال طينية صلبة.

صعد الطريق الجبل مع طريق ازفلتي لابس بها وأرجو المعذرة من استعمال كلمة (الجبل) هنا ولو كنت قدمت لك أنه ليس من الحجارة وذلك لسببين أولهما

لغوي وهو أن الجبال قد تكون من غير الحجارة كما في جبال الثلج الواردة في القرآن الكريم ﴿من جبال فيها من برد﴾. والثاني من باب الشعور والاحساس فلا يستطيع الناظر إلى هذه التلال المتعاقبة المجتمعة وبعضها أعلى من بعض أن يفارقه الشعور بأنها من الحجارة لأنها تشبه جبال الحجارة شبيها عظيما، بل ان الطريق عندما أخذ يصعد إلى هذه التلال العالية وبأخذ في أحضانها ثم في متونها جاعلا الوديان العميقة على يمينه أو يساره شبهته بطريق (كرى) الواقع بين مكة المكرمة والطائف لولا أن هذه الجبال الطينية اوسع من جبال كرى والوديان فيها أعمق.

وقد أخذ الطريق يتبع الأماكن المتدرجة في الارتفاع في متون هذه التلال فصار يتلوى يبعد ويقترب من مهاوي الوديان العميقة.

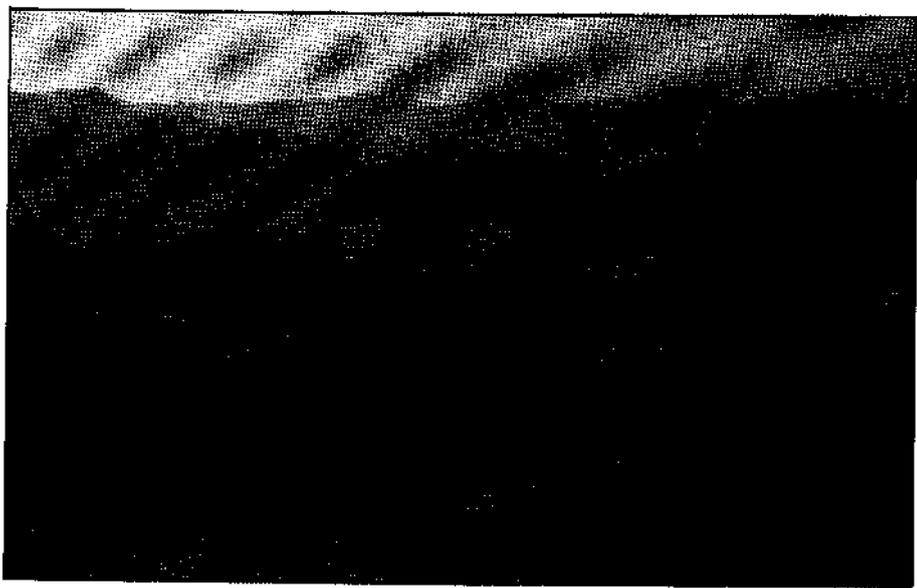
منظر غريب:

الحقيقة أن ذلك من أغرب مامر علي من مناظر الأراضي و الجبال في حياتي كلها مع أنني زرت أكثر أنحاء العالم بل ربما صح القول- من باب التجوز- أنني زرت العالم كله ولم أر أغرب ولا أعجب من هذه التلال الطينية المتراكمة كالجبال.

واللطيف في الأمر أن أي منطقة تكون مستوية أو قابلة لأن يسوي سطحها ولو كانت صغيرة تكون مزروعة بالقمح لأن الأرض كلها طينية صالحة للزراعة ولا يمنع من الزراعة فيها الاعدم استواء سطحها.

وقد اخبرونا أن القمح الشتوي وهو الذي يزروونه في الشتاء عند نزول الثلوج لا يحتاج إلى سقي كثير بعد ذلك.

إن هذه التلال تشبه تربتها أو على الأدق طينها طين التلال التي رأيتها عند الوصول إلى مطار مدينة لانجو غير أن تلك أصغر وهي متفرقة أما هذه فهي أكبر وهي مجتمعة وبعضها يركب بعضا حتى غدت كسلاسل الجبال الواسعة.



المدرجات المزروعة على التلال الطينية
ومياه السيول حفرت أخاويد في الأرض

استمر الطريق صعوداً وقد مررنا بعدد من المشايخ والمتدينين تدل على ذلك عمائمهم وهم يسلمون على من يربهم قال لي احد الإخوة: إن هؤلاء من السلفيين.

وقد مررنا بعمال يصلحون جزءاً من الطريق ويوسعونه فتحققت من تربته من أنها طينية صلبة خالية من الحجارة ولم أر بينهم عاملات لأن المنطقة للمسلمين واكثر العاملات في الطريق من كافرات الصينيات.

أما المناظر التي تحيط بالسائر في هذا الطريق الصاعد فانها بديعة بل رائعة لأنه ينقل البصر ما بين وديان عميقة حمراء التربة خضراء الرقعة بسبب الزراعة المزدهرة فيها، وقد حفت بالوديان المزروعة مدرجات مزروعة في التلال تنهض بنهوضها حتى تكاد تصل إلى اكتافها إذا وجدت أماكن مستوية.

ثم تنقل بصرك إلى أعلى فتشاهد قمم هذه التلال الطينية البديعة لا تكاد تتبينها من شدة الارتفاع ولا تعدم أن ترى على الطريق بيتاً أو بيتين من الطين نفسه الذي يؤلف هذه التلال فلا يميزه عن التربة على البعد إلا شيء من الجص يبيضون به وجوه هذه المنازل أو يحيطون به نوافذها وأبوابها على هيئة الحلية من أجل الزينة.

والأجمل من ذلك وقعاً في النفس منظر السكان رجالهم بالقلانس (الطواقي) البيض ونساؤهم بأغطية الرأس السابغة مما يجعل المرء يقطع بأنهم من المسلمين وهذه هي الحقيقة التي أخبرنا بها المرافقون.

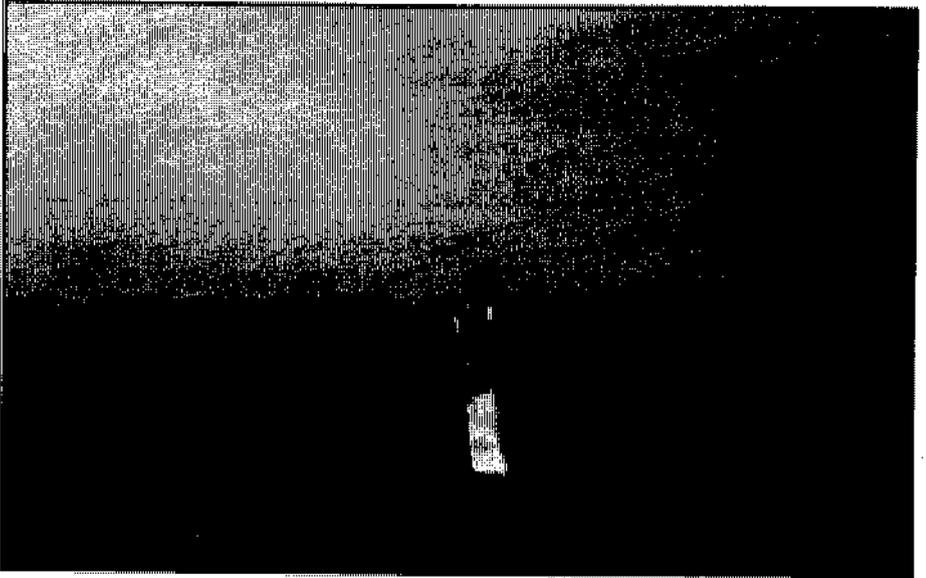
ووقفنا بالقرب من منازل في متون هذه الجبال الطينية من أجل التصوير فالتفت علينا السكان وكلهم مسلمون، وزاد التفافهم بل انعطافهم نحونا عندما أخبرهم المرافقون باننا أخوة لهم قادمون من بلاد الحرمين الشريفين.

ولاحظت أنه حتى الأطفال الصغار عليهم (الطواقي) البيض ووجوههم عليها نضارة ربما كان هذا من أجل موقع بلادهم في هذه التلال المرتفعة، أو من أجل بعدهم وبعد أهاليهم عن الخمر وأكل لحم الخنزير.

ومن المناظر الغربية منظر شيخ كبير راكب على حمار وهو يسير في طريق ترابية على يمينها ويسارها مهاو وعميقة عجبت من مخاطرتهم في سلوك هذه الطرق وبخاصة في اوقات المطر عندما تصبح الطرق طينا زلقاً.

وامرأة ذات احفاد - جمع حفيد- أو لنقل أسباط -جمع سبط -وهو ولد
البنث عرفنا ذلك من الغطاء الأبيض التي تغطي به رأسها كما كنا قد تعلمناه
أمس، وامرأة أخرى « أيم » وهي العزباء التي ليس لها زوج عرفنا ذلك أيضاً
من لون الغطاء على رأسها وهو الأخضر.

بلدة دونغ نشانغ .



تذكارية على التلال الطينية(بين خوتشو ولانجو)

وقفنا في بلدة في موضع مرتفع من هذه التلال هي أعلى مكان في المنطقة
التي تحيط بها وإن كانت توجد قمم أخرى ومناطق تفصل بينها وبين هذه وديان
عميقة أو أماكن منخفضة يصعب اختراقها على الدواب فضلاً عن السيارات .

استقبلنا رئيس الجمعية الإسلامية في المحافظة (ما كو كي) وعمدة المدينة
التي هي مركز المحافظة الأخ (حسين ما فو يان) ونائب عمدة المحافظة
الأخ (يحيى ماكو ليانغ) .



سطوح بعض المنازل في التلال الطينية

وقد أخبرنا الأخ العمدة (حسين ما فويان) أن المدينة مركز لقرى المحافظة التي تبلغ خمسا وعشرين قرية.

وقد وجدنا معهم جمهوراً غفيراً من سكان هذه الأماكن المرتفعة لم أكن أظن أنهم يسكنون هنا وفيهم كهول وشيوخ ذوو لحى مرسله أكثرها مستدقة، وفيهم شبان قد ارتدوا العمام أو القلائس وهي (الطواقي) فهي التي تميز الجميع.

وخيل إليّ أن أهل البلدة كلهم خرجوا حتى نساؤهم وأطفالهم جاءوا لرؤية إخوانهم الزوار من البلاد المقدسة ولكن النساء كن يراقبن منفصلات أو ما يقرب من ذلك بمعنى انهن لا يزاحمن الرجال ولكنهن لا يبعدن كثيراً وهن متمسترات غير متبرجات ولكنهن غير متحجبات فلا يوجد بينهن من تغطي وجهها أو كفيها.

أجلسونا في غرفة من منزل حكومي قالوا إنه مخصص لاستراحة زوار الحكومة وضيوفها الأعزاء وأنزلوني في غرفة أمامها قاعة جلوس صغيرة.

ولم يكن بي حاجة للراحة بل إنني مقتاً الراحة في هذا الوقت لأنني أريد أن

أشفي غليلي من مناظر هذه البلاد العجيبة في موقعها ومناظر أهلها ثم في رؤية هؤلاء الإخوة المسلمين المجهولين لدينا المعلومين المأجورين عندالله إن شاء الله- ولأنني شعرت كأنما كنت قد اكتشفتهم الآن.

ولاشك في أن سبب جهلنا بهم يرجع إلى تقصيرنا ولا أقول قصورنا عن تتبع احوال المسلمين كما يرجع إلى الحالة الصعبة التي كانت عليها البلاد الصينية إبان طفيان الشيوعية فقد عزلتها عن العالم، ومنعت الزوار الأجانب من زيارتها لاسيما تلك المناطق من البلاد التي اعتبرتها مناطق مغلقة لايسمح بدخولها لأحد من خارج الصين.



رجال الأمن ينظمون الجماهير الضخمة التي جاءت لرؤية الوفد في بلدة التلال الطينية(بين خوتشو ولانجو)

وفي دارالضيافة هذه كما في دار الضيافة الكبيرة الواسعة في (خوتشو) كومة من الفحم الحجري المعد للإيقاد وعلى بعد قليل انبوية ضخمة لطردهخان الفحم الحجري السام بعيداً كما رأيت مثل ذلك على نطاق واسع في مدينة (لانجو).

جولة على المساجد:

لم نبق طويلاً في غرف الاستراحة فخرج الموكب في جولة على مساجد البلدة فكانت زيارة المسجد الغربي وقد أعتاد الصينيون المسلمون على تسمية المساجد بأسماء انحاء المدينة إذا كانت صغيرة لاتتحمل أن يكون في جهة من جهاتها أكثر من مسجد واحد.

وعلى سبيل المثال فان اسم المسجد الأول الذي زرناه هنا هو (سونان تشي سي) ذكروا أن معنى ذلك هو (المسجد الغربي).

استقبلنا في المسجد جماعة من أهله على رأسهم إمامه الأخ (شمس الدين بو يونغ تاي) وأخبرونا أن بناء المسجد الحالي كان في عام ١٩٨٠م، وهذا تاريخ مميز في الصين الحديثة لأنه يعني انحسار المادالشيوعي الذي كان يمنع تعمير المساجد بل إنه كان في فترة من الفترات يحاول أن يمنع حتى وجود المساجد فيصايرها أو يخربها باستعماله غير اللائق بها.

وذكروا أن أصله مسجد قديم لايعرفون تاريخه لأنه قبل جيلهم الحاضر وذكروا أنه يكاد يمتلئ بالمصلين يوم الجمعة أما أيام الصلوات الخمس المفروضة فإن عدد الذين يصلون فيه يبلغ مابين الثلاثين إلى الخمسين وذكر لنا الإمام أنه يتسلم راتباً محدوداً من جماعة أهل المسجد كما ذكر الأخوة المجتمعون هنا أنهم لم يتسلموا مساعدة قط من خارج البلاد، ولم يطلبوها من أحد من غير الصينيين من قبل.

والمسجد صغير مفروش بالجلود والبسط الخفيفة التي لاتقي من البرد في هذه البلاد الباردة بل الشديدة البرد في الشتاء.

وبناؤه بالأجر والاسمنت وهو البناء الوحيد مما حوله من المنازل إذ كلها من الطين وسقفه من الخشب المسنم القوي على الطراز الصيني؛ وقد كتبوا على محرابه باللغة العربية هذه الجملة التي هي في الواقع رمزية أكثر منها أساسية

لأن عدد الذين يستطيعون قراءتها وفهم معناها قليل جدا إن لم يكون معدوما وهي: « المسجد بيت فيه يعبد الله الناس بأذان وإقامة».

ورغم ركافة هذه العبارة مبنى ومعنى فإنها ذات معنى عميق بالنسبة لنا نحن العرب إذ نرى فيها فضل الدين الإسلامي على اللغة العربية وأهلها فلولا تدين هؤلاء الأخوة بالدين الإسلامي لما رأينا حرفا واحداً من اللغة العربية في هذه المنطقة النائية من بلاد الصين. بل إننا نرى أنه حتى في مطاعم المسلمين المنتشرة في كل أنحاء الصين لا بد من وجودها لعدم خلو طعام الصينيين الكفار في العادة من محرم إضافة إلى أنهم ليسوا من أهل الكتاب الذين تحل ذبيحتهم نجد الاخوة الصينيين يكتبون جملة أو كلمة من العربية لتدل بشكلها الظاهر على انتساب المطعم أو المحل إلى الإسلام.



في الجامع الكبير في دونغ شيانغ على التلال الطينية

وهذا يوجب على العرب المخلصين لتاريخهم حتى وإن لم يكونوا من المتدينين الملتزمين أن يسعوا في نشر الإسلام وتعزيزه في العالم لأن في ذلك نشر لغتهم وتعزيز مكانتهم في العالم فهل هم فاعلون؟.

ولهذا المسجد منارة منعزلة في ركن من فناءه كما كنا نفعل في مساجدنا الطينية القديمة وهي قصيرة لأنها مبنية بالإسمنت المسلح وذات درج ظاهر بمعنى أن وسط المنارة وهي مربعة خالٍ لأنه ليس فيه إلا العمدة التي تحمل رأس المنارة الذي وضعوا فيه مكبراً للصوت.

وقد صعدنا المنارة التي ترتفع من المسجد الذي هو مرتفع بموقعه فاستجلينا أنحاء البلدة وصورنا ما شئنا من صور.

ورأيت في زاوية المسجد شيئاً ذا معنى وهو أكياس من القمح عددها (٢٥) كيساً قالوا لنا: إنها هدايا من أهل الخير للعاملين في المسجد يهديها من يكون عنده فضل من القمح وليس عنده فضل من النقود وليس معنى إهدائها أن أحدهم أهداها كلها وإنما معنى ذلك أن كل من يود الإسهام في عمل الخير للمسجد والعاملين فيه فانه يقدم قدراً من القمح فجمع المسئولون في المسجد ذلك في أكياس وهي التي الفت هذه الأكياس المجتمعة.

المسجد الجنوبي:

بعد أن ألقيت وأنا واقف كلمة قصيرة في أهل المسجد ومنهم الإمام وجماعة القائمين عليه ذكرتهم بما لمن يقوم على عمارة مساجد الله من أجر عند الله وبأن هذه الأعمال الصالحة هي التي تبقى للمرء ثواباً عند الله يوم القيامة وذكرها حسناً عند الناس في هذه الدنيا.

غادرنا المسجد إلى مسجد آخر قالوا إنه (المسجد الجنوبي) واسمه بالصينية «سونان نان تشي».

وقبل الوصول إليه رأينا جموعاً غفيرة من أهل البلدة من رجال ونساء وأطفال قد تجمعوا بالقرب من المسجد ينتظرون قدوم الوفد ويأملون في السلام عليه أو على الأقل في رؤيته.

وكان منظر الطريق في البلدة اغرب من منظر الأهالي فهو يرتفع وينخفض
 كما ترتفع وتنخفض أرضها التي كانت قد بنيت البيوت فيها تبعا لطبيعة
 الأرض و طبيعة الأرض في أصل تكوينها غير مستوية وفي عصور إنشاء
 البلدة لم تكن هناك قدرة على تسوية الأرض بل حتى الآن ليس لدي الأهالي
 أو الاء دارة الحكومية المحلية قدرة على تسوية الأرض لو أرادوا ذلك.

وجدنا جماعة المسجد قد احتشدوا عند بابه مع المحتشدين منهم إمام المسجد
 الأخ: (محمد شعيب ما من تو). ذكر لنا الأخ الإمام أنه يتسلم مكافأة على
 تفرغه للإمامة والارشاد من جماعة أهل المسجد ولاترد اليهم من الخارج أية
 معونة.



عند أحد المساجد في بلدة التلال الطينية

والمسجد متوسط السعة وهو أكبر من الأول ذكروا أنه جديد الانشاء ولم يكن
 في مكانه مسجد قديم كالمسجد الأول ومع ذلك ذكروا أن تاريخ بنائه هو تاريخ
 بناء المسجد الأول وهو عام ١٩٨٠م.

واخبرونا أن نفقات بنائه كلها من جمهور المسلمين في هذه البلاد، وأنهم لم يتسلموا مساعدة من الخارج بل إنهم لم يتطلعوا إلى ذلك لأنه لم يتصل بهم احد من إخوانهم المسلمين في الخارج من قبل، والمسجد رث البناء وبخاصة من الداخل لأنه ليس فيه فرش وإنما وجدنا في ركن منه كومة من التبن عليها حصر مستعملة هي الفراش الوحيد فيه فالمسجد الذي قبله الذي هو مقروش بالجلود أحسن حالاً منه أو لنقل أكثر يساراً منه.

وكذلك بناؤه اسفله بالأجر وسائره بالطين وسقفه بالخشب على هيئة سنام البعير. وأهم مايلزم له الفرش لأن الفرش في البلاد الباردة ليس ترفاً ولكنه ضرورة للوقاية من برودة الأرض. ولذلك قيدت في مذكرتي أن ندفع لهذا المسجد مبلغاً حاضراً من المال ولو كان قليلاً للمساعدة على فرشه.

المسجد الكبير:

ثم كان الذهاب إلى المسجد الكبير وهو أكبر المساجد في البلدة وهو قديم يرجع تاريخه إلى ما قبل مائتي عام وقد هدم في عهد عصابة الأربعة فانتدب الإخوة المسلمون من أهل البلدة لاعادة بنائه كلية فجمعوا المال على فقرهم وأعادوا بناءه من جديد وقد بدأوا ذلك في عام ١٩٨٠م، عام الحرية بالنسبة للمساجد وان لم يكن ذلك لجميع المساجد لأن بعضها بقي في أيدي الحكومة بعد ذلك التاريخ ولا يزال القليل من المساجد بيد السلطات الحكومية في أنحاء متفرقة من الصين.

لقد ذكروا لنا أنهم انفقوا على بناء هذا المسجد أكثر من مائة ألف ين وهذا مبلغ كبير بالنسبة إلى دخل الفرد هنا وبالنسبة إلى عدم وجود ثروة بأيدي الأفراد لأن العامل غير الماهر يتقاضى في الشهر حوالي خمسين ينا ويعادل هذا ٣٠ دولاراً أمريكياً (أو ١٠٥) ريالاً سعودية.

وكل هذا المبلغ جمعه فيما بينهم لم يحصلوا على أية مساعدة من جهة خارجية- هكذا قالوا والشيء الذي عجبت له من قولهم ليس صحته فذلك مائل أمام أعيننا وإنما العجب أن يكون هذا المبنى الحديث الرائع الذي نشاهده لم ينفق عليه الا هذا المبلغ ولاشك في أن مرجع ذلك إلى إخلاص هؤلاء الأخوة الكرام وإلى رخص الأيدي العاملة، بل إلى تبرع بعض المسلمين بالإسهام بجهودهم الشخصية في عمارة هذا الجامع.

وقد بنوه بناءً جميلاً أقرب إلى البناء العربي منه إلى الطراز الصيني وإن لم يكن عربياً خالصاً كما بنوا منارته بناءً حديثاً على طراز صيني خالص.

وبنوا كذلك في جهة من فناء له واسع غرقاً ومساكن للإمام والمؤذن والعاملين في المسجد بل والدارسين فيه لأنهم يأملون في إنشاء معهد ديني إسلامي فيه ذكروا أنهم يسعون في أن يقيموا دورات لتدريب الأئمة وتعليم الشباب مبادئ الإسلام أولاً حتى يصبحوا من رجال العلم في الدين الذين قل وجودهم في الصين بعد استيلاء الشيوعيين على الحكم حيث ألغي التعليم الديني وصار رجال العلم وأئمة المساجد الذين لديهم فقه في الدين يموتون دون أن يخلفوا وراءهم من يحل محلهم من الشباب.

ومن اللطيف الظريف هنا أننا وجدنا فضلاً دراسياً فيه ثمانية من التلاميذ الكبار وعشرون من الصغار ورأيانهم يعلمون الكبار النحو والبلاغة في هذا الجو البعيد من حيث الجغرافيا عن البلدان العربية ولكنها الرغبة في الإسلام.

ولم نعجب لكوننا رأينا درس الصغار في موضوع من موضوعات الفقه فذلك أمر طبيعي.

حفلة الشمس الطليقة:

وجدنا الإخوة الكرام قد أعدوا مائدة مستطيلة عليها الأطباق والأواني الحافلة بالمكسرات والمقبلات وفناجين الشاي الصيني العريق ومكبر للصوت،

وقد وضعوه في الشمس الصاحية في الفناء المكشوف من المسجد وذلك لكون
الغرف الموجودة في المسجد لاتتسع لكل هذه الجموع.



جلسة في الشمس في المسجد الكبير في دونغ تشيانغ علي التلال الطينية

جلسنا على هذه الموائد المنصوبة وجلس معنا كبار القوم بل بعض الكبار من
القوم لأنهم كانوا من الكثرة بحيث لم تتسع لهم تلك الموائد والكراسي التي
صفوها في فناء المسجد ولوضاعفوا أعدادها أضعافا فكانت الكثرة الكاثرة من
المسلمين في الشمس التي لم تكن حارة ولكنها ليست مقبولة في هذا الفصل
غير أنهم كانوا قد خرجوا لتوهم من فصل شتوي بارد جعلهم لا يكرهون الشمس
بعده كما نفعل نحن في بلادنا في شمس الربيع.

وقد ألقيت فيهم كلمة من مكبر الصوت ذكرت فيها ما ذكرته لغيرهم من
الإخوة الصينيين في زوايا البلاد التي لا يصل اليها المسلمون القادمون من
الخارج، قلت لهم: إننا جئنا من أجل السلام عليكم لأننا نشعر أنكم إخواننا
الذين إذا لم يستطيعوا الوصول إلينا وزيارتنا فإنا يجب علينا أن
نزورهم، وهذه الزيارة هي لله وفي الله فليس الغرض منها الهدف السياسي

ولا المنفعة إلا اقتصادية ولاحتى اي مقصد من مقاصد النفوذ لأننا من رابطة العالم الإسلامي التي هي مؤسسة شعبية عالمية وليست دائرة حكومية سعودية وإن كانت حكومة المملكة العربية السعودية تساعدنا مالياً كما تساعد باقي المنظمات والمؤسسات الإسلامية في العالم.

ثم قلت لهم: إننا سننقل كل ماشاهدناه من عواطفكم تجاه إخوانكم وإخلاصكم في المحافظة على دينكم إلى إخوانكم المسلمين في سائر أنحاء العالم والشيء الوحيد الذي يجب أن نذكركم به هنا هو تربية أولادكم تربية إسلامية صالحة حتى ينشأوا على مثل مائشأتكم عليه أو أفضل من ذلك.

ثم قمنا إلى تفقد داخل المسجد فألفينا أرضه قد كسيت بالخشب فوقه بسط صوفية سميقة.



في بلدة التلال الطينية أمام أحد أبواب المساجد

وكان يرافقنا في الجولة جميع رجال القرية وأعيانها ويمنع رجال الأمن جمهور الناس من الاقتراب أو الألتصاق بأعضاء الوفد حذراً من المضايقة بطلب المصافحة والسلام وعلى رأس الجميع إمام المسجد الجامع الأخ الشيخ (مالوتشيانغ).

أهي معجزة؟

تناولنا غداء معتاداً في دار الضيافة الا أنه أقل اصناًفاً من أنواع الطعام التي قدمت الينا في حواضر الصين وكان السائد فيه لحم الغنم ولاشك في أن هذا راجع إلى طبيعة الحياة في هذه التلال المنعزلة.

ثم وزعنا المساعدات التي قررناها على المسئولين عن المساجد بحضور رئيس حكومة الإقليم الأخ شعبان ورئيس فرع الجمعية الإسلامية في خوتشو ورئيس الجمعية الإسلامية هنا.

وهي نقود امريكية بالدولار وليست صكات، وذلك من أجل سهولة التصرف بها وإن كنا نعلم أن من تكون بيده من المسلمين فإنه لا يستطيع أن يصرفها الا في البنك الحكومي مع أن صرفها خارج البنك يزيد بحوالي الثلث عن صرفها بالبنك غير اننا قصدنا من تسليمها علنا نفي احتمال العمل خفية وهو الذي قد ينشأ عنه شك في مهمتنا بخاصة أننا في أول زيارة للاخوة المسلمين في هذه المناطق الداخلية.

وكنت أفكر أثناء الغداء وبعد ذلك في شيء آخر إنه حال هؤلاء الأخوة الذين يسكنون في عزلتين أو لاهما عزلة الإقليم كله بالنسبة إلى حواضر الصين والأماكن القريبة منه من مواطن الاحتكاك الخارجي والثانية عزلتهم في ظهور هذه التلال أو الجبال الطينية الواسعة ثم وهذا هو الأهم كيفية احتفاظهم بمؤسساتهم الإسلامية بل تنمية هذا المؤسسات كالمساجد التي دمرت أثناء

الثورة الثقافية في الصين فلم يقتصروا على إصلاحها بل بنوا مكانها مساجد جديدة عظيمة النفقة ثم لم يقتصروا على ذلك وإنما بنوا مساجد جديدة في أماكن لم تكن فيها مساجد من قبل.

وقد تم ذلك كله وهم يعيشون خلف ستار من العزلة التي شملت بلاد الصين كلها بحيث يصعب على الفرد منهم أو يستحيل أن يسافر إلى خارج البلاد لأن ذلك يحتاج إلى إذن من الحكومة التي لاتأذن به ويحتاج أيضاً إلى نقود أجنبية قابلة للتحويل وهو مالا يستطيع الفرد منهم أن يحصل عليه ولو كانت لهم الحرية في الدخول والخروج لقلنا إنهم قد اتصلوا بإخوان لهم من المسلمين في خارج الصين فثأثروا بهم أو استعانوا بامكاناتهم على مساعدتهم.

ومع ذلك نجدهم هنا وتحت ضغط الحكومة الشيوعية الشديد في السنوات الماضية قد صمدوا ويقوا متمسكين بدينهم على حين كان بعض مواطنيهم من كفار الصينيين قد تركوا أديانهم التقليدية و الذين لم يتركوا الاعتقاد بصحتها وهم قلة قد تركوا العمل لها ، وأهملوا حتى صيانة معابدها كالديانة البوذية.

وقلت في نفسي: أهي معجزة جديدة؟ وكان الجواب بلاارتياب: إنها معجزة إسلامية جديدة!

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولوكره الكافرون).

كنت أفكر في ذلك وكنت أظن أنني الوحيد الذي يفكر فيه وإذا بأخي الاستاذ (لقمان ماشان لي) الذي هو ترجمان الرحلة كلها وإن كانت وظيفته غير الترجمة يقرب مني وهو يخرج ورقة من جيبه ويقول بتأثر بالغ لقد نظمتها لقد نظمت قصيدة باللغة الصينية ويقول وهو يبسط ورقة عليها كتابة بالصينية أشبه ماتكون بالطلاسم لأنها بخط يده.

قلت له أوضح لي ماتقصد فقال وهو يغالب الدمع من فرط التأثر: إنني لن أقرأ عليك القصيدة لأنك لاتفهمها ولكنني سأترجم لك معناها.

ثم أخذ يترجم بطريقة كلامية غير شعرية ذلك ومنه قوله:

لولا أن هذا الدين الإسلامي دين الحق لما استطاع أن يصمد في رءوس هذه التلال، ولولا أنه مؤيد من عندالله لما وجدت في نفوس أهله هذه الحيوية في المحافظة عليه لقد أهملناهم حتى نحن الصينيين المسلمين الذين يقيمون في حواضر الصين ، ومع ذلك لم يفت هذا في عضدهم ولم يثنهم عن العمل لدينهم.

إنهم قاموا بنصر الإسلام في الوقت الذي ترك فيه غيرهم غيره من الأدبان وإنهم فعلوا ذلك مع قلة الانصار وبعد الديار.

فيالله العجب من هذا الدين، إنه دين الله الحق ولولا ذلك لكان اضمحل أمام التحديات والتعديات التي تكاد تهد الجبال.

مغادرة بلاد العجائب:

وكيف لاتوصف بذلك وعجائبها معنوية ومادية، إن تكوين أرضها وطبيعتها عجب من العجب و إن تمسك أهلها بإسلامهم مع قلة الإمكان وعدم الأعوان ومقاطعة الإخوان وفساد الزمان لهوأعجب من ذلك.

غادرنا بلاد العجائب هذه في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً والمراد بها عاصمتها ومركز إقليمها أو محافظتها كما يسمونها وهي بلدة (دون شانغ) فسلطنا طريقاً آخر غير الذي جئنا منه لأننا قاصدون منطقة أخرى غير التي قدمنا منها بل تكاد تكون معاكسة لها في الاتجاه وهي ستجعلنا نقضي وقتنا أطول ونقطع مسافة أبعد في ظهور هذه التلال وبين أحضانها في بعض الأحيان.

وقد سلكننا طريقا غير مزفلت ولكنه معبد بمعنى أنه مرصوص وليس مرصوفا فالأرض حتى في رؤوس هذه الجبال هي طينية ويكفي التمهيد للتعبيد ثم الرش ثم تمهد الطريق بعد ذلك غير أن تعبيد الطريق وتمهيده لم يمنع من انتشار الغبار منه عندما تقترب منه السيارات.

ومررنا بعدة قرى كلها طينية المنازل ولكنها ذات تربة طينية أيضاً وبعضها واقعة على جوانب مهاو عميقة تكاد تكون كالحيطان الواقفة وناهيك بحيطان طينية واقفة على مهاو عميقة انك لا بد أن تتصور حالها إذا ما نزل المطر واصبح الطين اليابس رطبا أو ذائبا على حد قول أحدهم في ركوب البحر:

لا أركب البحر أخشى عليّ منه المعاطب
طين أنا وهو ماء والطين في الماء ذائب

وتصورت شيئا آخر وهو ماذا لو كثر المطر حتى انزلت كتل ضخمة من هذه التلال الكبيرة من مواقعها كما تفعل بعض الكتل من جبال الحجارة إذا كانت قد خالطها طين وأبديت هذه الخشية لأحد الأخوة المرافقين فقال: إن ذلك قد يحدث بل هو حدث قبل مدة قصيرة عندما انزلت إحدى هذه التلال ومات من ذلك مئات من الناس ونشرت الصحف خبرها وسوف أبحث لك عن الجريدة التي نشرت ذلك واترجم لك ما نشرته.

وكنا نتجه جهة الجنوب الغربي على حين كنا نتجه عندما صعدنا للتلال جهة الشمال الشرقي ولاحظت أن هذا الجانب من التلال أقل خضرة طبيعية من الجانب الآخر وظننت أن ذلك بسبب تعرضها للرياح الشمالية الباردة وبخاصة أننا الآن في أول فصل الربيع هنا.

كما رأينا هنا ما رأيناه قرب مدينة لانجيو وفي مدينة تونغ شين من المنازل المنحوتة في التلال.

وكان الطريق ينحدر أحيانا ويصعد أحيانا أخرى في لحف إحدى التلال ثم يعلو منها ثم يتجاوز ذلك إلى قممها لأنه لا يزال علينا أن نقطع طريقا طويلة فيها.

والمفجع أن أقساماً من هذا الطريق المعبد غير المزفلت تمر بمهاوٍ عميقة خطيرة إلا أن الطين جاف ولا خوف من الانهيار وإنما الخوف من خلل يحدث في السيارة فتكون النتيجة التدهور والموت المحقق قبل الوصول إلى القرار.

وقد لفت نظري وجود أبراج كهربائية ضخمة صارت ترى في بعض الأحيان فأخبرني المرافقون أنها قادمة من محطة لتوليد الكهرباء أقيمت على النهر الأصفر تغذي هذه المناطق بالتيار الكهربائي الذي تحتاج إليه ونحن متجهون في النهاية إليها لأنها مشروع يستحق الزيارة كما قالوا.

وقد قابلنا في الطريق عدداً من الفلاحين الجبليين وإن كانت جبالهم من طين لازب فرأيتهم هنا كما رأيت الفلاحين والعمال في المدن نظيفي الثياب والأبدان إلا أن تقاسيم وجوههم تخالف التقاسيم الموجودة في وجوه الصينيين الأصلاء فهي طويلة في الغالب أو تميل إلى الاستطالة بخلاف وجوه الصينيين التي هي مستديرة أو تميل إلى الاستدارة وعيونهم واسعة بالنسبة إلى عيون الصينيين والوانهم تميل إلى الحمرة لا إلى الصفرة وقال بعض المرافقين: إن هذا راجع إلى أنهم يرجعون في أصولهم إلى قوم آخر ليسوا من الصينيين ولكنهم اختلطوا بالصينيين حتى أصبحوا منهم ويتكلمون لغتهم والدليل على ذلك أنهم منحدرين من قومية أخرى غير قومية (خان) التي منها الأغلبية الساحقة من الصينيين الكفار.

إلا أن الذي يلاحظ من الأشياء غير المحبوبة في مظاهرها على وجوه بعضهم هو النقص في التغذية وربما كان مرجع ذلك إلى التغذية بمعنى النقص في بعض الأنواع اللازمة لصحة الجسم كالخضراوات أو الفواكه لكون بلادهم

جبلية وعرة لايتوافر فيها مايتوافر لأهل السهول المعتدلة أو لسكان المدن وإن كان ذلك على قلة وفي نطاق محدود .

ولايكاد المرء يلمح بينهم نحيلاً ما عدا بعض الشبان الذين تتسم أعمارهم بالرشاقة أو قلة اللحم في كثير من البلدان .

هذا وقد مضت ساعة على سير الموكب الذي هو مؤلف من أربع عشرة سيارة والمنظر هو لم يتغير الا أن ذلك لم يزدنا الا عجباً منه واستغراباً له .

ولولا وجود الغبار المتطاير لكانت المتعة في السير فيه لا يكدرها مكدر وقد كنت أرثي لبعض الفلاحين الذين نراهم على الطريق وهم على وسيلة الركوب الوحيدة هنا وهي الحمير - جمع حمار - والسيارات الاربع عشرة المتتابعة تثير الغبار وقد تزعج الحمار فيضطر صاحبه إن استطاع السيطرة عليه أن يقف ويحیی الموكب الطويل دون أن يبدي أي احتجاج .

غير أن الذي يخفف من ذلك بالنسبة إلى الفلاحين الذين يسلكون الطريق قلة السيارات التي تعبره في المعتاد وندرة المناسبات التي يرى فيها مثل هذا الموكب الطويل وعلى سبيل المثال لم تقابلنا من السيارات إلا ثلاث حافلات وسيارتان من سيارات الشحن وذلك طيلة ساعة واحدة .

وبالنسبة للمناظر الطبيعية غير التلال الواقفة والوديان السحيقة فيها فليس هناك عدا مزارع القمح الضيقة إلا أعشاب خضر كأنما استيقظت على حلول الربيع فصارت تطل من الأرض على استحياء ولم أر فيه اشجاراً كبيرة إلا في فناء مبنى حديث يكاد يكون وحيداً فيما رأيناه هنا من الطريق فقد رأيت منه اشجاراً من أشجار الظل المغروسة واخبرونا أن هذا المبنى هو لمصلحة الطرق مع أن الطريق الذي سلكناه ولا تزال نسلكه الآن ليس فيه شيء مزفلت .

على ضفاف البحيرة الاصطناعية

بعد أن مضت على سيرنا ساعة وثلث وقد أخذ الطريق في الانحدار ووصلنا إلى قسم ازفليتي جيد من الطريق نفضت سياراتنا عنها الغبار وصرنا نرى في اسفل هذه التلال الطينية حجارة سوداء ممدلنا على أننا نتجه إلى منطقة جبلية صخرية.



تذكارية خلال التوديع مع شعبان

ثم بدت بحيرة اصطناعية قد تكونت من مياه النهر الأصفر التي حجزوها خلف سد في وادٍ صخري عميق فكان لمنظرها الأنيق في أعيننا فرحة كبرى مثل ما لمنظر الماء الرقراق في قلب الأعرابي في الصحراء.

وقد ملأت البحيرة مجرى الوادي وتفرقت في شعاب طبيعية منه وصرنا نرى أرضاً مزروعة حتى فوق الضفاف العالية للبحيرة مما يدل على أنهم يرفعون الماء إليها بالرافعات.

وقال المرافقون: إن عمق الماء في هذه البحيرة يبلغ مائة متر. وقال آخرون: إن السكان الذين يسكنون على ضفافها هم من الأخوة المسلمين وعرفت الخبر اليقين عندما رأيتهم يضعون القلائس على رؤوسهم وهي من شعار المسلمين الصينيين.

وداع على البحيرة:

قلت إن الموكب الذي يرافقنا كان مؤلفا من اربع عشرة سيارة وذلك بأن حاكم الإقليم أو رئيس حكومة الإقليم كما يعبرون عنه الأخ شعبان مايونغ خاي وغيره من كبار الرسميين وطائفة معه من أعيان أهل (خوتشو) كانوا يرافقوننا.



صورة تذكارية على بحيرة السد مع المودعين قبل ركوب العبارة

وقد جلسنا جلسة طويلة على ضفاف هذه البحيرة العميقة في تذاكر وأحاديث قبل التوديع لأنهم سوف يودعوننا عند ضفاف البحيرة حيث من المقرر أن ننتقل مع سيارات الموكب المعتادة التي هي خمس على عبارة- بتشديد

الباء- فنقطع هذه البحيرة لنصل إلى الضفة المقابلة ومن هناك ننطلق إلى محطة توليد الكهرباء ونستريح في دار ضيافة حكومية ثم نواصل السير عائدين إلى (الانجو).



العبارة وسيارات الركوب تصعد في بحيرة السد

وبعد تبادل الصور التذكارية ودعنا أهل خوتشو وعلى رأسهم حاكم الإقليم الأخ شعبان بحرارة ثم عادوا بسيارات لهم سبع وركب معنافي العبارة سبع لنواصل السير بعد ذلك.

في محافظة يونغ جونغ شين:

ركبنا العبارة مع سياراتنا وسيارات أخرى وقوم من الراجلين فأخذت تسير بهدوء على صفحة مياه البحيرة التي هي مياه النهر الأصفر قد حجزها السد وأخبرونا أن النهر الأصفر يمر بهذا المكان قادما من مقاطعة تشا نغهاي وهي

مقاطعة شمالية بعيدة إذ يأتي النهر منها إلى مقاطعة كانسو التي عاصمتها مدينة (لانجو) التي نحن ذاهبون إليها الآن وتشبه كتابة اسم هذه الولاية (تشانغهاي) في العربية باسم المدينة الشهيرة (تشنغهاي) التي كانت أكبر المدن الصينية وكان يقال في وقت من الأوقات: إنها ربما كانت أكبر مدينة في العالم مع أن النطق في الاسمين مختلف وإن تشابها في الرسم بالعربية.

عندما نزلنا من العبارة التي هي السفينة المفتوحة تحمل السيارات والدواب والناس تنقلهم من إحدى ضفتي البحيرة إلى الضفة الأخرى قالوا لنا: إننا الآن دخلنا محافظة أخرى اسمها. (يونغ جونغ تشين) ولذلك وجدنا في الاستقبال مدير الشؤون الدينية فيها الأخ (شعبان ماه) وعددًا من وجهاء المحافظة وأئمة المساجد فيها مع أننا لم ننزل في مدينة وإنما في مكان مستصلح للزراعة لأنه مرتفع جداً عن ضفة البحيرة التي هي ليست واسعة وإنما هي عميقة وقد لاحظنا أن ضفتها الغربية التي وصلناها الآن ذات ضفة صخرية في الأسفل طينية في الأعلى الذي فوق مستوى الماء.

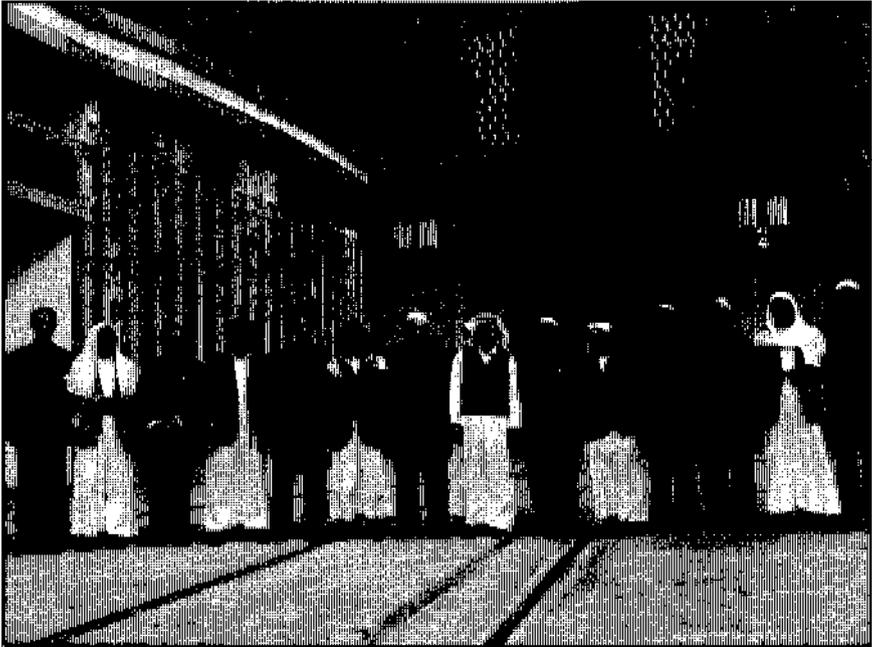
صبحنا بعض الأخوة والموظفين من محافظة «يونغ جونغ تشين» هذه فانطلق الطريق المزفلت صاعداً في تلال طينية أقل ارتفاعاً من التي تركناها اليوم وبعضها ذات ظهور مستوية ولذلك وجدت عليها مزارع غير واسعة.

بلدة ليوتشاتشا:

انحدر الطريق الازفليتي إلى وادٍ خصب ذي زراعة مزدهرة في وسطها بلدة اسمها (ليو تشاتشا) أخبرونا أنها حديثة وجدت بعد بناء السد ومع ذلك رأينا طائفة من بيوتها الحديثة مبنية من الطين.

فوقف الموكب عند دار الضيافة الحكومية وهي تشبه الفندق الكبير الجيد الذي مستواه مستوى الدرجة الثانية الجيدة أو الأولى الرديئة فاسترحنا في قاعة واسعة فيها ولم ندخل غرفها لأننا في عجلة من أمرنا وغسلنا الغبار الذي علق بنا أثناء سير الموكب في الجبال الطينية وأدينا صلاتي الظهر والعصر جمعاً فيما كانوا يعدون الشاي الصيني المنعش الذي وجدنا له لذة بعد الطريق غير المريحة رغم كونه ليس له طعم محبب فهولا سكر فيه ولونه أغبر يميل إلى الخضرة أو الصفرة ولكنه كان حاراً منعشاً.

وعلمنا أن دار الضيافة الحكومية هذه أنشئت من أجل العاملين في محطة توليد الكهرباء أول الأمر ثم أصبحت لرجال الحكومة الذين يأتون في مهمات رسمية ولضيوف الحكومة أيضاً.



صورة تذكارية أمام دار الضيافة في ليوتشاتشا

واخبرونا أن محطة التوليد هي كانت المقصود الأعظم من بناء هذا السد على
النهر الأصفر ولكنهم استفادوا أيضاً تربية الأسماك وأعمال الري و الزراعة في
منطقة تحتاج إلى ذلك.

في محطة التوليد:

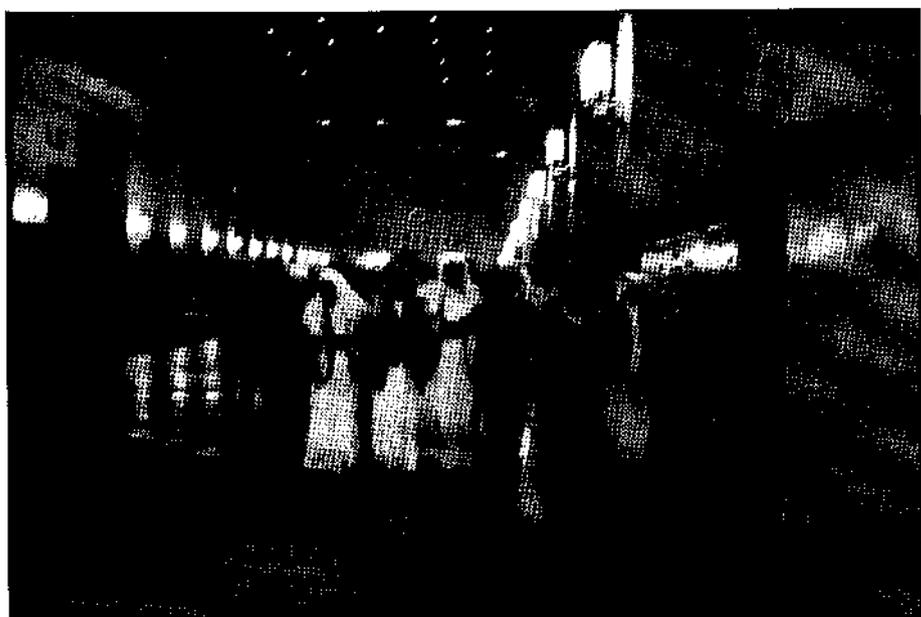
بعد الاستراحة توجه الموكب يتبع دليلة صينية شهيرة قد أكل الدهر عليها
ولم يشرب فهي إذن نصّف ولكن أطيّب نصفها الذي ذهب على حد قول
الشاعر:

وإن أتوك وقالوا: إنها نصّف فان أطيّب نصفها الذي ذهباً

ولكنها كانت والحق يقال تأمر الموظفين بحزم وتتقدم الزوار بعزم وتشرح لهم
ما يشرحه الخبير الحاد الفهم. ومظهرها مظهر الصينية الأصيلة التي تتميز بضيق
العينين و بروز الفكين والوجنتين وقصر الخطوتين عند المشي.

وكان الانطلاق خلف هذه الدليلة التي كانت تسوق السيارة بنفسها في
الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر.

ودخلنا مع نفقين في واد ضيق بين جبلين وعليه اقيمت محطة التوليد
فاوقفنا السيارات ونزلنا خلف الدليلة مع درج متعدد إلى أسفل من مستوى
سطح السد وهويتلوى ويستدير كما يكون عليه الحال في درج المنارة الضيقة
حتى وصلنا إلى غرفة للمراقبة الآلية وفيها أجهزة للتلفزة توضح ما يجري في
غرفة التوليد من دون أن يضطر الموظفون المراقبون إلى الذهاب إليها.



داخل محطة توليد الكهرباء من السد على النهر الأصفر والمديرة تتقدم الجميع

إلا أن صوت المحركات التي تدير المولدات من هذا القرب الشديد أسفل
السطح يكاد يصم الآذان.

وبعد ذلك صعدنا إلى أعلى حيث السيارات والدليلة تتحدث عن هذه المحطة
فكان مما قالته: إنها بنيت في عام ١٩٥٨م، وأنها وإن كان السير في بنائها
توقف لمدة ثلاث سنوات بسبب قصور النفقة المخصصة لها إلى أنها أكملت بعد
ذلك .

وقالت: إن فيها الآن خمسة (توربينات) تولد مليونين ومائتين وخمسة
وعشرين ألف كيلووات وأنها تم ثلاث مقاطعات بالكهرباء هي (كانسو)
و(تشانغهاي) و(تشان تشين).

وذكرت أن جميع الفنيين والمهندسين والعاملين هم في الوقت الحاضر من
الصينيين وأنه ليس بينهم عالم اجنبي واحد وقالت: إنه حتى المحركات صنعت
في مصنع من المصانع الصينية.

وقالت: إن النفقة التي انفقت عليها بلغت ستمائة مليون ين ويشمل هذا المبلغ كل النفقات حتى التي صرفت على المنشآت التي تتبع محطة التوليد وقالت إنها ربحت حتى الآن ما يعادل التكاليف ست مرات ونصفاً.

وذكرت أن بحيرة السد طولها ٦٥ كيلو متر ومساحتها ١٣٠ كيلومتر مربع لأنها ضيقة جداً في بعض المواقع وذكرت أن عمقها الآن ما بين ٧٠ إلى ٨٠ متراً.

وقالت الدليلة والسيارات تصعد في طريق ضيق في عرض الجبل إننا ذاهبون الآن لرؤية خزان الماء الذي يدير (التوربينات) حيث نشرف عليه من مكان أعلى منه وعلى الوادي الذي بعده.

وكان المطر قد بدأ بالتساقط فلجأنا إلى أماكن في جسر معترض في الوادي يفصل بين خزان الماء الضخم الذي يمد التوربينات بالمياه وبين بقية مياه النهر وعاقنا سحب كثيف عن التصوير لبعض الوقت.



على محطة توليد الكهرباء من شعبة في مياه النهر الأصفر

وقد تذكرت الآن الآية الكريمة من سورة الكهف التي جاءت في سياق الكلام على سد من النحاس ولكنها تصدق هنا على هذا السد من الاسمنت المسلح الضخم الذي قام بين صدفى الجبل وهما جانباها. وتسبب في حجز المياه التي تدير المولدات الضخمة فتولد الكهرباء حيث تم بها ثلاثا من مقاطعات الصين الواسعة فقلت سبحان الذي علم الإنسان ما لم يعلم.

العودة إلى لانجو .

بعد وقفة ممتعة فوق الجسر العالي الممتد بين جانبي الجبل وفيه يجري النهر في مجرى ضيق طبيعي عدنا إلى دارالضيافة حيث ودعنا الموظفون فيها وعلى رأسهم الدليلة.

وانطلق الموكب قاصداً مدينة (لانجو) التي تبعد عن هذا المكان بسبعين كيلو متراً. والنهر الأصفر الذي نشاهده هنا هو ذاهب إليها أيضاً مثلنا غير أن طريقه غير طريقنا وقد أقاموا في طريقه سدوداً حجزت مياهه وقيوداً قيدت بعض اندفاعه ولكنها لم تشل حركته و سيواصل مسيره إلى مسافات شاسعة من أرض الصين الشمالية المحتاجة إليه واستمر مطر الربيع المحبب في التساقط ولكن دون كثافة.

ومررنا في الطريق بقرى ريفية زراعية أكثر مافي أفنيتها وبيوتها الطينية الأكوام المكومة من التبن وبعضه قد رفعوه فوق سطوح البيوت ربما من أجل الاتفسده رطوبة الأرض وبعضه قد نشره على الأرض ليحفظ الا أن المطر الذي ينزل الآن قد يذهب جفافه. والقمح النضير الفتى يكاد يشمل الأماكن المستوية من الأرض وإن كانت ضيقة حتى المدرجات التي تكون في عرض التلال يهدون أجزاء منها ويزرعونها بالقمح.

وقابلتنا في الطريق رعية من الأغنام البيض وقروى يسير على قدمه وهو يحمل فوق ظهره كومة من الحطب والمطر ينزل وهو يجاهد أن يصعد بحمله بعض التلال.

ومن أطرف المناظر هنا مناظر البيوت الطينية التي بنيت بالفعل من طين الأرض تحتها فاصح الناظر اليها لايفرق بينها وبين الأرض على البعد الا ماكان مزيناً بالجص الأبيض.

وبخاصة لكون بعضها يقع في أماكن متدرجة في التلال الطينية فيخيل إليك أنها جزء من تلك التلال.

ووصلنا إلى مدينة(الانجو) عاصمة كانسو في الساعة السادسة والنصف من قبل الغروب وقد اكتظت شوارعها براكبي الدراجات وذلك أن الناس في هذه الساعة يكونون قد خرجوا من أعمالهم ولم يستقروا في بيوتهم بعد.

يوم الأحد: ٥ شعبان ١٤٠٤هـ، ٦ مايو ١٩٨٤م.

كان برنامج اليوم يتضمن في الصباح زيارة مصنعين من المصانع التي تحفل بها المدينة ولكني لم أر الذهاب اليها إشاراً للكتابة على زيارة أماكن ليس فيها جديد ولاطريف بالنسبة اليّ.

وقد ذهب بقية الرفاق من الوفد وبقيت اكتب فيما تقرأه الآن من هذا الكتاب وجاءت خادمة الغرف في الفندق تصلح من شأن الغرفة كما هي عاداتها اليومية وهي تتحين غياب النزلاء ولكنها وجدتنني فلم يمنعها ذلك من أداء عملها لكون الغرفة واسعة وفي مقدمتها قاعة منفردة للجلوس فأردت أن أمنحها شيئاً من الحلوان(البقشيش) لاني كنت وحيداً فهذا ينفعها لفقرها ولتأخذ ذكرى طيبة عن زيارة وفدنا الإسلامي لهذه البلاد وبخاصة أنها كانت وحدها ولكنها رفضت

بكل عزم وتصميم ولم استطع إقناعها لانني لا استطيع إسماعها مايجعلها تقتنع بذلك من أجل حاجز اللغة.

وامتناع الخدم والموظفين في المرافق العامة في الصين أمر جريته وخبرته فهم يفعلون ذلك رغم حاجتهم الشديدة بل فقرهم المدقع في بعض الاحيان خوفا من عقاب السلطات التي لا تتساهل في ذلك.

وقد عرفنا من حالهم بالتجربة أنه إذا وجد من يشرح لهم المراد من إعطاء الحلوان، ويجعلهم يطمئنون إلى أن السلطات الحكومية لن تطلع على ذلك فانهم يتقبلون العطاء بسرور.

في سوق شعبي:



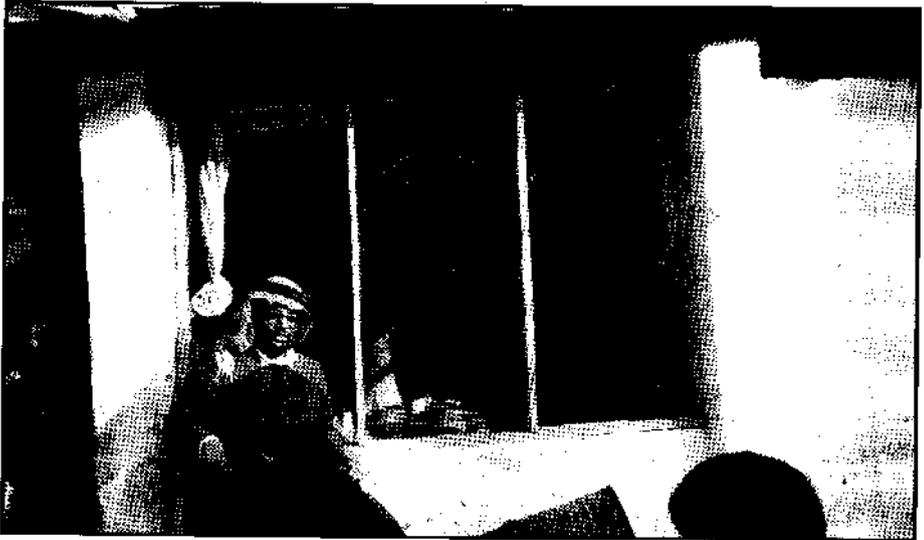
سوق شعبي بجوار الفندق المسمى بفندق الصداقة في لانجيو

كنت عرفت بوجود سوق شعبية غير بعيدة من فندقنا فأبدت رغبة في زيارتها غير أن فقرات البرنامج المزدحم لم تسمح بذلك ولم أجد المرافقين مرتاحين لذلك لأنه يحتاج إلى استئذان من الجهات المسؤولة.

وعندما وجدت فسحة من الوقت في هذا الضحى وجدتني أسارع بأخذ المصورة وأذهب مع بعض الإخوة دون استئذان من أحد لان هذا السوق هي شعبية مزدحمة بالناس وليست مكانا خاصا.

وكان أول مالفت نظري في السوق وجود جملة مكتوبة باللغة العربية وبخط لاباس به (مطعم الإسلام) والكتابة على مطاعم المسلمين بالعربية هي رمزية كما قدمت أكثر منها حقيقية لأن من يعرف معناها نادر ولكنها تدل على أن هذا المطعم هو من مطاعم المسلمين.

ثم رأيت مطعما للمسلمين آخر بل رأيت صفاً من مطاعم المسلمين في جهة من السوق يقابلها صف من مطاعم كفار الصين.



في سوق لانجو الشعبي مطعم إسلامي كتبوا عليه (بسم الله الرحمن الرحيم)

وأكثر الذين في هذا السوق يظهر عليهم رقة الحال سواء منهم البائعون والمشترون ذلك أن أكثرهم يعمل هنا بصفة شخصية بمعنى أنه ليس موظفًا للدولة وليس الحانوت أو البضاعة التي لديه مملوكة للدولة وبالتالي فهو ليس موظفًا لديها.

ولذلك فإن الحوانيت هنا كلها صغيرة وأكثرها إن لم تكن كلها من الخشب على هيئة صناديق أو محاريب صغيرة وليست حوانيت مبنية من المسلح أو الآجر أو الطين فضلاً عن الاسمنت فطبيعة هذا السوق هكذا.

ولذلك لا بد من أن يرى المرء رخصة ممارسة التجارة الشخصية وهي قليلة نزره هنا تكون معلقة على الحانوت أو (الصدقة) كما اخبرنا بها الأخوة وكما رأيتها حتى الذين معهم قليل من الفاكهة أو الخضروات يعرضونها على الأرض لا بد من أن يضعوا عليها ورقة الرخصة الحكومية التي تخول لهم ذلك.

ومن أطف ما رأيت منظر بعض العمال الذين يجلس الشخص منهم في هذا السوق ومعه العدة التي هي أدوات عمله وبجانبيها ورقة الرخصة الحكومية التي تكون مختومة بالخاتم الرسمي وغالبا ماتكون مغطاة بزجاج أولدائن أو على هيئة الشهادة المدرسية.

وهؤلاء العمال يقولون عنهم إنهم شخصيون بمعنى أنهم يعملون لأنفسهم ويساعدون في المهن الصغيرة وقد رأيت منهم من يصلح الاقفال وآخر يرمم الأحذية وثالث يعمل في إصلاح الأشياء الجلدية بمعنى رفوها أو رقعها وبعضهم معه آلة الخياطة يخيط بها ما يحتاج إلى اصلاح من الألبسة أو نحوها فتجد شخصا يخلع قميصه ليخيط له الخياط الشخصي هذا ما يريد به بأجر ضئيل ثم يلبس قميصه ويذهب.

وهناك مانسميه (بسطات) وهو البضاعة المبسوطة على الأرض أو فوق صندوق خشبي وهي أكثر ما في هذا الصندوق وتكون تحت مظلة تقيها الشمس وربما تقيها المطر لذلك وفي هذه (البسطات) التي لا بد من التنويه - مرة أخرى - بأنها شخصية مملوكة لأربابها وليست مملوكة للحكومة لا بد من رخصة ممارسة هذه التجارة الصغيرة ولا بد أيضاً من أن يكون صاحبها خاضعاً لنظام الضرائب يسلم ما تطلبه الحكومة منه من ضرائب لقاء مكسبه السهل إن كان يكسب شيئاً ذابال.

وتتضمن مقادير ضئيلة من التوابل مثل الفلفل الأحمر أو الأخضر وأما الأسود فإنه نادر لأنه من نبات البلدان الاستوائية الحارة ويحتاج استيراده إلى نقود أجنبية صعبة و الحلبة النابتة ويصل غير جيد، وبعضهم يبيع مكسرات قليلة بسيطة مثل الفول السوداني ورأيت احدهم لديه جرة كبيرة من الفخار رثة الصنع فيها خضرات مملحة (طرشي).



السوق الشعبي في لانجو

كما أن هناك خضرات طازجة مثل الكوسة وبيبعون الكيلو بتسعين سنتيماً أي مايساوي حوالي ريال وثلث من ريالنا السعودية وهذا مبلغ كبير بالنسبة إلى دخولهم المحدودة.

وهذا مثال على الأسعار هنا بعضها مكتوب على المعروضات وبعضها لأرى كتابته ولكن المترجم ذكره لنا. منها ثمار الثوم من دون ورق أو فصوص الكيلو بثمانين سنتيماً وتفاح متوسط الجودة بالنسبة إلى تفاح لبنان مثلاً يباع الكيلو الواحد منه بواحد واربعين سنتيماً والجزر بعشرين سنتيماً الكيلو.

وعلى ذكر التفاح فقد اشترت كيلوين منه فتجمع الناس من الفضوليين عندي يتفرون برؤية هذا الغريب الذي يخالفهم في أشياء كثيرة أهمها تقاسيم الوجه فضلاً عن اللغة و الجهل المطبق بأمور سوقهم وعجب بعضهم عندما اشترت كيلوين اثنين منه لأنني كنت أريد أن أتخف اصحابي به، وقد كادت تحدث أزمة عند الشراء لانني لم اجد عند البائع كيساً من الورق أو القماش ولاحتى بالنقود وكنت قد اشترت سروالاصغيرا من السوق فعقدته من طرفيه ووضعت التفاح فيه بين عجب المتجمهرين واستغرابهم لأن الواحد منهم لايشترى كيلوين من التفاح دفعة واحدة في العادة ولعدم وجود وعاء له معنا.

الغرائب والعجائب:

لعل من أغرب الأشياء التي رأيتها في هذا السوق (حيات) من حيات الماء تباع في إناء مملوء بالماء ولأدري لم يريدونها وربما كان مشتروها يريدونها للأكل فالصينييون مشهورون بأكل مالا يأكله غيرهم من الشعوب.



الديدان التي تباع في السوق الشعبي والاستاذ ابراهيم الخزيم يحد النظر فيها

وهناك حشرات يبييعونها تعجب أولاً من كيفية الحصول عليها وجمعها ثم عرضها هنا ثم تعجب من بيعها وهي مثل الذر الذي هو صغار النمل ومثل البعوض أو أنواع صغيرة من الحشرات التي تشبهه ذكروا أنها تشتري هنا لإطعام الاسماك التي تربي في البيوت تربية ولا أدري أهى اسماك الزينة أم اسماك للأكل.

وليست هذه الحشرات قليلة بل رأيت صغار النساء الجالسات ليس لديهن بضاعة الا هذه الحشرات وهناك الزهور التي تباع مع أصصها اي الجرار الفخارية التي تكون معروضة فيها وبعضها منقوش مزين أعجبتني إحداها فسألت عن ثمنها مع الجرة فقالوا: إنه ينان اثنان ويلاحظ هنا أن الماكسة التي هي الماكسة عندنا (الفصال) عند العامة المصريين غير موجودة هنا. وهناك أشياء بمثابة التحف اشترت منها ومن ذلك فناجين صغيرة جداً على هيئة فناجين القهوة عندنا الا أنها صغيرة الحجم.



في سوق لانجو الشعبي مطعم إسلامي كتب عليه (الحمد لله رب العالمين)
وقف بجانبه الاستاذ ابراهيم الخزيم

وتكررت رؤية المطاعم الإسلامية التي أكثرها صغير في هذا السوق الشعبي الذي هو يمتد إلى مسافة طويلة. وأكثر هذه المطاعم عليه كلمة بالعربية كما قدمت، ورأيت واحداً صغيراً منها صاحبتة امرأة ليس عليه كلمة بالعربية وإنما على صاحبتة طاقية بيضاء وهذا في ذاته علامة مميزة بل فارقة على أن صاحبة المطعم مسلمة وأن الطعام الذي يقدم فيه حلال للمسلمين لأن وضع الطواقي على الرؤوس هو خاص بالمسلمين.

وربما كان سبب عدم الكتابة عليه هو صغره لأنني رأيت مطعماً آخر أكبر منه مكتوباً عليه بالعربية (الحمد لله رب العالمين).

وتتجلى في هذا السوق أشياء عديدة أولها: بساطة الشعب الصيني الفقير على عراقته وثانيها: عدم محاولة الغش والزيادة في الثمن من البائعين وربما

كان ذلك بسبب رقابة صارمة من الحكومة، وثالثها: رقة الحال عند هذه الجموع التي اكتظت بها السوق سواء منهم البائعون أو المبتاعون مما قد يدل على أن الشيوعية قللت الدخل وافقرت حتى الفقراء وإن تكن رفعت المدقعين وهم الجوعى من الفقراء إلى رتبة الفقراء الشعبانيين.



عضوا الوفد محمد شاه حبيب الله و ابراهيم الخزيم ينظران إلى عمل خياط شخصي في السوق الشعبي في لانجو

جلسة مباحثات:

اوشكت زيارتنا لمقاطعة كانسو على نهايتها ولذلك عقدت بعد عصر هذا اليوم جلسة مباحثات ذات طابع رسمي بين الجانب الصيني والوفد.

وقد اعد الجانب الصيني للجلسة إعداداً قوياً تمثل في حضور المسئولين عن الجمعية الإسلامية في المقاطعة وعدد من المسئولين في الحكومة والادارة كما حضرها عدد من رجال الدولة وضباط الجيش من المسلمين حتى ولو كانوا

متقاعدين عن العمل الرسمي لأنهم يكون لهم حينئذٍ عمل مهم في الجمعية الإسلامية أو ما يشابهها من الهيئات الحكومية كما حشدوا عدداً من رجال التلفزة ومصورى الصحافة ومحررى الأخبار بشكل أكثر من المعتاد حتى عندما عقدت المباحثات بين الوفد والجمعية الإسلامية المركزية في بكين.



وفد الرابطة مع رئيس الجمعية الإسلامية

ومن الذين حضروا الجلسة:

- الأستاذ / موسى ماوو شانغ مدير الإدارة الدينية لمقاطعة كانسو.
- الشيخ / نصر الله ماجونغ يونغ رئيس الجمعية الإسلامية لمقاطعة كانسو
- الشيخ / سعيد ماروين نائب رئيس الجمعية الإسلامية للمقاطعة.
- الشيخ / ابراهيم ماده لين نائب رئيس الجمعية الإسلامية للمقاطعة.
- الشيخ / محمد خالد مافوشنغ نائب سكرتير الجمعية الإسلامية للمقاطعة.

الشيخ/ محمد ادريس مادين جنغ رئيس الجمعية الإسلامية لمدينة لانجو.

الشيخ/ محمد يونس يانغ شن نائب رئيس الجمعية الإسلامية لمدينة لانجو.

الاستاذ/ سليمان مامو مساعد مدير الإدارة الدينية للمقاطعة.

وقد تحدث الاستاذ موسى ماووشانغ عن اغتباط المسلمين في كل من لانجو ولن تشا ودنغ شيانغ لزيارة وفد الرابطة وتأثر المسلمين من احاديث رئيس الوفد في التعاون والعمل لخدمة الوطن وفي ختام حديثه عبر عن شكره وشكر المسؤولين المسلمين في المنطقة لاهتمام الرابطة بهم والتمس أن يبدي وفد الرابطة ملاحظاته وانطباعاته عن احوال المسلمين التي شاهدها عن قرب في المساجد التي زارها الوفد.

ثم تكلم رئيس الجمعية الإسلامية الشيخ نصر الله ماجونغ يونغ عن سرور المسلمين لزيارة وفد الرابطة اليهم والتمس أن تتكرر مثل هذه الزيارات اليهم لأنها تفيد المسلمين إفادة كبيرة كما استفاد المسلمون من أحاديث رئيس الوفد واهتمامه بالاحوال الإسلامية.

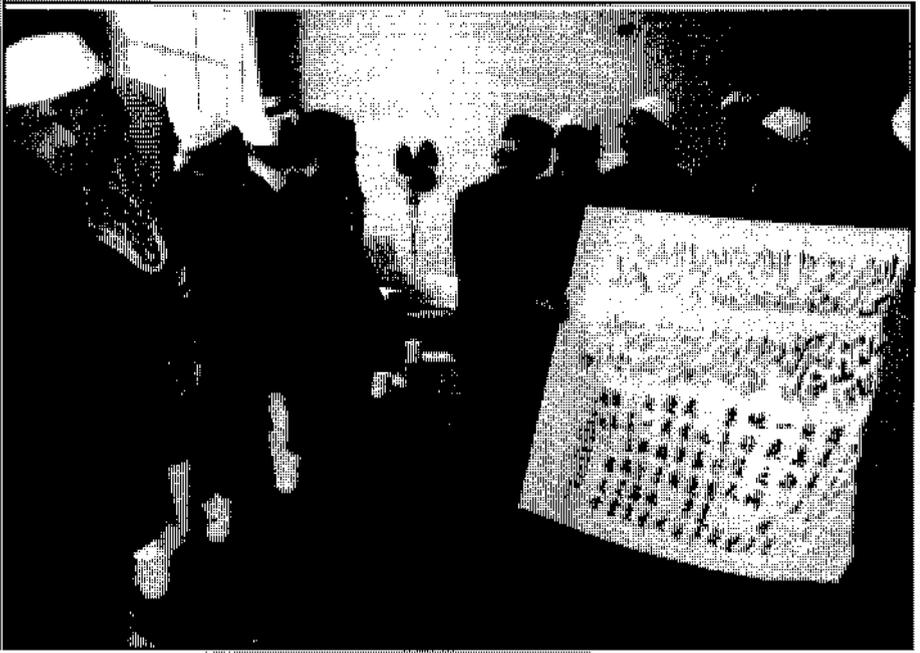
وفي الختام التمس المذرة لقصور ضيافتهم نحو الوفد.

فرددت عليه بكلمة قلت فيها بعد الشكر على الحفاوة البالغة التي قولنا بها هنا من الإخوة المسلمين ومن المسؤولين في الحكومة ومن الأصدقاء الصينيين و من أفراد الشعب: إن هذه الزيارة تركت في انفسنا انطباعات لاثمحي وبخاصة الاستقبال الحار الذي استقبلنا به أينما حللنا من المقاطعة فكان بعض أبناء الشعب يندفعون للسلام على أعضاء الوفد بصورة مؤثرة ورأيانهم يرحبون بنا بطريقة عفوية غير متكلفة بل كان بعضهم ينتظرون الوقت الطويل حتى يجدوا فرصة لرؤيتنا والسلام علينا وإننا إذ نشكر لهم ولجميع المواطنين الذين استقبلونا هنا بالترحيب فإنا نعدكم بأننا سوف نبلغ إخوتنا المسلمين في

العالم الإسلامي وفي بلاد الأقليات المسلمة ماشاهدناه وما انطبع في اذهاننا عن هذا الاستقبال الحافل وعن مظاهر التكريم النادرة ونرجو أن تكون ثمرة هذه الزيارة زيادة الاتصالات ومن ثم التعاون الممتد ما بين رابطة العالم الإسلامي والأخوة المسلمين في هذه البلاد وهذا بلاشك سيكون له أثر محبوب على العلاقات المفيدة ما بين الصين الشعبية والأقطار الإسلامية على المدى البعيد.

ثم قلت لهم: لاشك في أننا قد اثقلنا عليكم بزياراتنا التي لم تقتصر على عاصمة المقاطعة بل شملت مدنا أخرى وقرى وعواصم إقليمية داخل المقاطعة إننا لانشك في أنكم تتحملون ثقل هذه الزيارة في سبيل مايرجي أن تسفر عنه في المستقبل من التعاون الثقافي المثمر. ثم إن اطلاعنا على احوال الأخوة المسلمين في هذه البلاد ونقل الصورة الصحيحة عن حالتهم إلى اخوانهم المسلمين هو في حد ذاته أمر مطلوب ومبرر قوى للزيارة بل للجولة في هذه المقاطعة التي كانت شهدت في العصور القديمة أفواجا من المسلمين و من العرب والفرس والاتراك كانوا يأتون إلى الصين جالبين حضارتهم وخبرتهم التجارية فيجدون عند الصينيين من أهل هذه المنطقة الاستقبال الكريم والترحيب الحار الذي يلقاه الأصدقاء من الأصدقاء حتى كان طريق الحرير القديم جديراً بأن يفرش بالحرير لأنه كان الطريق الذي سهل التبادل ما بين المسلمين في الأقطار العربية الإسلامية وبين أهل شمال الصين ووسطها على وجه العموم.

ثم قدموا هدايا لوفدنا منها لوحة كبيرة تمثل الإسراء بمناسبة قدوم الوفد يوم ٢٧ رجب وهدايا نافعة للصحة أو مقوية للجسم من تلك المعروفة في الصين وهي مؤلفة من أعشاب طبيعية أو حبوب نباتية مما ينبت في هذه المقاطعة (كانسو).



هدية الجمعية الإسلامية في كانسو عليها أول سورة الإسراء

وقد بادلتهم هداياهم باهداء مسجلات واشرطة عليها تلاوة القرآن الكريم وقر من تمر المدينة المنورة وساعات غير ثمينة كما قدمنا تبرعات للمساجد في المقاطعة وبخاصة المساجد في مدينة (الانجو) عاصمة المقاطعة وهي تبرعات من رابطة العالم الإسلامي.

مع المسؤولين الحكوميين:

وفي الساعة السادسة مساءً بتوقيت بكين جاء إلى الفندق الذي ينزل فيه الوفد لتوديع الوفد الذي ستنتهي زيارته صباح الغد لمقاطعة كانسو كل من:

١- معالي السيد شريف تيان ده شانغ نائب رئيس الحكومة لمقاطعة كانسو.

٢- حبيب مازولين نائب رئيس المجلس الاستشاري للمقاطعة.

٣- وانغ شانغ جيان مدير ادارة شئون القوميات للمقاطعة.

٤- اوجونغ شن مدير ادارة الشئون الدينية للمقاطعة.

٥- جانغ شانغ شن نائب محافظ مدينة لانجيو.

ويحضور الشخصيات الإسلامية من مدينة لانجيو الذين سبق لهم الاجتماع مع الوفد في الساعة الثالثة ظهراً كما ذكر سالفاً تم مقابلة المذكورين أعلاه مع رئيس وأعضاء وفد الرابطة وارتجل السيد شريف تيان ده شانغ كلمة شكر فيها الوفد على زيارته لهذه المقاطعة كما شرح أحوال مقاطعة كانسو.

وحدثونا عن أحوال المسلمين في المقاطعة كما يراها الرسميون الحكوميون من خلال الاحصاءات التي تجريها الحكومة وتعترف بها فذكر معالي السيد (شريف) أنه منذ عام ١٩٨١م، تم افتتاح ٢٥٢٠ مسجد و١٩٧ معبداً بوذا وكنيسة وهو يريد بذلك ما افتتح ابتداءً وما أعيد إلى أهله بعد ان كانت الدولة قد صادرتة.



في الجلسة الوداعية مع رئيس جمعية لانجيو

وعندما سألته عن السبب في كثرة المساجد التي افتتحت وقلّة المعابد البوذية مع كون المسلمين قلّة عددية بالنسبة إلى البوذيين أجاب أن السبب في ذلك قلّة المعتقدين بالديانة البوذية يريد أن المتمسكين بها صاروا أقلية بعد أن كانوا أكثرية في السابق.

وقال إنه رغم كون المسلمين أقلية عددية في المقاطعة في حدود ١٠٪ فإن الدين الإسلامي يعتبر الدين الأول فيها لأن اتباع الديانات الأخرى قد تركوها وأصبحوا بلادين.

ولذلك نحن الآن نفكر في افتتاح معهد إسلامي في المقاطعة لأهمية الدين الإسلامي هنا. ومع أن ما ذكره من كون نسبة المسلمين إلى سكان المقاطعة هي ١٠٪ يقل قليلاً عما قدره المسلمون أنفسهم فإنه يدل على عدد كبير حينما اعترف به مسئول حكومي رسمي.

ثم شرح سياسة الحكومة نحو الاقليات العرقية ومنها المسلمون قائلاً:

إن مقاطعة كانسو بها كثير من القوميات يبلغ عددها ٤١ قومية وأكثرها عدداً هي: الخنان والخوي ودونغ شيانغ والقازاق بوآن وسالار ومغول والتبت ويبلغ عدد سكان المقاطعة أكثر من ١٩ مليون نسمة منهم مليون ومائتا ألف نسمة من المسلمين الذين ينتمون عموماً إلى القوميات الست التالية:

خوى ٩٥٠ ألف نسمة.

دونغ شيانغ ٢٣٠ ألف نسمة.

بوآن ٨٠٠٠ نسمة.

سالار ٥٠٠٠ نسمة.

القازاق ٢٠٠٠ نسمة.

وتطبق الحكومة الصينية سياسة خاصة نحو هذه القوميات تتلخص في ثلاث نقاط هي:

أولاً- تنفيذ سياسة الاستقلال الذاتي لكل قومية وعلى هذا يوجد في مقاطعة كانسو اقليمان يتمتعان بالحكم الذاتي وهما اقليم لن تشا لقومية الخوى و اقليم كانان لقومية التبت كما توجد ٧ مراكز تتمتع بالاستقلال الذاتي مثل مركز دونغ شيانغ المتمتع بالحكم الذاتي لقومية دونغ شيانغ وكذلك توجد ٢٤ قومية تتمتع بالحكم الذاتي والمسئولون في هذه الاقاليم والمراكز والقرى يرجعون اصلاً إلى القومية التي أعطي لها الحكم الذاتي وذلك في سبيل تمكين ابناء القومية من إدارة امورهم بانفسهم.

ثانياً- تنفيذ الحكومة الصينية سياسة حرية الاديان وعلى هذا فالمساجد والمعابد البوذية مفتوحة وقد بلغ عدد دور العبادة المختلفة ٢٧٦٦ مسجداً ومعبدًا منها ٢٥٢٠ من المساجد.

وكذلك تأسست الجمعيات الإسلامية في المناطق الإسلامية في مقاطعة كانسو وقد بلغ عدد الجمعيات الإسلامية في المقاطعة ١٥ جمعية منها آخر جمعية إسلامية تأسست في اقليم كانان لقومية التبت المتمتع بالحكم الذاتي.

كما وافقت الحكومة على تأسيس معهد إسلامي في لآنجو في هذا العام حيث قبل ٢٠ طالباً وفي خلال المدة الدراسية للمعهد الإسلامي سيبلغ عدد الطلاب مائة طالب وكذلك تستعد الحكومة المحلية للمقاطعة لفتح معهد بوذي في اقليم كانان لقومية التبت.

ثالثاً- الحكومات المحلية في مقاطعة أو اقليم أو مركز بها ادارات دينية كما توجد الادارة الدينية في ٢٨ مركزاً أما في لآنجو فهناك ادارة شئون الاديان وادارة شئون القوميات ومعهد البحث الديني.

فشكرت السيد شريف تيان ده شانغ على كلمته القيمة عن احوال المسلمين وسياسة الحكومة نحو المسلمين وأعربت له عن استعداد الرابطة لقبول خريجي المعهد الإسلامي على منح دراسية لدراسة العلوم الإسلامية واللغة العربية في الجامعات الإسلامية على نفقة الرابطة وكذلك استعداد الرابطة بتزويد المعهد بالمدرسين والدعاة والكتب الإسلامية المختلفة.

مأدبة الرسميين الحكوميين .

ثم انتقل الجميع بعد ذلك إلى مأدبة العشاء التي اقامها مدير ادارة شئون الاديان السيد موسى ماووشانغ لتوديع وفد الرابطة المسافر إلى شنغهاي في صباح يوم الاثنين ٦/٨/٤٠١٤هـ.

وأثناء المأدبة القى السيد موسى ماووشانغ كلمة شكر فيها وفد الرابطة على زيارته للمناطق الإسلامية والمساجد وأحاديث رئيس الوفد القيمة لتوعية المسلمين كما شكر باسم الادارة الدينية والجمعية الإسلامية والمسلمين على تبرعات الرابطة للمساجد الإسلامية التي زارها الوفد وتمنى أن تتكرر مثل هذه الزيارات لأنها توثق العلاقات بين المسلمين. وقد أجبته بكلمة مناسبة.

يوم الإثنين: ٦ شعبان ١٤٠٤هـ ، ٧ مايو ١٩٨٤م.

مغادرة لانجو:

أدينا صلاة الفجر في أول وقتها ثم انطلق الموكب في الخامسة والربع فجرًا متوجها إلى المطار مع شوارع مدينة لانجو التي كانت خالية في هذه الساعة المبكرة إلا من الكناسات اللاتي كن يحملن مكانس من القش ذات أعواد طويلة كما كان بعضهن يحمل ادوات للكنس تشبه المنشآت الطويلة وهذه يقصد من العمل بها إزالة الغبار الخفيف عن الطريق الاسفلتي ولذلك ترى الواحدة منهن قد علاها غبار مكنستها حتى رأسها فتجدها متلثمة اتقاء للغبار.

وتذكرت بهذه المناسبة السيارات التي نستعملها في بلادنا لإبعاد الغبار عن الشوارع عن طريق رشف الغبار بألة قوية وخزنه في خزان في السيارة ثم تفرغه في مكان بعيد وكذلك ما رأيته في عدد من الدول الغربية التي تستعمل السيارات في كنس الشوارع فرثيت لهؤلاء النسوة من الصينيات اللاتي زعموا أنهم ساووهن في الرجال فكانت المساواة في التعب كما سبق أن ذكرت بعض نظائر لهذا في بعض المناسبات في هذه الرحلة.

والملاحظ في هؤلاء الكناسات أيضاً أن عددهن كبير جداً بل يكاد المرء يعبر عن كثرتهن بأنهن جيش الكنس ولو وجدت آلات للكنس لوفرت هذه الأيدي العاملة الكثيرة ولأراحت هؤلاء النسوة المتعبات ثم لكانت نتيجة العمل أحسن وكانت بالتالي نظافة الشارع أكثر.

وصلنا مطار لانجو في السادسة وعشر دقائق وربما أكون قد نسيت أنني ذكرت عند القدوم إلى هذه المدينة أن مطارها يبعد عنها بـ ٧٠ كيلو متراً ولكننا قطعنا المسافة بسرعة أي في حوالي الساعة في هذا الفجر لأن الشوارع تكاد تكون خالية من الناس والدواب فضلاً عن السيارات التي أغلبها أن لم تكن كلها سيارات حكومية.

وكان بقي على موعد مغادرة الطائرة لانجو ساعة الا عشر دقائق فوجدنا المطار مغلقاً وذلك لكون طائرنا اول طائرة تغادره في هذا الصباح إضافة إلى قلة عدد الذين يستخدمون الطائرات في الصين.

وبعد مضي بضع دقائق حضرت موظفتان ففتحتا الباب واجلسونا في غرفة كبار الزوار (صالون الشرف) في المطار وقدموا إبطاراً ضم الشاي الأحمر الذي لا طعم له وليس فيه سكر.



في الصالون في مطار لانجو قبل مغادرتها

نادوا على الركاب أن يتقدموا للصعود للطائرة ثم أوقفوهم فجأة من أجل ألا يتقدموا عجزوا تكاد تكون عاجزة عن المشي وتتكيء على عكازين فلبثوا في انتظار صعودها فترة ولو كانت لديهم عربة للعاجزين كما هو المعتاد في أكثر المطارات لما كانوا ضيعوا وقتاً في انتظار ركوبها مع أن عملهم ذلك يدل على شعور إنساني نبيل.

ويعد وداع حار من الإخوة المسلمين ومن الصينيين الرسميين المجاملين قامت الطائرة في الساعة السابعة والدقيقة الأربعين متأخرة أربعين دقيقة عن الموعد الذي كانوا قد حددوه من قبل وهي طائرة نفثة صغيرة تابعة للمؤسسة الصينية الوحيدة التي تسيّر الطائرات على الخطوط الداخلية. وغني عن القول إنها حكومية فكل شيء مهم هنا مملوك للدولة.

فأرقت الطائرة أرض المطار بسرعة. وذلك بالنسبة لما اعتدنا عليه في رحلات الأيام السالفة في الصين إذ كان أكثر سفرنا على طائرات مروحية بطيئة.

وعندما استوت في الجو كان المنظر المتجدد الذي لا يمل الناظر تأمله هو منظر أكوام التلال الطينية العجيبة الموجودة في هذه المقاطعة التي هي من أعجب المناظر التي رأيتها في العالم.

وأعلنوا أن المسافة إلى مدينة (شانغهاي) هي ألف وثمانمائة كيلو متر ستقطعها الطائرة في ساعتين وثلث.

والحديث عن الجولة في مدينة شنغهاي وحولها ثم في بقية جنوب الصين في كتاب آخر عنوانه: « في جنوب الصين ».

والله المستعان ، على كل شان ، وفي كل حين.

خلاصة مرئيات الوفد حول وضع المسلمين في الصين

(١) المسلمون ينتشرون في كل انحاء الصين الشعبية مع تركز كثيف في منطقة الحزام في غرب الصين الشعبية حيث تركستان الشرقية ومقاطعات كانسو ونن تشا ويوننان وتشنغهاي، ويشير الاحصاء الحكومي لعام ١٩٨٣م إلى أن عدد المسلمين يبلغ ٦٥٠.٢٩٣.١٤ نسمة بينما تؤكد الدراسات العلمية على أن عددهم يزيد على سبعين مليون مسلم. ويقول المسئولون بأن المسلمين ينتمون عموماً إلى عشر قوميات هي الاويغور والخبوي والقازاق والقيرغيز ودونغ شيانغ والتاجيك والأوزبك والتتار والسالار وبوآن حسب الادعاء الشيوعي. مع أن هناك مسلمين من قوميات أخرى مثل التبت إلا أن الاحصاء الحكومي لا يحصيهم ضمن المسلمين.

(٢) الحرية الدينية أو بالأصح سياسة التسامح الديني المحدود التي تعتبر أحد اوجه سياسة الانفتاح الصيني الحديث هي حرية نسبية مثل الحريات الفردية الأخرى، فالفرد حر في أن يمارس شعائره الدينية التي تقتصر على الناحية الفردية، مادامت لا تتعارض هذه الممارسة مع سياسة الدولة الشيوعية.

(٣) تمكن المسلمون في السنوات الأخيرة من ترميم واصلاح بعض المساجد التي عبثت بها أيادي التدمير والتخريب خلال الثورة الثقافية. كما أسهمت الحكومة الصينية مادياً في ترميم بعض المساجد القديمة على أساس أنها آثار تاريخية هامة. وكذلك استطاع المسلمون بمجهوداتهم الفردية بناء بعض المساجد الجديدة. وقد قدم الوفد مبالغ رمزية من رابطة العالم الإسلامي نقداً بالدولار لبعض المساجد التي تمكن من زيارتها.

(٤) التعليم الإسلامي لا يزال محظوراً بصفة شاملة وإنما هناك سبعة معاهد إسلامية وافقت الحكومة الصينية على افتتاحها بغية تخريج الموظفين ورجال الدين المسلمين تحت إشراف الجمعية الإسلامية الصينية وقد زار الوفد ثلاثة منها في بكين واورومسي وبن تشوان، وشاهد الأعداد القليلة من الطلاب المسلمين الذين يدرسون اللغة العربية والتفسير وغيرهما من المواد. كما اقيمت بعض الدورات لتدريب الائمة والمؤذنين برعاية الجمعية الإسلامية الصينية في بكين واورومسي في السنتين الماضيتين، مما لم يكن مسموحاً به في السابق خلال الثورة الثقافية في آخر حكم الطاغية ماوتسي تونغ.

(٥) الجمعية الإسلامية الصينية قامت بطبع القرآن الكريم وترجمة معانيه باللغة الصينية، كما قامت بطبع تفسير الجلالين وكتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان باللغة العربية وترجمة جواهر صحيح البخاري وسيرة سيد المرسلين باللغتين الصينية والتركستانية (الايغورية) كما تستعد الجمعية الإسلامية لمقاطعة سينكيانغ (تركستان الشرقية) في اورومسي لطبع الترجمة الايغورية لتفسير القرآن الكريم.

وتأكد الوفد بأن طبع المصاحف والكتب الإسلامية في داخل الصين الشعبية أفضل وايسر من ادخالها من الخارج وذلك بعد البحث مع المسئولين المسلمين في الصين الشعبية وهونغ كونغ .

(٦) الشعور الإسلامي العام للمسلمين في الصين جيد ولكن يحتاج المسلمون عموماً إلى التوعية الدينية بتعاليم الإسلام واحكامه وبما يساعدهم على تربية اجيالهم اللاحقة على الإسلام ويقوي ارتباط الابداء بالدين الخنيف. ويتلهف المسلمون إلى معرفة امور دينهم وعقيدتهم ويتطلعون إلى مساعدة المملكة العربية السعودية بما يرشدهم إلى الصراط المستقيم ويعينهم على تفهم دينهم وخاصة لكونهم يتعرضون لاشكال

مختلفة من الدعاية الاحادية والتعليم الشيوعي ولا يشقون إلا بما يصلهم من الحرمين الشريفين مهبط الوحي ومنطلق الرسالة الحمديّة.

(٧) الاوضاع الاقتصادية للمسلمين سيئة لأن الدولة لاتزال تهيمن على الاملاك والانتاج الجماعي والملكيّات الفردية محدودة جداً، والمعيشة اليومية بالنسبة إلى مدخول الفرد غالبية جداً.

(٨) الوضع العام بجميع اشكاله وجوانبه في سينكيانغ أي تركستان الشرقية اسوأ حالاً من اوضاع المسلمين في المقاطعات الإسلاميّة الصينيّة الأخرى مما يؤكد على أن حكومة الصين الشعبيّة تطبق سياسة غاشمة على المسلمين في سينكيانغ على اعتبار أنهم غير صينيين في العنصر وتخطط لتهجير ملايين من الصينيين البوذيين إلى هذه المنطقة الإسلاميّة للتغلب على المسلمين بالاكثريّة البوذية وصبغ هذه المنطقة الإسلاميّة بالصبغة الصينيّة.

(٩) تأكد الوفد من خلال مشاهدة بعض المشاريع الإسلاميّة التي نفذت مثل ترميم المساجد وطبع الكتب الدينيّة والاستعدادات القائمة لبناء بعض المعاهد الإسلاميّة، ومن خلال البيانات التي قدمتها الجمعية الإسلاميّة الصينيّة المركزيّة بأن المساعدة الماليّة التي قدمتها الرابطة عن طريق وفدها الأول الذي زار الصين الشعبيّة عام ١٤٠١هـ. وهي مبلغ خمسمائة ألف دولار امريكي قد استخدمت لأهداف إسلاميّة نافعة وآتت الثمرة المطلوبة منها.

(١٠) تدارس الوفد مع مسئولى الجمعية الإسلاميّة الصينيّة وهي الجهاز الرسمي الذي يشرف على النشاط الإسلامي، وبحث معهم مختلف المشاريع الإسلاميّة من اقامة دورة تدريب للائمة والخطباء وتعيين الدعاة

والمدرسين وطبع المصاحف والكتب الدينية وترميم المساجد وإنشاء المعاهد الإسلامية وتيسير سبل الحج وتوفير المنح الدراسية لآبناء المسلمين وتوصل معهم إلى قرارات ايجابية في معظم المسائل.

(١١) مع أن الوفد كان يؤكد دوماً بأنه يمثل رابطة العالم الإسلامي التي هي منظمة شعبية عالمية وليست إدارة حكومية إلا أنه لقي كثيراً من الحفاوة والترحيب على المستويين الشعبي والرسمي، مما يعكس احترام الشعب والحكومة في الصين لبلادنا وورغبتها في توثيق العلاقات مع المملكة العربية السعودية كما كان يصرح بذلك بعض المسئولين المسلمين وغيرهم. وكان المسلمون في كل مكان يتجمعون حول الوفد مسرورين وبعضهم سيكون فرحاً لرؤية إخوانهم القادمين من الحرمين الشريفين بعد انقطاع طويل.

لقد تضرر المسلمون كثيراً إبان العنف الشيوعي المعروف بالثورة الثقافية وهم بحاجة إلى دعم إسلامي عاجل وذلك لمساعدتهم على انتهاز الفرصة في الوقت الحاضر الذي يتسم بالتسامح الديني المحدود بما يقوى عقيدتهم الإسلامية ويعزز مكانتهم بين الاكثرية اللامسلمة في دولة يبلغ عدد سكانها أكثر من ألف مليون نسمة لذا يقدم وفد الرابطة الاقتراحات والتوصيات التالية:

أ- استمرار الاتصالات بالجماعات المسلمة في الصين الشعبية عن طريق تبادل الوفود وارسال الشخصيات الإسلامية لما في ذلك من تقوية للمشاعر الإسلامية التي تضررت لطول انعزالهم عن اخوانهم في الدين في العالم الإسلامي، ولما في ذلك من فرصة طيبة للتوعية الدينية والتوجيه وإيقاظ الحس الإسلامي.

ب- ارسال الدعاة والمرشدين ممن يجيدون اللغتين الصينية والإيغورية على فترات متقطعة باسم الزيارة وذلك في سبيل توعية الجماعات الإسلامية إلى أن تتحسن الظروف الحالية ويتم تعيين دعاة ثابتين على أن يتم اختيار الدعاة اختياراً مناسباً.

ج- دعوة عشرة من زعماء المسلمين الصينيين من ساسة وعلماء لأداء فريضة الحج سنوياً ولمدة خمس سنوات.

د- دعوة عشرة من كبار الموظفين المسلمين وذوى النفوذ في الحكومة الصينية في غير موسم الحج لاداء مناسك العمرة بغية اطلاعهم على مابلغته المملكة من تقدم حضارى وتنظيم برنامج لهم يتضمن زيارة الجامعات وغيرها في المدن الكبيرة وذلك لاشعارهم بأن هناك من يهتم بامور المسلمين حتى لايسيطر عليهم الشعور بالانعزال وأنهم تركوا للحكومة الشيوعية وحدها على أن يتم هذا في العام القادم.

هـ- موالاة ارسال المصاحف والكتب والمجلات الإسلامية والمحلية المختلفة إلى الجمعيات الإسلامية المركزية والفرعية في انحاء الصين الشعبية .

و- تسهيل سبل الحج للراغبين في اداء فريضة الحج من الصين الشعبية وذلك بتعيين مطوف ودليل خاص بهم في مكة المكرمة والمدينة المنورة لاستقبالهم وترحيلهم بعد الحج والنظر في امكانية ارسال مندوب من المملكة إلى الصين الشعبية لمنحهم التأشيرات اللازمة لهم في بكين وأورومسي. مع الاستمرار في عملية التوسط التي تقوم بها الرابطة لخروج الراغبين في الحج بدعوة اقربائهم ومعارفهم المقيمين في المملكة وتركيا وباكستان.

ز- زيادة المنح الدراسية المقررة لابناء المسلمين من أهل الصين الشعبية ومن تكون دراستهم منهم خارج المملكة العربية السعودية فإن رابطة العالم

الإسلامي تجري الاتصال اللازم بالهيئات الإسلامية في البلدان العربية والإسلامية بغية تخصيص المزيد من المنح الدراسية لابناء المسلمين في الصين الشعبية في الجامعات والمعاهد الإسلامية.

ح- توصية الهيئات الإسلامية كمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة أن تتابع توجيه اهتمام الدول الأعضاء ذات العلاقة بالصين الشعبية إلى وضع المسلمين في سنكيانغ ومطالبتها حكومة الصين الشعبية بوقف تهجير وتوطين الصينيين البوذيين فيها.

ط- تقوية الارسال الاذاعي الذي تبثه الاذاعة السعودية بجدة باللغة التركستانية وذلك باستتجار ساعات للارسال من اذاعة باكستان القريبة أو تقوية البث من الاذاعة السعودية بجدة إذا كان ذلك ممكناً لأن البث الحالي لا يسمع في شمال وشرق تركستان إلا بمقدار قليل.

ي- بث إذاعة باللغة الصينية لمسلمي الصين الشعبية وجنوب شرق آسيا من الصينيين على غرار البث التركستاني ويمكن تقوية البث من بنغلاديش.

ك- زيادة الاتصال والتعاون مع الجمعية الإسلامية الصينية في الصين الشعبية بما يقوى علاقتها برابطة العالم الإسلامي وغيرها من المؤسسات الإسلامية ويعود بالنفع على المسلمين في الصين الشعبية ويقطع الطريق على نفوذ الجهات المغرضة التي تريد إبعادهم عن اخوتهم المسلمين في بلاد الأكرشيات المسلمة.

ل- فتح مكتب لرابطة العالم الإسلامي اوتعيين مبعوث لها في الصين الشعبية يشرف على المساعدات التي تقدمها الرابطة ويعمل على توثيق الصلات بين الرابطة والجمعية الإسلامية الصينية والجماعات المسلمة في الصين الشعبية.

م- تخصيص مقعد لمثلي مسلمي الصين الشعبية في المجلس الأعلى العالمي للمساجد.

المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
٦	المسلمون في مقاطعة نن تشا
٦	دخول المسلمين المنطقة
٧	التقاليد والعادات
٨	التطور
١٠	الى مقاطعة نن تشا
١٢	في قطار بكين
١٦	كهوف التلال
١٧	الوفادات أو المساواة في الشقاء
١٨	صحراء حقيقية
١٩	صحراء تانقوري
٢٠	المأدبة الإسلامية
٢١	في مقاطعة نن تشا
٢٤	تثبيت الرمال
٢٩	في وادي الدهناء
٣٠	بلدة شنغ وي
٣١	الاستقبال المبكر
٣٢	محطة بين تشوان
٣٥	في مدينة بن تشوان
٣٦	مسجد الفندق
٣٦	حفلة الجمعية الإسلامية
٣٨	مناظر من المقاطعة
٤٠	أذان الفجر
٤١	اللقاء برئيس الحكومة والمسؤولين المسلمين
٤٦	جولة على المساجد

رقم الصفحة	الموضوع
٥٠	المسجد الجنوبي والمفاجأة
٥٦	إلى المسجد المتوسط
٥٧	المسجد الذي حماه الله
٦٠	جلسة مفيدة
٦٦	إلى السلام الدائم
٧٠	في قرية ناجاكو
٧٥	إلى بلدة ينغ أو
٧٨	قرية تاي تسي المسلمة
٨٠	عدد المسلمين
٨٣	في أحد بيوت المسلمين
٨٨	العودة إلى ين تشوان
٨٨	عدد المساجد في هذا الريف
٩٠	حفلة رئيس الحكومة محافظة تونغ شين
٩٥	إلى مدينة تونغ شين
٩٧	مسجد ياتشنغ
٩٨	بلدة او تنغ
١٠٠	قطعة من الصحراء
١٠٢	فوق رأس البقرة
١٠٤	على رأس البقر
١٠٤	إلى الوادي الخصب ثانية
١٠٨	وقففة الراحة
١٠٩	الإبل الصينية
١١١	قبل الهدف
١١٢	الاجتماع العظيم ، عند الجامع القديم
١١٧	على مأئدة سريعة
١١٨	المساجد في المحافظة

رقم الصفحة	الموضوع
١٢٢	الجماعة في المسجد
١٢٦	الوداع الحافل
١٢٨	المأدبة الشعبية الكبيرة
١٣٣	العودة إلى ين تشوان
١٣٤	جلسة المباحثات الرسمية
١٤١	توزيع المساعدات العاجلة
١٤٢	وداعاً يا نن تشا
١٤٥	عود الى مقاطعة كانسو
١٤٧	من ين تشوان الى لانجو
١٤٩	محافظة لن تشا
١٥١	الى محافظة لن تشا
١٥٥	في القمم السبع
١٥٦	قرية موي بي كوان
١٥٩	مسجد سيجا
١٦٠	الشعار الاسلامي وحده
١٦١	الحمار سيد المعروضات
١٦٢	شرك من التين
١٦٤	دلالة غطاء الرأس
١٦٦	الإفلات
١٦٨	بلدة خوتنغ
١٦٨	قبل الوصول الى خوتشو
١٦٩	تاريخ خوتشو
١٧١	التقاليد الحميدة في مقاومة الاضطهاد
١٧٢	حاضر خوتشو
١٧٢	هذه خوتشو
١٧٣	في دار الضيافة
١٧٤	إحتفال المحافظة

رقم الصفحة	الموضوع
١٧٨	إلى جامع نانغ كوان
١٧٩	أيوم كيوم كا شغر؟
١٩١	مسجد شاطئ النهر الأمامي أو مسجد السلفيين
١٩٩	في بيت أحد المسلمين
٢٠٠	إلى مسجد آخر
٢٠٢	مائدة العشاء الرسمية
٢٠٥	الإفطار الرسمي
٢٠٧	محافظة دونغ شيانغ
٢٠٩	لغتها وأصولها
٢١٠	الحياة والعادات
٢١٢	منظر غريب
٢١٥	بلدة دونغ شيانغ
٢١٨	جولة على المساجد
٢٢٠	المسجد الجنوبي
٢٢٢	المسجد الكبير
٢٢٣	حفلة الشمس الطليقة
٢٢٦	أهي معجزة؟
٢٢٨	مغادرة بلاد العجائب
٢٣٢	على ضفاف البحيرة الإصطناعية
٢٣٣	وداع على البحيرة
٢٣٤	في محافظة يونغ جونغ شين
٢٣٥	بلدة ليو تشانثا
٢٣٧	في محطة التوليد
٢٤٠	العودة الى لانجو
٢٤٢	في سوق شعبي
٢٤٦	الغرائب والعجائب
٢٤٩	جلسة مباحثات

رقم الصفحة	الموضوع
٢٥٣	مع المسئولين الحكوميين
٢٥٧	مغادرة لانجو.....
٢٦١	خلاصة مرئيات الوفد حول وضع المسلمين في الصين.....



مطابع الموزون التجارية - الرياض
تلفون : ٤٨٢٤٨٦٥ - ٤٨٢٤٩٨٣